

جامعة البحرين

قسم اللغة العربية  
والدراسات الإسلامية



كلية الآداب

# العلامة اللغوية في البنية و الإعراب دراسة سيميائية

رسالة مقدمة كجزء من متطلبات الحصول على درجة الماجستير  
في اللغة العربية وآدابها

إعداد

نوره مبارك سعيد الخالدي

إشراف

الدكتور محمد منذر عياشي

جامعة البحرين

مملكة البحرين

مايو ٢٠١٣م



## الملخص

العلامة اللغوية في البنية والإعراب : دراسة سيميائية

إشراف الدكتور : منذر عياشي

إعداد الطالبة : نورة مبارك الخالدي

يزداد الاهتمام بالعلامة ازديادا كبيرا في عصرنا اليوم . ويظهر هذا الاهتمام في مجالات كثيرة ، تشترك جميعها في هدف واحد هو : فهم الطريقة التي تنتج بها العلامات المعنى بوصفها ناتج سيرورة دلالية . ومن الواضح ، أن النسق اللساني يعد أرقى الأنساق العلاماتية و أهمها ؛ لذلك أولينا العلامة أهمية خاصة في هذا البحث ؛ فكانت هي الأداة التي بها يشتغل في ميدان لساني . إذ يتناول البحث دراسة الحركات بنية وإعراباً بوصفها علامة لغوية ، تشكل جزءاً من نظام اللغة العربية . ولقد كانت سيميولوجيا "سوسير" منطلقاً لدراسة الحركات؛ لكونها علامة لسانية . وبالبناء على مفاهيمه التأسيسية ؛ تقوم الدراسة بتعريف العلامة اللغوية ، وتفكيكها إلى مكوناتها ، وتحديد قيمتها ، وموقعها من النظام . وإنجازاً لذلك، جعلنا الحركة / العلامة ناتجاً لاشتراك الدال ( الصورة السمعية ) والمدلول ( المتصور وهو المعنى الوظيفي للحركات ) ، فذهبنا مع الحركة في مدلولها بفضل مبدأ أقره "سوسير" وهو التمييز بين دلالة العلامة وقيمتها ؛ نظراً لكون الحركة وحدة صغرى للتحليل ، أصغر من الكلمة العلامة. وقد توافرت لحركات البناء من خلال هذا المبدأ ، قيمة تكوينية على صعيد الكينونة في بناء الكلمات والصيغ الصرفية . كما توافرت لحركة الإعراب قيمة وظيفية في الدلالة على وظائف الكلمات داخل الجمل ، وقيمة جمالية للقيام بأدوار إيقاعية . كما ذهبنا مع الحركة في دالها ، فاتسع ميدان الاشتغال من الناحية الصوتية ، و بينت الدراسة في هذا الجانب ، دور الحركات في كثير من الظواهر الصوتية .

و قد بينت الدراسة أيضاً موقع الظاهرة في أدبيات التراث ، و موقعها في النظريات اللسانية الحديثة في ضوء مفهوم ( الوظيفة النحوية ) ، و طرح فرضيات تؤيد هذا الطرح ، وأخرى تناقضه ، وذلك فيما يخص حركات الإعراب خاصة التي قام حولها جدل كبير وسوء فهم يعود إلى عدم تحديد مكانها من النظام والانطلاق من وجودها العلاماتي ، الأمر الذي تسعى هذه الدراسة لاستدراكه في التعامل مع الحركات من منظور علاماتي .

# المقدمة

## المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وآله وصحبه أجمعين ، وبعد .  
منذ خلق الإنسان ، خلقت معه اللغة . فحين علم الله آدم أسماء الأشياء ، ولدت العلامات ، وكانت اللغة أولها . منذ ذلك الحين ، تحولت اللغة إلى أشكال حاملة للمعاني ، تمكن الإنسان من التعبير المجرد ، والارتقاء باللغة من استحضار الماديات ، إلى تمثيلها والكلام عنها . فصارت حياته بها ، أيسر ، وأسرع ، وأجمل . وبات الوجود في كل تجلياته مُختزلاً في اللغة التي يُتكلّم بها عن الأشياء ، ويُتكلّم بها عن الكلام أيضاً كما قيل .

ولذلك ؛ اكتسبت العلامات اللغوية كثافة حضور خاصة ؛ من خلال كونها جزءاً لا ينفصل عن تعريف العلامات غير اللغوية . تلك العلامات - التي اتسع نطاقها لتشمل كافة مناحي الحياة - تحتكم إلى أنظمة سيميائية تحدد لكل نمط من العلامات ، ماهية وجوده ، وآلية اشتغاله ، ووظيفته ، مثلاً أن اللغة نظام علامات ، ووظيفته تواصلية .

من هنا ، فقد اتجهت هذه الدراسة إلى السيميائية ، والسيميائية اللغوية على وجه الخصوص ، لتعالج ظاهرة تعدد من خصائص اللسان العربي ، وهي (الحركات في البنية والإعراب) التي شغلت الكثيرين من القدامى والمحدثين محصورة في البحث النحوي هناك ، أما هنا ، إذ تتخذ هذه الدراسة من (الحركات) موضوعاً ، ومن (السيميائية) منهجاً ، فإنها تراهن على مقدرة السيميائيات على تحليل الظواهر اللغوية ، وتفسيرها ، بل على اقتفاء أثرها حيثما كانت ، وإن بدت فيما هو دون الكلمة كالحركة . كما تحاول أن تفيد من النحو وتتجاوزوه للوصول إلى مفهوم العلامة اللغوية في الحركة .

### مشكلة الدراسة ومنهجها وأهدافها :

تبحث هذه الدراسة في اللغة نظاماً ، متناولة ظاهرة (الحركات) بوصفها جزءاً من نظام العربية إن في البنية أو في الإعراب . لذا ، فإنها تقسم العلامة إلى قسمين : حركة إعراب ، وحركة بناء . وتعرفها وظيفياً استناداً إلى دلالة الحركة البنائية داخل الكلمة ، ودلالة الحركة الإعرابية داخل الجملة ، التي هيأت للحركات مرتبة القيم .

وفي هدي الغاية العلاماتية ، تصدر الدراسة عن فرضية تقول : اللغة نظام ، والحركات ، بنية وإعراباً تعد جزءاً من هذا النظام . بيد أن النظام إذا كان يتمثل في قوانينه وشرعه وضوابطه ، فإن العلامة تتميز من تمثلاته بكونها دالة على التمثلات وعاملة بمقتضاها .

وقد كانت فكرة البحث تتخلق في نقاش علمي مع أستاذنا الدكتور " محمد البنا " يرحمه الله حول رأيه في علامات الإعراب ، والذي يرى فيه أن قرائن التركيب قادرة على تحقيق المعنى في غيبة هذه العلامات ، ولكنها فواصل صوتية فقط .

فتح لي ذلك الرأي مجالاً للسؤال : إذا كانت علامات الإعراب كذلك ، فلماذا أُصْطَلِحَ على تسميتها بأسماء ، تدل على وظائف الكلمات التي تحملها في الجمل ؟

وقاد ذلك الاختلاف في الرأي إلى هذه الدراسة . فعن طريق ذلك السؤال انفتح دربها ، وهو انفتاح لا نزع حتى اللحظة أنه يملك الجواب الكافي حول قيمة الحركات ، فلا يزال السؤال متواصلاً ، إلا أنه على الأقل محاولة استجاب فيها البحث لما كان يعتدل في الفكر . حتى و إن تطلّب ذلك بحثاً أكاديمياً كاملاً ، فهو لا يهدف إلى إنتاج معرفة فحسب ، بقدر ما يشرع أبواب التساؤل حول مشكلة البحث ، ويولد اختلافات في الرأي ، تُستقَى منها الأسئلة التي تعقبها البحوث .

كما دفعني إلى هذه الدراسة أيضاً ، إنكار كثير من الباحثين المحدثين لقيمة الحركة الإعرابية ، وهو إنكار ليس أساسه الوعي بالعلامة اللغوية ، في حين جعلوا الحركة البنائية ضمن الدوال ، ولم يختلفوا في شأنها . إن ذلك التباين في النظر إلى قسمي الحركات ، هو ما أوحى إليّ بصياغة فرضية الدراسة السابقة ، ومناقشتها بعد ذلك .

من هنا ، جاءت أهمية هذه الدراسة ، من أجل تحديد موقع ظاهرة الحركات في البنية والإعراب من نظام العربية ، ثم تشخيص الأزمة المتمثلة في قيمة حركات الإعراب خاصة ، ومناقشة الآراء المطروحة حولها من زاوية نظر سيميائية .

#### الأهداف التي تسعى الدراسة لتحقيقها :

- ١- تطبيق مفهوم العلامة اللغوية على الحركات بنوعها .
- ٢- تحديد موقع ظاهرة الحركات سواء حركة البناء أم حركة الإعراب من النظام ، وبيان انتقالها باللغة إلى الكلام .
- ٣- تحديد موقع (الحركة الإعرابية) في اتجاهات البحث اللساني المعاصرة ، وبيان علاقتها بالمنهج السيميائي .
- ٤- إثبات القيمة التكوينية لحركات البناء ، والقيمة الوظيفية لحركات الإعراب .
- ٥- الإلمام بدور الحركات في التراث ، والمقابلة بين وجهة نظر القدماء والمحدثين فيها .
- ٦- اقتراح نموذج عربي يضطلع بوصف الظواهر اللغوية من منظور سيميائي .

#### أما منهج الدراسة :

فإنها تستعين بالمنهج السيميائي في معالجة موضوعها ، بعدما أصبح ذلك المنهج مفتاحاً لكل مجالات البحث والدراسة اليوم ، وإنها لتتوسل بهذا المنهج أن تتخطى المنظور الكلاسيكي لمشكلة البحث ، الذي ينظر إليها بوصفها حركات ، إلى المنظور العلاماتي الذي ينظر إليها بوصفها علامات . ولما كانت السيميائيات علماً عاماً للعلامات ، تعددت اتجاهاته واختلقت ؛ كان التناول المحدد للعلامة اللغوية لدى "سوسير" قيّداً مفيداً منهجياً ؛ حين جعلت الدراسة من العلامة اللغوية هدفاً لها دون غيرها ، ولتجنب التشتت في الاتجاهات السيميائية المختلفة .

وبالتالي انطلقنا من منظومة "سوسير" المفاهيمية ، الذي عد اللغة نظاماً من العلامات قبل كل شيء ، إلى تحليل الحركات بوصفها علامة لغوية عربية ، وهو تحليل لم يكن ليكون لو لم نستلهم سيميولوجيا "سوسير".

### خطة الدراسة :

اشتملت الدراسة على مقدمة ، وأقسام ثلاثة ، وخاتمة ، جاءت على النحو الآتي :

أما القسم الأول ، فقد اشتمل على ثلاثة فصول هي :

#### - الفصل الأول : اللغة نظام من العلامات .

تناولت فيه الإطار النظري للدراسة ، من خلال إلقاء الضوء على المنهج السيميائي ممثلاً براندييه "سوسير" و "بورس" . وكان التركيز على سيميولوجيا "سوسير" لبحث العلامة اللغوية خصوصاً ، وتحديد سماتها ، ثم عرض النموذج التواصلية لوظائف اللغة لـ "جاكسون" .

#### - الفصل الثاني : دور الحركات في تكوين العلامة العربية : النسق الصرفي والنسق النحوي.

تطرقنا فيه إلى تخصص الدراسة وانتقالها من الكلمة / العلامة ، إلى الحركة / العلامة . وكذلك رصدنا قسمين وظيفتين للحركات ، ومن ثم ذهبنا بالحركات من العنصر في التكوين إلى العلامة في التركيب . وجعلنا موقعها هو النظام ، وظهورها في الكلام هو انعكاس للتمكن في الأداء ، الذي ينقسم في العربية إلى فصيح ، وعامي ، وبيّنا علاقة تلك الوجوه من الأداء بحركات الإعراب خاصة .

#### - الفصل الثالث : الحركات في الواقع التداولي .

تنحى الدراسة في هذا الفصل الحركات البنائية ، لتحصر اهتمامها بالعلامة الإعرابية التي تؤدي المحور الرئيس في مشكلة البحث . فبعد التعريف بمفهوم التداولية في اللغة ، تتوقف الدراسة عند علاقة علامات الإعراب بمستعملها ، ورصد أنواع الخطابات التداولية التي تظهر بها ، وأتغيب . ثم بيان أثر وجود الحركات في أنواع الخطاب ، وكيف تكون شرطاً لإنجاحه ، وما يترتب على غيابها .

والقسم الثاني ، يشتمل على ثلاثة فصول كذلك ، هي :

#### - الفصل الأول : علامات الإعراب في وعي اللغويين العرب القدامى .

يتناول هذا الفصل قضية الإعراب وعلاقته بالمعنى الوظيفي عند النحاة ، ويناقش بعض المسائل مثل : تعدد دلالة الحركة الإعرابية داخل التركيب ، وداخل النظام أيضاً ، ويشير إلى علاقة العلامة الاعتبائية بموضوعها ابتداءً وكيف تصير قانوناً ملزماً بعد ذلك .

#### - الفصل الثاني : المستوى الصوتي للحركات .

يعالج هذا الفصل الحركات بالنظر إلى مظهرها الصوتي ، لا بالنظر إلى دلالتها ؛ ذلك أن الصوت يشكل أحد وجهي العلامة اللغوية وهو (الدال) الذي هو صوت يقع في الزمن ، ويكون ذلك البعد الزمني جزءاً من سماته . ولا شك أن الجرس الموسيقي للحركات بوصفها صوتاً هو جانب من وظيفتها ، ويتمثل في الإيقاع النبوي والمقطعي ، وفي الظواهر الصوتية المتعددة الناجمة عن التجاور الصوتي أو الوقف . ويتم في هذا الفصل استحضار ذلك الدور الإيقاعي للحركات في موسيقى الكلام ، والذي نعتقد أن معالجته

تتطلب مشروع بحث كامل لسببين : الأول ، لأن الحركات وثيقة الصلة بالكثير من الظواهر الصوتية في الكلام العربي ، والثاني ، لإعادة النظر في الحركة / العلامة التي ظلت محكومة بالتصور التقليدي ، الذي يصفها من حيث طبيعتها وأنواعها في مقابل الأصوات الصامتة . أما قيمة الحركة في التحليل السيميائي فتتضمن الوظيفة التي تؤديها في ذاتها (صوتاً) - والتي من شأنها اتخاذ كل التنوعات الصوتية (الألوفونات) والظواهر الصوتية غير التطريزية موضوعاً لها- كما يتضمن التحليل السيميائي الوظيفة التي تؤديها الحركة في التركيب من حيث مدلولها . ويعني هذا من بين ما يعنيه أن الحركة حين تؤدي وظيفة نحوية فإنها تدور بين اللغة والجمال ؛ فتُسند لها قيمتان : قيمة وظيفية ، وأخرى جمالية ، هما حاصل اجتماع دالها بمدلولها ، أما عندما تؤدي دوراً في إيقاع الكلام لا يشكل وظيفة مائزة ، فتعد أيضاً علامة تؤدي وظيفة جمالية يتوقف عليها الإيقاع . وعند هذا ، أمكننا أن نقول إن تغليب القيمة الجمالية للحركة ما لم يفسد التركيب ؛ يجعل من وظيفتها الجمالية هي القيمة القصوى . ومن زاوية النظر هذه ، يتحقق اطراد القيمة للحركات بوصفها علامة لغوية .

#### - الفصل الثالث : أثر باقي العلامات في إنتاج الدلالة : التنغيم ، النبر ، التقديم والتأخير .

يعد هذا الفصل امتداداً للتصور الصوتي للحركات ، لكنه بخلاف الفصل السابق لا يتناول التنوعات الصوتية للحركات ، إنما يبحث في الظواهر الصوتية الوظيفية التي تعضد الحركة في تحقيق الدلالة من مثل : التنغيم ، والنبر ، والتقديم والتأخير ، بوصفها صوراً صوتية ، فينظر في العلاقات التي تربطها بالحركات على مختلف مستويات التحليل اللغوي .

وإن منطق الأشياء ليجده تناولاً سطحياً ، نظراً إلى أن الإيقاع في العربية إنما يقوم على تناسب الحركات والصوامت ؛ مما يستلزم تفصيلاً خاصاً لما تؤديه الحركات في هذا الجانب ولا يكون إلا بصوتها ، وهو ما يتعذر في بحثنا الذي يعالج (الحركة دالاً ومدلولاً) وإنما ألزمت أنفسنا بالوقوف على ذلك الجانب ، لأن وجود الحركة به يكون سيميائياً وإيقاعياً كيفما تظهر في الكلام.

#### القسم الثالث : ويشتمل على ثلاثة فصول هي :

#### - الفصل الأول : الوظائف النحوية في ضوء المناهج اللسانية الحديثة :

اللسانيات التاريخية المقارنة ، اللسانيات الوصفية البنوية ، الاتجاهات اللسانية ما بعد البنيوية : المدرسة البنيوية الوظيفية ، والمدرسة التوليدية التحويلية .

يتتبع هذا الفصل المسار الخاص بمفهوم الوظيفة النحوية التي تدرج في إطار الوظيفة الداخلية للغة ، وذلك بعد أن سلطنا الضوء على وظيفة الحركات في النموذج العربي القديم . ولا يخفى أن الدراسات العربية المعاصرة تتصل بالمرجعيات اللسانية الحديثة التي تفرزها الحضارة الغربية لأسباب كثيرة ليس هذا مجالها ، لكن الغاية هو رصد ذلك المفهوم في مهده قاصدين بيان الكيفية التي تلقى بها الباحثون العرب مفهوم الوظيفة النحوية وطبقوه على الحركات .

## - الفصل الثاني : معطيات التجديد وواقع الاستعمال اللغوي .

يرتبط هذا الفصل بالسابق ارتباطاً منهجياً ، يكشف تلقي الباحثين العرب للمناهج اللسانية السابقة ليس من ناحية كون اللغة وسيلة تواصل وأداة تفكير ، بل بتحديد الوظيفة الداخلية لها عند بعض الباحثين المعاصرين الذين يمثلون تلك التيارات . وإن أبرز ما يلاحظ في هذا الفصل هو العشوائية في اختيار النماذج التي اقتضتها طبيعة البحث ؛ ذلك أن العلم في اختياراته يقوم على القسرية لكي يبني نفسه منهجاً ونظرية . وهو بغير ذلك ، أي إذا انفتح على تجميع الأمثال والوقائع لاستغرقه هذا التجميع وما خرج عنه . وهذا ما جعل العقلانية في البحث العلمي تقفز من الشيء إلى متصوره . وربما كان من الصواب أن نقول إن الهدف من هذا الفصل ليس البحث في إشكالية تلقي تلك الاتجاهات اللسانية ، إنما الكشف عن تلقي مفهوم الوظيفة تحديداً لتسليط الضوء على وظيفة الحركات عند روادها العرب .

## - الفصل الثالث : العلاماتية في الدراسات العربية المستقبلية .

انقسم هذا الفصل لمبحثين : المبحث الأول ، يتناول اللسانيات التوليدية التحويلية التي بينا علاقتها بالدراسات المستقبلية كونها تنطلق من انتقاد الاتجاهات اللسانية السابقة ، ولا تقوم على مبدأ التصنيف وتجميع الجمل (ما يدعى بالمدونة)، والمبحث الثاني ، ينتقل من تلك المناهج إلى السيميائيات ، كاشفاً واقع السيميائيات اليوم والمجالات التي تم تطبيقها في الدراسات العربية ، وما نتطلع إليه من توسيع مجال السيميائيات في الدراسات العربية المستقبلية إجمالاً ، واللسانيات خاصة . وانتهى البحث بخاتمة تظهر النتائج التي توصلت إليها الباحثة .

أما عن الصعوبات التي واجهت الدراسة ، فيتمثل أهمها في ندرة الدراسات السيميائية المتخصصة في اللسانيات ، وذلك بسبب أن السيميائيات بوصفها منهجاً علمياً قد فتنت الباحثين في المجال الأدبي ، ولم تتل حظاً من العناية في مجال اللسانيات أو في المجالات الأخرى باستثناء ما أضافه المفكران العربيان : سعيد بنكراد ، و عبدالله الغدامي إلى رصيد الدراسات السيميائية العربية ضمن مشروع ثقافي ونقدي ضخم وهام . أما هذا البحث فيحاول أن يمنح السيميائيات اللغوية ولو شعاعاً بسيطاً على أمل أن تلقى الضوء في دراسات أخرى تُظهر قيمتها الكبيرة في مجالات البحث والدراسة وخاصة في اللسانيات .

## الدراسات السابقة ومصادر الدراسة :

وفق ندرة الدراسات السيميائية اللغوية ، لم يعد بالإمكان الحديث عن دراسات سابقة من هذه الجهة ، ما عدا دراستين . ومن جهة أخرى ، هناك الكثير من الدراسات التقليدية والرسائل العلمية التي عالجت ظاهرة الحركات في النسقين الصرفي والنحوي ، الأمر الذي تعرّض له هذا البحث وتخطاه إلى منظور سيميائي .

أما الدراسات اللتان أسهمتاً في ابتداء السيميائيات اللغوية العربية فتتمثلان في :

- العلاماتية (السيمولوجيا) قراءة في العلامة اللغوية العربية : للدكتور "منذر عياشي" .

وقد عالج فيه العلامة في إطار منهجي واضح حدده بسميولوجيا "سوسير" ، واشتغل فيه على (الكلمة) فحدد ما به تكون علامة لغوية فتنقل من كينونتها اللسانية إلى كينونتها العلامية من حيث كونها : شكلاً ، وحدثاً ، وخطية ، مع التعريف والتمثيل لكل مفهوم . ثم وقف عند "سوسير" على العلامة اللغوية ومكوناتها وسماتها ، وتناول العلامة بعد ذلك من جانبيين : الصوت والوظيفة .

وهو يرى أن البحث في العلامة من منظور نسقي يفتح معه التأويل على تعدد المعاني في قراءة النصوص التي تزخر بالعلامات المفتوحة . وحسب هذا المفهوم ، قدم قراءة علامائية موضوعها نص قرآني كريم ، وهدفها أن تكشف عن نسق ذلك النص اللساني والعلاماتي معاً ، والذي اتسع لقراءات كثيرة بشكل قل له مثيل ، كما أنه جعل من العلامة اللغوية معياراً لتحليل ظاهرة الحذف تحليلاً سيميائياً . وتعد هذه الدراسة من أهم المصادر التي اعتمدت عليها ، والتي لولاها ما كان باستطاعتي إخراج هذا البحث بهذه الصورة .

#### - العربية والإعرابية : للدكتور " عبد السلام المسدي " .

يستلهم "المسدي" مبادئ التحليل السيميائي في هذه الدراسة دون التصريح عن تبني السيميائيات منهجاً فيها . يبدو ذلك واضحاً في تناوله للمفاهيم التي أرساها "سوسير" مثل : التزامن والتعاقب، والبدال والمدلول ، والعلامة والقيمة ، واللغة والكلام ... وفي رأيه ، أن مبعث المعنى في اللغة الإعرابية يرجع إلى أمرين هما : التوزيع (توزيع العناصر على محور الأداء) ، والتتويج (تتويج تشكيلات العنصر الواحد بحسب مقاماته الإعرابية) ، كما يؤكد أن للإعراب قيمتين : قيمة بنائية بما هو ظاهرة محاثية للغة العربية، وقيمة وظيفية بما هو العنصر الضابط للمعنى وقد تضافر مع سائر العناصر المكونة لنسيج الخطاب .

ويرى أن علامات الإعراب تجسد العرف المحض والاعتباط في درجته القصوى. غير أن تحليل الحركات لم ينل إلا قسطاً قليلاً من الدراسة ، تخللتها إشارات سيميائية تسترعي النظر ، حيث سلطت الضوء بشكل أوسع على ظاهرة الإعراب ومكانها في أدبيات التراث ، ثم كيف انتكس بعض المتأخرين منهجياً بإنكار الظاهرة ، مع التنبيه على أن الدراسة لا تتصل بالبحث في أصل اللغة ، كما أنها ليست بحثاً زمنياً تعاقبياً بالمعنى الدياكروني كما صاغه "سوسير" إنما هو بحث يتصل بالبعد التكويني متناولاً اللغة بوصفها صيرورة لا بوصفها نتاجاً . ولا شك أن هذه الدراسة مصدر مهم أفاد منه بحثي كثيراً ، وأضاءه من زوايا متعددة ، وإن اكتفت بإيراد القليل من التطبيق والتحليل السيميائي إذا ما قورن ببقية الدراسة ، لكن يبقى لتلك الإشارات كبير أهمية من باحث بقدر "المسدي" . وقد أمدت البحث بزاد ثمين في موضوعه خاصة كما هو ظاهر من عنوان الكتاب .

أما عن مصادر في البحث ، فقد كوَّنت الدراستان السابقتان أهمها في المنهج ، ومجال التطبيق اللساني . وبذلك تتضح قيمتها بالنسبة إلى دراستي . وقد تنوعت مصادر البحث ومراجعته ، ما بين قديمة وحديثة ، فاعتمدت على كتب السيميائيات ، واللسانيات ، والنحو ، واللغة ، والأصوات ، ومناهج البحث كما تظهر في متن الدراسة .

وأخيراً ، فإن هذا البحث مدين بعظيم الشكر والتقدير لأستاذي الفاضل الدكتور / منذر عياشي - الذي يضيق بالشكر - والذي كان أباً، وعالماً ، ومربياً ، من قبل تكممه بالإشراف ومن بعد ، فأشكره إذ قدّم كلّ ما يستطيع : رأياً ، و وقتاً ، وكتباً ، وصبراً عليّ في اقتحام وقته الخاص ؛ كي يخرج هذا البحث مسرة للناظرين . فله من الله الأجر والمثوبة ، وله مني ما حييت وافر التقدير والدعاء . وقد حاولت قدر الإمكان تقديم جهد يليق به مشرفاً ، فله أن يكون كذلك .

وختاماً ، فالشكر لله ابتداءً وانتهاءً ، له الفضل وله الثناء الحسن ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

## **القسم الأول**

- الفصل الأول : اللغة نظام من العلامات .
- الفصل الثاني : أثر الحركات في تكوين العلامة العربية : النسق الصرفي والنحوي .
- الفصل الثالث : الحركات في الواقع التداولي .

## **القسم الأول**

### **الفصل الأول : اللغة نظام من العلامات**

- مدخل
- بين الرمز والعلامة
- مفهوم الرمز
- مفهوم العلامة
- العلامة بين الدلالة والقيمة
- المنهج السيميائي
- تسلسل التفكير العلاماتي
- فلسفة العلامة عند بورس
- العلامة اللغوية عند دي سوسير
- التواصل و وظائف اللغة

## مدخل :

يتبوأ البحث عن مفهوم العلامة اليوم مكانة مهمة بين مناهج البحث العلمي ، لا تقل أهمية عن باقي اهتماماتنا الوجودية المعاصرة . فمنذ أمد بعيد ، منذ بدأ الإنسان يعي ذاته وعلاقاته بالعالم الخارجي ، وهو لا يزال حتى اليوم يفتش عن المعنى في مسعاه الحثيث للفهم . وما العلامة في معناها الأوسع إلا بحث عن المعنى .

وبما أن الممارسات الإنسانية لا تخلو من معنى ، فإنها تُعدُّ علامات لمساعٍ معينة ، وتمثيلاً لأنساق ثقافية خاصة . وهي عادة ما تُقرأ بوصفها علامات تقول شيئاً ما . ومما لا شك فيه أن نظاماً بديعاً يحكم هذا الكون ، وبه يصير كلُّ شيء دالاً في إطار أشمل من عالم البشر . فلعالم الحيوان علامات تتجلى على نحو شبه ثابت ، لتوجيه نشاطها على الأرض ، وللأجرام السماوية علامات تُستقى من خلال مراقبة وضعيتها ، كذلك للنبات ، ولكل شيء حولنا . ربما لا ترقى إلى نظام البشر ، لكنها علامات تتطوي على معنى ، وتنتمي إلى نظام آخر رغم التباين الصارخ بين تلك الأنظمة العلاماتية<sup>(\*)</sup> وبين أنظمة البشر ، تنوعاً وغنىً في الثانية . هكذا يبدو الكون كله سلسلة من العلامات البشرية والحيوانية والطبيعية والاصطناعية . وهنا ، ينشأ السؤال الآتي : فإذا كانت العلامات جامعاً مشتركاً للحيوان والإنسان ، فما الذي يميز هذا الأخير و يعلي من شأنه ؟ أهى اللغة ؟ أم العقل ؟ وهل هما كل ما يتميز به ؟!

ترى غالبية القدماء ذلك " في حد الإنسان : إنه حيوان ناطق عاقل " <sup>(١)</sup> . غير أن "كاسيرر" يحدث تغييراً جذرياً في ذلك الحد بالنظر إلى ما يسميه " الجهاز الرمزي " لدى الإنسان ، الذي من صورته اللغة والمنطق والدين والفن والأسطورة . وعلى هذا الأساس الرمزي يرسم منعطفاً آخر يحد الإنسان به " إذن ، فلنحد الإنسان أنه حيوان ذو رموز بدلاً من أن نحده بالعقل أو المنطق . فإذا فعلنا ذلك ميّزنا اختلافه عما سواه " <sup>(٢)</sup> . ومن هنا ، نتناول العلامة بوصفها تمثيلاً رمزياً مميزاً للإنسان .

ومن النقاط التي يجب تجليتها ماهية الرمز الذي يسم كينونة الإنسان ؟ وكيف يساعد في دراسة العلامة .

---

(\*) رد الجمع إلى الواحد هو الذي عليه جمهور علماء العربية ، وأجاز قوم أن ينسب إلى الجمع على لفظه مطلقاً . ذكر هذا الرأي محققو الشافعية وهم الأساتذة : محمد نور الحسن ، ومحمد الزفزاف ، ومحمد محي الدين عبدالحميد ، (ج ١ ص ٨١) . وانظر السيوطي في همع الهوامع (ج ٣ ص ٢٩٦) .

(١) إرنست كاسيرر : مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية ، ضمن كتاب (الحدثاء الفلسفية نصوص مختارة) ترجمة : د. محمد سبيلا و د. عبد السلام بنعبد العالي . ص ١٤٦ . الشبكة العربية للأبحاث والنشر . ط ١ - بيروت ٢٠٠٩ م .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

## أولاً: بين الرمز والعلامة :

لفهم طبيعة العلاقة بين الرمز والعلامة ، سيكون أماننا مهمتان : أولاًهما ، تحديد مفهوم المصطلحين ، وثانيهما ، رسم الحدود بين ما هو رمز وما هو علامة . وإذا ما انطلقنا من التمييز بينهما ، فسنلاحظ أن للرمز عموماً كثيفاً وقوة تأثير تتجاوز الكشف عن المعنى ، إلى البحث في السنن الثقافي الذي يجعل من الشيء رمزاً ، بخلاف العلامة التي تمتلك دلالتها فقط ، عبر علاقة مفترضة بين مكوناتها . لذلك ، فقد حظى الرمز عند "ريكور" بموجب هذه الخاصية بمكانة استثنائية جعلته يعد الرمز مسبباً للتفكير ، فهو يقول في حكمة فاتتة " إن الرمز يطلق التفكير" <sup>(١)</sup> . وبإزاء هذا الموقف من الرموز ، يفرق ما بين الرمز والعلامة من عموم وخصوص " فالرمز علامة ، وهو ككل علامة يهدف إلى أبعد من شيء ما ويقدر بالنسبة إلى هذا الشيء . ولكن ليست كل علامة رمزاً . فالرمز يُظهر في ما يستهدفه قصدية مضاعفة " <sup>(٢)</sup> .

إذاً فالرمز في عمقه يحمل بصمة خاصة ، لها معنى مزدوج أرحب من العلامة ، ثم إن الوساطة الرمزية في رأي "ريكور" تفتح مجالاً لتأويل الرموز بوصفها معياراً في إطارها الثقافي ، ذلك أن "من وظيفة مثل هذا الاعتقاد الرمزي أن نتمكن من تأويل إشارة ما بوصفها هذا المعنى أو ذاك ... زد على ذلك أن مصطلح (الرمز) يعطينا فكرة قانون ، ليس فقط بمعنى وصف الأحداث الفردية وتأويلها بل بمعنى المعيار . هكذا نمر بيسر مع مصطلح "الوساطة الرمزية" من فكرة معنى كامن ، إلى فكرة قانون بمعنى قانون من أجل الوصف ، ثم إلى فكرة المعيار التي هي مكافئة لفكرة القانون بالمعنى الوصفي للكلمة " <sup>(٣)</sup> .

ولقد وضع "دي سوسير" تفريقاً بين العلامة والرمز قائماً على مبدأ الاعتباطية ، الذي يمنعه من استخدام الرمز لتحديد العلامة ؛ لأن الرمز ليس اعتباطياً دائماً " إذ لا تزال فيه بقية من علاقة طبيعية بين داله ومدلوله . فالرمز الذي يشير إلى العدالة ، والذي يشير إلى الميزان لا يمكن أن نستبدله بأي رمز آخر كالعربة مثلاً " <sup>(٤)</sup> . فالرمز بالنسبة لـ "سوسير" يبدو طبيعياً أكثر منه اعتباطياً . أما تصنيف العلامة لدى "بورس" فيأخذ ثلاثة أشكال من بينها الرمز . إذ يمكن للعلامة أن تسمى أيقونة ، أو إمارة ، أو رمزاً <sup>(٥)</sup> . ومن المسلم به أن تصنيف "بورس" فيه

(١) بول ريكور : صراع التأويلات . ترجمة : د. منذر عياشي . ص ٣٤٠ ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط ١ ، ٢٠٠٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٤١ .

(٣) بول ريكور : الزمان والسرد الحبكة والسرد التاريخي . ترجمة : د. سعيد الغانمي وفلاح رحيم . ص ١٠٤-١٠٥ ، دار الكتاب الجديدة المتحدة . ط ١ ، ٢٠٠٦ .

(٤) فرديناند دي سوسير : محاضرات في علم اللسان العام . ترجمة : عبد القادر قنيني . ص ١٠٧ . أفريقيا الشرق ، ٢٠٠٨ .

(٥) منذر عياشي : العلاماتية (السيمولوجيا) ، قراءة في العلامة اللغوية العربية . ص ٤٠ . مؤسسة اليمامة الصحفية

بالرياض ٢٠٠٩ م .

الكثير من التعقيد نظراً لنزعة الرياضيات التي أوصلت تقسيمات العلامة لديه إلى ستة وستين نوعاً - ليس من هدفنا عرضها - غير أن ذلك التصنيف الثلاثي السابق كان أشهرها وأوفرها حظاً بالدراسة. وتعريف عناصر ذلك التصنيف كما يراه بورس : (١)

١. الأيقونة : أي شيء يؤدي عمله ووظيفته بوصفه علامة انطلاقاً من سمات ذاتية تشبه

المرجع أو المشار إليه . كما هي الحال في الصور الفوتوغرافية أو التماثيل.

٢. الإمارة (الدليل) : أي شيء يؤدي وظيفته بوصفه علامة اعتماداً على صلة السبب

بالنتيجة أو الارتباط التجريبي بين الشيء ومرجعه أو مدلوله كعلاقة النار بالدخان .

٣. الرمز : وهو عند بورس المعادل الحقيقي للعلامة عند سوسير ، إذ يرى بورس أن

علاقة الرمز بمدلوله هي علاقة اعتبارية عرفية فقط .

فما يفعل قدرة العلامة الدلالية ، ويميّز بين صورها يكمن في أحد أشكال هذه العلاقات :

السببية ، المشابهة ، والاعتباطية .

غير أن "كاسيرر" يرى أن " الرموز والعلامات متباينة من حيث المنطق . فالعلامات تنتمي إلى عالم الطبيعة بينما ينتمي الرمز إلى فضاء المعنى وبذخه في عالم الإنسان" (٢) .

## ثانياً : مفهوم الرمز :

من الممكن تحديد مفهوم الرمز من خلال ذلك المعنى المستتر الذي أشار إليه "ريكور" وهو نتيجة الاصطلاح ، وحافز على التفكير . وبذلك يمكن تعريفه كما يأتي :

أ) "رمز (Symbol) : (أ) بالنسبة إلى بعض المنظرين (مثال ذلك غودمان) وفي الاستخدام

الشعبي، يعني بكل بساطة الإشارة ؛ (ب) هو إشارة رمزية (أي اصطلاحية) تتميز عن

الإشارة الأيقونية والإشارة التأشيرية .

ب) رمزي (Symbolic) : هو صيغة لا يشبه الدال فيها المدلول ، أي يكون اعتبارياً ، أو

اصطلاحياً تماماً . يجب تعلم العلاقة بين الدال والمدلول (مثال ذلك : كلمة "توقف" ،

إشارة السير الحمراء ، علم البلد ، أي رقم) . " (٣)

(١) ميجان الرويلي وسعد البازعي : دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً . ص ٨٠ ، ط ٥ ، المركز الثقافي العربي ٢٠٠٧ م .

(٢) أحمد يوسف : السيميائيات الوصفة . ص ٦ . منشورات الاختلاف ، المركز الثقافي العربي ، الدار العربية للعلوم . ط ١ - ٢٠٠٥ م .

(٣) دانيال تشاندلر : أسس السيميائية . ترجمة : د. طلال وهبة و د. ميشال زكريا . ص ٤٤٦ . المنظمة العربية للترجمة ، ط ١ بيروت - ٢٠٠٨ .

بهذا المعنى ، ولكي تكون الرموز قادرة على أداء وظيفتها والسماح بإدراك ما هو أبعد من ظاهرها ، فإنها تتطلب تلازماً لا يتحقق إلا بالتعلم والاصطلاح عليه حتى تكون معياراً من معايير الثقافة .

ويعرف "ريكور" الرمز بناءً على الفرق الذي حدده بينه وبين العلامة . فيرى أنَّ الرمز علامة مملوءة بمعانٍ غنية ، إذ يقول : " إني أعطي اسم "رمز" لكل بنية دالة ، يشير فيها المعنى المباشر ، والأولي ، والحرفي - فضلاً عن نفسه - إلى معنى آخر غير مباشر ، وثانوي ، ومجازي ، ولا يمكن أن يفهم إلا من خلال المعنى الأول . وتشكل هذه الدائرة من التعبيرات ذات المعنى المضاعف الحقل التأويلي بالمعنى الدقيق " (١) .

وإذا ما كان "كاسيرر" يرى أن مبدأ الرمزية من أخص خصائص الإنسان ، فهناك مَنْ توسَّع في منطق دلالة الرمز ، واتجه إلى مقارنة ما بين الإنسان والحيوان وبعض أنواع الطيور من سلوك رمزي . ذلك الاتجاه ، يجعل العالم كله مشحوناً بالدلالات الرمزية ؛ فلا ينظر إلى الرموز البشرية فقط وأهمها اللغة ، بل ينظر إلى مبدأ تشكُّل الرمز وهو ارتباط الصور بدلالة معينة ، يتعارف عليها مجتمع ما ، حتى تصبح قيمة رمزية ، تعمل فيه بانتظام ، ويعرف كيف يفك شيفراتها .

ولئن كانت تلك الأبحاث تؤكد وجود الجهاز الرمزي الحيواني ، فالإلى أي حد تقرر المقارنة بينه وبين الجهاز الرمزي البشري شيئاً ذا بال ؟

إننا إذا ما حاولنا البحث عن الرابط العام بين الاثنين وجدناه في أساس الوجود ليس إلا، أما الأكثر لفتاً للنظر فشكل الرموز البشرية ، وأغراضها غير المتناهية ، وقانون عملها الخاضع للثقافة ، والذي يبدو لأول وهلة مظهراً إبداعياً للإنسان .

حتى أن المنظومة الرمزية لكل ثقافة إنسانية ، تجعلنا نعتقد أن الإنسان لا يوجد بقدر ما يتكلم فحسب ، بل بقدر ما يكون رامزاً . ويكمن جوهر المفارقة ، في أنَّ " الحيوان إذ لا يستطيع أن يمثل لغوياً ، أي لا يستطيع أن ينتقل من الشيء إلى رمزه وأن يجرد ، فإنه لا يستطيع أن ينفذ من إطار الأشياء إلى ما خلفها لكي يقف على القوانين المنتجة لها ، ويبني المنظومات والأنساق . ولذا فقد ظل عالمه عالم الفعل البسيط المرتبط بالمأكل والمشرب والجنس ، وظل ، في مقابله ، عالم الإنسان ، فضاءً وحقل نشاط ، عالم النظرة والرؤية والفعل المركب " (٢) .

وفي هذا السياق ، يهاجم "تشومسكي" مذهب السلوكيين في المقارنة بين طرق التواصل عند الحيوان والإنسان مؤكداً على تمييز الإنسان مما سواه لا سيما باللغة .

(١) بول ريكور : صراع التأويلات ص ٤٤ .

(٢) منذر عياشي : اللسانيات والدلالة . ص ٩٥ . ط ٢ ، مركز الإنماء الحضاري .

إن اقتران الاستجابة بالمثل أقل تعقيداً من فك الرموز اللغوية ، فالمثير لا يقول فكرة ما، بل يقتصر دوره فقط على إثارة استجابة متساوية وأنية في معزل عن التفكير ، بينما تُشترط المعرفة اللغوية في الحالة الأخرى التي إن توافرت ، فلا تنتهي إلى الاستجابة نفسها لمفهوم تلك الرموز . وما يعنيه هذا هو أن " المثير لا يعوّض شيئاً آخر ، ولكن يثير هذا الشيء بشكل مباشر . والضوء القوي الذي يجبرني على إغماض عيني مختلف عن أمر يجبرني على إغماضها . ففي الحالة الأولى أغمض عيني دون تفكير ، أما في الثانية فعليّ أن أفهم الأمر أولاً، أي أن أفك التسنين (سيرورة دلالية) ، وبعد ذلك أقرر عصيان الأمر أو طاعته " (١) .

إن من طبيعة الإنسان ليس فقط أن يتكلم ولكن أن يرمز للأشياء والأفكار والمشاعر، ضمن نظام تدل به تلك الرموز في كل مرة يرغب في تداولها . وقد عززت تنوعات الرموز الهائلة في اللغات والثقافات ، ضرورة التمييز بين الرموز عامة ثم موقع اللغة إذا ما أخذت بمفردها . بهذا ، يتجلى الإنسان بوصفه الموجود الرامز ؛ فهو في كل أحواله إنما يريد أن يكسو الرموز دلالة ، أو يستخلصها من الرموز ، كما تتجلى اللغة بوصفها الشكل الرمزي الأرقى بعد أن تدثر بعباءتها أكثر من سائر الرموز . هذا ولكي نترجم تلك الرموز ؛ فإننا لا ننفك نبحت عن المعنى داخل العلاقات الاجتماعية التي تتموبها ؛ مما يشكل تقاطع اتجاهين من العلامة (الدلالة / والتواصل) .

فما هو إذاً مفهوم العلامة ؟ وبأي منهج ارتبط البحث العلاماتي الحديث ؟ وأين تضرب جذوره التاريخية ؟

### ثالثاً : مفهوم العلامة :

بناءً على الأساس الذي ينطلق منه المنظّر تكون رؤيته للعلامة . فعندما كان اعتماد " دي سوسير " على اللغة أكثر من اعتماده على المنطق - كما سيأتي - كان تصوره للعلامة ثنائياً (الدال والمدلول) ، نظراً لأن اللغة نسق من العلامات التي تدرس بشكل آني ، ولا تشكل مفاهيم سابقة الوجود ، إنما تعتمد على علاقاتها بعلامات أخرى في النظام . ثم إن تقسيم العلامة الثنائي ليس إلا عملاً إجرائياً لغرض التحليل والدراسة، أما في الواقع ، فهي كيان واحد وأي تغيير في جانب يؤثر على الجانب الآخر ، إذ " يمكن أن نشبه اللسان بوجهي ورقة من النقود : فالوجه الباطن منها هو الفكر ، والوجه الظاهر هو الصوت . ولا يمكن أن نحدث قطعاً في الوجه الباطن من الورقة دون أن نقطع في نفس الوقت الوجه الظاهر . وهكذا الحال مع اللسان لا يجوز أن نعزل الصوت فيه عن الفكر ولا الفكر عن الصوت " (٢) .

(١) إمبرتو إيكو : العلامة تحليل المفهوم وتاريخه . ترجمة : سعيد بنكراد . ص ٥٠ . كلمة ، والمركز الثقافي العربي ، ط

١ - ٢٠٠٧ .

(٢) فرديناند دي سوسير : محاضرات في علم اللسان العام ص ١٦٧ .

في الوقت نفسه ، عندما اعتمد "بورس" على المنطق أكثر من اللغة ، صادراً عن المقولات الفنونولوجية\* - كما سنرى فيما بعد- كان تصويره للعلامة ثلاثياً ، غير قابل للاختزال الثنائي على عكس "سوسير" . وحين نضع العلامة في الإطار الأعم - إن ثنائية باتحاد الدال والمدلول، وإن ثنائية بالإشارة إلى ما تحيل عليه خارجها بموجب قانون - فهي كل شيء يقول شيئاً ما بالاستناد إلى علاقة . إنها على المستوى الواسع "وحدة ذات معنى تُفسَّر على أنها تتوب عن شيء آخر . ونجد الإشارات في الشكل المحسوس للكلمات والصور والأصوات والأفعال والموجودات (ويسمى أحياناً هذا الشكل المحسوس حامل الإشارة) . وليس للإشارة معنى في ذاتها ، ولا تصبح إشارات إلا بعد أن يحملها مستخدموها معنى بالرجوع إلى شيفرة معترف بها." (١)

وما دام التواصل على وجه العموم تبادلاً للعلامات ؛ من أجل نقل الأفكار ، وما دامت اللغة خاصة أعظم وسائل التواصل تأثيراً ، فالسؤال يدور حول أسبقية الوجود ، أي أيهما سابق في الوجود اللغة أم الأفكار ؟ وما الذي يجعل علامة ما دالة على فكرة أو مفهوم ؟ .

أكد الاتجاه السائد قبل "دي سوسير" أن اللغة ما هي إلا مستودع للأفكار الموجودة والمكتملة قبل اللغة ، والتي يقتصر دورها على تجسيد تلك الأفكار والتعبير عنها . الأمر الذي تصدى له "سوسير" بثورة لا تقل عن ثورته في وجه الدراسات التاريخية ؛ فليس للمفاهيم وجود قبل اللغة، فاللغة هي ما نفكر من خلاله ، بل لا نستطيع الذهاب بالتفكير أبعد من مقدرتنا اللغوية . ينبع ذلك من المقولة السابقة التي تمثلناها له ، قارناً فيها الفكر بالصوت ، وناشياً إمكانية العزل بينهما و"ينطلق ادعاء سوسير أبعد من النظرة التقليدية إلى اللغة كونها الأسلوب الشمولي للتواصل الإنساني . كما أنه أبعد من نظرة لوك للكلمات كونها إشارات تمثل الأفكار . وقد اتفق الكثير من الفلاسفة على أن المنطق (الفعل) البشري يصبح من غير اللغة مجرداً من أداة رئيسة للتعبير . ولكن نظرية سوسير تنطلق إلى أبعد وأعمق من ذلك . إن استحالة قطع الورقة من جهة دون الأخرى ترمز عند سوسير إلى استحالة الفصل جوهرياً بين النواحي الصوتية والفكرية في اللغة . " (٢)

ثم ينفي "سوسير" كون الكلمات ممثلة لتصورات سابقة . ممّا يعني تماثلها في جميع اللغات ، والنظر إلى اللغة بوصفها مجرد مدونة من الألفاظ المتراكمة ، وليس هذا صحيحاً كما يقول :

\* الفنونولوجيا : دراسة الظواهر المتجلية أمام الوعي ، والمقدمة كما هي قصد تحليلها وتتبع خصائصها من خلال ما يُعرف بقاعدة التوجيه نحو الأشياء نفسها بعيداً عن الأحكام الذاتية أو النظرة المسبقة التي من شأنها أن تحول دون بلوغ حقيقة الأشياء : عبد الغني باره : الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي ص ١٩٧ .

(١) دانيال تشاندلر : أسس السيميائية ص ٤٣٤ .

(٢) روي هاريس وتولبت جي تيلر : أعلام الفكر اللغوي (التقليد الغربي من سقراط إلى سوسير) ج ١ . ترجمة : د.أحمد شاكر الكلابي . ص ٢٥٦-٢٥٧ دار الكتاب الجديد المتحدة . ط ١ ٢٠٠٤ .

"إنه من الضروري أن نوضح هذه المسألة وإلا أرجعنا اللسان إلى مجرد قائمة من الألفاظ المدونة ... ولو كان من شأن الألفاظ أن تمثل تصورات سبق وضعها ، لكان لكل لفظ في كل لغة على حدة ، مقابلات متناظرة من جهة المعنى ، ولكن الأمر على خلاف ذلك " (١) .

أما " رولان بارت " فلا يختزل الأفكار وحدها في اللغة ، إنما يختزل الإنسانية فيها ، نافياً أن يكون للإنسان وجود قبل اللغة التي أنست الإنسان وبها تعرّف لا العكس " (٢) . ولئن كانت اللغة منتجة الفكر في نظر "سوسير" فهي السلطة الأكثر نفوذاً وإدهاشاً في نظر بارت "هذا الشيء الذي ترسم فيه السلطة ، ومنذ الأزل ، هو اللغة ، أو بتعبير أدق : اللسان . اللغة سلطة تشريعية ، اللسان قانونها . (وهي) بطبيعة بنيتها ، تتطوي على علاقة استلاب قاهرة . ليس النطق أو الخطاب بالأحرى تبليغاً كما يقال عادة : إنه إخضاع : فاللغة توجيه وإخضاع معمّان " (٣) .

#### رابعاً : العلامة بين الدلالة والقيمة : ( منظور شكلائي )

إن اللغة - من وجهة نظر سوسير - نظام من العلامات ، يمكن مقارنتها بالأنظمة الأخرى (مثل أنظمة الكتابة ، الفنون ، الطقوس ، العلامات العسكرية) ، عدا أن اللغة تعد النظام الأهم بالمقارنة مع أي نظام بشري آخر .

وهذا التصور للغة بوصفها نظاماً من العلامات تقوم بعلاقاتها الداخلية ، وفيما بينها من مقابلات ، قد حدد دلالة العلامة باتحاد (الدال والمدلول) من جهة ، ثم بالحضور الآني للعلامات الأخرى من جهة ثانية (علاقات الاختلاف بين العلامات) . وهذا يضيف عليها بعداً دلالياً لا يقتصر على العلامة المفردة ، بل على استعمالاتها عندما تنتظم في نسق الجملة أو النص على المحورين التركيبي والاستبدالي مع باقي العلامات . "ويتكلم سوسير عن القيمة أيضاً ، فيفرق بينها وبين المعنى . بل إنه يرى أن المعنى لا يستقيم بياناً وظهوراً من غيرها . فهي جزء منه ، ولكنها جزء متميز . ذلك لأن معنى الكلمة هو مضمونها (أي مرجعها) ، وأن قيمة الكلمة هي مكانها ضمن النسق ، وأنه لولا هذا لما كان للمعنى أي وجود " (٤) .

ولنا أن نتساءل مثلما تساءل "سوسير" : في أي شيء تختلف القيمة عن المعنى ؟ .

إذا عرفنا معنى الكلمة بمرجعها داخل الجملة ، وقيمة الكلمة بوظيفتها داخل هذه الجملة ، فإن هذا يسمح لنا أن نقول : إن معنى الكلمة في الجملة يختلف عن قيمتها في الجملة ذاتها . وهذا

(١) فرديناند دي سوسير : محاضرات في علم اللسان العام ص ١٦٩ + ص ١٧٢ .

(٢) ينظر رولان بارت : هسهسة اللغة . ترجمة د. منذر عياشي . ص ٢٧ . مركز الإنماء الحضاري . دمشق ١٩٩٩ .

(٣) رولان بارت : درس السيميولوجيا . ترجمة : عبد السلام بنعبد العالي . ص ١٢ . دار توبقال للنشر . ط ٢ - ١٩٨٦ .

(٤) منذر عياشي : اللسانيات والدلالة ص ١٠٤ .

المبدأ قد قاله "سوسير" وأقرّه . وإذا كان الأمر هكذا ، فإننا نميّز بين دلالة الكلمة وقيمتها في قولنا مثلاً: خُلِعَ رئيسان عربيان .

فنعرّف كلمة ( رئيسان ) بمرجعها داخل الجملة السابقة : برأس الدولة في نظام الرئاسة الجمهوري . لكن قيمتها لا تُحدّد بهذه الصورة الإيجابية فقط ؛ ففي اللغة هنالك الفروق أيضاً ؛ ولذلك تُحدّد سلبياً عن طريق علاقاتها بعناصر نظام الحكم الأخرى ، فتعتمد قيمة كل عنصر على العلاقات بين بعضها وبعض . وعليه ؛ تكون ميزة (الرئيس) الأكثر دقة هي في كونها ما ليس عليه غيرها كرئيس الوزراء أو غيره . وبالنظر إليها ككيان نحوي يؤدي وظيفة في التركيب ، نجد أن التثنية تقابل صيغة المفرد والجمع في العربية ، كما نجد أن وظيفة نائب الفاعل تقابل وظيفة الفاعل أيضاً ؛ إذ إن الرئيس لا يقوم بخلع نفسه إنما يقع عليه الخلع . ولكي تتمايز الدلالة والقيمة ؛ ينظر "سوسير" إلى العلامة من ثلاث جهات هي (1) :

- جهة المدلول أو التصور .

- جهة الدال .

- جهة الدلالة الكلية .

ويقر "سوسير" أن تمييزه بين الدلالة والقيمة ليس بالأمر السهل ، إذ غالباً ما يُساء فهم المصطلحين بوصفهما من المترادفات ، إلا أنه تمييز في غاية الأهمية - حسبما يعتقد سوسير- فيه يثبت بطلان مدونة اللسان .

وليبيّن "سوسير" ما يسمى بقانون (القيمة) ، يقدم مبدأ عاماً تتأسّس عليه جميع القيم ، ويقوم على عنصريين هما : (2)

١. على شيء متباين قابل لأن يُعوّض وأن يُستبدل بشيء آخر يمكن أن تكون قيمته قابلة لأن تُحدد .

٢. وعلى أشياء متشابهة يمكن أن نقارنها مع ما تكون قيمته موضوعاً للتراضي .

فليست قيمة اللفظ إذن ثابتة ما دمنا نقصر على ملاحظة أنه يمكن مبادلتها وتعويضه بهذا التصور أو ذاك ، أي أن له هذه الدلالة أو تلك ، وينبغي بالإضافة إلى ذلك أن تُقارن بقيم أخرى مماثلة ، وبألفاظ أخرى مقابلة . ولا يتعين مضمون هذا اللفظ تعييناً دقيقاً إلا بتضافره مع ما يوجد في سياقه وخارجه من محامل ولوازم . ولما كان هذا اللفظ جزءاً من نظام فليس له فقط معنى ، بل له أيضاً وعلى الأخص قيمة (3) .

فمعنى العلامة لا يتحدد إيجابياً بمحتواها ، بل يتحدد سلبياً بعلاقاتها مع علامات أخرى في النسق . أما قيمتها فتكمن في وظيفتها التي تؤديها عند الاستعمال ؛ فتمثّل ما لا يمثّله غيرها .

(1) فرديناند دي سوسير : محاضرات في علم اللسان العام ص ١٦٩ .

(2) المرجع السابق : ص ١٧٠ - ١٧١ .

(3) المرجع السابق : ص ١٧١ .

كونها مغايرة ومباينة لغيرها من العلامات ؛ ولكون اللسان لا توجد فيه غير الفروق المميزة "قالبنى هو ما ليس أحمر أو أسود أو رمادياً أو أصفر... إلخ. والشئ نفسه يصح بالنسبة إلى كل مدلول من المدلولات ."<sup>(١)</sup>

و يورد " سوسير" أمثلة عديدة ، ومختلفة الأنماط ، تؤيد فكرة التعالق بين العلامات ومبدأ قيمها الخلافية ، ومنها :<sup>(٢)</sup>

- قطعة من خمس فرنكات ، يمكن أن تستبدل بمقدار معلوم لشئ مختلف ومتباين مثل قطع من الخبز . ويمكن أن نقارنها مع قيمة مماثلة وشبيهة لنفس النظام مثل الدولار وغيره .

- لفظ الخروف (mouton) في اللغة الفرنسية له نفس الدلالة في اللغة الإنجليزية (sheep) ولكن ليس له نفس القيمة ؛ فعندما نتحدث عن قطعة من لحم مهيأة ومعدة على المائدة فإن اللغة الإنجليزية تتحدث في هذه الحالة عن لحم الغنم mutton ولا تقول لحم الخروف. ويمكن الفارق بين اللفظين : الإنجليزي sheep والفرنسي mouton ، في أن الإنجليزية لها إلى جانب هذا اللفظ sheep لفظ آخر مما لا يتوفر في حالة اللفظ الفرنسي.

- وما قلناه على الألفاظ يصدق على كل حد أو لفظ من حدود اللسان ، كالكلمات النحوية : وهكذا فقيمة الجمع في النحو الفرنسي يختلف عنه في اللغة السنسكريتية ، مع أن معنى الجمع ودلالته قد تكون في غالب الأحوال متماثلة. لأن اللغة السنسكريتية تشتمل على ثلاثة أنواع من أحوال الاسم : الأفراد والتنثية والجمع ، خلافاً لما عليه اللغة الفرنسية إذ هي خالية من صيغة التنثية.

وإننا لنستطيع أن نذهب مثلاً صنع "سوسير" إلى دلالة العلامات اللغوية عامة ، فيصدق على حركات الإعراب بوصفها علامة ، وقياساً على ما أقره "سوسير" مفهوم القيمة . ذلك أن دلالتها لا تكمن في معنى الكلمات ودلالاتها المستمدة من مراجعها داخل الجمل ، ولكنها تكمن في الوظائف التي تؤديها داخل الجمل التي توجد فيها ، وترتقي بها إلى مرتبة القيم . ثم إن هذه القيم تخالفية صرفة ؛ فالضمة تمثل ما لا تمثله الفتحة أو الكسرة كما سنبين في وظائف الحركات .

وإننا لنستدل من هذا على :<sup>(٣)</sup>

١. أن القيم اللسانية قيم محايدة للنسق وليس للكلمات .
٢. أن الكلمات خارج النسق إذا كانت تحمل معنى بدائياً ، فإنه معنى غير قابل للتحديد .

(١) جوناثان كلر : فرديناند دي سوسير ، أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات . ترجمة : د. عز الدين إسماعيل . ص ٨١ . المكتبة الأكاديمية - القاهرة . ط ١ - ٢٠٠٠ م .

(٢) فرديناند دي سوسير : محاضرات في علم اللسان العام ص ١٧٢، ١٧١ بتصرف .

(٣) منذر عياشي : السانيات والدلالة ص ١٠٤ .

٣. أن الكلمة في كل لحظة من لحظات وجودها تطرح قضية معناها والقيم التبادلية المحتملة التي تعود إليها حال دخولها في نسق وخروجها إلى نسق آخر .  
ثم إن مفهوم القيمة يحيلنا إلى أي نسق علائقي غير مقتصر على الألفاظ كقيمة الجمع في الكيانات النحوية ، والأحوال الإعرابية والأزمنة الصرفية ؛ لذلك " يؤكد سوسير في ثنائية أخرى - أجاد في عرضها ، واهتم بها هيلمسليف بشكل زائد عن الحد - أن اللغة شكل وليست جوهرًا ، وأن كل الوحدات التي تكون نظاماً ذات قيمة تعارضية ، أي أنها لا تعمل كرموز لغوية إلا من خلال ما يميزها عن بعضها البعض " (١) .

### خامساً : المنهج السيميائي :

لقد ارتبط البحث العلاماتي بالمنهج السيميائي على اختلاف اتجاهاته التي أهمها :  
الفرنسية مع "دي سوسير" ، والأمريكية مع "ش. ر. بورس" . والمنهج السيميائي منهج متشعب ، متعدد المرجعيات والمدارس ؛ وهذا يجعل احتواءها أو الجمع بين كل تلك المذاهب أمراً متعذراً في الدراسة . وعلى الرغم من استناد دراستي على سيميولوجيا "سوسير" - نظراً لأن ميدانها هو العلامة اللغوية - لابد من تأطير نظري لسيميولوجيا "بورس" يشير إلى مبادئها العامة ، لا سيما وأن أكثر تأثيراتها وضوحاً يكمن في البعد التداولي للعلامات أي في علاقة العلامات بمستعملها .

كما يرتبط ظهور السيميائيات - حسب أكثر الاستقصاءات دقة - بأربعة مصادر تأسيسية هي كالتالي : (٢)

١. الفلسفة التداولية التي بلورها الفيلسوف الأمريكي شار سندرز بورس ، حين وضع في بداية القرن العشرين الأرضية الإستمولوجية لعلم عام يدرس جميع أنواع العلامات .
٢. اللسانيات البنوية التي شيدها عالم اللغة السويسري فيردناند دو سوسير ، حين وضع - في الوقت نفسه تقريباً - نظرية مستحدثة لدراسة العلامات اللغوية ، متصوراً إمكانية تأسيس علم عام يدرس جميع أنواع العلامات (اللغوية وغير اللغوية) ، وتمثل اللسانيات أحد فروعها المعرفية .
٣. فلسفة الأشكال الرمزية التي بلورها الفيلسوف الألماني إرنست كاسيرر ، الذي وضع - قبيل أواسط القرن العشرين - تصورات عميقة وغنية حول الأنساق الرمزية التي يستعملها الإنسان ويعيش داخلها ، والتي تحدده بصفته حيواناً رامزاً .

(١) جورج موانان : علم اللغة في القرن العشرين . ترجمة د. نجيب غزاوي . ص ٥١ . مطابع مؤسسة الوحدة ، الجمهورية العربية السورية . وزارة التعليم العالي ١٩٧٢م .

(٢) عبد الواحد المرابط : السيميائية العامة وسيميائية الأدب . ص ٧-٨ ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، ومنشورات الاختلاف . ط ١ - ٢٠١٠ .

٤. أبحاث فلسفة اللغة والمنطق ، التي سادت في التقاليد الأكاديمية الأمريكية في منتصف القرن العشرين ، والتي كانت قد تبلورت انطلاقاً من تصورات "المنطق الرمزي" لمدرسة فيينا ، مع فريج وكارناب وروسل وفيتغنشتاين وغيرهم . فقد تمخضت هذه التقاليد عن نظريات لسانية تداولية ، سرعان ما تقاطعت مع مفاهيم بورس ، وتوسعت مع شارل موريس ، لتفضي إلى مبحث تداولي للعلامات عام وشامل .

ورغم حداثة مصطلح (العلامة) ، فإن بداية التفكير في العلامات يعود إلى ماضٍ بعيد، يحدثنا به تاريخ الحضارات القديمة في استثمار إنسانها لسائر أنواع العلامات و تبادلها من أجل التواصل . فطالما كانت العلامات حاضرة في العلاقات الإنسانية وإن تفاوتت نوعاً ودرجة حضور ، مما يجعلنا " نفهم بسهولة لماذا السيميولوجيا لسانية بالأساس ، وسمعية - بصرية وبالأخص أيقونية لأنها تشكل غالبية عناصر التواصل الإنسانية ، وليس محظوراً افتراض أن حقل التواصل لدى الإنسان البدائي كان موجهاً أكثر نحو الشمي والذوقي على عكس الحالة الراهنة " . (١)

إن تاريخ العلامة ليرقى إلى وجود البشرية في حد ذاته ويمائله " فالإنسان نفسه علامة، وحين نفكر فنحن علامة ، وإلى حد ما ، يعد امتلاك الجسم جزءاً من التمييز المادي للإنسان - العلامة " (٢).

وعليه ، فأقدم ما عُرف من علامات أنتجت بوصفها إشارات إلى دور الإنسان المدرك من قبل ذاته وجماعته البشرية آنذاك ، والذي تقدم مع تعاقب الزمن ، لينسجم مع أدوار الإنسان الجديدة والمتباينة عند كل حضارة ، قبل أن يتعدّد على مستوى أرفع بكثير ليشمل أدواره العديدة في الحضارات الحديثة اليوم . هكذا ، نخلص إلى أن "دراسة نظام العلامات هي دراسة قديمة قدم الكون نفسه ، إلا أن المنطلقات النظرية لهذه الدراسات اختلفت من زمن إلى زمن ، ومن أمة إلى أمة ، لاختلاف الثقافات واختلاف المراحل التاريخية" (٣).

وبما أن السيميائيات تبحث عن المعنى من خلال العلامات ؛ فليس من قبيل الصدفة أن تكون العلامة ذات علاقة بالتأويل ؛ منذ كانت لا تحيل على مدلولها إلا من خلال ذات مؤولة تستقبل العلامة بالتواضع مع مرسلها في نطاق عملية التواصل . فعلمة الشيء " ما يعرفه المُعلّم له ومن شارك في معرفته دون كل واحد ، فالحجر تجعله علامة لدفين تدفنه ، فيكون دلالة لك دون غيرك ، ولا يمكن لغيرك أن يستدل به عليه إلا إذا وافقته على ذلك ، كالتصفيق تجعله علامة لمجيء زيد ، فلا يكون ذلك دلالة إلا لمن يوافقك عليه ، ثم يجوز أن تزيل علامة

(١) برنار توسان : ما هي السيميولوجيا . ترجمة : محمد نظيف . ص ١٥ . ط ٢ - أفريقيا الشرق ٢٠٠٠ .

(٢) فرانسواز أرمينكو : المقاربة التداولية . ترجمة : د. سعيد علوش . ص ١٥ . مركز الإنماء القومي ١٩٨٧ م .

(٣) بيير جيرو : علم الإشارة السيميولوجيا . ترجمة : د. منذر عياشي . ص ١٠ . دار طلاس ، دمشق - ١٩٩٢ م .

الشيء بينك وبين صاحبك فتخرج من أن تكون علامة له " (١) . فليس من شرط العلامة أن يفك شيفرتها الجميع . وإنما التواضع هو الذي يستدعي علاقة العلامة بمدلولها ويمكن من قراءتها . وفي الإطار نفسه ، يرى "إيكو" أن هذا التواضع أو المعرفة جزء من سيرورة العلامة الدلالية ومحدد لنموها . (٢)

وبالرغم من أن السيميائيات منهج قائم على التعالق مع غيره من العلوم والمعارف ، فإنها استقلت بوصفها منهجاً يؤسس للعلامات المختلفة التي تشكل معطى ثقافياً دالاً . ولئن كانت العلامات قد استحوذت على الحياة البشرية منذ فجرها ، فإن العلامات اللسانية قد احتلت الصدارة منذ جريانها على اللسان وتماهي الإنسان بها وجوداً في المقام الأول . حتى أن التفكير في مجال العلامات كان " قد اختلط خلال زمن طويل مع التفكير حول اللسان ، بسبب أهمية العلامات الكلامية في التواصل اللساني . وهكذا فإنه توجد نظرية سيميائية في التأملات اللسانية التقليدية ، في الصين كما في الهند وفي اليونان أو في روما . " (٣)

### سادساً : تسلسل التفكير العلاماتي :

تعد (العلامة) من أكثر المفاهيم التي مسّها ولع البحث والتأمل ، قبل أن تدخل في إطار المنهجية العلمية الحديثة ، بدءاً من الفكر اليوناني ، مروراً بالوسيط ، وانتهاءً بالعصر الحديث . ولقد ربط "أرسطو" بين وجهي العلامة المادي والذهني عندما حدد العلاقة بين الألفاظ في الذهن وبين الأشياء في العالم الخارجي . إذ يقول " إن الأصوات التي يخرجها الإنسان رموز لحالة نفسية ، و الألفاظ المكتوبة هي رموز للألفاظ التي ينتجها الصوت ، وكما أن الكتابة ليست واحدة عند البشر أجمعين فكذلك الألفاظ ليست واحدة هي الأخرى ، ولكن حالات النفس التي تعبر عنها هذه العلامات المباشرة متطابقة عند الجميع ، كما تكون الأشياء التي تمثلها هذه الحالات متطابقة. (٤)

أما في العصور الوسطى ، فقد امتدت تأثيرات الفلسفة اليونانية في مفهوم العلامة الذي يقدمه "جون لوك" قريباً في أطره العامة مما قدمه "أرسطو" ؛ إذ يرى " أن العلامة تعبر عن المفهوم الذي يكونه العقل من الانطباعات الحسية عن الأشياء في العالم الخارجي . " (٥)

(١) أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية . تحقيق : محمد باسل عيون السود . ص ٨٢، ٨٣ . دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان . ط ٢٠١٠ .

(٢) ينظر : إيكو : العلامة تحليل المفهوم وتاريخه ص ١٣ .

(٣) أوزوالد ديكر و جان ماري سشايغر : القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان . ترجمة : منذر عياشي . ص ٢٨٧ . مطابع جامعة البحرين ٢٠٠٣ م .

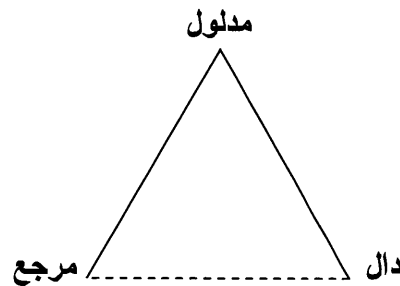
(٤) عبد العزيز حمودة : المراسم المحدث من البنيوية إلى التفكيك . ص ٢٦٧ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٩٩٨ م .

(٥) المرجع السابق : ص ٢٦٧ .

إن العلامة هي الفكرة في ذهن مستخدمها عند "لوك". وقد رأى "أرسطو" أنها وإن اختلفت شكلاً عند البشر فإن ما تحيل إليه متطابق عندهم. ثمة إذًا مسألتان هنا : الأولى ، تكمن في العلاقة بين وجهي العلامة المادي والذهني . والثانية ، تتجاوزها إلى علاقة العلامة بالمرجع الخارجي ، وهي أكثر شمولية من الأولى .

ولقد ميّز الرواقيون\* بين : (١)

- الدال بصفته كياناً مادياً .
  - المدلول أو المضمون ، وهو ليس من طبيعة مادية .
  - الموضوع الذي تحيل عليه العلامة ، وهو من طبيعة مادية أو حدث أو فعل .
- " ويمكن أن نمثل لهذه الخطاطة في المثلث الآتي ، وهو مثلث مشهور :



فالمثلث يربط بين الدال والمرجع من خلال خط متقطع : والسبب في ذلك أن العلاقة بين المقولتين علاقة بالغة الغموض " (٢) . وسنبين لاحقاً كيف يستبعد "سوسير" المسافة بين العلامة ومرجعها الموضوعي مكثفياً بالدلالة الناجمة عن العلاقة بين وجهي العلامة ، التي هي - في تصويره - كائن مزدوج ليس لواحد من مكونيه وجود إلا بالآخر . وما توصله تلك العلامة هي الدلالة ، من حيث إنها موجودة داخل نظام اللغة بلا تلازم بينها وبين العالم الخارجي . وقد كانت العلامة تخطو خطواتها الأولى مع أرسطو وأفلاطون والرواقيين ، ثم تتألت الجهود الفلسفية واللغوية حولها على امتداد الفكر البشري حتى توجّبت تلك المحاولات في النصف الأخير من القرن العشرين على يد عالم اللغة " فرديناند دي سوسير" والفيلسوف الأمريكي " شار سندرس بورس" . في مناخ لساني عند الأول ، فلسفي عند الآخر .

\* الرواقية : تيار فلسفي متفرع من الهلنسية ، نشأت مع المؤسس زينون القبرصي (٣٣٦ - ٢٦٤ ق.م) . تقسم الفلسفة في الرواقية إلى منطق وطبيعيات وأخلاق ، ويتناول المنطق الرواقي إلى جانب المنطق الشكلي ، أبحاثاً في نظرية اللغة وفي نظرية المعرفة : أطلس d+v- الفلسفة ص ٥٥ .

(١) إيكو : العلامة تحليل المفهوم وتاريخه ص ٥١ - ٥٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥٢ .

## سابعاً : فلسفة العلامة عند بورس :

خلافاً لسوسير فإن العلامة عند "بورس" إنما تتحقق في علاقتها بالمرجع . وهي علاقة مثلثة الأوجه لا علاقة ثنائية ، مقامها (الممثل ، والموضوع ، والمؤول) . ويصدر " بورس " في التنظيم لآرائه عن المنطق والفلسفة الذرائعية (Pragmatism) .

والذرائعية " مصطلح أوجده بورس نحتاً جديداً من أصل أغريقي ، ليدل بجدة اللفظ على جدة المذهب ، وإلا فقد كان في وسعه أن يختار كلمة أخرى من اللغة المستعملة ليشير بها إلى الجانب "العملي" ، "التطبيقي" الذي أراده . (برجماتوس Pragmatos باليونانية معناها الفعل أو العمل) " .<sup>(١)</sup> من هذه الزاوية يمكن أن تدرك العلامة بوصفها فعلاً منجزاً يحددها السيميوزيس\* .

والبرجماتية أوسع نطاقاً من العلامة اللسانية ، تمتد لتشمل كل التجارب الإنسانية بوصفها علامات تمتلك أنظمتها الخاصة كذلك .

إن العلامة بالمعنى الذي يؤسس له بورس "عبارة عن مثلث تشكل الإشارة فيه الضلع الأول الذي له علاقة حقيقية مع الموضوع الذي يشكل الضلع الثاني والذي بدوره يستطيع أن يحدد المعنى وهو الضلع الثالث من المثلث . وهذا الضلع الثالث - أي المعنى - هو بحد ذاته إشارة تعود على موضوعها الذي أفرز المعنى " .<sup>(٢)</sup>

إنه تصور ثلاثي الأبعاد تتماس فيه الإشارة مع (الدال) السوسيري ، كما يتماس الموضوع مع (المدلول) ، لكنه يتعداه في البعد الثالث الذي هو التوسط بين العلامة والموضوع الذي تنوب عنه . ويعرف "بورس" العلامة بأنها "شيء ما يحل محل شيء ما بالنسبة لشخص ما من زاوية ما . فهي توجد لشخص ما ، أي أنها تخلق في ذهن هذا الشخص علامة معادلة أو علاقة أكثر تطوراً بدون شك . فهذه العلامة التي تخلقها أسميها مؤول العلامة الأولى ، فهي علامة تحل محل شيء ، أي تحل محل موضوع . وهي لا تحل محل هذا الموضوع بشكل مطلق ، وإنما وفق فكرة أسميها في بعض الأحيان أساس التمثل " .<sup>(٣)</sup>

(١) زكي نجيب محمود : من زاوية فلسفية . ص ٢٠٦ دار الشروق القاهرة . ط٤ - ١٩٩٣م .

\* السيميوزيس : هي حركة أو سيرورة تفترض تشارك ثلاثة عناصر هي العلامة الممثل ، والعلامة الموضوع ، والعلامة المؤول . وهذه الحركة المتداخلة بين هذه العناصر الثلاثة لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن تختصر في علاقات زوجية: جيرار دولودال بالتعاون مع جويل ريطوري : السيميائيات أو نظرية العلامات . ترجمة د. عبد الرحمن بو علي ص ٣٤ .

(٢) بيرجيرو : علم الإشارة السيميولوجيا ص ١١ .

(٣) جيرار دولودال وجويل ريطوري : السيميائيات أو نظرية العلامات . ترجمة : د. عبد الرحمن بو علي ص ٩٥ ،

٩٦ . دار الحوار للنشر والتوزيع اللاذقية - سورية . ط١ - ٢٠٠٤ م .

ويمثلها " سعيد بنكراد " كالتالي : (١)

## مؤول

### ماثول ————— موضوع

إن هذا التراتب والترابط هو حجر الزاوية الذي تنبثق منه كافة التجارب الإنسانية على الإطلاق، متدرجة من الوجود بالقوة (أولاني) ، إلى الوجود الفعلي (ثانياني) ، إلى مستوى القانون (ثالثاني) . وهي الأشكال التي تشغل وفقها أية ظاهرة بوصفها علامة تمثل فكرة في الذهن لتأويل أخرى ، ثم تستحضر علامة ثالثة شرطاً لترجمة الفكرة عند "بورس" ، فيما عبّر عنه بأساس التمثيل . ولئن كان "ديكارت" يقر الفكر شرطاً للوجود ، فإن "بورس" يقر العلامة شرطاً ومادة للفكر . فكل فكرة علامة ، تحدد موضوعها، وتحيل إلى فكرة أخرى في سيرورة لا نهائية . وانطلاقاً من هذه المقولة الثلاثية يقول : " الدليل أو الممثل هو الأولاني الذي ينوب عن الثانياني الذي يسمى الموضوع . والممثل يحدد الثالثاني الذي يدعى المؤول . وهذه هي العلامة الأصلية . وأي شيء يحدد شيئاً آخر هو (مؤوله) ، بحيث إن المؤول يحيل على الموضوع ، وهذا الموضوع بدوره يحيل على موضوع آخر بنفس الطريقة أي أن المؤول أصبح هو نفسه دليلاً وهكذا إلى ما لا نهاية" (٢) .

من هنا كانت العلامة في تعالق بموضوعها ، ومع فكرة أخرى تؤول بكيفية ما ، لدى شخص ما ، أما الموضوع الذي تحل العلامة بديلاً عنه وتمثله ضمن المقولة الثالثانية، فقد يكون مدركاً، أو فكرة ، أو حتى غير قابل للتخييل . وفي بيان صور حضوره يقول بورس " وأما موضوع الدليل فهو غير مجد ، وهو ضروري لتبليغ أي أخبار . ويمكنه أن يكون قابلاً للإدراك أو قابلاً للتخييل فحسب بل وغير قابل له " (٣) .

إن إقرار التعالق بين العلامة والموضوع هو إتمام لكيان خارجي ، وفتح لدلالات العلامة في ظل السيرورة الثلاثية ، حيث يستدعي (المؤول) فكرة جديدة عبر جدلية التمثيل ذاتها في كل حين .

وقد احتلت الأبعاد الثلاثة للعلامة : التركيبية ، والدلالية ، والتداولية ، مكانة متميزة في نظرية "بورس" لا سيما فيما يتعلق بالبعد التداولي القائم على فكرة التفاعل بين الأطراف المشاركة في إرسال العلامات واستقبالها ضمن سياق الفعل التواصل الذي يتحقق بوساطة العلامة التي هي

(١) سعيد بنكراد : السيميائيات ، مفاهيمها وتطبيقاتها . [www.saidbengrad.com](http://www.saidbengrad.com)

(٢) حنون مبارك : دروس في السيميائيات . ص ٤٦ . ط ١٩٨٧ . دار توبقال للنشر - الدار البيضاء ، المغرب .

(٣) عبد اللطيف محفوظ : آليات إنتاج النص الروائي نحو تصور سيميائي . ص ٢٦ . الدار العربية للعلوم ناشرون -

لبنان ، و منشورات الاختلاف - الجزائر . ط ٢٠٠٨ م .

بهذا القصد خاصية إنسانية . والمقصود بهذا البعد هو الارتباط بالجانب العملي الذي يشكل أساس ذرائعية "بورس" بما هو تحقق في الوقائع يجمع بين النظرية والممارسة . وقد توسعت فلسفة "بورس" وحققت ذبوعاً عن طريق "شارل موريس" الذي أرسى قواعدها وحاول جاهداً الترويج لها في المجال التطبيقي . لذا فقد " اقترح موريس ثلاثة سبل في التعامل مع العلامة ، وهو تمييز كان له صدى كبير في الأوساط العلمية . فالعلامة يمكن النظر إليها من خلال ثلاثة أبعاد : <sup>(١)</sup>

- البعد الدلالي : ينظر إلى العلامة في هذا المجال من خلال علاقتها بما تدل عليه .
- البعد التركيبي : ينظر إلى العلامة من خلال قدرتها على الانضواء داخل مقاطع من علامات أخرى وفق قواعد تأليفية بعينها . ونعني بـ "التركيب" أيضاً دراسة البنية الداخلية للوجه الدال للعلامة في استقلال عن المدلول الذي تحيل عليه العلامة حتى في الحالة التي نفترض فيها أن العلامة لا تشتمل على أي مدلول (مثلاً تفكيك العلامة إلى وحدات صوتية دنيا) .
- البعد التداولي : إن العلامة في هذه الحالة تتحدد من خلال وظيفتها الأصلية والآثار التي تحدثها عند المتلقين ، أي الطريقة التي يستعمل من خلالها المتلقي هذه العلامة .

### **ثامناً : العلامة اللغوية عند دي سوسير :**

يعد سوسير علامة مميزة على عهد معرفي جديد . فعندما جاء في بداية القرن العشرين ، قدّم نموذجاً بكرةً لعلم العلامات (السيمولوجيا) وللبنوية اللغوية ، وذلك ، بفضل استكشاف مفاهيم جديدة شكلت قاعدة البناء في الحقلين ، ومنعرجاً في الدراسات اللغوية والنظرية السيميولوجية ، وقادت إلى النظر إلى " سوسير" بوصفه أباً لها. وقلما نجد من جاء بعده - وإن اختلفوا معه أو تجاوزوه- لا يحيلون عليه .

#### **(أ) اللغة والكلام :**

لقد قام "سوسير" بقطيعة معرفية انطلاقاً من مبدأ الثنائيات المتناقضة ، كما قام بتحول منهجي من الدراسات التاريخية التعاقبية إلى الوصفية الآنية . وقد ميّز ترتيباً على ذلك بين اللغة النظام الذي هو اجتماعي ، والكلام الذي هو فردي ، مولياً هذا التمييز عناية خاصة ، لما يعنيه من الفصل بين ما هو مجتمعي عما هو فردي ، وما هو أساسي عما هو ثانوي عارض . إذ ، يبقى اللسان في طور النظام الأساسي ، ويبقى الكلام في طور الإنجاز الفعلي لذلك النظام بكل حالاته المعيارية وغيرها. ولذلك عُدَّت اللغة ظاهرة اجتماعية ، أما الكلام فظاهرة فردية .

(١) إيكو : العلامة تحليل المفهوم وتاريخه ص ٥٦ .

## (ب) التاريخي والتزامني :

لقد أثرت الداروينية ، في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على مجالات معرفية كثيرة منها اللغة والفلسفة . فلم يعد الإنسان تتويجاً للخلق باعتباره الذات العارفة الأرقى ، بل بات جزءاً من تطور طبيعي هو القانون لكل حياة . وباتت اللغة بالمقارنة معه - تخضع لذات القانون في مسيرة حياتها ، وهذا ما يؤدي إلى تغيير ظواهرها وتطورها عبر الزمن باستمرار وصولاً إلى الموت . ولقد انقادت الدراسات التاريخية (التعاقبية) لمبدأ التطور بالارتقاء ؛ بتتبع نشأة اللفظ أو الظاهرة بوصفها كائناً بيولوجياً ، ينمو ، ويتغير ، ويتطور ، ثم ينحل . ونظراً لكون المنهج التاريخي التقليدي هو محور الدراسات في عصر "سوسير" ، فقد سبر أغواره وحقق فيه تقدماً . لكن المفارقة تكمن في نقد "سوسير" للمنهج السابق ، إلى حدٍ شكل قطعية معه ، ونقطة انطلاق نحو الدراسة الآنية (التزامنية) ، وهي ما ارتبطت بالثبات والاستقرار (الحالة الساكنة الاستاتيكية) ، لا بالتغيرات والتحوللات . فالعلاقات المتزامنة التي تربط بين العلامات تكون نظاماً في حالة استقرار ، وأي تغيير في العلامات يؤثر في علاقاتها ومن ثم في دلالتها . في حين أن علاقة التعاقب لا تؤثر في دلالة العلاقات ؛ لأنها غير متحدة في الزمان ، فلا تتداخل بوصفها وحدات في النظام ، بل ترتبط بأمر خارجي هو المقارنة بينها .

ثم إن هذه الثنائية إنما تتشعب من سابقتها (اللغة / الكلام) ؛ ذلك " أن كل ما هو في اللسان تواتري دياكروني ليس له هذه الصفة إلا من حيث إنه كلام بالمعنى المتعارف عليه في مصطلحنا . إذ في الكلام توجد جرثومة جميع التغيرات : وكل تغيير إنما يجهر به أولاً بعض الأفراد ويروجون له قبل أن يدخل في عرف الاستعمال" <sup>(١)</sup> . فاللغة التي تمثل النظام موجودة في ذهن الجماعة اللغوية ، والكلام الذي يمثل التطبيق ، ويستوعب التغيير صادر عن أفراد تلك الجماعة ، حتى إذا ما شاع أصبح متداولاً .

ويشير هذا الرسم إلى الصورة المعقولة التي ينبغي أن تتخذها كل دراسة لسانية <sup>(٢)</sup> :

|            |                     |        |       |
|------------|---------------------|--------|-------|
| Synchronic | التزامن ( الآنية )  | اللسان | اللغة |
| Diachronic | التواتر ( التعاقب ) | الكلام |       |

ويذهب "سوسير" إلى أن الهدف لا يكمن في الاختيار بين المذهبين ولا بتفضيل أحدهما على الآخر ، إلا على أساس الجدوى التي لا يجدها في تراكم التغيرات الزمانية لظاهرة ما ، إنما في تفاعل عناصرها آنياً ، مما يجعل التزامن سمة الدراسات اللغوية الحديثة ، في كونها وصفية وظيفية وليست سببية نشؤوية . و " ثمة مثال واضح على مقولة أنموذجية في اللسانيات

(١) فرديناند دي سوسير : محاضرات في علم اللسان العام ص ١٤٥ ، ص ١٤٦ .

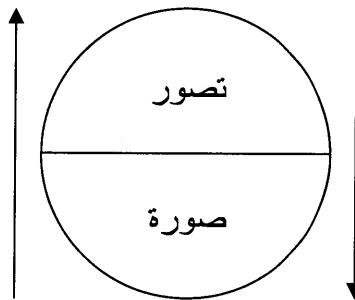
(٢) المرجع السابق والصفحة ذاتها .

التاريخية تنص على أن الصوت (a) تحول إلى (e) في هذه اللغة أو تلك وفي زمن معين . كما أن عالم اللسانيات التاريخية لا يعنيه سواء أكانت (e) موجودة في اللغة قبل أن يحدث التغيير أم لا . ولكن هذا السؤال كان في غاية الأهمية بالنسبة إلى سوسير . فإن لم تكن (e) موجودة من قبل ، فإن الأمر لا يعدو كونه مجرد تعديل في لفظ أحد الفونيمات في اللغة . ولا يعد هذا تغييراً أبداً في رأي سوسير . فواقع لعبة الشطرنج لا يتأثر بتاتاً إذا بدلنا فيلاً من العاج بآخر من الخشب . وهذا ينطبق على اللغة أيضاً . فالمهم هو شكل النظام وليس شكل المادة ، (وهي في هذه الحال الأصوات الكلامية) التي تتحقق من خلالها عناصر النظام " (١) .

### (ج) الدال والمدلول :

إن العلامة وحدة ثنائية تتألف من دال (صورة مادية) ، ومدلول (صورة ذهنية) ، يتحدان فتتولد الدلالة . وهي ليست شيئاً ذا معنى ، لكنها كيان نفسي ناتج عن الجمع بين المتصور والمفهوم ؛ لذا يقول سوسير إنها " لا تجمع اسماً إزاء مسمى ، ولا تربط الشيء باللفظ ، بل توحد تصوراً مع صورة سمعية " (٢) . هنا ينبثق التساؤل حول الفرق بين أن تجمع العلامة بين اسم وموضوعه المادي ، أو بين متصور قائم في الأذهان وبين صورته السمعية بالتداعي؟ لا سيما إذا ما كان المدرك حسيّاً كشجرة أو طاولة مثلاً ! .

إن الفرق في طريقة الإدراك ، والتي تكون عندئذٍ " بإنشاء علاقة بين كلمة ما والمعنى بوساطة التصورات . من هنا ، فإن دلالة كلمة (طاولة) لم تعد الموضوع المادي (طاولة) ولكنها الفكرة أو التصور (طاولة) " (٣) . فالإدراك مرتبط بالتصور ، ولا يكون حسيّاً مباشراً ؛ لذلك تكون العلامة كياناً معقولاً لا محسوساً ، أو أثراً نفسياً للصورة الصوتية . ويمثل "سوسير" للعلامة اللغوية بالرسم التالي : (٤)



والعلامة عنده قائمة على هذه الثنائية . و " لقد كان أقوى افتراض في الفكر السيميائي الفرنسي منذ سوسير هو فكرة أن الإشارة لا تنطوي على اسم ومسمى تشير إليه بل صورة صوتية

(١) جفري سامسون : مدارس اللسانيات التسابق والتطور . ترجمة : د. محمد زياد كبة . ص ٣٢ . النشر والمطابع -

جامعة الملك سعود ، الرياض - المملكة العربية السعودية ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .

(٢) فرديناند دي سوسير : محاضرات في علم اللسان العام ص ١٠٤ .

(٣) كلود جرمان و عون لوبلون : علم الدلالة . ترجمة : د. نور الهدى لوشن . ص ٤٩ ، منشورات جامعة قار يونس ،

بنغازي . ط ١ ، ١٩٩٧ .

(٤) فرديناند دي سوسير : محاضرات في علم اللسان العام ص ١٠٤ .

وتصور ، أو دال ومدلول . وعلمنا دي سوسير كما توسع فيه رولان بارت وآخرون أن نميز هوة لا تردم بين الكلمات والأشياء ، لكن بين الإشارات والمراجع . ورفض البنيويون الفرنسيون فكرة "الإشارة والمرجع" بكاملها ، وكذلك أتباعهم باعتبارها فكرة مادية وواحدة الأفق . فالإشارات لا تشير إلى الأشياء ، بل تدل على مفاهيم ، والمفاهيم من أركان الفكر وليس من أركان الواقع " (١) . والحالة هذه ، فإن الكلمات إذ تدل على المفاهيم لا على الأشياء نفسها ، تردم في الوقت ذاته الهوة بينها وبين المرجع الخارجي باعتباره شيئاً . أما أهم ما يميز العلامة اللغوية لدى "سوسير" فصفنتان هما : الاعتبارية ، والخطية .

## (١) مبدأ الاعتبارية :

لا تخضع العلاقة بين الدال والمدلول ، رغم ضرورتها كما يرى "بنفينيست" ، لرباط منطقي ( عقلي ) أو طبيعي . ولذا ؛ فقد عدّها سوسير اعتبارية وغير معلّلة . وتتأسس الاعتبارية بالمواضع القبلية لا في اللسان فحسب ، وإن كان هو الجانب الأكثر تعقيداً كما يرى "سوسير" ، ولكن في أي مجال سيميائي (علاماتي) . ولقد رأى سوسير أيضاً أنه بعد أن يستقر استعمال العلامة في عرف جماعة ما ، فإن العلامة تغدو ضرورية ، بل قسرية . وهو الأمر الذي ينبه إليه حين يقول : "يقتضي مصطلح الاعتبار منا زيادة إيضاح ، فيجب ألا نفهم أن الدال يتعلق بالاختيار الحر أو بإرادة المتكلم ، وسنرى فيما بعد أنه ليس بإمكان الفرد أن يغير من الدلالة عندما تستقر في مجموعة لسانية " (٢) . والمبدأ نفسه (قسرية العلامة) يؤكده "إيكو" على الأخص في حالة العلامة اللسانية ، فـ "السنن في حالة اللسان يعرف اتساعاً نتيجة التثبيت الاجتماعي . ويتعلق الأمر بمعدل الاستعمال . فبمجرد ما يستقيم هذا السنن ، يتحتم على كل الذات المتكلمة استعمال نفس العلامات للإحالة على نفس المفاهيم ، والتأليف بينها وفق نفس القواعد " (٣) . إن التثبيت أو الترسيب الاجتماعي يضمن سيرورة العلامات بالدلالات نفسها بمعزل عن إرادة الأفراد .

إن ظاهرة اختلاف الألسن نابعة من اعتبارية العلامة اللسانية التي لو لم تكن كذلك ، لما كان التعدد والاختلاف في ألسن البشر " فإذا أخذنا أي كلمة لنستدل بها على ذلك ، ولتكن كلمة "المزهية" مثلاً ، فإننا لن نرى فيها ما يحض على اختيارها بديلاً ، أو يفضلها تفضيلاً ، على أي كلمة أخرى . ولو أن العلاقة كانت سببية أو معللة ، لتكلم إذن الناس ككل الناس ، أو لتكلموا لغة واحدة " (٤) .

(١) روبرت شولز : السيميائية والتأويل . ترجمة : سعيد الغانمي . ص ٥٦ . ط ١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٩٤ م .

(٢) فرديناند دي سوسير : محاضرات في علم اللسان العام ص ١٠٧ .

(٣) إيكو : العلامة تحليل المفهوم وتاريخه ص ١١٨ .

(٤) منذر عياشي : العلاماتية (السيميولوجيا) قراءة في العلامة اللغوية العربية ص ٣٣ .

ولذا ، فإن سوسير حين عدَّ هذا المبدأ هو الأول في سمات العلامات الأساسية ، رأى "بنفينست" أن بدهيته توجب تلك الأهمية . وقد "بذل بينفينست الكثير من الجهد كي يشرح ما قاله سوسير من أن الدال توقيفي في علاقته مع المدلول ، فيما العلاقة بين الدال والمدلول ضرورية لتكوين الرمز وهذا بدهي . ويرى بينفينست ، من جهة أخرى ، أنه لا يجوز الوقوف طويلاً عند فكرة توقيفية الرمز . وأن هذه الصفة حقيقية وبدهية جداً ، وهي لهذا السبب ذات أهمية محدودة " .<sup>(١)</sup>

## (٢) مبدأ الخطية\* :

تنتظم الدوال في علاقات متتالية تستند على الخاصية الزمنية التي تتتابع فيها بتسلسل يستحيل معه النطق بأكثر من عنصر في وقت واحد . وهذا التآلف الذي يعتمد على الامتداد يشكل علاقات التركيب الأفقية في مقابل علاقات الاستبدال الرأسية لدى "سوسير" .

ولأن الدوال إنما تقع في الزمن ، فإنها تستمد خصائصها منه وهي :

(أ) الدال يمتاز بكونه ممتداً .

(ب) هذا الامتداد يمكن أن يقاس من بعد واحد هو خط طولي .<sup>(٢)</sup>

وعندما تدخل العلامات في سياق التركيب ، فإنها تؤلف جملة على الأقل كقولي (أنا أركب السيارة) أو تؤلف نصاً تكتسب فيه العلامات قيمتها من مجاورة عناصرها بعضها ببعض على نحو تسمح به قواعد النظام ، إذ لا تسمح مثلاً بتركيب : (أنا تركب) أو (هي أركب) . و " هنا نرى سوسير والموروث السوسيري يعودان لإنشاء الروابط بين اللغة والتفكير مرة أخرى ، ولكن ذلك على مستوى عمليات التشكيل البنيوي الأساسية . وقد مثلت العلاقات السياقية والعلاقات التبادلية بؤرة الاهتمام كذلك لدى كثير من علماء اللغة"<sup>(٣)</sup>. في حين تتيح القواعد للمتكلم لا على الامتداد الخطي ، بل في إطار الاستبدال أن تحل علامة محل الأخرى . وعليه ، يمكن القول (أنا أركب الطائرة) ، أو (أنا أشتري السيارة) ... إلخ . مما يتوارد على ذهن المتكلم من علامات غيائية ، وتشكل تلك العلامات علاقات تتبادل مع مجموع العلامات الأخرى عبر محور استبدالي . و" لو أخذنا في اعتبارنا فكرة أن حالة اللغة التزامنية نظام نعرف عناصره عن طريق معرفتنا بأضراره ، لما جانبنا الصواب إذا قلنا إننا جميعاً سوسيريون الآن .. إن اعتقاد سوسير بأن قيمة أي عنصر لغوي تعتمد على

(١) جورج موان : علم اللغة في القرن العشرين ص ٥٤ .

\* الدالة الخطية : هي كل دالة تكتب على شكل وتنتطق أفقية متجاوزة مشكلة سلسلة صوتية يمكن أن تقاس بالزمان وأن تمثل على أنها خط .

(٢) فرديناند دي سوسير : محاضرات في علم اللسان العام ص ١٠٩ .

(٣) جوناثان كلر : فرديناند دي سوسير أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات ، ترجمة : د. عز الدين إسماعيل ص

١٥٣ ، ط ١ ، ٢٠٠٠ ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة .

العناصر التي يتقابل معها ، يحمل المرء على النظر في العلاقات الرأسية . فكلمة "غطرسة" تتميز عن "عجهية" فقط لأن إحداها يمكن أن تحل محل الأخرى في سياق مثل "لا أحب الـ .." بينما لا يمكن لكلمتي "غطرسة" و"مطلقاً" من الناحية الأخرى ، أن تحل إحداها محل الأخرى في أي سياق فعلي . وبالمقابل فإنه ليس ثمة وسيلة يمكن فيها لمعنى "غطرسة" أن يعتمد على "مطلقاً" "والعكس بالعكس" (١) .

### تاسعاً : التواصل ووظائف اللغة :

ليس ثمة نشاط إنساني مثل اللغة نظاماً و أداءً . ولذا ، كانت حاجات البشر القائمة بوجودهم مرتبطة بها . فهي بنظامها معبرة عنها ، وهي بأدائها سبيل لتحصيلها وسدها . وهذا أمر جعل التواصل ، بوساطتها ، يتبوأ - بلا منازع - الأهمية الأولى ، قياساً بالوظائف الأخرى وما تؤديه من أدوار في الاستعمال . ومن هنا ، فقد شغل التواصل اللغوي حيزاً كبيراً من الاهتمام والبحث لدى العلماء في غير مجال وفي أكثر من ميدان .

فما الذي يحدث عندما نرسل شفرة مرّمة ؟ وما العناصر التي يؤسس عليها الاتصال ؟ وما الذي تنقله الرسالة اللغوية للمستقبل ؟!

عندما نرسل رسالة ما ، فإننا نعدّها ناجحة إذا ما تحققت الاستجابة المتوقعة منها حسب الغاية . ولكن نجاح الرسالة اللغوية ، لا يقاس بطريقة الاستجابة وحدها ، لا سيما عندما يكون المقصد مثلاً إيصال الأفكار أو إثارة المشاعر . ولقد ، يصبح التواصل أكثر تعقيداً ، والتحقق من نجاحه أكثر صعوبة ، إذا لم يتبادل طرفا الاتصال نظاماً فكرياً يفترض وجود الدلالات ، والغايات ، والقنوات والمعتقدات التي أنتجت الرسالة . وهنا تكمن نقطة البدء لقراءتها ، ومعيّار نجاح تأثيرها المتبادل ، في غرس الأفكار والمشاعر أو المقاصد المرجوة منها . في هذا السياق ، يخلص "هاليداي" إلى أن "طبيعة اللغة تتصل اتصالاً وثيقاً بما نريده منها ، وما نريده منها هو الوظائف التي تقوم بها اللغة من حيث هي نشاط اجتماعي لإشباع الرغبات وتحقيق المتطلبات . فليست وظائف اللغة إلا الطرائق التي يستعمل بها الناس لغتهم لإنجاز عدد من الأهداف المختلفة والأغراض المتباينة ، فوظائف اللغة في أبسط معانيها مرادفة لاستعمالاتها" (٢) . ويقدم "رومان جاكسون" نموذج الاتصال الأشهر ، محدداً فيه ستة عوامل للاتصال ، وست وظائف لغوية لها ، على النحو الآتي (٣) :

(١) جفري سامسون : مدارس اللسانيات والتطور ص ٤١ .

(٢) محمود أحمد نخلة : علم اللغة النظامي مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي . ص ١٣٤ ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٩ .

(٣) منذر عياشي : العلاماتية (السيمولوجيا) قراءة في العلامة اللغوية العربية ص ١١ . وانظر تعريف العوامل و وظائفها من ص ١١ إلى ص ٢٥ .

| الوظيفة اللغوية                     | عامل الاتصال          |
|-------------------------------------|-----------------------|
| تعيينية - مرجعية - إدراكية          | ١- السياق             |
| تعبيرية - انفعالية                  | ٢- المرسل - الباث     |
| ندائية - طلبية - انطباعية - تأثيرية | ٣- المستقبل - المتلقي |
| انتباهية - علائقية - ترابطية        | ٤- الصلة - التماس     |
| اللسانيات الواصفة                   | ٥- شرعة الاتصال (كود) |
| شعرية - جمالية                      | ٦- الرسالة            |

لقد انتقل "جاكسون" من العلامة اللغوية المفردة إلى الرسالة ، التي تتحقق عبر تلك العوامل وما يترتب عليها من وظائف في الفعل التواصل . وهو نموذج يفك مغاليق الرسالة اللغوية طالما تم الاتفاق على نظام فك الشفرة بين طرفيه .

وبعد هذا المدخل النظري ، سيستثمر البحث مفهوم العلامة تأسيساً على شروط العلامة اللغوية التي أقرّها "سوسير" ، من أجل دراسة الحركات في إطار تطبيقي خاص ، يستمد خصوصيته من العلامة اللغوية مجال البحث وهي (الحركات في البنية والإعراب) ، فكيف تساعدنا العلامة في فهم دلالة الحركات ، وتشكيل قيمتها الفارقة ، وإحراز هذه النقلة من الكلمة إلى الحركة ؟ .

## **القسم الأول**

### **الفصل الثاني : أثر الحركة في تكوين العلامة العربية**

#### **النسق الصرفي والنحوي**

- من الكلمة العلامة إلى الحركة العلامة
- العلامة بين كينونتين : إعرابية وبنائية
- أصالة العلامة بين وظيفتين
- وظيفة العلامة في النسق الصرفي
- كمية الحركات
- وظيفة العلامة في النسق النحوي
- النظام والحركات في البنية والإعراب
- علامات الإعراب من التمكن إلى الأداء

## أولاً - من الكلمة العلامة إلى الحركة العلامة

يبحث الإنسان في الأشياء عن معنى ، وهو مَنْ يمنحها المعنى ، ثم يجلبه بمنطق رامز باستعمال العلامات لغوية وغير لغوية . ولما كان الإنسان هو مبدع هذه العلامات وحاملها ، أمكننا أن نقول إنه بدأ يتأنس عندما شرع في الترميز بكل صورته ، خالفاً الأسماء على الأشياء والمعاني " فلولا حاجة الناس إلى المعاني ، وإلى التعاون والترافد ، لما احتاجوا إلى الأسماء . والحاجات تجوز مقادير السمات ، وتفوت ذرْع العلامات ... " <sup>(١)</sup> ، فكلما جدّت الحاجات ، ابتدع لها الإنسان علامات ؛ بالربط بين نسق من الأصوات وتصور ذهني معين ، ثم التعارف عليه . وتعد تلك القدرة على استحضار ما يمثل في الأعيان وفي الأذهان (بوصفها كينونات مستقلة عن اللغة) بوساطة العلامات اللغوية أو غير اللغوية ، شاهد تفرد الإنسان على غيره من الموجودات . ذلك أن " الفرق بين الإنسان وباقي المخلوقات إنما هو في الاستطاعة والتمكين . وفي وجود الاستطاعة وجود العقل والمعرفة . وليس يوجب وجودهما وجود الاستطاعة . " <sup>(٢)</sup>

لقد بات المسرح الكوني ميداناً للعلامات ، وباتت العلامة اللغوية أكثرها فاعلية وسلطة ، وأغناها في التعبير عن الإنسان ، لا بالمعنى التواصلية فحسب ، بل فكرياً وثقافياً ؛ منذ كانت مختلف الأنساق العلاماتية تستمد دلالتها من النسق اللغوي ، وإن كانت اللغة جزءاً منها - كما عبّر سوسير - إلا أنها الأعظم أهمية على الإطلاق . وانطلاقاً من هذه الأهمية ، شغل الإنسان بالنسق الذي تنتظم فيه العلامات اللغوية فتدل ، إذ لولا أن اللغة نظام ، ما حملت رسالة ، ولا أدّت وظيفة . ولقد مرّ بنا أن العلامة اللغوية كانت قد دخلت إطار التجربة العلمية في النصف الأول من القرن العشرين على يد "سوسير" الذي عدّ اللغة نظاماً من العلامات ، وذلك ما استثمرناه في إعادة النظر إلى الحركات ؛ فالنظام هو اللغة العربية ، ورغم التحول من حقل الكلمة/العلامة ، إلى الحركة/العلامة ، فإننا لا نبرح طبيعة المنهج ؛ حيث اللغة نظام يمكن لأي علامة فيه أن يكون لها قيمة .

استناداً إلى هذا ، يمكن القول : إن الحركات دوال تشتغل في إشارتها لمدلولات هي : ما تؤديه حركات البنية داخل الكلمة على مستوى المفردات ، وما تؤديه الكلمة وظيفياً داخل الجملة على مستوى التركيب . وهي دلالات خاضعة للعرف والتواضع أولاً ، ثم للضرورة أخيراً التي تحكم اشتغال العلامات لتشكل نشاطاً إنسانياً دالاً . وعلى هذا ، فسننظر كما يريد "سوسير" في داخل اللغة مستعملين (العلامة) لمعرفة كينونة الحركات ، ومكانها من اللغة ، والقوانين التي تحكم في اشتغالها . ولما كانت الأسئلة تنبثق عن طبيعة المنهج ، فإنها تتغيّر باختلاف أداة التحليل . في

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان . تحقيق د. إيمان الشيخ محمد ، غريد الشيخ محمد . المجلد ٢ ، ج ٥ ص ٩٦٨ . دار الكتاب

العربي . بيروت - لبنان . ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .

(٢) المرجع السابق : ج ٥ ص ١١١٠ .

هذه الحال ، تصدر أسئلتنا عن مفهوم العلامة الذي جعلناه أساس فهمنا للحركات ، والذي يقود إلى أسئلة ممتدة بامتداد ظهورها السيميائي في اللغة ، وهنا نسأل :

- كيف يكون ظهور الحركات سيميائياً ؟ وكيف نفكّكها إلى دال ومدلول ؟
  - كيف نقرأ الحركة في دالها (من الناحية الصوتية) ، وكيف نقرأها في مدلولها (المفهوم المفكّر فيه عند استعمالها) ؟
  - ما هي علاقة الحركات بنية وإعراباً بالكلمات ؟ ولماذا ؟
  - كيف تكون الحركة الإعرابية علامة تركيبية ؟
  - ما الذي يترتب على إنكار دلالة العلامة الإعرابية ؟
  - ما موقع الحركات من اللغة ؟ ولماذا ؟
  - كيف يكون الإيقاع سمة مشتركة لظهور الحركات ؟
  - هل تبقى الحركة علامة إن أدّت وظيفةً جماليةً ؟ وكيف ؟
  - لماذا تتفاوت حركات الإعراب في حيز الأداء ؟
  - ما أهمية التمييز بين دلالة العلامة وقيمتها في النظر إلى الحركات ؟
  - ما العلامات الأخرى التي تتضافر مع علامة الإعراب لإنتاج الدلالة ؟
  - ما الوظائف النحوية التي أسندت لحركات الإعراب في التراث من جهة ؟ وفي الاتجاهات اللسانية الحديثة من جهة أخرى ؟
  - هل تتناظر الحركات في ضوء تلك المناهج مع العلامة اللغوية ؟
- تلك بعض الأسئلة التي يكونها وجود الحركات السيميائي . والجهد الأكبر ، ليس في الإجابة عنها فقط ، إنما في التساؤل عن قيمة الحركات بوصفها علامة لغوية عربية . وذلك بالانفتاح على مزيد من الأسئلة ؛ لتوليد قيمة العلامة بما هي كذلك.

## ثانياً - العلامة بين كينونتين : إعرابية وبنائية

تنقسم العلامة ، التي هي حركة ، إلى قسمين : حركة إعراب وحركة بناء . أما حركة الإعراب ، فدلالته لا تكمن في معنى الكلمات ، ولكن في قيمة هذه الكلمات . و"هنا نلاحظ تزواج نوعين من أنواع الأنظمة : نظام الحركات ، ونظام الكلمات ... إن الحركات تقيم مع الكلمات علاقات وظيفية ، إلا أنها في هذه العلاقة لا تملك وجوداً مستقلاً ، بل وجوداً يعد وظيفة تابعة لمتغير مستقل هو الكلمات . ولذا فإنها تأخذ شكل الدال ، ليس بالنسبة للكلمات ، ولكن بالنسبة للوظائف التي تقوم بها الكلمات ضمن الجملة" <sup>(١)</sup> . ثم إن قيام رابطة وثيقة بين علامات الإعراب ووظائفها في التراكيب جعلها تطرد في عرف مستخدم العربية تماماً كافتتران

(١) منذر عياشي : قضايا لسانية وحضارية . ص ١٠٨ . دار طلاس ، دمشق . ط ١ . ١٩٩١ م .

الدال بصورته الذهنية . إذ " لو كانت هذه اللغة حشواً مكياً ، وحشواً مهياً ، لكثير خلافتها ، وتعددت أوصافها . فجاء عنهم جرُّ الفاعل ، ورفع المضاف إليه والمفعول به ، والجزم بحروف النصب ، والنصب بحروف الجزم ، بل جاء عنهم الكلام سدى غير محصل ، وغفلاً من الإعراب ، ولاستغني بإرساله وإهماله عن إقامة إعرابه " (١) .

وقد فسر "سيبويه" علامة الإعراب رفعاً ونصباً في تركيب واحد ، وفقاً للمعهود الذهني لها عند العربي . فعلاقة الضمة في حالة الرفع توحى له (للعربي) بالاستقرار ، وهو ما لا تدل عليه الفتحة في حالة النصب ، حيث يقول : " هذا بابٌ يختار فيه الرفع ، وذلك قولك : له علمٌ علمُ الفقهاء ، وله رأيٌ رأيُ الأصلاء . وإنما كان الرفع في هذا الوجه لأنَّ هذه خصال تذكرها في الرجل ، كالحلم والعقل والفضل ، ولم ترد أن تخبر بأنك مررت برجل في حال تعلم ولا تفهم ، ولكنك أردت تذكر الرجل بفضله فيه ، وأن تجعل ذلك خصلة قد استكملها ، كقولك : له حسبٌ حسبُ الصالحين ، لأنَّ هذه الأشياء وما يشبهها صارت تحليةً عند الناس وعلامات ، وعلى هذا الوجه رفع الصوت " (٢) . وفي شرحه قال السيرافي : "ولو أراد بقوله علمٌ تعلم وتفهّم وتعاطٍ له لجاز النصب ، .. إلا أن المفهوم من كلام الناس وما جرت عليه عادتهم أن ذلك مدح للمذكور، حصل له بما استقر فيه من العلم والفهم وغير ذلك " (٣) .

علاوة على ذلك ، فإن هذه العلامات تساهم بدورها في إثراء اللغة ، ذلك أن " الإعراب في مبدئه القائم على الحركات ، لغة ثانية نضيفها إلى لغتنا الأولى التي هي الألفاظ ، فإذا نحن أمام ثروة لغوية لا نفاذ لها ، وإذا كانت بعض اللغات مجبرة على أن تبتدع لكل معنى من المعاني لفظاً خاصاً به ، فإن العربية تستغني عن الكثير من الألفاظ بتلك الحركات التي تضعها على الألفاظ القديمة لتصبح لها مدلولات جديدة " (٤) .

ومن المعلوم أن علامات الإعراب لا تستقل وجوداً عن الكلمات ، بل ولا تظهر على الكلمة وهي مفردة إنما توجد نتيجة للتركيب وإن في مستوى الجملة البسيطة . بالتالي ، فإن وظائفها إنما هي أثر تركيبى . لذلك فإننا لا نرى علامة إعراب على كلمات من غير إسناد . وبهذا يكونان متلازمين ، وتكون الوظائف التي تؤديها العلامات ليست شيئاً منفصلاً عن انتظامها في

(١) ابن جني : الخصائص ج ١ ، ص ٣٠٦ .

(٢) سيبويه : الكتاب ج ١ ص ٣٦١-٣٦٢ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط ٤ ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .

(٣) أبو سعيد السيرافي : شرح كتاب سيبويه ج ٢ ص ٢٤٩ . تحقيق : أحمد حسن مهدي وعلي سيد علي . دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان . ط ١ . ٢٠٠٨ م .

(٤) مازن المبارك : نحو وعي لغوي . ص ٩٠ . مؤسسة الرسالة - بيروت . ط ٢ . ١٩٩٥ م .

التركيب وفقاً لقواعده . إن " اللغات التي يتغير شكل ألفاظها عندما يتألف منها الكلام - وهي اللغات الإعرابية - فإنها توفر مظهراً محسوساً لعملية الاقتتران بين الوجود القاموسي للألفاظ ووجودها السياقي " (١) . فالعلامة على لفظة "محمد" مثلاً ، قد تؤدي وظائف مختلفة بناءً على ما هي فيه من تركيب ، كقولنا : أفلح محمد ، أكرمتُ محمداً ، سمعتُ بمحمد .

وأما العلامات التي هي حركات بناء ، فإنها تمثل في الكلمة وظيفياً ، ما تمثله الكلمة ذاتها في الجملة ، أي إنها تمثل قيمة . فهي عنصر تكويني باقترانها مع الصوامت لبناء الكلمات ، وبها تفترق الكلمات وتتقابل ، فـ " لسنا نعرف أن كلمة مثل (كتاب) هي تلك الكلمة المألوفة لنا إلا مع كسرة الكاف ، ولا تقل هذه الكسرة هنا أهمية في بيان معالم هذه الكلمة عن الكاف أو عن التاء فيها ، بل إن ما يسمى بالحركات لأوضح في السمع من كثير مما يسمى بالحروف" (٢) .

وقد أورد "إبراهيم مصطفى" عدة صيغ لا يُفرّق بين معانيها إلا الحركات ، كالفرق بين اسم الفاعل واسم المفعول في مثل : مكرم ومكرم ، وبين الفعل المعلوم والمجهول نحو : كَتَبَ و كُتِبَ ، وبين الفعل والمصدر : عَلِمَ وَعِلِمَ ، وبين الوصف والمصدر فَرِحَ وفَرَحَ ، وبين المفرد والجمع في أَسَدَ و أُسْدَ ، وبين الفعل والفعل : قَدِمَ وَقَدِمَ ، وبين الاسم والاسم : سُحُورَ وسَحُورَ" (٣) . وفي كل ما سبق ، اتحدت الأصول وتغيرت حركات البنية فقط ، فتغيرت بموجبها الدلالة .

ولقد نرى ، استناداً إلى هذا ، أن دلالة الحركة البنائية تكمن في قيمتها ، أي فيما تؤديه هي داخل الكلمة والكلمة به تكون ، وليس فيما تؤديه الكلمة داخل الجملة والحركة به تكون ، ألا وإننا لنستدل من هذا على أمرين بالغَي الأهمية :

- الأول ، وهو أن دلالة الحركة البنائية ، بما أنها تمثل قيمة تكوينية ، فإنها تمثل قيمة ثابتة فيما تؤديه . ولذا ، فإن أي تغيير يحدث فيها أو يقع عليها ، فإنه ينعكس بالضرورة على جسد الكلمة الصوتي ، فتنتقل والحال كذلك من صورة سمعية كانت هي فيها إلى صورة سمعية أخرى ، قد يقبلها النظام أو لا يقبلها ، تبعاً للنظام المورفولوجي للغة كنظام التقاليبات الذي اعتمده "الخليل بن أحمد" في (العين) ، أو أي تمثيل من لدن مستخدم اللغة يخرج اللفظ من حيز الوجود بالقوة إلى حيز الوجود بالفعل ، ليحتل الصحة أو الخطأ . "فمن المعروف أن الكلمات العربية مادتها الأساسية تلك الأصوات المعروفة بالأصوات الصامتة أو

(١) عبد السلام المسدي : العربية والإعراب . ص ٤٧ . دار الكتاب الجديد المتحدة . بيروت - لبنان . ط ١ - ٢٠١٠ م .

(٢) إبراهيم أنيس : من أسرار العربية ، ص ٢٠٥ ، الأنجلو المصرية ، ط ٨ ، ٢٠٠٣ م .

(٣) إبراهيم مصطفى : إحياء النحو . ص ٤٥-٤٦ . دار الآفاق العربية ط / ٢٠٠٣ م .

الساكنة، كالباء والتاء والثاء ... الخ ، ولكن هذا الأصل يلحقه تعديل وتحويل أو تحويل وتغيير بواسطة الحركات فينتج لنا عن هذا الأصل مجموعة من الأوزان أو الصيغ الصرفية لكل منها قيمة معجمية دلالية مختلفة فالأصل المتمثل في " ع ر ض " مثلاً، يمكن أن تأتي منه بطريق التغيير في الحركات بالكلمات التالية : عَرَض ، ومعناه ضد الطول أو هو مصدر عرض يعرض ، وعَرِض ، ومعناه الحسب والشرف ، وعَرِض ، ومعناه الجانب كما في قولنا : ألقى به عَرِض الحائط ، أو معناه الوسط ، كما في نحو "في عَرِض البحر أي في وسطه ... وليس من النادر أن نجد التبادل بين الحركات يؤدي إلى تفريق صرفي وظيفي ، كأن تنتمي صيغة ما إلى جنس صرفي معين ، وبتغيير إحدى حركات هذه الصيغة نصل إلى جنس صرفي آخر . قارن : إعلام بقولنا أعلام ... " (١) .

- الثاني ، وهو أن دلالة الحركة البنائية ، بما أنها تمثل قيمة تكوينية ، فإنها تأخذ دلالاتها أيضاً من التأثير الذي تمارسه بعض الكلمات بوساطتها على محيطها الجملي . فنحن نعلم أن بعض الأفعال والصيغ المشتقة تستتبع وجود فاعل : "رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا" (٢) ، أو نائبه : "فَقَطَعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (٣) ، أو وجود مفعول : "وَلَا آمِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ" (٤) ، وهكذا . عندها، تكون "البنية" الصرفية قرينة يقدمها الصرف للدلالة على المعنى النحوي ، وتبدو أهميتها في مجال الكشف عن المعنى النحوي عندما يكون الباب النحوي مشروطاً بشرط بنائي خاص ، كاشتراط بناء الفعل للمفعول بالنسبة لنائب الفاعل و اشتراط الجمود للتمييز والمصدرية للمفعول المطلق ، وكدلالة "انفعل" من الناحية الصرفية على المطاوعة ومن الناحية النحوية على اللزوم . فهي في الحالة الأولى قرينة بنية وفي الثانية قرينة علاقة نحوية من نوع قرينة التخصيص ، وهلم جرا . فهنا تكون البنية وهي صرفية قرينة على المعنى النحوي " (٥) .

فالحركة البنائية هي ما يميز صيغة صرفية عن أخرى ، ومن ثم فهي علامة على تلك الوظيفة إلى جانب قيمها الدلالية . فصيغة (فالق) مثلاً اسم فاعل يستتبع وجود مفعول ، كقوله تعالى : "إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى" (٦) فهي دالة على الفاعل ، طالبة للمفعول وتلك وظيفتها ، بصرف النظر عن دلالة شق الحب . كما أنها مغايرة تماماً لصيغة اسم المفعول

(١) كمال البشر : دراسات في علم اللغة . ص ٢٠١ - ٢٠٢ . دار غريب - القاهرة ١٩٩٨ م .

(٢) سورة النساء ، آية ٧٥ .

(٣) سورة الأنعام ، آية ٤٥ .

(٤) سورة المائدة آية ، ٢ .

(٥) تَمَام حَسَّان : اجتهادات لغوية ص ٩٣ . عالم الكتب - القاهرة . ط ١ - ٢٠٠٧ م .

(٦) سورة الأنعام آية ٩٥ .

"مشقوق" في مثل قولنا : (الحبُّ مشقوق) ، والتي تتمثل وظيفتها في بيان من يقع عليه الفعل . ثم إن أيَّ تغيير يطرأ على حركة الصيغة إنما هو تغيير في دلالتها الصرفية لا في دلالة الجذر الواحد . فالفعل "ضَرَبَ" يفيد أن أحداً قام بالضرب ، يقابله في البناء للمجهول "ضُرِبَ" وفي المصدر "ضَرَبَ" ، وبإضافة صائت طويل بعد الفتحة الأولى نحصل على "ضارب" التي تفيد أن ضرباً حدث بفعل فاعل .. إلخ . " فكان فتح العين في / فَعَلَ / يدل على أن صاحب الفعل فاعل حقيقي لفعله ، قائم بالفعل ، كما في (ضَرَبَ) ، وكان كسرهما في /فَعَلَ/ يدل على أن صاحب الفعل قائم برّد الفعل ، كما في (حَزَنَ) . أما ضمها في / فَعُلَ / فكان يدل على أنه لا سلطة لصاحب الفعل على فعله ، وإنما هو صفة يتصف بها ، كما في (كَبُرَ) " (١) .

ليس هذا فقط ، فالحركات ، وإن طويلة تُعدّ علامة فارقة لبعض الأجناس الصرفية، ولها أثر في التفريق بينها " كما في حال المثني وعلامته الألف وجمع المذكر السالم وعلامته الواو .. وهذه الألف إن هي إلا فتحة طويلة ، كما أن الواو لا تعدو أن تكون ضمة طويلة، وهما في الوقت ذاته علامتا حالة إعرابية ، هي الرفع فيها" (٢).

### ثالثاً - أصالة العلامة بين وظيفتين :

ولقد نعلم من سالف ، أن العلامات عندما تكون حركات بنائية ، فإنها تؤدي وظيفة تكوينية ، وبناء عليه ، نرى أن هذا الدور يُكسب الكلمة ، التي تمّت تكويناً بهذه الحركات ، أصالة يظهر فيها جسدها الصوتي وجوداً ثابتاً في صورة سمعية ثابتة . وأما عندما تكون العلامات حركات إعراب ، فإنها لا تفعل في الكلمة هذا الفعل ، وذلك لسببين :

- أولاً ، لأنها تكون حدثاً طارئاً على الكلمة . والعنصر الذي تكون هذه صفته ، لا يكون أصيلاً في ذاته ، كما لن يكون أصيلاً في شيء .
- ثانياً ، ولأنها حدث طارئ ، فإنها تدين بالتبعية ، لا إلى ذاتها ونظامها كما هي حالها عندما تكون وجوداً ثابتاً وتؤدي وظيفة تكوينية ، ولكن للنظام الذي تقوم به الجملة نحواً وتركيباً. ولذا ، نكرر فنقول مَنْ كانت التبعية صفته ، فإنه لن يتمتع بالأصالة في ذاته ، كما لن يكون أصيلاً في شيء سواه .

(١) أندريه رومان : المجلد في نظام العربية ص ١٠٠ . ترجمة : حسن حمزة . المركز القومي للترجمة ، ط ١ ٢٠٠٧ م .

(٢) كمال بشر : دراسات في علم اللغة ص ٢٠٢ .

إن حركات البناء والإعراب " قسم يدخل في بنية الكلمة لا يتحول ولا يتبدل ، كحركة الجيم في جعفر وجميل ، وكحركة الراء في فرح وحركات أواخر المبنيات . وقسم ينفصل عن الكلمة ، يدخل عليها ويتحول عنها ، ويتبدل تبعاً للوظيفة النحوية للكلمة في الجملة كحركة الدال في حضر زيد وكتاب زيد " (١) .

وموجز هذا النظر يجعلنا نقول : إن العلامة عندما تكون حركة بناء وتؤدي وظيفة تكوينية ، فإنها تكون أصيلة في ذاتها وفي الكلمة التي تكونها وتبينها . وإنها عندما تكون حركة إعراب ، وتكون حدثاً طارئاً على الكلمة ، وتابعة لغيرها في وجودها وفعلها وعملها ، فإنها لن تكون أصيلة لا في ذاتها ولا في غيرها . وهكذا تكون دلالتها في الحالة الأولى ، بالأصالة عن نفسها ، كما تكون دلالتها في الحالة الثانية بالأصالة عن غيرها .

وتعدُّ الحركات في البنية والإعراب شكلاً للإيجاز في العربية ؛ لأنها ترمز إلى الدلالات على نحو مختزل ودقيق فإننا " بالحركة وحدها نميز بين القرى والقرى ، وبين المقص والمقص ، وبين العالم والعالم .. ، إن مجرد الاعتماد على الحركات في تغيير المعاني ضرب من ضروب الإيجاز لا نظير له . وبفضل الإعراب يستطيع الكاتب أو المتحدث أن يتصرف بالجملة فیراعي دواعي التقديم والتأخير دون أن يبقى أسيراً للحجرات النحوية الثابتة . فأنت - مادامت للألفاظ رموزها - تستطيع أن تتصرف في وضعها الموضع الذي يمليه عليك المعنى ، أو يشاؤه لك فنك أو مزاجك أو موسيقا كلامك " (٢) .

#### رابعاً - وظيفة العلامة في النسق الصرفي :

أوضح "سيبويه" ومن تلاه اختصاص بعض الصيغ بمعانٍ محددة . ولو تأملنا الفرق بين أبنيتها ومن ثمَّ معانيها العامة ، لوجدناه في حركات البنية ليس إلا ؛ ممَّا يؤكد اضطلاع تلك الحركات بدورها البنائي وقدرتها - من دون تغيير الصوامت - على إنتاج صيغ جديدة ، قد تكون ذات دلالات مستعملة في النظام ، وقد لا تكون - كما بينا - ومن ذلك :

١. صيغة (فَعَال) : فيما يدل على صوت أو داء (٣) .

٢. صيغة (فَعَال) : فيما يدل على الهياج ، أو انتهاء الزمان ، أو الوسم (٤) .

(١) مازن المبارك : نحو وعي لغوي . ص ٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٦ .

(٣) شرح كتاب سيبويه : ج ٣ ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٤) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

٣. (فَعَالَة) : فيما يدل على حرفة أو ولاية <sup>(١)</sup> .

٤. (فُعَالَة) : فيما يدل على الفضلة <sup>(٢)</sup> .

٥. (فَعَالَة) : فيما يدل على الترك أو الحسن والقبح <sup>(٣)</sup> .

٦- اسما المرّة والهيئة (فَعْلَة / فَعْلَة) :

"يُذَلُّ على المرة من مصدر الفعل الثلاثي بَفَعَّلَ - بالفتح - كَجَلَسَ جَلَسَةً ، وَلَبَسَ لَبْسَةً..ويُذَلُّ على الهيئة بَفَعَّلَ - بالكسر - كَالْجِلْسَةِ وَالرُّكْبَةَ وَالْقِتْلَةَ .. " <sup>(٤)</sup> .

هكذا شكلت الحركة البنائية قيمة خلافية من الناحية الصرفية . فـ "من الناحية الصرفية والنحوية ، تواجهنا قضية استقلال الكلمة بعدد من المشكلات ، أهمها تلك المشكلة التي تتصل ببيان الكلمات المتصرفة ، فلسائل أن يسأل : هل give gives gave givin giving كلمة واحدة أو خمس ؟ الواقع أن هذا السؤال إنما يرجع آخر الأمر إلى الاصطلاح . فالمعاجم الإنجليزية بوجه عام تعاملها على أنها صيغ مختلفة لكلمة واحدة ، في حين أنها تعامل المشتقات : lead , leader , leadership على أنها كلمات مستقلة ، وهذا أمر منطقي في الواقع . إذا أخذنا في الحسبان أن السوابق واللواحق الاشتقاقية تغير معنى الكلمة ، في حين يقتصر عمل عناصر التصريف على تعديل الوظائف النحوية للكلمة . أو بعبارة أخرى ، إن هذه العناصر وظيفتها بيان ما إذا كانت الكلمة مفرداً أو جمعاً مثلاً أو أنها فعل يدل على الماضي أو الحال وهكذا " <sup>(٥)</sup> .

٧- فَعِلَ : للأعراض من وجع وحزن " وفَعِلَ تكثر فيه العلل والأحزان وأضدادها ... " <sup>(٦)</sup> .

٨- فَعُلَ : فيما يدل على الغرائز <sup>(٧)</sup> .

(١) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٠٤ .

(٣) المرجع السابق : ص ٤٠٧ .

(٤) ابن هشام : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك . ج ٣ ، ص ٢١٦ . تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد . المكتبة العصرية . بيروت - لبنان . ٢٠٠٧ م .

(٥) ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة ص ٦٢ . ترجمة : كمال بشر . ط ١٢ دار غريب - القاهرة بلا تاريخ .

(٦) رضي الدين الاسترأبادي : شرح شافية ابن الحاجب . ج ١ ص ٧١ . تحقيق : محمد نور ، محمد الزفران ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٩٧٩ م .

(٧) المرجع السابق : ص ٧٤ .

والأمثلة على أثر الحركة البنائية في التفريق بين الصيغ يتسع لأطروحة كاملة ، فنكتفي بهذا القدر . ولقد عدها "أنيس فريجة" أهم اصطلاح عرفته العربية في النطق والخط وفي الدلالة إذ يقول : "الحركات أو الحروف المصوتة (Vowels) .. أهم اصطلاح أدخله العرب على خطهم ، ذلك لأن الكلمة المكتوبة بالحروف الصامتة مثل "كتب" و "كلم" لا يمكن التلفظ بها . وأهم من هذا هو أن الحرف المصوت جزء من المعنى . فإن كَتَبَ تفيد من المعنى غير ما تفيد كُتِبَ ، وكذلك قُلَ في قَتَلَ وقُتِلَ " (١) ونراه يدعو للعناية بها منكرأ غيابها في الخط اللامشكول ، فرغم " أن الحروف المصوتة هي جزء من المعنى . غير أن العربي ، سيكولوجيا ، يعدُّ الكلمة مجموعة من الحروف الصامتة . مثلاً "كتب" هي الكلمة في نظر الرجل العربي العادي ، وأما كُتِبَ كُتِبَ كُتِبَ فإنها ، بالرغم من اختلاف معانيها تبقى في ذهن القارئ العربي "كتب" وهذه الجرات السفلية والعلوية ليست جزءاً من الكلمة . ولكن ما أعظم الفرق بين قَتَلَ وقُتِلَ ، شَنَقَ وشُنِقَ ، رَجَلَ ورَجُل ! الحرف الصامت جزء من المعنى ، وعليه يجب أن يكون جزءاً من صورة الكلمة " (٢) .

### خامساً : كمية الحركة :

ليست الحركات هي ما يميز بين الصيغ الصرفية أو الألفاظ ، بل إن كميتها المتمثلة في تشديد الصامت ومد الصائت ، تؤدي الوظيفة ذاتها في تركيب الكلمات والتمييز بينها ، فالفعل (عَلِمَ) بتضعيف عين الكلمة يتحول إلى (عَلَّمَ) ، وبمد فتحة الفاء القصيرة تتحول إلى (عَالِم) ، وبمد كسرة العين ستتحول إلى (عليم) . و" المقصود بالكمية اعتبار القيمتين الخلافتين اللتين تسميان "الطول والقصر" فالطول في الحروف الصحيحة تشديد ، والقصر إفراء ، والطول في حروف العلة مد ، والقصر حركة " (٣) . بناءً عليه ، يرى "تمام حسان" أن كمَّ الحركة البنائية قيمة خلافية مميزة لنظام العربية ، وإنها لذلك ، شكلاً ودلالة . و"من ثم تكون ذات صلة عظيمة بالمعنى أو على الأصح بالجانب السلبي العدمي من هذا المعنى أي أن الجزء السلبي من معنى "لم" أنها ليست "لام" ولا غيرها .. ، وأما الجزء الإيجابي من معناها فهو وظيفتها التي تؤديها في إطار نظام اللغة من كونها للنفي والمعاني الأخرى (٤) . وبالقِياس ، فإن المضمون السلبي لـ "عَلَّمَ" إنما يكون بعلاقتها مع علامات أخرى في النظام ، كونها ليست "عَلِمَ" ، أو عَلِمَ ، أو عالم" وغيرها . أما مضمونها الإيجابي فوظيفتها في إطار العربية التي تعني التكثير .

(١) أنيس فريجة : في اللغة وبعض مشكلاتها . ص ١٠٩ - ١١٦ . دار النهار للنشر ، بيروت - لبنان . ط ١ - ١٩٩٦ م .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٣) تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٣٠٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

إن "الأصوات ليست رموزاً مستقلة استقلالاً تاماً ، أي أنها ليست ذات معنى خاص بها ... ، وإنما وظيفة هذه الأصوات هي أنها تكون وحدات أكبر . وإذا قارنا كلمتين مثل "قتل وقاتل" فسوف نجد أنهما تفترقان بصفة أساسية في ناحية واحدة ، تلك هي قصر الحركة أو طولها<sup>(١)</sup> . وقد تقدمت الإشارة إلى أن حركة البناء تكمن قيمتها فيما تؤديه داخل الكلمة من قيمة تكوينية ثابتة ، بحيث ينعكس أي تغيير في الحركة البنائية على جسد الكلمة ؛ فتنشأ عنها كلمة أخرى قد تكون مستعملة أو مهجورة . فإذا أسقطنا هذا التصور على محوري الاستبدال والتركيب ، فسنحظى في محور الاستبدال بالكلمات الآتية :



فالذي تغير فيما سبق هو الحركة "الصائت" أو كمها مع الصوامت نفسها ، فنتج عنها صيغ مختلفة الدلالة. وبذلك أدت الحركة وظيفة مائزة فيما تؤديه داخل الكلمة. ثم إن اختلاف القيمة الدلالية للصيغة يستتبع - غالباً - اختلاف التأثير بين الكلمات في الجملة ، الأمر الذي يبرره محور التركيب الآتي :

- قَتَلَ محمدٌ المعتدي دفاعاً عن عرضه .
- قُتِلَ محمدٌ ثمناً للحرية .
- قَتَّلَ الجيشُ المواطنين !
- إن المندسَ قاتلَ مأجور .
- القَتْلُ بغير حق من الموبقات في الإسلام .

ويلاحظ أن "ابن جني" قد أفرد باباً في (الخصائص) لكمية الحركات وآخر لمطلها ، يقول فيه : "أما ما في أيدي الناس في ظاهر الأمر فثلاث : وهي الضمة ، والكسرة ، والفتحة ، ومحصولها على الحقيقة ست : وذلك أن بين كل حركتين حركة ، فالتى بين الفتحة والكسرة هي الفتحة قبل الألف المماله ، نحو فتحة عين "عالم" و كاف "كاتب" فهذه حركة بين الفتحة والكسرة ...." <sup>(٢)</sup> .

(١) ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة ص ٣٨ .

(٢) ابن جني : الخصائص ج ٣ ، ص ١١٩ .

وقد عدّ الحركات - كما - أبعاض حروف المد ، وفي هذا يقول " اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين ، وهي الألف والياء والواو ، فكما أن هذه الحروف ثلاثة ، فكذلك الحركات ثلاثة ، وهي الفتحة والكسرة والضمة ، فالفتحة بعض الألف ، والكسرة بعض الياء ، والضمة بعض الواو " (١) .

ويذهب "ابن جني" أبعد من ذلك عند تحديد حركات الأواخر : أهى قبل الحرف ، أم بعده ، أم تحدث معه ، مختاراً رأي "سيبويه" في هذه المسألة و محتجاً له\*.

### سادساً : دور العلامة في النسق النحوي :

إذا تبيننا منظور سوسير إلى العلامة ، فإننا نستطيع أن ننظر إلى الحركات بوصفها علامات مثل كل العلامات . ولما كان هذا الأمر ، على صعيد مفهومي وصعيد إجرائي ، يمثل ضبطاً منهجياً لخط الدراسة ، فقد مالت حكمة البحث عندي إلى تبني مفهوم العلامة عنده ، سواء كان ذلك في معطاهها اللساني أم في معطاهها السيميائي العلاماتي . ومن هنا ، فإن المرء لن يذهب بعيداً عنها إذا تساءل : ما قيمة علامات الإعراب في التركيب ؟ ما مكانها بين اللغة والكلام ؟ كيف تظهر فيها سمات الاعتبارية والخطية ؟ وغيره ، انطلاقاً من زاوية النظر هذه .

بالنسبة إلى حركات الإعراب ، فثمة فرضية تقول : إن قيمة الحركات تكمن ليس فيما تؤديه الكلمة دلالة داخل الجملة ولكن فيما تؤديه وظيفة في الجملة ذاتها .

ولقد يمكن أن نقول في توصيف هذه الفرضية : إنها تمثل الفرضية الأم لوجود كل حركة إعرابية تحظى بحضور داخل الجمل ، بغض النظر عن نوع التركيب الذي تستند إليه هذه الجمل في قياسها .

بيد أن المرء إذا أولّ أنواع التراكيب التي ليست جميعاً سواء ، وإذا حمل هذا على الفرضية التي عنده ليقبسه بها ، فستتشقق هذه ويخرج عنها نموذجان أو أكثر تتوزع عليهما أو عليها الحركة وظيفياً ، وذلك تبعاً لسيرورة التركيب الذي هي نتاجه . ويمكن الاستدلال لهذا الأمر بنموذجين أو أكثر بياناً لما جاء ذكره:

- النموذج الأول ، ويقوم على أحادية الحركة . والسبب في ذلك أنه لما كانت الوظيفة نتاجاً لسيرورة التركيب ، فإنها لا تحيل إلا على حركة واحدة تقتضيها هذه الوظيفة داخل التركيب . فإذا أخذنا جملة الاستثناء مثلاً يدل على ذلك ، فسنعرف حينئذٍ في هذه الجملة على أمرين :

(١) الأول ، ونفترض فيه أن جملة الاستثناء تعد نموذجاً نوعياً ، نظامه القاعدي لا يحيل إلا على حركة واحدة داخل التركيب .

(٢) الثاني ، ونرى فيه أن هذا النموذج النوعي الافتراضي لجملة الاستثناء ، يستند في تركيبه إلى بنية مغلقة لا تحتمل التعدد وظيفية ولا التأويل دلالة . ولذا فهي لا تنتج إلا ذاتها ولا تفسر إلا بذاتها .

(١) ابن جني : سر صناعة الإعراب ج ١ ص ١٧ . تحقيق : د . حسن هنداي . دار القلم - دمشق ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م .

\* انظر الخصائص ج ٢ ص ٣٠٨ .

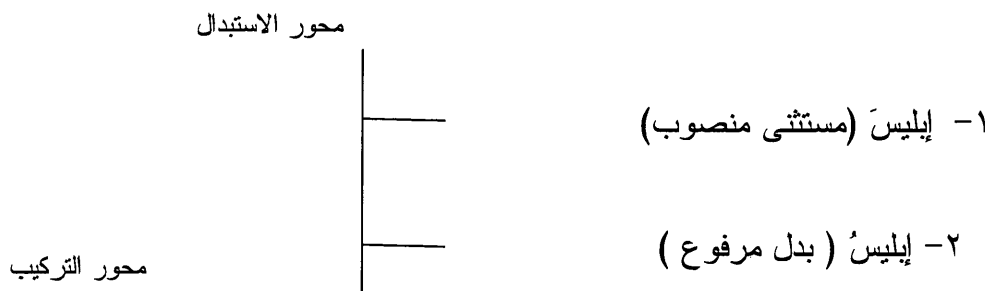
وإذا كان ذلك كذلك ، فإن جملة الاستثناء ، من هذا المنظور ، لا تنهض إلا بوظيفة واحدة يكون فيها قدر المستثنى محكوماً بحركة واحدة :



- النموذج الثاني ، ويقوم على تعددية الحركة ، والسبب في ذلك لأن الوظيفة - التي هي نتاج لسيروية التركيب - تتعدد ، وحينئذٍ تحيل إلى حركة متعددة تقتضيها الوظائف المتعددة في داخل التركيب . فإذا ما أخذنا جملة (الاستثناء / البدل ) مثلاً يدل على ذلك ، فسندقف في هذه الجملة على أمرين :  
(١) الأول ، ونفترض فيه أن جملة (الاستثناء / البدل ) تعد نموذجاً نوعياً ، نظامه القاعدي يحيل على حركتين مختلفتين تقتضيهما وظيفتان مختلفتان في داخل التركيب .

(٢) الثاني ، ونرى فيه أن هذا النموذج النوعي الافتراضي لجملة ( الاستثناء/ البدل ) ، يستند في تركيبه إلى بنية مفتوحة تحتمل التعدد وظيفية والتأويل دلالة . ولما كان الأمر فيها هكذا ، فإنها تنتج ذاتها بذاتها وتفسرهما على نحوين مختلفين .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن جملة (الاستثناء/ البدل) من هذا المنظور ، تنهض بوظيفتين يكون فيهما قَدْرُ هذه الجملة في شكلها ومظهرها محكوماً بحركتين أيضاً :



١- ما سَجَدَ الملائكةُ إلا إيليسَ .

٢- ما سَجَدَ الملائكةُ إلا إيليسُ .

وقد سبقت الإشارة إلى تعدد العلامة الإعرابية في المصدر المحذوف عامله كما في:

محور الاستبدال



١- علمُ (في حال ثبوت العلم له)

٢- علمُ (كأنك مررت به في حال تعلم

وتفقه ، وكأنه لم يستكمل) <sup>(١)</sup>

له علمُ علمُ ( علمُ ) الفقهاء

ومثله (جلاداً) في قول الشاعر يزيد بن حبناء من الأزارقة :

ولا تَعْذِلِينَا فِي الْهَدْيَةِ إِنَّمَا تكون الهدايا من فضول المغانم <sup>(٢)</sup>

فليس بمهيدٍ مَنْ يَكُونُ نَهَارُهُ جَلَاداً وَيَمْسِي لَيْلُهُ غَيْرَ نَائِمٍ

" وذلك أنه أراد من يكون نهاره يجالّد جلالاً ، كما تقول : إنما أنت سيراً ، وإنما أنت ضرباً . تريد تسير سيراً وتضرب ضرباً ، فأضمر لعلم المخاطب أنه لا يكون هو سيراً ، ولو رفعه على أن يجعل الجلال في موضع المجالّد ، على قوله : أنت سيرٌ أي أنت سائرٌ ، كما قالت الخنساء : فإنما هي إقبالٌ وإدبارٌ . وفي القرآن : " قل أريتُم إن أصبح ماؤكم غوراً " [الملك ٣٠] أي غائراً <sup>(٣)</sup> . فإن علم المتكلم استمرار السير من المخاطب وأراد إثباته رفع فقال : إنما أنت سيرٌ .

إن العلامة اللغوية تتكون من دال ومدلول . وإذا تأملنا العلاقة بينهما ، بمنظار سوسير ، فسنتنتهي إلى وصفها بأنها ليست طبيعية ، ولا منطقية ، وغير سببية ، أي لا يمكن إجراء التعليل فيها . وسنقول حينئذٍ ، ونتيجة لذلك ، إنها اعتباطية .

وإذا نظرنا إلى علامات الإعراب ، بالمعيار نفسه ، فسنجد ، هنا أيضاً ، أن الاعتباطية تحكم علاقات العلامة الإعرابية بمدلولها . وليس أدل على ذلك مثلاً من أن واضع اللغة لو اختار الضمة لغير ما زعموا من الثبات والاستقرار ، واختار بقية العلامات لهذا الأمر الذي زعموا ، لما كان في ذلك فساد ، ولكان من الممكن أن تشير إلى الدلالة نفسها . وما كان ذلك كذلك ، إلا لأن العلامة ، في جوهرها ، وحقيقتها ، غير سببية ، كما أسلفنا ، أي لا يمكن إجراء التعليل فيها ، وهي بالتالي اعتباطية : غير طبيعية ، وغير منطقية " فعلامات الإعراب هي الأجزاء

<sup>(١)</sup> الميرد : الكامل في اللغة والأدب . ص ٧٤٥ . تحقيق : د. يحيى مراد . مؤسسة المختار للنشر والتوزيع . القاهرة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

<sup>(٣)</sup> المرجع السابق ، ص ٧٤٦ .

المجسمة للعرف المحض، أي للاعتباط في درجته القصوى ، تماماً كالكلمات في وجودها القاموسي : هي دالة بالعرف والاصطلاح على حد ما تكون الفاعلية مقتضية للرفع والمفعولية للنصب ، ومثلما كان بالإمكان أن تكون لفظة (ضرب) دالة على ما تدل عليه لفظة (ربض) وتكون هذه دالة على ما تدل عليه تلك - مما أطنب الأجداد في تحليله- فكذلك كان بالإمكان أن تكون الفواعل منصوبة والمفاعيل مرفوعة " (١) .

ومثال ذلك الضمة على لفظ الجلالة في الحديث الشريف : "لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله، الله " (٢) . فالضمة هنا دالة على الإقرار . وفي الإقرار " تكون الضمة دالاً الركن الثاني . وتظهر هذه الضمة التي هي موقوت دال على الإقرار ، كأنها حركة إعراب الركن الأول وعلامة رفعه" (٣) . فثمة تلازم في ذهن العربي ما بين الضمة والإقرار ، فلو أبدلناها بعلامة أخرى لانتهى الإقرار، وكأننا نفصل أحد وجهي العملة عن الآخر. وقد سبقت الإشارة لتفسير "سيبويه" للضمة في قوله " له علمٌ علمُ الفقهاء، وما تستدعيه من دلالة معهودة ، تخرج منها تماماً بالفتحة التي يفهم معنى آخر كما تقدم .

كذلك الفتحة في جملة التعجب ، فـ "الركن الثاني في هذه الجملة موقوت هو التعجب وداله الفتحة . وتقع هذه الفتحة في نفس الموقع الذي تقع فيه الحركة الدالة على الإقرار وهي الضمة. مثال جملة التعجب هذه : (الهلل!) " (٤) . فلو أبدلنا الفتحة بعلامة أخرى في سياق التعجب لما وافقت هذا الانفعال عند العربي ، ولدلت على آخر. فإن "قائلاً لو قال : (ما أحسن زيد) غيرَ معرب و (ضرب عمرو زيد) غير معرب ، لم يوقف على مراده ، فإذا قال : ما أحسن زيداً ، أو ما أحسن زيد ، أو ما أحسن زيد ، أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراده ، وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها ، فهم يفرقون بالحركات وغيرها المعاني " (٥) . ثم إن دلالة العلامات على تلك المعاني أصبحت ضرورية فيما بعد ومطرودة .

ونلاحظ هنا " اهتداء النحاة إلى أن الإعراب يمثل عنصراً من عناصر النظام العلامي في اللغة العربية ، فهو يتجلى في مجموعة من العلامات بالمفهوم الحديث للمصطلح باعتبارها أصواتاً تظهر في سلسلة الكلام حسب ترتيب معين و تستمد قيمتها مما بينها من تقابل أو اختلاف " (٦) .

(١) عبد السلام المسدي : العربية والإعراب ص ٨٦ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (ج٢/ص٢٣٤) رقم الحديث (٢٣٤ - ١٤٨) كتاب الإيمان ، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان . طباعة ونشر وتوزيع مؤسسة قرطبة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . ط٢ - ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

(٣) أندريه رومان : المجلد في نظام العربية ص ١٨٧ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٩٥ .

(٥) مازن المبارك : نحو وعي لغوي ص ٨٦ .

(٦) عبد القادر المهيري : نظرات في التراث اللغوي العربي ص ٥٦ . دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان . ط١ -

إلا أن الحركة / العلامة ، تفترق عن الكلمة / العلامة على محور الاستبدال . ذلك أن الكلمة عند "سوسير" لا ترتبط بعلاقة أفقية مع ما قبلها وما بعدها فحسب ، بل تدخل في علاقة رأسية يتم فيها استبدال العلامة بأخرى يقرها النظام حسبما تقدم . أما علامة الإعراب فبكونها نتيجة التركيب ، فوظيفتها محكومة فيه ، واستبدالها يقتضي تغيير كامل الترتيب ، لذا ، فإنها رهينة بنظام وجودها في التركيب "على أن هذا النوع من العلامات اللغوية لا يمكن وجوده مستقلاً كما توجد الكلمات مثلاً ولا يتسنى عزله مثلما تعزل الوحدات المعجمية ، فهو لا يبرز إلا في الكلام وليس هو من خصائص ما نسميه اليوم بالعلاقات الاستبدالية وإنما هو من مشمولات العلاقات الركنية ؛ وهذا المفهوم أيضاً لم يغفل عنه النحاة فلقد انتبهوا إلى أن "صور الكلمات" و "أبنيتها" على حد تعبيرهم "مشاركة" فتقابلها لا يعبر إلا عما بينها من فوارق معجمية ولا يمكن أن تدل على نوع العلاقات التي تحصل بينها في الكلام أي لا تترجم البنية عن العلاقات الركنية ، معنى هذا أن النحاة قد انتبهوا إلى ازدواج العلاقات التي يمكن أن توجد بين العلامات اللغوية : مستوى أول من العلاقات بين الكلمات ... ومستوى ثانٍ من العلاقات هو من مجال التركيب لا يبرز إلا فيه ولا يستفاد إلا منه فنفس الكلمة التي لا يعتبر بها التباس إذا نظرنا إليها من زاوية الاستبدال تستبهم على حد تعبير ابن جني أو تلتبس في التركيب حسب ابن الخشاب ، ذلك أن هذه الكلمات "تتعاقب" عليها المعاني في التركيب و "المعاني" المشار إليها هنا ليست من قبيل المعاني المعجمية وإنما هي من قبيل المعاني النحوية ولنقل العلاقات الركنية" (١) .

وتُقسم العلامات اللغوية إلى ثلاثة أقسام ، تقع علامات الإعراب في القسم الثالث وظيفيةً ، وهي : " (١) قسم لا يحمل في ذاته ما يدل على وظيفة ، (٢) وقسم يتضمن ما يدل عليها ، (٣) وقسم ثالث يدل على وظيفة غيره . ... أما القسم الثالث فهو إن صح التعبير في خدمة غيره و تتمثل مهمته في إيضاح وظيفة غيره . فهو من الكلمات الدالة على الوظيفة ، وهو يمكن كلمات القسم الأول من اكتساب استقلالها الوظيفي . وعناصر هذا القسم متنوعة منها ما هو أدوات كحروف الجر في العربية وحروف العطف ومنها ما هو علامات تطرأ على الكلمة كالإعراب " (٢) .

ويتحقق المبدأ الثاني للعلامة السوسيرية في الخطية بعد الاعتباطية . وقد ربط بين الخطية والخاصية الزمانية ، لأن الدوال إنما تقع في الزمان مستمدة خصائصها منه التي هي : التعاقبية، وإمكانية أن تقاس بخط طولي . " فإذا نظرنا إلى الكلمة بوصفها مورفيماً (أي بوصفها وحدة بنيوية صغرى) . فسنجد أنها تمثل سلسلة من الفونيمات (أي الوحدات الصوتية الصغرى)، التي تتعاقب في النطق وتتوالى " (٣) .

(١) المرجع السابق : ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) لمرجع السابق : ص ٦٩ .

(٣) منذر عياشي : العلاماتية (السيمولوجيا) قراءة في العلامة اللغوية العربية . ص ٦٢ .

والفرق بين " الكلمة العلامة / والحركة العلامة " هنا ، يكمن في مدة الامتداد لأن الأولى تعد مورفيماً ، والثانية تعد فونيماً ، ينطق بها المتكلم في زمن محدد ، ويمكن أن تقاس ، بدليل أنها (الحركة) إن أُشِبت تولد عنها حرف من جنسها وهو ما نبّه إليه الأوائل . وهي مع الصامت تشكل مقطعاً صوتياً \* . ثم إن " طول الأصوات وطول المقاطع وطول الأحداث الكلامية (بمعنى الوقت الذي يستغرقه نطقها ) قابل للتتبع . وقد تستعمل هذه التتبعات لأغراض لغوية . للتفريق بين الكلمات والأحداث اللغوية . ويمكن قياس الطول Length أو الاستمرارية duration (ويشار إليه كذلك باسم الكمية quantity) . بمقياس من أجزاء الألف من الثانية " (٢) .

وإذا كانت " الكلمة / العلامة " تتشكل من المادة الصوتية المنطوقة تتابعياً ، حيث يتعذر النطق بأكثر من عنصر واحد في الوقت نفسه ، فإن لسمة التتابعية تحققاً في الحركة العلامة ، إذ إن كل علامة لغوية هي علامة تعاقبية ، والحركة علامة ، إذن فالحركة تعاقبية . ذلك أن الحرف حامل الحركة لا يحتمل أكثر من حركة ، ثم إن الحروف تنتظم بشكل تعاقبي في سلسلة كلامية ، ولعل "ابن جني" أشار إلى هذه الخاصية بقوله: "والحرف الواحد لا يحتمل حركتين لا متفتتين ولا مختلفتين" (٣) . كما يقول : "إن الحركة قد ثبت أنها بعض حرف ، ... فكما أن الحرف لا يجمع حرفاً آخر فينشأن معاً في وقت واحد ، فكذلك بعض الحروف لا يجوز أن ينشأن مع حرف آخر في وقت واحد ؛ لأن حكم البعض في هذا جارٍ مجرى حكم الكل " (٤) .

هكذا نخلص إلى أن قيمة العلامة الإعرابية لا تقل عن فاعلية الحركة البنائية ، فهي على المستوى النحوي " ذات خطر وشأن : ويكفي أن ندرك أن الإعراب في جملته يقوم على الحركات ، فهي علاماته الأصلية في كل الحالات ، وهي كذلك دالته في الإعراب النائب في معظم الحالات ، كما أن الاختلاف في حركات الإعراب دليل الاختلاف في الوظيفة النحوية للكلمة " (٥) .

---

(١) المقطع : Syllable عبارة عن قمة إسماع غالباً ما تكون صوت علة ، مضافاً إليه أصوات أخرى . ماريو باي : أسس

علم اللغة ص ٦٩ . ترجمة: أحمد مختار عمر .

(٢) أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي . ص ٢٣٣ . عالم الكتب - القاهرة . ١٩٩١ م .

(٣) ابن جني : الخصائص ص ٣١٢ .

(٤) ابن جني : سر صناعة الإعراب ج ١ ، ص ٢٧ .

(٥) كمال بشر : دراسات في علم اللغة ص ٢٠٢ .

## سابعاً : النظام والحركات في البنية والإعراب :

إننا نعلم أن المتكلم ، لكي ينجز ما يريد أن يقول ، فإنه يتحول بنظام لغته الذي اكتسبه من المجتمع الذي نشأ فيه ، إلى الكلام الذي هو حرّ فيه أداءً وإنجازاً وتصرفاً . وحينئذ ، يقول من خلاله كل حاجات حياته ووجوده : تعبيراً و تواصلً .

وهذا التحول من اللغة إلى الكلام هو انتقال ، ليس من اللغة ولكن باللغة إلى الكلام . وإنه لولا ذلك ، أي لولا انتقال اللغة بوصفها نظاماً إلى الكلام ، لما قام الكلام معماراً ، ولاستحال على الإنسان ، إذن ، أن يعبر ويتواصل ، ولذهب كل إنسان بكلامه مذهباً لا يجد فيه وشيجة من نظام تربطه بغيره أو تكون له جسراً واصلاً بينه وبين غيره . ألا وإن هذا ليظهر في الكلام الذي لو لم يكن منضبطاً بنظام اللغة ، لما كان كلاماً ، بل لاستحال أن يكون كلاماً .

والحركات ، إعراباً وبناءً ، هي جزء مما يتحول به المتكلم وينتقل من اللغة نظاماً إلى الكلام أداءً . وإنه لولا تحوله بها ومعها لانهدم معمار الكلام على مستويين :

- مستوى النحو ، لأن هذا لا يُعرف إلا من طريقتين متآلفتين ومتماسكين وقائمين معاً :

١. التركيب ، وهو يُستدل به على منازل الكلمات في الجمل .

٢. الحركة وما تدل عليه من وظائف الكلمات ضمن التركيب .

- مستوى المفردات ، لأن هذه لا تظهر في الكلام صورة سمعية بيّنة إلا بالحركات البنائية، والتي هي هنا حركات تكوينية كما بيّنا .

يقول " ابن خلدون " بهذا الخصوص إن : " الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها . ويبقى ما تقتضيه الأحوال ويسمى بساط الحال محتاجاً إلى ما يدل عليه . وكل معنى لابد وأن تكتفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بالوضع . وأما في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب " .<sup>(١)</sup>

ويؤدي ترتيب الكلمات في الشاهد النحوي (أنا قاتلٌ غلامك ، وأنا قاتلٌ غلامك) ، إضافة لما تؤديه الضمة أو التثوين من فارق في كلمة ( قاتل ) الوظيفة النحوية . أما على مستوى المفردات ، فمن دون علاقة الحركات بالصوامت ، لا يتشكل الهيكل الرئيس لها ، هذا ، إلى جانب القيمة الصرفية لبنية (فاعل) كما تقدم . "فالذي يجعل اللغة حقيقة مادية - إذن - إنما هو

(١) ابن خلدون : المقدمة . ص ٤٩٢ . تحقيق : محمد أحمد تامر . مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة ، ط ١ . ٢٠٠٥ م .

الكلام الفعلي ، كما أن تحليل النطق الفعلي هو الذي يكشف عن تلك الوحدات التي تبني وتكون النظام اللغوي . وبهذا يتبين لنا أن عملية الكلام لها جانبان : أحدهما مادي وهو الأصوات المنطوقة ، والآخر عقلي وهو المعنى المقصود . وعلى هذا يجب أن يسير التحليل اللغوي في خطين متوازيين " (١) .

### ثامناً : علامات الإعراب من التمكن إلى الأداء :

العربية واحدة من الأسنة التي تقوم أداءً على بنية مزدوجة : بنية التركيب و بنية الإعراب . أما بنية التركيب ، فتتمثل في نحو الجملة . وأما بنية الإعراب ، فتتمثل في الحركات الإعرابية التي تدل على الوظائف المؤداة داخل بنية التركيب قبل وقوعها حيث تكون وجوداً بالقوة ، وبعد وقوعها حيث تصبح وجوداً بالفعل . ويكون ذلك بالنسبة إلى المتكلم بلغته الأم ، لحدس يستند إلى ما يسميه تشومسكي "تمكن" المتكلم .

ولكن قد يقول قائل - وقد قال بالفعل - يمكن للعربية أن تكون أحادية البناء ، والسبب لأن المتكلم حال كلامه غير محتاج إلى حركات الإعراب قدر حاجته إلى بنية التركيب لكي يقوم كلامه . ولعله يحتج لذلك بأنه يستطيع أن يأتي بالجملة وقد سكن أواخر الكلم فيها ، من غير أن يفضي هذا إلى خلل إن على مستوى الأداء كلاماً ، وإن على مستوى الأداء دلالة .

وإن كنا سنخصص فصلاً لعرض هذه الأقوال ومناقشتها، فلا بد من الإشارة إلى بعضها هنا ، ومنها رأي "أنيس فريشة" - مخالفاً رأيه في حركات البنية وقد تقدم - إذ يقول : "ولا نظن أن الناس أسقطوا الإعراب تعمداً ، أو خروجاً على اللغة ، أو مشاغبة أو شعوبية ، كلا ، إنما سقط الإعراب من تلقاء ذاته ، كما سقط في سائر اللغات السامية وغير السامية لأن ليس له قيمة بقائية " Survival Value " (٢) . وبقاء الإعراب في رأيه مظهر رجعي " وبقاء الإعراب في بعض اللغات الأوروبية ليس دليلاً على قيمته البقائية إنما هو دليل على الرجعية في اللغة ... ولو أن للإعراب ضرورة للفهم والإفهام لبقى ولحافظت عليه جميع اللغات التي كانت معربة ، ولكن لكونه غير ضروري سقط . وقد جارت العربية المحكية سائر اللغات في مجراها الطبيعي ، فهي من هذه الناحية حية نامية متطورة " (٣) . بل إن الإعراب ليس ضرورياً للفهم فحسب ، إنما معوق له إن وجد " إن الإعراب عقبة في سبيل التفكير . ذلك مما لا نشك فيه . وسقوطه من اللهجة المحكية خطوة هامة نحو تيسير الكلام حتى يصبح الكلام طريقاً مُمهّداً للفكر " (٤) .

(١) ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة ص ٣٧ .

(٢) أنيس فريشة : نحو عربية ميسرة . ص ١٢٤ - ١٢٥ ، دار الثقافة - بيروت .

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٨ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٨٤ .

ويطرح " أنيس فريحة " في الرأي السابق تحيزاً إيديولوجياً وغير علمي ؛ فالمصطلحان "رجعية" و " نامية متطورة " ليسا من أدوات التحليل اللساني ولا من مصطلحاته ، وإنما هما يستعملان ، هجاءً ومدحاً ، في الجدل الإيديولوجي لقلب الحقائق و تزويرها ، وليس لتثبيتها وتعزيزها بالتحليل العلمي والموضوعي ، إذ في التحليل اللساني لا توصف لغات بأنها " رجعية " و أخرى بأنها " نامية متطورة " .

ويرى "فؤاد طرزي" في دعوته إلى الاستغناء عن الإعراب أن " الإعراب ظاهرة علقت ببعض اللغات القديمة . كالعربية واللاتينية . غير أن من تخلصت منه أو من معظمه من اللغات لم تخسر شيئاً ، بل ربما زادت معنى وعمقاً في آدابها ، غنى وعمقاً في العادة يلانزمان الحيد عن الشكل والعرض إلى المضمون . ولعل من سوء الحظ أن تستولي على العقل العربي الفكرة السائدة التي تقول : بالإعراب تُميّز المعاني ويُوقَف على أغراض المتكلمين على حد قول ابن فارس<sup>(١)</sup> .

أما " جبر ضومط " فيرى أن علامات الإعراب عَرَض لا ينبغي العدول إليه " فالإعراب ليس من مقومات اللغة ولا من الأمور الجوهرية فيها . ودليلنا الوقف فإنه جائز كثير الاستعمال قديماً وحديثاً ... والوقف هو تعطيل الإعراب وإزالة حكمه بتاتاً ويستحيل أو أقله يمتنع أن تتعطل مقومات الشيء أو يزول حكمه ، لأن ما يتعطل أو يجوز أن تزول أحكامه ، لا يجوز أصلاً أن يكون من مقومات ذلك الشيء أو من جوهرياته . فالإعراب من أعراض اللغة العربية وأكثر ما نقول فيه إنه بمنزلة العرض العام لا من الصفات الذاتية ولا من مزاياها الخاصة<sup>(٢)</sup> .

ولقد نرى أن الوقف ليس مناقضاً لحركات الإعراب ، إنما هو جزء لا يتجزأ من الوظيفتين : التركيبية والإيقاعية كما سيأتي\* .

وإن لم يدع "إبراهيم مصطفى" لإلغاء الإعراب بل لتيسيره ، فقد رأى أن علامات الإعراب لا تمثل المعنى ؛ فحدد وظائفها بنظرية من عنده كما سيأتي وفي ذلك يقول : " فلو أن حركات الإعراب كانت دوالاً على شيء في الكلام ، وكان لها أثر في تصوير المعنى ، يحس المتكلم ويدرك ما فيه من الإشارة ومن وجه الدلالة ، لما كان الإعراب موضع هذا الخلاف بين النحاة ، ولا كان تعلمه بهذه المكانة من الصعوبة ، وزواله بتلك المنزلة من السرعة<sup>(٣)</sup> .

(١) فؤاد طرزي : في سبيل تيسير العربية وتحديثها أمان لو تتحقق . ص ١٦ . مؤسسة نوفل ، بيروت - لبنان ١٩٧٣م .

(٢) جبر ضومط : فلسفة اللغة العربية وتطورها . ص ١٥ . طبع بمطبعة المقتطف بمصر ١٩٧٩م .

\* نظر الفصل الثاني من القسم الثاني ، مبحث : ظواهر صوتية ناجمة عن الوقف .

(٣) إبراهيم مصطفى : إحياء النحو ص (هـ ، و) .

فإذا كانت تلك هي الفرضيات التي يستند إليها المنكرون لعلامة الإعراب أو المسقطون لها ، وإذا كان هذا هو التصور ، فإنهم يستندون في الواقع إلى وهم في التصور من جهة ، وجهل بحقيقة النظام تكويناً وطريقة عمل ، من جهة أخرى . ولقد نستطيع مبدئياً أن نقول ما يأتي :

أولاً : يقتضي العمل العلمي في الدرس اللغوي تحديد موقع الظاهرة (التي ينشد البحث أن يسلط الضوء عليها) من اللغة مكاناً ، ومن نوع اللغة التي توجد الظاهرة فيها . وإلا يكن ذلك ، فثمة احتمال لقيام لبس كبير وسوء فهم عظيم مكان الدقة والضبط . ونضرب على هذا مثلاً بالموقع أولاً ، وباللغة ثانياً :

(أ) إذا كان اللسان ينقسم إلى لغة وكلام ، فمن الخطأ الفادح أن يُظن أن موقع علامة الإعراب هو الكلام بوصفه أداء ، وذلك لسببين :

- لأن العلامة جزء من النظام ، ولأن موقع تأسيسها بوصفها كذلك ، إنما يكون فيه ، والنظام هو اللغة ، كما هو معلوم . وأما ظهورها في الكلام فهو ظهور للنظام في الأداء . وهو ظهور علاماتي (سيمائي) دال ، ولولاه لما قام الأداء أصلاً .

- ولأن الحركة لو كانت جزءاً من الكلام ، لكانت :

- فردية في دلالتها .
- وفردية مثل الكلام .
- ولذهب بها كل متكلم في أدائه لها مذهباً فردياً واعتباطياً أو عشوائياً ، يفقدها دلالتها على النظام ، ويفقدها دورها العلاماتي الذي يجعل الكلام في صورته السمعية بناءً ومعماراً .

(ب) وإذا كان اللسان ينقسم إلى لغة وكلام ، فإنه على مستوى آخر ، ينقسم أيضاً إلى فصيح وعامي . وإذا كان هكذا ، فإنه لمن الخطأ الفادح أن يُستعمل القياس بين غير المتماتلين أساساً ، وذلك كأن تُقاس مواقع علامات الإعراب في العامية بمواقعها في الفصحى ، أو - وهذا أدهى وأمر - أن تُقاس العلامات الإعرابية في لغات أحادية البناء وهي تبلغ فيها الدرجة صفراً ظهوراً ، بمواقعها في العربية وهي تبلغ فيها تمامها ظهوراً . وقد لا تكون ثمة حاجة للتأكيد أن مثل هذا القياس بنوعيه - الداخلي والخارجي - باطل ولا يصح وازناً . والسبب لأن اللغة نسق لا يقبل إلا بنظامه الخاص كما يرى سوسير . وهذا ينطبق على كل اللغات ، وأيضاً على فصيحها وعاميتها ، ولذا ، فإنه لا يصح قياس لغة على لغة . وإن أي قياس ، مهما كان حجمه ومقداره ، قد يخرج اللغة من نسقها ونظامها الخاص إلى نسق ونظام لا يصلحان لها قياساً ولا يصحان عليها انطباقاً . "اللغات التركيبية كالإنكليزية والفرنسية تعرب بالترتيب المختلفة عن تغاير الأحوال التركيبية ، بينما اللغات التوليفية تستخدم الإصاق ؛ إذ تُضيف علامة معينة إلى

لفظ المرفوع ، وعلامة أخرى مغايرة إلى لفظ المنصوب . ومن النمط اللغوي الأخير العربية التي تُؤشّر بضمة مسموعة أو مرئية لحالة الرفع ، وبفتحة منطوقة أو مرسومة لحالة النصب ، والكورية التي اختارت اللاصقة "سُون" لحالة الرفع ، و"رُول" للنصب ، واليابانية المعربة بالصوت "و" عن الرفع ، وبالصوت "أ" عن حالة النصب ، واللاتينية التي ألحقت بالمرفوع صائناً يعادل الفتحة في العربية وخصّت المنصوب بالصوت "إم" ومنه الفارسية التي علّمت المنصوب اللاحقة "را" وجعلت عدم العلامة علامة على حالة الرفع " (١) .

وباختصار ، فإن العمل بمثل هذا القياس عمل غير علمي وغير لساني .

**ثانياً : لقد وضعت النظرية التوليدية لتشومسكي مصطلحين ، هما :**

" Competence " ، والثاني هو : " Performance " . وقد تُرجم الأول إلى العربية بـ: "التمكن، المقدرة، القدرة، الكفاية" . وقد تُرجم الثاني إلى العربية بـ: "الأداء، الإنجاز اللغوي" . وسنستعمل لفظ "التمكن" بالنسبة إلى الأول ، ولفظ "الأداء" بالنسبة إلى الثاني . وإذا اقتربنا من هذين المصطلحين وصولاً إلى قضيتنا واستعانة بهديهما لحل إشكال وقفنا عليه فيها ، فسند أنهما يقدمان مفهومين يساهمان مساهمة جيدة وإيجابية دراسة وحلاً . ولكي يكون ما نريد يجب أن نقوم بداية بتعريفهما :

**أ- " التمكن - Competence " :**

يمكن تعريف هذا المصطلح بقولنا إنه " المعرفة الضمنية التي يملكها كل متكلم - سامع عن لغته" . ويمكن القول أيضاً على نحو أكثر تقنية : "إن التمكن نسق مستبطن من القواعد التي تسمح لعضو محدد (الدماغ) بإنتاج عدد غير محدد من العبارات وفهمها" . وقد جاء في (معجم المصطلحات اللغوية) للدكتور "رمزي منير البعلبكي" قوله - تعريفاً بهذا المصطلح - إنه : "قدرة ابن اللغة على فهم تراكيب لغته وقواعدها ، وقدرته من الناحية النظرية والمثالية على أن يركب ويفهم عدداً غير محدد من الجمل أو أن يدرك صوابية التراكيب أو عدم صوابيتها" (٢) .

**ب- " الأداء - Performance " :**

يمكن تعريف هذا المصطلح بقولنا إنه " إجراء تنفيذي لتحسين التمكن بغية إنتاج العبارات وتأويلها ، وذلك في إطار شروط واقعية للتواصل ، أي بوساطة متكلمين يوجدون في سياق التكلم" . وقد جاء أيضاً في (معجم المصطلحات اللغوية) قوله - تعريفاً بهذا المصطلح - إنه :

(١) محمد الأوراعي : نظرية اللسانيات النسبية . ص ٩٢ - ٩٣ . الدار العربية للعلوم ناشرون - لبنان ، دار الأمان - الرباط ، منشورات الاختلاف - الجزائر . ط ١ - ٢٠١٠ م .

(٢) رمزي منير البعلبكي : معجم المصطلحات اللغوية . ص ١٠٥ . دار العلم للملايين - بيروت . ١٩٩٥ م .

"الاستعمال اللغوي الفعلي ، لفظاً أو كتابة ، كما يظهر عند أبناء اللغة " (١) . وبالمقارنة مع "سوسير" نجد "تشومسكي" متأثراً بالفرقة بين (اللغة / والكلام) عند الأول . فكلاهما يقوم على التفريق بين النظام الذي هو قواعد مختزنة في ذهن المتكلم ، وبين الكلام الذي هو تحقق فعلي للنظام ، أي بين ما هو لغوي وغير لغوي . " إن العلاقة بين التمكن والأداء إنما هي علاقة نظام يكون في الحالة الأولى مضمرأ ، ويعمل في الحالة الثانية على توليد الجمل ، ولذا فإن تشومسكي يقول : " إن الأداء يعكس التمكن " . غير أن الناس لا يتساوون في الأداء كما هم متساوون في التمكن " (٢) .

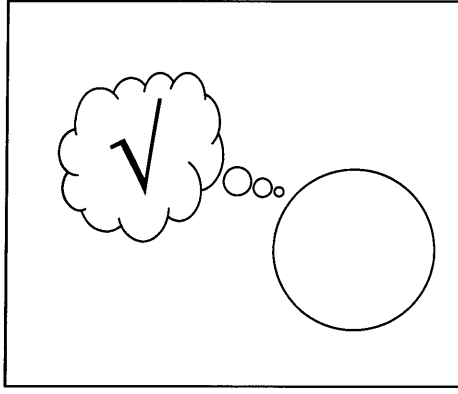
ويمكن على ضوء هذين المصطلحين اللذين وضعتهما النظرية التوليدية ، أن نحدد مكان علامات الإعراب منهما من حيث البدء والأصل ، هل هي في حيز التمكن أم هي في حيز الأداء ؟ وإذا كان الجواب البدهي هو أنها تقوم بدءاً في حيز التمكن لأن كل ضوابط اللغة تكون مستنبطة فيه ، فإن السؤال المهم الذي يطرح نفسه بعد ذلك هو : لماذا لا تظهر علامات الإعراب في حيز الأداء أحياناً بمستوى يعادل وجودها عند كل المتكلمين ؟!

والجواب عن هذا السؤال بسيط أيضاً . فالمتكلمون ليسوا جميعاً سواء في أدائهم مثلما هم في تمكنهم ، فهم حين يتكلمون بلغتهم ، فإنهم يستندون في أدائهم إلى تمكنهم في إنشاء كلامهم ، أي إلى مجموع القواعد التي استنبطوها . وكذلك هو شأنهم في فهمهم ، أي في التعامل مع الكلام الذي يستقبلونه من الآخر ، سواء كان محاوراً أو خطيباً ، أو مذياعاً على التلفاز ، أو أي شخص آخر . غير أنهم ليسوا جميعاً سواء في أدائهم عندما يستعملون الكلام أداءً في إرسالهم لخطابهم ، وليس أداءً في استقبال خطاب الآخر وفهمه . والسبب في ذلك ؛ لأن الأداء محتاج بعد استناده إلى التمكن إلى دربة ومران يوفرهما التعليم أو ظروف أخرى وشروط أخرى لا توجد لدى كل المتكلمين على حد سواء ، مما يعني أن الأداء نشاط مختلف ويحتاج في حصوله لكي يعكس التمكن تماماً إلى نوع من الجهد والتعلم أكبر مما يحتاجه التمكن في اكتسابه .

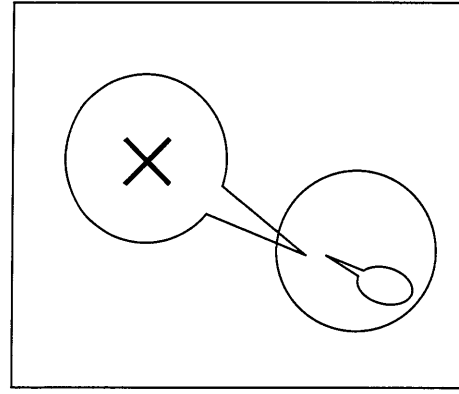
وإذا كان هكذا ، فإننا نقول إن سقوط علامات الإعراب ، بعضها أو كلها ، في أداء المتكلم لا يعني بالضرورة عدم وجودها في تمكنه . وبناءً على هذه الملاحظة ، يمكن التمثيل لعلاقة المتكلم العادي بعلامات الإعراب بهذا الرسم :

(١) المرجع السابق : ص ٣٦٦ .

(٢) منذر عياشي : قضايا لسانية وحضارية ص ٣٦ .



٢- عند استقبال رسالة معربة = نجاح



١- عند الأداء = إخفاق

يرتبط ذلك انطلاقاً مما سبق ، بتمثّل اللغة في المستوى الفصيح لا المحكي ، مما يتجلّى بلغة الإعلام المسموع والمقروء ، و بلغة السياسة ، والعلم والأدب ، التي يتحقق بها النظام تماماً ، ويتحمّ كونه معرباً عندئذٍ. فمن الواضح أن المستخدم العادي تعوزه الرياضة الذهنية اللازمة لإنتاج رسالة لغوية معربة - وإن كان الإعراب ضمن حصيلته المعرفية - إلا أن انعدام الممران والممارسة لا ينسجم بفعله الأداء مع التمكن . لكنه في حال المستقبل لرسالة فصحي كما في النصوص الدينية ، أو الأدبية الرفيعة ، يحرك ذلك الأداء مقدرته اللغوية الكامنة فيفهم الرسالة وينفعل بها .

هذا من جانب التمكن والأداء . ومن جانب آخر يشير "المسدي" إلى قضية مهمة ترتبط بعلاقة العربي بلغته ، متسائلاً : كيف لا يقف الزمن حائلاً بينهما ؟ كيف ينصهر التاريخ باللغة مما يزيد على خمسة عشر قرناً ؟ ولم يشعر العربي اليوم بانتمائه لتلك اللغة وإن عجز عن مثلها ؟ وفي المقابل ، يغترب الإنجليزي وهو يسمع لغة شكسبير ، ويستدعي الفرنسي الزمن بلغة ربلاي وموليير؟ هكذا يخلص إلى أن الأداء اللغوي عند أولئك يكون مفارقاً حيناً ومحايثاً آخر ، أما عند العربي فهو دوماً محايث ؛ لأنه قادر على الحلول في سياق اللغة ، وهي قادرة على الحلول في وعيه الذاتي . ذلك شأن اللغة العجيب عند العرب ، وشأنهم الأعجب مع اللغة . وهو لا يفسر تلك الظاهرة حضارياً إنما باللغة ذاتها من خلال أمرين هما :

الأول : إن علوم اللسان عند العرب قد ظهرت بكل مراتب المعرفة اللغوية ، أو الكونية لاتساع علم الكلام . كما أن المعرفة اللغوية عندهم شكّلت البنى التكوينية في مستوى الحرف ، والكلمة ، ثم التركيب ، مع تحاشي تدوين تاريخ الدلالة ، فجاءت الألفاظ منزوعة من سجل تطورها الزمني .

الثاني : يتمثّل باعتماد العربية على الإعراب بالمفهوم اللساني الشامل الذي ينبني على تغيير أواخر الكلمات عند خروجها من المعجم ودخولها في التركيب ، وبذلك تتوفر على آليات إنتاج دلالية لا تضاهيها آليات الألسنة غير الإعرابية ، وبناء عليه يكون النحو العربي إيذاناً بخروج

المعجم إلى التداول وحلول المفرد في السياق ؛ لأنه كشف للقارئ القائمة بين الألفاظ من داخل أبنيتها ، لذلك فالمعنى وليد حيثيات الاقتران بين الكلمات في سياق التعبير ، وهو في غير اللغات الإعرابية وليد مواقع الألفاظ فقط .<sup>(١)</sup>

يبعث هذا على التساؤل : أين نتداول علامات الإعراب في الواقع اليومي ؟ وما أثر غيابها من الفعل الكلامي ؟ ثم ما علاقتها بمستويات اللغة المختلفة ؟ وهو ما يسعى الفصل القادم لتناوله .

---

(١) ينظر / المسدي : العربية والإعراب من ص ٥٨ إلى ص ٦٢ بتصرف واختصار .

## **القسم الأول**

### **الفصل الثالث : الحركات في الواقع التداولي**

- مفهوم التداولية في اللغة
- التلقي وأنواع الخطاب
- الحركة في القرآن والحديث بين اللغة العليا ولغة التداول
- مستوى اللغة الوسطى
- مستوى العامية
- الأفعال الكلامية

## أولاً: مفهوم التداولية في اللغة :

التداولية علم يدرس علاقة العلامات بمستعملها ، أو هي علم يدرس اللغة عند ممارستها . واستناداً إلى هذا التعريف ، يمكن القول : إن الحركات ، مثلها في ذلك مثل سائر العلامات في علاقاتها بمستعملها ، إنما تتحقق من خلال المنجز التلفظي في التداول والاستعمال . وقبل أن نحدد تجلي حركات البنية والإعراب في هذا السياق ، يتعين تحديد مفهوم التداولية بوصفه مصطلحاً يتقاطع مع اللسانيات في دراستها لا مع الفلسفة .

والتداولية هي " ترجمة للمصطلحين الإنجليزي Pragmatics بمعنى هذا المذهب اللغوي التواصلية الجديد ، والمصطلح الفرنسي La Pragmatique بنفس المعنى ، وليس ترجمة لمصطلح Le Pragmatisme الفرنسي ، لأن هذا الأخير يعني الفلسفة النفعية الذرائعية ، أما الأول فيراد به هذا العلم التواصلية الجديد الذي يفسر كثيراً من الظواهر اللغوية " (١) .

ويعد "موريس" من بين أهم منظري (التداولية) . وقد سبق أن أشرنا ، إلى تمييزه ثلاثة أبعاد للعلامة : البعد التركيبي ، وهو دراسة العلاقة بين العلامات ، والبعد الدلالي وهو دراسة علاقة العلامة بما تدل عليه ، والبعد التداولي وهو دراسة علاقة العلامة بمستعملها ومتلقيها . وهو يرى أن البعد التداولي يمثل الوظيفة الأصلية للعلامة .

إن تعريفات التداولية تتعدد بناءً على مجال الدراسة ؛ ولأن الحركات إنما تتجزأ باللغة مرتبطة بوظيفتها التواصلية ، فسنتصر على تعريف التداولية في إطار الدرس اللغوي . من هنا " تشير التداولية إلى تلك الجوانب في عملية الاتصال التي هي وظائف مقام الحال التي يطلق فيها القول أو المنطوق ، ولا سيما العلاقة بين المتكلم والمستمع " (٢)

وقد بيّن " طه عبد الرحمن " موضوع التداولية ، فقال : " لما كان التخاطب يقتضي اشتراك جانبيين عاقلين في إلقاء الأقوال وإتيان الأفعال ، لزم أن تتضبط هذه الأقوال بقواعد تحدد وجوه فائدتها الإخبارية أو فائدتها التواصلية ... ومعروف أن موضوع التخاطب ، في كلا وجهيه ، التواصلية أو التبليغية والتعاملية أو التهذيبية ، أخذ يشغل الباحثين من مختلف الآفاق العلمية...؛ ويتولى فرع متميز من المنطقيات الحديثة البحث فيه وهو "منطق الحجاج والحوار" ، كما يتولى فرع " التداوليات " من اللسانيات الحديثة النظر فيه ، لاختصاصه بدراسة الاستعمالات اللغوية في تعلقها بمقامات الكلام " (٣) .

(١) مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب / دراسة تداولية لظاهرة " الأفعال الكلامية " في التراث اللساني العربي . ص ١٥ . ط ١ - ٢٠٠٥ . دار الطليعة للطباعة والنشر . بيروت - لبنان .

(٢) روبرت شولز : السيمياء والتأويل . ترجمة : سعيد الغاني . ص ١٤٥ . ط ١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٩٤م .

(٣) طه عبد الرحمن : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي . ص ٢٣٧ . المركز الثقافي العربي ، بيروت - لبنان ، الدار البيضاء - المغرب ط ٢٠٠٨م .

وترى "فرانسواز أرمينكو" بالاتجاه نفسه الذي رسمه موريس - أن التداولية ظهرت في إطار دراسة علامات اللغة في القرن العشرين من خلال ثلاث مقاربات هي : المقاربة الدلالية وهي دراسة مرتبطة بالمعنى والمرجع والحقيقة ، والمقاربة النحوية وهي دراسة علاقة العلامات فيما بينها والكلمات في الجملة ؛ بحثاً عن القواعد التي يعد احترامها شرطاً لامتلاك قيمة حقيقية أو خاطئة ، وأخيراً المقاربة التداولية وهي دراسة علاقة العلامات بمستعملها <sup>(١)</sup> .

وتعني كلمة التداولية عند بعضهم : البراكسيس" إذ على التداولية أن تعين مهمتها في إدماج السلوك اللغوي داخل نظرية الفعل . ويدركها البعض الآخر كمهتمة أساساً بالتواصل ، بل وبكل أنواع التفاعل بين الأعضاء الحية . ويرى آخرون أن عليها ، أن تعالج استعمال العلامات أساساً . وهذا هو منظور موريس . أما ثالث الفرقاء ، فيعد التداولية علم الاستعمال اللساني ضمن السياق . وبتوسع أكثر ، يرى أنها استعمال العلامات ضمن السياق . وتدفع أهمية هذا المفهوم الأخير بماكس بليك (Max Black) إلى إعادة تسمية التداولية : ففي نظره عليها أن تسمى : السياقية " . <sup>(٢)</sup> أي التداولية السياقية .

بناءً على ما سبق ، تتجلى الكلمات في الاستعمال تجلياً فعلياً ، وتأخذ دلالتها من مكانها فيه . ولطالما كانت الحركات بنية وإعراباً غير مستقلة عن الكلمات ، فإنها والكلمات توجدان معاً في الاستعمال ، وتتبادلان التأثير . فالكلمات في المعجم غير قابلة للتحديد دلاليًا ، إنما تتحدد في استعمالاتها . والحركات في استعمالاتها غير قابلة للتمثل ؛ ما لم تتشكل مقترنة بالكلمات التي نقيم فيما بينها علاقات في الجمل . وعليه ، فإن التجسيد التلفظي للكلمات في الجملة العربية يخرجها من المعجم إلى الأداء ، الذي تتحدد فيه وظائف الحركات . هكذا " فإن تعريف العلامة ، يقتضي ليس فقط مقارنتها ولو ضمناً مع علامات أخرى ، وذلك في مستوى الدخال (=الحامل المحسوس سواء كان من طبيعة سمعية أو بصرية مثلاً والذي يبقى للتأويل) كما في مستوى المدلول (= ما يفهم تعالقياً في سياق معطى) - لكن أيضاً تجسيدها التلفظي (في هذا الاستخدام الملموس الذي هو فعل التلفظ سواء كان من وصف الفردي أو الجماعي) " <sup>(٣)</sup> .

لذلك يرى "كورتيس" أنه لا يكفي لشخصين حتى ينجحا في التواصل أن يتكلما اللغة نفسها ، فينتميان إلى مشترك صوتي ، وتركيبية ، ودلالي ، بل لابد أن يتحقق لهما مكتسبات مشتركة تتجاوز ما وراء الملفوظ الذي تجسد واقعياً كمعرفة السياق من خلال المقترضيات ، والتضمنيات ، والإيحاءات الاجتماعية ، وحتى اللهجية . وحين يستخدمان جميع هذه المشتركات

(١) فرانسواز أرمينكو : المقاربة التداولية . ترجمة : د. سعيد علوش . ص ٨ . مركز الإنماء القومي ، بيروت - لبنان ١٩٨٧ م .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١ .

(٣) جوزف كورتيس : سيميائية اللغة . ترجمة : د. جمال حضري . ص ١٩-٢٠ . مجد للدراسات والنشر والتوزيع ط ١ بيروت - لبنان ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م .

تقريباً يُعد الاتصال ناجحاً ، وكأنه يجعل تلك المشتركات معايير لنجاح الاتصال ، وعلى العكس، حين يتم في منأى عنها . وبالتالي ، يمنحها أهمية ليست بأقل من المعطيات اللسانية المحضنة .<sup>(١)</sup>

## ثانياً : التلقي وأنواع الخطاب :

### أ) التلقي :

- إذا كانت التداولية ( دراسة الحركة بوصفها علامة في قلب الخطاب التداولي ) هي فرضية العمل التي تقوم عليها الدراسة في هذا الفصل ، و ذلك للوقوف على الحركات بوصفها علامات ، فإنه يجب علينا ، إنفاذاً لها و عملاً بمقتضاها ، أن نحدد أنواع الخطاب الذي ارتبطت به الحركات ارتباط وجود حتى لكانه من غيرها قائمة فيه ، تنخفض درجة تواصلية فتبلغ الدرجة صفراً أحياناً لشدة ما يصبح غامضاً و مبهماً ، أو تكون فوق الصفر بقليل ، في أحيان أخرى ، لما يثيره من غيرها من التباس ، أو درجة أعلى من هذه بقليل أيضاً ، فيجعل متلقيه متردداً حائراً لما يترك في نفسه من تخبط لا يخرج منه إلا بممكن التأويل و قوته .

- إن وجود الحركة في لغة الخطاب التداولي ، أياً كان نوع هذا الخطاب ، يعد وجوداً تأصيلياً لوجود الخطاب نفسه (بمعنى أنه لا يمكن شكلاً ملفوظاً إلا به، من جهة أولى كما يعني من جهة أخرى أن التبليغ والتواصل (وهما غاية كل خطاب تداولي ومبتغاه) يرتبطان بالحركة ارتباط مصير . ولذا ؛ فإن غياب الحركة في الخطاب ، أو في بعض نواحيه (إن لم يكن وظيفياً ) ، يعني بالضرورة انقطاع تيار التبليغ والتواصل ، وإلا يكن ذلك ، فيعني تعقيد حصولهما عند متلقي الخطاب ، والذهاب في مسلكين شائكين :

- إما إلى الشك دلالة .

- وإما إلى عدم الفهم مطلقاً .

و لما كان الأمر على هذه الأهمية يدور ، فقد رأينا إذن ، و لغرض منهجي أيضاً ، أن نحدد أنواع الخطاب التي جرت العادة عند المستعملين أن يقيموا فيها الحركات أولاً . و لكي نرى ، ثانياً ، أنواع المشكلات التي يثيرها :

أ) غياب الحركات في الخطاب المستوجب لها غياباً مطلقاً .

ب) تعدد ظهور الحركات المختلفة متزامنة في مكان واحد ، على سبيل الممكن و بقوة التأويل ، في البنية التركيبية للجملة .

ج) أثر الغياب أو التعدد على :

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠ بتصرف .

١- قصد المرسل

٢- فهم المتلقي .

٣- شكل الخطاب ( الرسالة ) و تماسكه وانسجامه .

### ب) أنواع الخطاب :

عند رصد الخطابات ، يجب وضع تصنيف و توصيف لكل نوع من أنواع الخطاب . وأهمية هذا التصنيف و التوصيف تبرز وجاهة و أسباب ارتباط كل نوع بالحركات ، أو عزل واستبعاد ما لا يرتبط بالحركات وأسباب هذا الاستبعاد . وبناءً على هذا ، سنجد أن الخطابات بكل أنواعها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

- القسم الأول ، و يضم الأنواع الآتية

١- القرآن الكريم .

٢- الحديث النبوي الشريف .

٣- الشعر .

٤- اللغة الواصفة (Metalanguage) وهي اللغة التي تستعمل لوصف لغة أخرى . ومثال ذلك لغة النحاة التي تستعمل عند الحديث عن الإعراب لوصف لغة النصوص المعربة .

- القسم الثاني ، و لا يشتمل إلا على نوع واحد ، وهو : العامية .

- القسم الثالث : و لا يشتمل إلا على نوع واحد ، وهو : اللغة الوسطى بين اللغة المعربة و العامية .

### ثالثاً : الحركة في القرآن والحديث بين اللغة العليا ولغة التداول :

اللغة العليا هي اللغة التي تدل الأدبية فيها على مفارقتها لنمط اللغة العادية والتداولية . وبقول آخر ، هي اللغة التي تكون عين فكرتها ، وتعمل لصالحها الخاص . ويرى " أحمد المعتوق " أنها " تسير في اتجاه مضاد لوظيفة التحديد التي تفرضها أو تنتهجها لغة التخاطب العادية لتؤسس لنفسها منطلقات وتقنيات تركيبية وجمالية جديدة تتجه بها إلى مستوى أسمى وأعلى ، معتمدة في ذلك على التجاوز وعلى الانزياح في كل مستوياته . " <sup>(١)</sup> ولا يتصور من هذا ، أن مخالفة اللغة العليا لقوانين اللغة العادية يهدف إلى هدم اللغة ، و " إنما تهدف إلى بنائها وفقاً

(١) أحمد محمد المعتوق : اللغة العليا ، دراسة نقدية في لغة الشعر . ص ٢٧، ٢٨ . المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء

- المغرب . ط ١ ٢٠٠٦ .

لتخطيط أرقى وأسمى ، أو بعبارة أخرى ، يهدف إلى أن يخلق منها لغة من نمط آخر ذات بناء متميز ، أو بتعبير آخر يخلق منها لغة عليا .<sup>(١)</sup>

وإننا إذ نحدد مستويات الخطاب وأنواعه ، فإنما نبحث في أنواع المعنى . والسؤال هو ، كيف تعين الحركة بوصفها علامة في الدلالة على هذه الأنواع وتحديدها ؟

نلاحظ أن الحركة مع الوجود التبليغي والتواصلي للخطاب ، يستدل بها المتلقي على غيرها (والمراد بغيرها وظائفها في سياق الخطاب) كما في المثالين الآتيين :

١- دُمِرَت المدينة .

٢- لا يظلمُ محمدٌ أحداً .

تدل حركة البنية في الفعل ( دُمِرَت ) على صيغة المبني للمجهول التي تتطلب اسماً مرفوعاً بعدها . كما تدل الضمة على وظيفة نائب الفاعل . وهناك طرق عديدة للتعبير عن نفس الفكرة، من مثل : دَمَّرَ الجيشُ المدينة .

فتكون الحركات استجابة لسياق التخاطب بين المتكلم والمتلقي .

وتدل حركة الرفع وصيغة الغياب في المثال الثاني على النفي . فإذا ما جزم المتكلم الفعل مستعملاً صيغة الخطاب ( لا تظلمُ أحداً ) فإنه ينجز فعل النهي باستعمال تلك الأدوات اللغوية علامة عليه . ورغم أن النفي و النهي يميزان نوعين من أساليب الخطاب ، فإن النفي قد يحيل على النهي أحياناً كأن يكون للمخاطب سلطة عليا لا يسع المخاطب أن يسلط عليها نهياً أو أمراً مباشريين ؛ فيلجأ الآخر لمواربة قصده من خلال استبدلات تنجزه جزئياً . فالعلاقة مثلاً بين مدير البنك وموظف عادي لا تخوّل الثاني إصدار أمر و نهى ؛ لذا فقد يحقق هدف النهي عن الربا بنفي معناه النهي من قبيل :

- لا يأخذُ المؤمنُ زيادةً على القرض .

- الحقيقة أن ذلك يعود إلى نظام شركات البطاقات الائتمانية ... .

وفي مجمل الخطاب يمثل كل نوع قصده المباشر طبقاً لنوع العلاقة بين طرفي الخطاب . فيجري النهي على معناه المباشر كلما خاطبت أم ابنها كما في :

- لا ترفع صوتك . - لا تهمل دروسك ... .

وبالمثل ، تتمايز دلالة النفي ، ولا يشكل النهي بديلاً مكنياً لها حينما يرد في خطاب الأم لطبيب الأطفال ، من مثل :

- لا يشرب ابني الدواء .

(١) المرجع السابق : ص ٢٧ .

أما الحركة في (اللغة العليا) فتملك فاعلية لا تملكها في الخطاب العادي ؛ لأنها هي التي تصنع المراد منها ، شأنها شأن باقي العلامات في أية لغة عليا . ذلك ، أنها إذ تدل على وظائفها ، فإنها تصنع شروطاً في فهم المقصود منها ، ولا تخضع لشروط التداول . وبناء عليه ؛ فإن تعدد ظهورها في كلمة واحدة (على سبيل الممكن) يكون ناتجاً للتأويل ، وليس مما يصنعه التداول وسياق الخطاب الدائر بين المرسل والمتلقي .

ولأن القرآن والحديث النبوي يعكسان صورتين : صورة اللغة العليا ، وصورة اللغة التداولية ، فإن الحركة فيهما تتوس بين هذا وذاك . أي أن الحركة في هذين الخطابين ، يُستدل بها على وظائفها ؛ وتقف في الوقت نفسه شاهداً على الدرجة العليا للخطاب ، فلا تخضع لمنطق التداول وقوانينه ، بل تخضع لمنطقها الخاص المحايث لفعل التألقي . وعلى هذا ، فإن المتلقي لقوله تعالى :

" وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاعَنَا فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (يونس) . ولقوله عز وجل في السورة نفسها :

" لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (٢٧) .

يستدل المتلقي بحركتي الضمة والفتحة على وظيفتي الفاعل (أو نائبه) وعلى وظيفة المفعول، وليست الحركة فيه هي وظيفتها النحوية فحسب ؛ ذلك أن الحركة بوصفها علامة تعد من أهم شروط إنشاء هذا الخطاب المعرب ، وإنجاح فهمه . ولأن العلامة في الخطاب القرآني تتجاوز وظيفة التبليغ إلى التأثير في المتلقي .

#### أ) الخطاب القرآني :

- ينفي الله عن فقراء المسلمين المتعفين صفة السؤال ، ويجعل ذلك سمة يعرفون بها " تعرفهم بسميهم لا يسألون الناس إلحافاً " (البقرة : ٢٧٣) . نجد أداة النفي (لا) ووظيفتها رفع الفعل بعدها ، إذ لو أن المراد النهي لقليل : لا تسألوا الناس ، كقوله تعالى : " لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم " (المائدة : ١٠١) . لكن ما معنى نفي السؤال عن المحتاج المتعفف ؟ هل هو نفي للسؤال بالكلية ، أو نفي الإلحاح في السؤال عند الحاجة ؟ . هناك عدة معانٍ " وانتصب (إلحافاً) على أنه مصدر في موضع الحال أي لا يسألون في حال الإلحاف ، أو مفعول لأجله أي لا يسألون لأجل الإلحاف ، وهل المراد نفي المسألة فلا يسألون أصلاً ، أو نفي السؤال بالإلحاف خاصة فلا ينتفي السؤال بغير إلحاف ، فيه احتمال ، والثاني أكثر في الاستعمال . ويحتمل أن يكون المراد لو سألو لم يسألوا إلحافاً فلا يستلزم الوقوع . قال النبي ﷺ : " ليس المسكين الذي تردّه

التمرّة ولا التمرتان ، ولا اللقمة ولا اللقمتان . إنما المسكينُ الذي يتعفف . اقرءوا إن شئتم " لا يسألون الناس إلحافاً " (١).

ثم إن لازم الفعل الكلامي "لا يسألون الناس إلحافاً" للغني هو : أن يجعل صدقته للفقراء المتعففين وقد بين لهم سمتهم . أما للفقير ، فإن الأثر المترتب عليه هو : التعفف عن السؤال وإن اضطر فمن دون إلحاح .

- ويصبح النفي - أداة و حركة - دالاً أكثر انفتاحاً في الخطاب القرآني منه فيما سواه من خطاب ، و ذلك مثل المعاني التي يحيل عليها النفي في قوله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم " (المائدة: ١٠٥) . فالنفي يدخل في إطار أوسع بكثير من مجرد نفي ضرر الضال على المؤمن المستقيم ، دون أن ننسى أثر الفهم في النفاذ للمعنى ، أي أثر التأويل هنا . فهذا النفي " لا يقتضي ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا نهياً و لا إنذاراً ، ... ولكن في الآية فوائد عظيمة منها :

أحدها : ألا يخاف المؤمن من الكفار والمنافقين فإنهم لن يضروه إذا كان مهتدياً .

الثاني : ألا يحزن عليهم و لا يجزع عليهم ؛ فإن معاصيهم لا تضره إذا اهتدى ، والحزن على ما لا يضر عبث .

الثالث : ألا يركن إليهم ، و لا يمد عينه إلى ما أوتوه من السلطان والمال والشهوات ، فإن الإنسان قد يتألم عليهم ومنهم ، إما راغباً و إما راهباً .

الرابع : ألا يعتدي على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم أو ذمهم ، أو نهيمهم أو هجرهم ، أو عقوبتهم ، بل يقال لمن اعتدى عليهم : عليك نفسك لا يضررك من ضل إذا اهتديت . فإن كثيراً من الآمرين الناهيين قد يتعدى حدود الله ، إما بجهل و إما بظلم ، وهذا باب يجب التثبت فيه ، وسواء في ذلك الإنكار على الكفار والمنافقين والفاسقين والعاصين .

الخامس : أن يقوم بالأمر والنهي على الوجه المشروع ، من العلم والرفق ، والصبر ، وحسن القصد ، وسلوك السبيل القصد ، فإن ذلك داخل في قوله : " عليكم أنفسكم " ، وفي قوله : " إذا اهتديتم " .

وفيها المعنى الآخر ، وهو إقبال المرء على مصلحة نفسه علماً وعملاً ، وإعراضه عملاً لا يعنيه . (٢)

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج ٨/ص ٥٠) حديث رقم (٤٥٣٩) كتاب التفسير ، باب "لا يسألون الناس إلحافاً" طبعة دار الريان للتراث - القاهرة . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي و وحب الدين الخطيب . ط ١١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

(٢) ابن تيمية : مجموعة الفتاوى . تحقيق : عامر الجزّار ، أنور الباز . مكتبة العبيكان : الرياض . ج ٧ . ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، بتصرف ، ط ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

هكذا ، ربط "ابن تيمية " الدال " لا يضركم " بمدلولات متعددة تبدو - وفق ذلك الفهم - أفعالاً إنجازية بالمعنى التداولي ، ليصبح الفهم عملاً خلافاً ميدانه النص ، وهذا ما يصدق على فهمه .

- أما النهي وهو طلب كف الفعل على وجه الاستعلاء ، ويعبر عنه بالمضارع المسبوق بلا الناهية وعلامته حركة الجزم . كما قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر " (البقرة: ٢٦٤) . فلازم هذا الفعل "لا تبطلوا" هو نهى المؤمنين عن إذهاب ثواب صدقاتهم باليمن والأذى ؛ فقد " أبطل الله صدقة المنان ، وصدقة المرائي " <sup>١</sup> .

ويخرج النهي كغيره من الأساليب إلى معانٍ أخرى فصلّ البلاغيون والأصوليون فيها القول. عندئذ ، تتحول علامة النهي إلى دالٍ يشير إلى دالٍ آخر ذي دلالة مقصودة . أي أن " المعنى ليس محايثاً للشيء ، ولكنه الفائض الذي تنتجه الممارسة " <sup>٢</sup> . كقوله تعالى في حق الوالدين : " فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً " (الإسراء: ٢٣) . فالمقصود هو تحريم أي نوع من أنواع القول السيئ والفعل القبيح إليهما ؛ لأن (أف) أدنى مراتب الإساءة القولية . وهذا النوع يُعرف عند الأصوليين بالدلالة التابعة .

- ومن الملاحظ أن الوظيفة التي تؤديها الحركة في التفرقة بين الفعل المبني للمعلوم وبين ما لم يسم فاعله ، تعد وظيفة جوهرية في تحديد الدلالة ، إلى حد تتناقض الدلالة به فتبلغ الدرجة صفراً ، عندما تنوب حركة عن أخرى في سائر أنواع الخطاب . ومن ذلك ، قول الحق عزّ وجل :

" إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ " (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا " (البقرة : ١٦٧، ١٦٦) .  
" إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ " (التوبة : ١١١) .

" أَدْنِ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ " (الحج : ٣٩) .  
" يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ " (الرحمن : ٤١) .

- ومما يصبح غامضاً ومبهماً عند غياب الحركات هو الفاعل و المفعول ، كما في قوله تعالى :

" لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ " (الحج: ٣٧)  
" ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ " (المؤمنون : ٤٤)  
" وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ " (النمل: ١٦)

(<sup>١</sup>) المرجع السابق ، ص ٤١٣ .

(<sup>٢</sup>) امبرتو إيكو : العلامة تحليل المفهوم وتاريخه . ص ١٥ .

" إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ " (فاطر: ٢٨)

" وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ " (القمر: ٤١)

" وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ " (البقرة: ١٢٤)

" وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ " (البقرة: ٢٥١) .

- ومما تتزاحم به الحركات حين تكون ممكنات قائمة في التأويل ، قوله تعالى : " لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ " (النساء: ٩٥) . فاختلفت القراءة في " غير أُولِي الضرر " فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بالرفع على البدل من (القاعدون) ، وقرأ الأعمش بالجر على الصفة للمؤمنين ، وقرأ الباقون بالنصب على الاستثناء<sup>(١)</sup> .

- ومما يستغلق معه الخطاب بتعدد الحركات ، قوله تعالى : " ولم يكن له كُفُواً أَحَدٌ " برفع المنصوب ، ونصب المرفوع " فلو أن قارئاً قرأ : ( ولم يكن له كُفُواً أَحَدٌ ) برفع (كفو) ونصب (أحد) لكان قد أثبت كفواً لله -تعالى عما يقولون علواً كبيراً- بل إنَّ الحركة لها أثر ولو لم تكن إعراباً ، ويدل على ذلك لزوم كسر الخاء في قوله تعالى : ( هو الأولُ و الآخر ) وكسر الواو في قوله تعالى : ( هو الله الخالق البارئ المصور ) فإن فتحها يؤدي إلى الكفر " .<sup>(٢)</sup>

ويرى "يوهان فك " أن النص القرآني ، حافظ على نظام الإعراب على نحو لا شك فيه ، إذ يقول : إنَّ " أقدم أثر من آثار النثر العربي ، وهو القرآن ، قد حافظ على غاية التصرف الإعرابي ، فهذا أمر ، وإن لم يكن من الوضوح والجلال بدرجة الشعر ، الذي لا تترك أساليب العروض والقافية مجالاً للشك في إعراب كلماته ، إلا أن مواقع كلام القرآن الاختيارية لا تترك أثراً لشك فيه كذلك . انظر مثلاً آية ٢٨ من سورة فاطر : " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ " . وآية ٣ من سورة التوبة : " أَنْ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ " . وآية ١٢٤ من سورة البقرة : " وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ " . وآية ٨ من سورة النساء : " وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى " .<sup>(٣)</sup>

ومن المعلوم ، أن القرآن الذي شكَّل قطيعة في أسلوبه مع لغة العرب شعراً ونثراً ، لا يوصف بأنه نثر مثل النثر العربي ؛ لأنه هو القرآن ولا يوصف بوصف آخر ؛ لتمييزه من النثر والشعر العربي بالمطلق ، وفي كل التفاصيل ، ومن كل الوجوه ، من جهة أولى ، ثم

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج٨/ص١٠٨) حديث رقم (٤٥٩٢) كتاب التفسير باب ( لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ) .

(٢) [http://www.alukah.net/Literature\\_Language/1179/36097](http://www.alukah.net/Literature_Language/1179/36097)

صادق بن محمد الهادي : أهمية اللغة العربية ومميزاتها

(٣) يوهان فك : العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب . ص ٣٥ . ترجمة د: عبد الحليم النجار . الدار المصرية

السعودية ، القاهرة ٢٠٠٦ م .

إن القرآن إذا عُذَّ نثراً عربياً بمعيار يوهان الخاطيء ، فإنه ليس الأثر الأقدم من جهة أخرى .

### ب) الخطاب النبوي :

ترتبط الحركات بلغة الخطاب النبوي ، ارتباط مصير أيضاً ، فلا يقوم النص من دونها كما هو الشأن في لغة الخطاب القرآني ، كما أن تعدد دلالة الحركة داخل نص الحديث الواحد ، يعتمد على ممكن التأويل ، لا على سياق التداول .  
الأمثلة :

- مثال الحركات التي تؤلف تقابلات دلالية ، قول الرسول ﷺ :  
" إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعاً ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى ناسٌ جهالٌ يُسْتَفْتُونَ فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون " (١).  
" لو يُعْطَى الناسُ بدعواهم ، لادّعى رجالٌ أموال قومٍ ودماءهم ، لكنّ البيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر " (٢).

" لم يأت رجلٌ بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً " (٣).

" لا يدخل أحدُ الجنة إلا أُرِيَ مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً ، ولا يدخل أحدُ النار إلا أُرِيَ مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة " (٤).  
" ربّ مُبلِّغٍ أوعى من سامع " (٥).

وفي الدعاء : " ربّ أعوذ بك من أن أزلَّ أو أُزلَّ ، أو أضلَّ أو أُضلَّ ، أو أظلم أو أُظلم ، أو أجهل أو يُجهل علي " (٦).

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج ١٣/ص ٢٩٥) حديث رقم (٧٣٠٦) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب ما يُذكر من ذم الرأي وتكلف القياس .

(٢) صحيح البخاري ( ج ٦ / ص ٣٥ ) حديث رقم ( ٤٥٥٢ ) كتاب تفسير القرآن - سورة آل عمران باب أن رجلاً أقام سلة في السوق فحلف فيها ولقد أعطي بها ما لم يعطه ، تحقيق محمد زهير الناصر ، دار طوق النجاة - بيروت ١٤٢٢هـ .

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج ١/ص ٣١) الحديث رقم (٣) كتاب بدء الوحي .

(٤) صحيح البخاري ( ج ٨ / ص ١١٧ ) كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، حديث رقم ( ٦٥٦٩ ) .

(٥) فتح الباري (ج ١/ص ١٩٠) حديث رقم (٦٧) كتاب العلم ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم " رب مبلِّغ أوعى من سامع " . وهذا الحديث معلق أورد البخاري في الباب معناه ، وأما لفظه فهو موصول عنده في باب الخطبة بمنى من كتاب الحج .

(٦) سنن النسائي ص ٨٢٦ حديث رقم (٥٤٨٦) كتاب الاستعاذة - باب الاستعاذة من الضلال . تحقيق : ناصر الدين الألباني ، ومشهور السلمان . ط ١ مكتبة المعارف للنشر والتوزيع .

- ومثال ما تفرّق علامة الإعراب دلالاته ، قول الرسول ﷺ :  
 " قال النبي ﷺ قال الله تعالى : يؤذيني ابنُ آدمَ يسبُّ الدهرَ وأنا الدهر ، بيدي الأمر  
 أَقلَّب الليل والنهار " (١).  
 " ... فقال النبي ﷺ : يا عباس ألا تعجبُ من حبِّ مغيثٍ بريرة ، ومن بغض بريرة  
مغيثاً " (٢).  
 " لو كان لابن لآدم واديان من مال لا يتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابنِ آدمَ إلا الترابُ " (٣) .  
 " لا يأتي ابنَ آدم النذرُ بشيءٍ لم يكن قد قدرته ولكن يُلقِيه القَدَرُ وقد قدرته له أستخرج  
 به من البخيل " (٤) .  
 " وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم ، أو قال : على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنته " (٥)

" إنَّ الدينَ يسرٌ ، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه ... " (٦) .  
 - ويمكن أن تدل الحركة على الفاعل في حالة وروده ضميراً مستتراً أيضاً ، مثل قوله  
 ﷺ عن ربه : " قال الله أنفق يا ابنَ آدمَ أنفق عليك " (٧) . " أنفق الأولى بفتح أوله  
 وسكون القاف بصيغة الأمر بالإنفاق ، والثانية بضم أوله وسكون القاف على الجواب  
 بصيغة المضارع ، و هو وعد بالخلف ، ومنه قوله تعالى : " وما أنفقتم من شيءٍ فهو  
 يخلفه " (٨) .  
 ومنه ما أرسله ابن عباس : " قال أبو جهل لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأنَّ على  
 عنقه . فبلغ النبي ﷺ فقال : لو فعله لأخذته الملائكة " (٩) .

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج ١٣/ص ٤٧٢) حديث رقم (٧٤٩١) كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى "يريدون أن يبدلوا كلام الله" .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج ٩/ص ٣١٩) حديث رقم (٥٢٨٣) كتاب الطلاق ، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في زوج بريرة .

(٣) صحيح البخاري ( ج ٨ / ص ٩٢ ) حديث رقم (٦٤٣٦) كتاب الرقاق ، باب ما لا يتقى من فتنة المال .

(٤) صحيح البخاري ( ج ٨ / ص ١٤١ ) حديث رقم (٦٦٩٤) كتاب الأيمان والنذور ، باب الوفاء بالنذر .

(٥) شرح الأربعين نووية : ( الحديث : ٢٩ ) ص ١١٧ .

(٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج ١/ص ١١٦) حديث رقم (٢٩) كتاب الإيمان ، باب الدين يسر .

(٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج ٩/ص ٤٠٧) حديث رقم (٥٣٥٢) كتاب النفقات ، باب فضل النفقة على الأهل .

(٨) المرجع السابق: ص ٤٠٩

(٩) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج ٨/ص ٥٩٦) حديث رقم (٤٩٥٨) كتاب التفسير ، باب ( كلا لئن لم ينته لنسفنا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ) .

فنصبُ (النبي) يشير إلى أن ثمة فاعلاً وهو ضمير مرجعه ما تقدم من تهديد . والتهديد فعل كلامي .

ومثل ذلك ( ما تمثل به الحركة جزءاً من اللغة الفاعلة ) سند الحديث " ربّ مُبلِّغ أوعى من سامع " في صحيح البخاري : " حدثنا مُسَدَّدٌ قال : حدثنا بشر قال حدثنا ابنُ عونٍ عن ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة ذكرَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قعدَ على بعيره ... " (١).  
فقوله : " ذكرَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ... " بنصب النبي على المفعولية . وفي (ذكر) ضمير يعود على الراوي ، يعني أن أبا بكرة كان يحدثهم ، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قعد على بعيره (٢).

- ومثال ما تكون الحركات فيه ممكنات قائمة في التأويل ، حديث عائشة أمّ المؤمنين : " فجاءه الملكُ فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد " (٣).

وقوله ( حتى بلغ مني الجهد ) روي بالفتح والنصب ، أي بلغ الغط مني غاية وسعي . وروي بالضم والرفع أي بلغ مني الجهد مبلغه . (٤)

- ومثال ما يستغلق معه معنى الخطاب بتعدد الحركات ، قوله ﷺ : " لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَ لأخيه ما يحبُ لنفسه " (٥). قوله (حتى يحب) بالنصب لأن حتى جارة وأن بعدها مضمرة ، ولا يجوز الرفع فتكون حتى عاطفة فلا يصح المعنى ، إذ عدم الإيمان ليس سبباً للمحبة . (٦)

### ج) الخطاب الشعري :

إن تماهي الشعر مع القيمة الجمالية ، يجعل هذه القيمة وظيفته الأساسية . فهي ترسم حدّ الاختلاف بين اللغة الشعرية في الخطاب الشعري ، وبين اللغة غير الشعرية في استعمالات الحياة اليومية . ومن هذه الناحية أيضاً ، تتحدد درجة الشعرية في الخطاب الشعري المرتكز عليها ، بالقياس إلى درجة الشعرية في الأعمال الأدبية الأخرى . ذلك أنها تلتقي مع الشعر حول الشعرية غاية ، وتختلف معه حول دور الشعرية في بناء بنية الخطاب التركيبية ، والدالية ، والموسيقية ، والأسلوبية .

(١) تقدّم تخريجه : كتاب العلم ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم " ربّ مُبلِّغ أوعى من سامع " .

(٢) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري (ج ١/ص ١٩١) كتاب العلم ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم " رب مبلغ أوعى من سامع " .

(٣) فتح الباري (ج ١ / ص ٣٠) كتاب بدء الوحي ، حديث رقم ( ٣ ) .

(٤) المرجع السابق : ص ٣٣ .

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج ١ / ص ٧٣) حديث رقم ( ١٣ ) كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان .

(٦) المرجع السابق : ص ٧٤ .

وتتخذ الشعرية أشكالاً كثيرة في الخطاب الشعري من خلال جميع علاماته التي تنتج الجمالية قولاً شعرياً و رؤياً مختلفة . وعليه ، فإن مفهوم الشعرية ليس مفهوماً خاصاً باستعمال الكلمات في الخطاب الشعري ، إنما ينهض بكل علاماته التي تجعل منه شعراً ، والحركة إحداها ؛ لأن أوزان الشعر العربي ، والتوازنات الصوتية فيه ، وكل قواعده الموسيقية إنما تقوم على الحركات . ومن دون الحركات " تختل أوزان هذا الشعر وتضطرب موسيقاه . . . ولا يمكن أن يكون قد أُلّف غير معرب الكلمات ؛ لأن عدم إعرابها يترتب عليه اضطراب أوزانه واختلال موسيقاه . " (١)

ولا تكون الحركة شرطاً لتوليد موسيقى الشعر فحسب ، لكنها تتيح للشاعر إمكانات تتعلق بالتقديم والتأخير دون أن يختل الوزن ، ومن ذلك قول جرير :

لقد ولدَ الأخيطلَ أمٌ سوء (٢)

وقوله أيضاً :

كما أتى ربّه موسى على قَدَرٍ (٣)

وقول المجنون :

فما زاد إلا ضعفَ ما بي كلامُها (٤)

---

(١) علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة . ص ١٠٦ . دار لجنة البيان العربي . ط ٥ - القاهرة ٢٠٠٤ م .

(٢) ابن هشام الأنصاري : أوضح المسالك ج ٢ ص ١٠٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ١١١ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٠٩ .

كما تحقق الحركة توازناً دلاليّاً إلى جانب التوازن الإيقاعي ، ومن ذلك قول الفرزدق:

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ      فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَاسُ<sup>(١)</sup>

وعلى المستوى الدلالي نفسه ، قد تحدّ الحركة من الإمكانيات المتعددة ، فتحصرها في معنى محدد ، كقول أبي تمام :

كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى      وَ حَنِينُهُ أَبْدَأَ لِأَوَّلِ مَنْزِلٍ<sup>(٢)</sup>

إن ( كَمْ ) تستعمل في غرضين هما : السؤال عن العدد ؛ فتكون استفهامية ، أو للتكثير ؛ فتكون عندئذٍ خبرية . ولأن المراد هو كثرة المنازل التي قد يستقر أو يمر بها الإنسان في حياته ، فلا يمكن تكثيرها بغير ( كم ) الخبرية ؛ ولذلك كان تمييزها مجروراً . وليست بمعنى أي عدد من المنازل ؟ حتى تشكل الاستفهامية بديلاً متاحاً .

والحركة إذ تحصر المتعدد دلالةً في ممكن واحد ، يُنظَر إليها بوصفها مؤولاً للدلالة ، وجزءاً من اللغة الفاعلة . ومن هذه الوظيفة أيضاً ، قول الشاعر :

عَلَى الْحَكَمِ الْمَأْتِيٍّ يَوْمًا إِذَا قَضَى      قَضِيَّتُهُ أَنْ لَا يَجُورَ وَيَقْصِدُ<sup>(٣)</sup>

" وهذا متعين للاستئناف ؛ لأن العطف يجعله شريكاً في النفي ، فيلزم التناقض . " <sup>(٤)</sup>

إن الحركة هي التي عيّنت الاستئناف ، ومنعت الاشتراك ؛ ففهم منها المخالفة بين الفعلين . وقد تكون الحركة متعددة الدلالة داخل الخطاب الشعري استناداً إلى التلقي ، كما في قول الفرزدق يهجو جريراً :

كَمْ عَمَةٍ لَكَ يَا جَرِيرُ وَخَالَةٍ      فَدَعَاءَ قَدْ حَلَبْتُ عَلَيَّ عَشَارِي<sup>(٥)</sup>

فلما كان الفرزدق يفتخر بكثرة من قد حلب نياقه من عمات جرير وخالاته ، دلّت الكسرة في تمييز ( كم ) الخبرية على معنى التكثير . و " قيل بالنصب : على الاستفهام التهكمي . " <sup>(٦)</sup> إذاً ، فللحركة/العلامة أكثر من وظيفة في لغة الشعر ، إن على مستوى الإيقاع ، وإن على مستوى الدلالة ، سنعود إليها في أكثر من موضع لاحقاً \* .

(١) المرجع السابق ص ١٣١ .

(٢) ديوان أبي تمام الطائي . شرح ألفاظه : محيي الدين الخياط . ص ٤٥٧ ، ط ١٩٩٠ .

(٣) ابن هشام الأنصاري : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب . ج ٢ ص ٢٣ .

(٤) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

(٥) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ج ٤ ، ص ٢٤٣ .

(٦) المرجع السابق : ص ٢٤٥ .

\* انظر معالجاتي للضرورة الشعرية في الفصل الثاني من القسم الثاني ، ثم انظر دور الحركة المساند للنبر ، وللتقديم والتأخير في الفصل الثالث من القسم الثاني أيضاً .

## رابعاً : مستوى اللغة الوسطى :

تكاد تنحصر اللغة المعربة اليوم في بعض أنشطة الإعلام المرئي والمسموع، وتحديداً في : نشرات الأخبار ، والبرامج الوثائقية والأدبية ، والبيانات الرسمية ، ورسوم الأطفال . كما تعد الخطب الدينية ، وكلمات المحافل ، ولغة الدرس العلمي من أهم الخطابات المعربة في التعامل اليومي بين الناس . سواء كان الهدف الإبلاغ ، أو الإقناع ، أو الإمتاع ، أو التعاون ... إلخ . ولأن الناطقين بلسان واحد يتفاوتون بالأداء ، فإننا نجد فيما سبق الإبداع ، والصواب ، إلى جانب الخطأ .

هذه الضروب من الأداء التي تعكس قوة حضور اللغة المعربة ومدى توظيف العلامات اللغوية، تثير مسألة علاقة علامات التكوين كلمةً والتركيب جملةً بمستويات اللغة المختلفة وأهمها : الفصحى ، الفصيحة أو (الوسطى) والعامية.

واللغة الوسطى هي اللغة السليمة المحكية التي سماها " أحمد المعتوق" بـ(اللغة الثالثة) " تلك التي تعني في واقعها مستوى لغوياً يقف وسطاً بين الفصحى لغة الأدب وبين العامية ولهجاتها المحلية المختلفة ، وتكون بمثابة لغة مشتركة معافاة سليمة سائغة ، يجيدها الخاصة ولا يعجز عنها أو يستعصمها العامة . لغة تتسع الفرص بها للتعبير بالعربية الصحيحة في كل مجالات الإعلام والتعليم والتوعية والتثاقف المحكي بنحو عام . وهكذا تسهم هذه اللغة \* في تحقيق المزيد من ديمقراطية العلم والمعرفة في المجتمع العربي وفي تضيق الفجوات الثقافية بين طبقات هذا المجتمع"<sup>(١)</sup>.

والذي نراه أن الفصحى ليست لغة الأدب ؛ لأن لغة الأدب لغة خاصة وهذا ما يعطيها أدبيتها . أما الفصحى ، فهي اللغة المعيارية والعامية التي يستعملها الناس ، كل الناس ، بمستويات مختلفة .

أما اللغة الوسطى عند "نهاد الموسى" فهي "عربية المتعلمين والمتقنين والمتخصصين في المجالات المعرفية المختلفة في مواقف الحوار والمشافهة" <sup>(٢)</sup> . ومن مجالات الممارسة اللغوية لمستوى اللغة الوسطى تداولها اليومي في الخطاب السياسي عبر وسائل الإعلام والتواصل المختلفة . وهو خطاب موجّه ينطوي على اتجاه أيّدولوجي يستنفر اللغة بكل براعة ؛ بغية التأثير في الجمهور المستهدف أكثر من التبليغ . فعندما يصف أحدهم الرئيس بأنه (جزّار) ، فإن المعنى المركزي هو معنى صيغة (فَعَّل) التي تتضمن كماً زائداً من القتل . مثلها (كذاب)

\* بوصفها مستوى لغوياً داخل اللغة ، وليس بوصفها لغة مميزة قائمة بذاتها .

(١) أحمد محمد معتوق : نظرية اللغة الثالثة (دراسة في قضية اللغة العربية الوسطى) . ص ٧ . المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء - المغرب . ط١-٢٠٠٥م .

(٢) نهاد الموسى : اللغة العربية في العصر الحديث قيم الثبوت وقيم التحول . ص ١٠٤ . ط١ . عمان - الأردن . دار الشروق للنشر والتوزيع ٢٠٠٧م .

في قوله تعالى : " سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِيرُ " (القمر: ٢٦) . ومثله أيضاً مضعف العين الثلاثي ، كقولنا : سلم محمد . لإشعار المخاطبين بضرورة رد السلام . فـ ( سلم ) بمعنى : ألقى التحية ، تفرق عن ( سلم ) بمعنى السلامة .

في المقابل ، تتردد مقولة مشهورة في الإعلام الرسمي الناطق عن الرئيس ذاته وهي قولهم :

- تنفيذاً لأوامر الرئيس بتطهير البلاد من الجماعات المسلحة ، يتم في ... .

والعبارة تثير انتباه المخاطب بتقديم المفعول لأجله أول الخطاب ؛ لاستمالة ذهن المخاطب إلى اهتمام الرئيس بأمن الوطن . والأثر اللازم لمثل هذا الخطاب هو : تسويق فكرة القتل من أجل الأمن ، وتسويقها إعلامياً بعد ممارستها على أرض الواقع . مما يشكل في المجتمع قيم التضليل وتبرير القتل والتحريض على الصراع . أما المخاطب ، فإن ردة فعله تتفاوت ما بين القبول والاستحسان ، أو الرفض والاستهجان ، وذلك من موقع مرجعيته الفكرية .

في موضع آخر ، يحقق خطاب الإعلانات التجارية وغيرها وجوده العملي بشكل لغة بسيطة موجزة ، كثيراً ما تستعمل اسم المفعول للطلب مثل إعلان الشركات : ( مطلوب موظفون ) ، ( مطلوب معدات ... ) . وتستعمل للتسويق تركيب الإضافة ، والنعت ، من مثل : تخفيضات الموسم ، تخفيضات هائلة . أو صيغة الأمر : انتهز موسم التخفيضات ، وفر النصف وأكثر .

والأثر اللازم عنها : إثارة دافعية الإقبال لدى المخاطب لا مجرد الإخبار ؛ لذا نادراً ما تستعمل تركيباً من مثل : توجد تخفيضات . أما التفاعل بين خطاب التسويق والمخاطب فيكون رهناً لوضعه من حيث الجنس ، والسن ، والحالة الاجتماعية والاقتصادية . إذ تسهم بعض الأوضاع بانجذاب أكبر للاستهلاك كما في حال الأمهات ميسورات الحال . فالهدف من الخطاب ومكانه أنتجه لغوياً بذلك الشكل ؛ ليلائم سياق التلقي هدفاً وميداناً .

وقد جعل " نهاد الموسى " مستويات اللغة ثمانية . بادئاً بالفصحى التي هي لغة القرآن الكريم . وقد رأى أن عامة المتعلمين العرب يستعملون في حياتهم اليومية مستويين لغويين : هما العامية والوسطى للمشافهة ، والفصحى للكتابة . لكن في الموضع نفسه يقرر أن المستويات ازدواجية! حيث يقول " ونستخرج حول هذه الظاهرة ما لاحظته " فرجسون " عن ظاهرة الازدواجية في العربية ، وكيف تتمثل في وجود مستويين لغويين ، أحدهما للمشافهة في الشؤون اليومية أو (الدنيا) وأحدهما للكتابة أو الموضوعات العليا ، وأنهما يقتسمان المواقع والوظائف اللغوية في حياتنا ... بل يستعمل أبناء العربية لغتهم على ازدواجيتها، ويتحملون أعباء الازدواجية ويستحملون ما تكلفهم من اللجاجة عندما ينتقلون من مستوى لغوي إلى آخر " (١) .

(١) نهاد الموسى : المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

وكذلك يرى "أنيس فريجة" أن اللغة الفصحى هي لغة تقابلها العربية المحكية العامية <sup>(١)</sup> . وأن الأخيرة لغة قائمة بذاتها ، حية متطورة . <sup>(٢)</sup> وهذا غير صحيح ؛ لأن العامية تستمد وجودها من الفصحى ، وهذا يعني أنها لا تقوم بذاتها وإنما تقوم بالفصحى التي تطورها ، وهذا ما يشهد عليه الواقع اللغوي للعربية اليوم .

ويتفق "مازن الوعر" مع رأي "فريجة" السابق حيث يقول " كل لغة من لغات العالم لها شكلان متميزان : الشكل المنطوق والشكل المكتوب . وقد كان يظن قديماً وحتى إلى حين بأن اللغة المكتوبة هي انعكاس للغة المنطوقة ولكن الدراسات اللسانية الاجتماعية كشفت بأن لكل لغة من تينك اللغتين مكوناتها وشخصيتها ومميزاتها وعواملها التي تميزها عن مثيلتها" <sup>(٣)</sup> .

لكن العربية يختلف شأنها ؛ لأن اللغة المنطوقة فيها تستمد وجودها من وجود اللغة المكتوبة . ويفسر هذا الأمر وجود المكوّن الحضاري ( النص القرآني ، والنبوي ) الذي يربط بينهما ، وهو ما لا نجده في الحضارات الأخرى .

وبتواضع أرى أن في هذا خلطاً لمستويات اللغة الواحدة التي مهما تعددت فلا تشكل نظاماً آخر يتطلب التمكن صوتاً ونحواً ودلالة ، في مقابل نظام لغوي آخر ، تترتب الازدواجية على وجوده كعلاقة العربية باللغات الأجنبية ، والتي لا تخلو من ظاهرة المستويات .

بينما يعد "علي وافي" العلاقة بين العاميات والفصحى - مهما اتسعت مسافة الخلف بينهما - علاقة لهجات متولدة من أصل واحد هو اللسان العربي . إذ "يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللهجات يختلف بعضها عن بعض في كثير من الوجوه . ولكنها تظل مع ذلك متفقة في وجوه أخرى ، إذ يترك الأصل الأول في كل منها أثراً تنطبق بما بينها من صلات القرابة ولحمة النسب اللغوي . وكثيراً ما يبقى الأصل الأول لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللهجات المتفرعة منه " <sup>(٤)</sup> .

ولم يكتفِ "منذر عياشي" ببيان وهم الازدواجية ، بل احتج على هذا الخطأ بواقع الأداء اللغوي ومفهوم التمكن عند المستعملين الأميين . ذلك أننا إذا "أردنا أن نعالج قضية الفصحى والعامية بموجب مبدأ التمكن والأداء ، فس نجد أنهما يتمثلان في أدائين لتمكن واحد . ودليل هذا هو أن السامع العربي يستطيع عبر تمكنه الفطري أن يفهم ما يتلقاه من جمل ، وإن كانت من حيث الأداء تنتمي إلى الفصحى ، أي إلى الأداء الذي لا يقوم بإنجازه فعلاً في حياته اليومية . وما كان ذلك ليتم لولا أن الفصحى والعامية كأداتين يرتكزان على تمكن واحد . وهذا ما يفسر

(١) أنيس فريجة : نحو عربية ميسرة . ص ١٠ . بيروت - دار الثقافة ١٩٩٥م .

(٢) المرجع السابق ص ١١٦ .

(٣) مازن الوعر : قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ص ٤٨١ . ط ١ . دمشق ، دار طلاس ١٩٨٨م .

(٤) علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة . ص ١١٢ .

حصول التواصل (الذي هو هدف كل رسالة لسانية) بين المتكلمين العرب على اختلاف مستوياتهم في الأداء " (١) .

ثم إن الأداء اليومي إنما هو ميل عن مستوى الفصحى لا عن اللغة العربية إلى أخرى " فالميل الذي نتحدث عنه هو ميل عن الفصحى في الأداء اليومي، وليس ميلاً عن العربية على وجه العموم في لغة أخرى حملها الوافدون معهم " (٢).

لكن السؤال هنا : ما الذي ينجم عن غياب علامات الإعراب ؟ وبأي مستوى ارتبط ذلك الغياب ؟ .

### خامساً : مستوى العامية :

يمكن القول إن غياب الإعراب يعد من أهم الفوارق بين العامية والعربية الفصيحة . أما الفصحى بوصفها لغة القرآن الكريم والحديث الصحيح ، ثم لغة الآثار الأدبية الرفيعة فقد عرفت معربة منذ العصر الجاهلي ، ولا يمكن أن تتجرد منه .

وقد ارتبطت الفصيحة بلغة الإعلام ، والدراسة ، والمحافل الرسمية ، والخطابة وهي ملتزمة بالإعراب (رغم الأخطاء الواردة) . فيما ظلت العامية لغة التواصل في الحياة اليومية خالية من الإعراب (فيما عدا آثار منه عند بعض اللهجات) . ولا يعني عدم النطق بالحركات ، عدم وجودها بالمطلق . ذلك لأن اللغة تقوم في كثير من جوانبها التركيبية على أنواع من الغياب تتمثل في :

١- المسكوت عنه لفظاً ، مثل الحركات .

٢- الحذف . وهو ينقسم إلى أنواع .

٣- الاقتصاد في النطق ، وبذل الجهد الأقل في التواصل .

والجدير بالذكر أن كل أنواع الغياب التي نلمسها وجوداً في الأداء ، أو في البنية الفوقية لما نتلفظ به من جمل أو كلام ، هي قائمة ضرورة في "التمكن" ، أو في البنية التحتية لما نتلفظ به وإن بشكل غير واعٍ أو مدرك عقلاً وعلماً ومعرفة .

ويشير "علي عبد الوافي" إلى مظاهر اختلاف آخر الكلمات في اللهجات العربية الفصحى، سواء في ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان حركة بناء " (٣) . كما يرى "نهاد موسى" أن "لهجات الخطاب انتهت جميعاً إلى أطراح الإعراب... وأن انحسار الإعراب يمثل أقوى

(١) منذر عياشي : قضايا لسانية وحضارية . ص ٦٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٦ .

(٣) علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة ص ١٢٤ .

العوامل في هذا الصدع الذي أفضى إلى الازدواجية، فهو الذي أصبح فارقاً أصولياً حاسماً بين الفصحى والعامية كما انتهى إليه ابن خلدون فأثبتته في مقدمته<sup>(١)</sup>.

ويعد هذا الرأي - افتراق العامية عن الفصحى بغياب الإعراب - اتجاهًا سائداً وإن طرح بطرق مختلفة. يقول يوهان فك : " إن التحرر من الإعراب قرينة أكيدة على مخالفة الفصحى ، لا العكس ، أي أنه ليست مخالفة الفصحى مختصرة في التحرر من الإعراب. (٢).

ويختلف الأمر بالنسبة إلى حركات البنية التي تكون جسد الكلمات صوتياً بالعربية ؛ فلا يمكن أن يخلو أي مستوى للغة منها . ونتيجة التقدم التكنولوجي المتسارع في جميع مجالات الحياة اليوم ؛ يلجأ العرب وخصوصاً جيل الشباب إلى ابتكار مصطلحات هجينة - للأسف - دون الترجمة ، وذلك بصياغة كلمات أجنبية (إنجليزية ، أو فرنسية غالباً ) على أوزان عربية ، بالاستناد إلى حركات البنية الداخلية من مثل \* :

١- فعل : فكّس ( من fax كلمة فرنسية مقابلها الفصحى "ناسوخ" ولكنها تُستخدم عموماً معربة "فاكس" ، ... ومعناها : أرسل بالفاكس ). مسّج ( message ، كلمة فرنسية مقابلها الفصحى "رسالة" ، ومعناها الشبائي : أرسل رسالة قصيرة أو رسالة sms عبر الهاتف الخليوي ).  
فَيَز : ( من visa ). تكّس : ( من Taxi ) .

٢- نفعل : تدوّش من douche ، الكلمة الفرنسية التي تعني : رشّاش ، حمام رشّاش ، ... أما doucher ، فهو الفعل الفرنسي الذي يعني انتضح بالماء.

٣- فوعل : نوّبل مشتقة من اسم العلم "نوبل" والمراد بها : نال جائزة ألفرد نوبل .  
- بوّكل : (من blocage الفرنسية بمعنى "توقيف ، إيقاف ، حصر" أو من block to الإنكليزية بمعنى "سدّ ، أعاق ، أحبط" ) .

- فَوْتَر : (من facturer الفرنسي الذي يعني : نظّم فاتورة ) .

- صَوْن : (من savon ، الكلمة الفرنسية المعربة والملفوظة sabounn ، كما يعتبر البعض أنه من sapone الكلمة الإيطالية المعربة صابون ) بمعنى غسل بالصابون.

- شوْفَر : ( من chauffeur ، الكلمة الفرنسية التي تعني "سائق" ، وقد اشتقت العامة من الكلمة الفرنسية كلمة معربة هي "شوفير" ، ومن هذه الأخيرة جاءت الصيغة الفعلية.

٤- فعلل : شدّونَ ( من to shut down ، الفعل الإنكليزي الذي يعني يغلق ) .

- فرَمَل : ( من freiner ، الفعل الفرنسي الذي يعني : كبح ) .

(١) نهاد الموسى : قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث . ص ٧٢-٧٣ . ط ١ . عمان : دار الفكر .

(٢) يوهان فك : دراسات في اللغة واللهجات والأساليب العربية . ص ٣٤ . ترجمة : عبد الحليم النجار ، الدار المصرية السعودية - القاهرة . ٢٠٠٦م

(٣) جميع الأمثلة مأخوذة من دراسة لسانية حديثة للدكتور نادر سراج ، هي : الشباب ولغة العصر . الدار العربية للعلوم ناشرون ط ١ . ١٤٣٣هـ ، ٢٠١٢م . من ص ١٥٥ إلى ص ١٧٠ .

- دَبَّلَجَ : (من doubler ، الفعل الفرنسي الذي يعني : سَجَّلَ الترجمة لفيلم سينمائي ) .
  - مَكَيَّجَ : (من maquillage ، الكلمة الفرنسية التي تعني : جَمَّلَ إِطْلَاءَ الوجه بمساحيق التجميل ، والفعل منها : مكيح ) .
  - أَكْشَنَ : (من Action ، الإنكليزية أو الفرنسية بمعنى الفعل أو الحركة ) . والشاهد هو صيغة فعلية جاءت على لسان معلن عن برنامج تلفزيوني دعائي لقناة M.B.C. Action أَكْشَنَهَا في جدة .
  - دَوَكَّرَ : ( من decorer ، الفعل الفرنسي الذي يعني : زخرف ، زَوَّقَ ، زَيَّنَ )
  - ٥- تَفَعَّلَ : تَمَرَّكَسَ : فعل مشتق من "الماركسية" ، ويراد به هنا من ينتقل بسهولة وسلالة مذهلة في التزامه من اليمين إلى اليسار .
  - ٦- استَفَعَلَ : استَكَلَسَ ( من classe ، المفردة الفرنسية التي تعني ، طبقة ، فئة) .
- والسؤال المطروح هو: كيف عدَّ علماء العربية غياب الحركات من الكلمة سواء حركات البنية الداخلية أم علامات الإعراب الأواخر؟ وماذا قالوا عنها؟ وهو ما سيناقشه الفصل الأول من القسم الثاني (الآتي) .
- من جهة أخرى ، يشكِّل مفهوم (الفعل الكلامي) أحد أهم المفاهيم التداولية ، فكيف تُعالج علامات الإعراب في ضوءه ؟ وهل كان لهذا المفهوم ممارسات في التراث ؟

## سادساً : الأفعال الكلامية :

يطرح "أوستين" جملة من الأفكار في محاضراته ؛ للإجابة عن السؤال الآتي: كيف ننجز الأشياء بالكلام ؟ . ذلك أن الأشياء موجودة بالقوة ، والكلام هو ما يوجد بها بالفعل . وهو ما يعبر عنه بقوله : "عندما يعني القول الفعل" . ولعل ذلك من الكليات التي تعلم بالعقل ؛ لاستحالة إنجاز الكثير من الأفعال ، وإقامة العلاقات الاجتماعية ، وتوقف إبرام العقود إلا بالكلام . الأمر الذي فطن إليه القدماء والمتأخرون على حد سواء .

فالتلفظ - بأي شكل كان - هو النشاط الذي ينجز الأفعال اللغوية . تستوي في ذلك الجملة ، وشبهها ، بل وما تجاوز الجملة ، أو يقل عنها كالكلمة المفردة متى ما أفادت . عندئذ يكون قول شيء ما ، هو إنجازه كالألفاظ المخصوصة بالزواج ، والطلاق ، والعقود ، والرهان ، وأساليب الوعيد ، والتحذير ، والقسم ... إلخ ، مما لا يمكن تجريده من اللغة والاستعمال .

مثال ذلك هذا الحوار بين صديقين في موقف السيارات :

- كيف حالك ؟
- أنا ميّتٌ من التعب ، والمنزلُ بعيد .
- أتودُّ أن أصحبك بسيارتي ؟
- شكراً .

إن المعنى المتعين من قوله ( أنا ميّت من التعب ) هو : ألتمس أن توصلني بسيارتك . وفي المصدر (شكراً) أنجز المتكلم فعل التقدير والاعتراف بالجميل .  
 فإذا ما قال : إنَّ الجوَّ جميل . يفهم المخاطب أنه يريد المشي للاستمتاع بالجو .  
 ويمكن لـ ( كم ) أن تدل على الاستفهام ، أو المبالغة في الإخبار بوساطة حركة ما بعدها ، كما في مثل هذا الحوار :

- أ تعيرني كتابك ؟
- كم كتاباً لي عندك ؟ : بنصب تمييز ( كم ) الاستفهامية .
- أو : كم كتاب لي عندك ؟ بجر تمييز ( كم ) الخبرية .

ويُعرّف الفعلُ الكلاميُّ Speech act بأنه " كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري . ويعد نشاطاً مادياً نحوياً يتوسل أفعالاً قولية لتحقيق أغراض إنجازية (كالطلب والأمر والوعد والوعيد .. ألخ) ، وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول) . ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلاً تأثيرياً ، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب ، اجتماعياً أو مؤسسياً ، ومن ثم إنجاز شيء ما." (١)  
 ويتكون فعل الكلام - في نظر أوستين وسيرل - من " تراتبية منسقة موزعة على مستويات ثلاثة :

١. مستوى الفعل التعبيري أو الافتراضي ، أي فعل القول .
  ٢. مستوى الفعل أو القدرة اللاتعبيرية ، أي ما نقوم به ونحن نتكلم .
  ٣. مستوى الفعل التعبيري المولد ، أي ما نقوم به بناءً على القول" (٢)
- ويعطي "أوستين" أمثلة لمفهوم فعل الكلام بمصطلحاته الثلاث ومنها :

(أ) فعل الكلام Act (A) or Locution

قد قال لي "أقتلها رمياً بالرصاص" قاصداً بذلك استعمال فعل القتل على حقيقته ، وبالضمير الهاء المرأة على الحقيقة .

(ب) قوة فعل الكلام illocution Act (B)

لقد حضني (أو نصح لي) ، أو أمرني بأن أقتلها رمياً بالرصاص .

(ج) لازم الفعل Act (C) Perlocution

لقد حملني على (أو جعلني .. أو غير ذلك) أن أقتلها رمياً بالرصاص .

(١) مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي) . ص ٤٠ .

(٢) بول ريكور : من النص إلى الفعل (أبحاث التأويل) . ص ١٢٩ . ترجمة : محمد برادة - حسان بورقية . دار الأمان . الرباط . ط ١ ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .

"وقياساً على هذا ، يمكن أن نميز فعل الكلام (قال إن ...) عن قوة فعل الكلام (احتج بأن ...) وأن انفصلهما معاً عن لازم فعل الكلام (أقنعني بأن ..) " (١) .

ففي الآية الكريمة مثلاً {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} (٢) يبدو الفعل الكلامي على النحو الآتي :

(أ) فعل الكلام : هو التلفظ بالفعل في سياق لغوي وفقاً للنظام الصوتي ، النحوي ، والدلالي .

(ب) قوة فعل الكلام : أمر المؤمنين وإرشادهم إلى التعاون على البر والتقوى.

(ج) لازم الفعل : تأثير ذلك الأمر على المؤمنين بتعاونهم الفعلي على البر دون الإثم .

فنقول مثلاً : عملاً بقوله تعالى : "وتعاونوا على البر والتقوى " ننظم حملة لغزة .

ومن الجوانب الملموسة في استعمال الحركات أثرها في إنجاز العلاقات الاجتماعية من خلال التلفظ بصيغ مختارة مربوطة بعلاقة طرفي الخطاب ، كقول الرجل لامرأته : ( أنت طالق ) ، أو ( طلقتك ) . فحركة (البناء) الكسرة هي ما يخص الضمير للمخاطبة ، ويتبعه ما يترتب عليه من رفع أحكام النكاح والإجراءات القانونية . " ولو قال لزوجته : أنت طالق إن دخلت الدار ، بكسر همزة (إن) ، لم تطلق حتى تدخل الدار ؛ لأن (إن) للشرط ، ولو قال : أنت طالق أن دخلت الدار ، بفتح همزة ( أن ) ، وقع الطلاق في الحال ؛ لأن معنى الكلام : أنت طالق لأن دخلت الدار ؛ أي : من أجل أنك دخلت الدار؛ فصار دخول الدار علة طلاقها ، لا شرطاً في وقوع طلاقها " (٣).

وتكون حركة الإعراب حداً فاصلاً لإنجاز فعل الإقرار ، يوظفها المتكلم حسب الحال التي هو عليها ، أو يؤولها المتلقي وفقاً لنظام اللغة لتحديد أحد الاحتمالين ، فـ " لو قال شخص : له عندي مائة غير درهم ، برفع (غير) لكان مقراً بالمائة كاملة؛ لأن غير هنا صفة للمائة ، وصفتها لا تنقص شيئاً منها ، ولو قال : له عندي مائة غير درهم ، بنصب (غير) لكان مقراً بتسعة وتسعين درهماً ؛ لأنه استثناء ، والاستثناء إخراج ما بعد حرف الاستثناء من أن يتناول ما قبله " (٤).

كما توجه العلامة الإعرابية التركيب بناءً على ما يريده المرسل / المتكلم في أبواب عديدة ، منها باب التعظيم والمدح ، وما يجري مجراه في الشتم والتقبيح ، يقول سيبويه : "هذا باب ما

(١) جون أوستين : نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام) ص ٩ . ترجمة : عبد القادر قنيني . أفريقيا الشرق ٢٠٠٨ م .

(٢) سورة المائدة : آية (٢) .

(٣) [http://www.alukah.net/Literature\\_Language/1179/36097](http://www.alukah.net/Literature_Language/1179/36097)

صادق بن محمد الهادي : أهمية اللغة العربية ومميزاتها

(٤) ابن يعيش : شرح المفصل للزمخشري . تحقيق : د. إميل بدیع يعقوب . ج ٢، ص ١١١ . دار الكتب العلمية ، بيروت

- لبنان . ط ١١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م .

ينتصب على التعظيم والمدح وإن شئت جعلته صفة فجرى على الأول وإن شئت قطعتَه وابتدأته وذلك قولك: الحمد لله الحميد ، والملك لله أهل الملك . ولو ابتدأته فرفعت كان حسناً<sup>(١)</sup>. فيجوز في التركيب ثلاثة أوجه بناءً على قصد المتكلم وهي :

- (الحمدُ لله الحميدُ / والملكُ لله أهلُ الملك) : منصوب على التعظيم والمدح.
  - (الحمدُ لله الحميدُ / والملكُ لله أهلُ الملك) : مجرور على الصفة ، فيجري على ما قبله .
  - (الحمدُ لله الحميدُ / والملكُ لله أهلُ الملك) : مرفوع بإضمار المبتدأ ، بعد الاستئناف .
- وتدل العلامة الإعرابية على موقف المتكلم من التركيب وأثره بوصفه عنصراً في السياق يؤثر مقصده على الكلام : "وذلك قولك : أتميمياً مرةً وقيسياً أخرى ؛ كأنك تقول: أتحول تميمياً مرةً وقيسياً أخرى . فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له ، وهو عندك في تلك الحال في تلونٍ وتقلُّ ، وليس تسأل مسترشداً عن أمر هو جاهل به لفهمه إياه وتخبره عنه ولكنك وبخته بذلك"<sup>(٢)</sup> .

ويتناول "مسعود صحراوي"<sup>(٣)</sup> ظاهرة الفعل الكلامي في التراث اللساني العربي ضمن نظرية الخبر والإنشاء ، مقدماً دراسة شاملة عند الأصوليين والنحاة ، أكد فيها اشتغال التراث على أهم مبادئ التداولية ومفاهيمها الإجرائية من مثل : سياق الحال، غرض المتكلم ، إفادة المخاطب ، والعلاقة بينهما . وسنكتفي بإجمال أهم الأغراض التي تنبثق منها الأفعال الكلامية في تصنيفه ، ثم سنعرض منها ما يتناسب وطبيعة البحث فقط .

١- الاختصاص : نشهد في عصرنا كثيراً من المتعاقدين يبدعون عقود البيع والشراء والمدائنة، وغيرها بجملة هي : نحن - الموقعين - على هذا ، نقر ونعترف بكذا وكذا ... ، ومثلها : إني - العربي - لا أستكين لطاغية<sup>(٤)</sup> . فلما اتفق الاسم الظاهر (الموقعين - العربي) مع الضمير في المدلول ، وتميز الظاهر بما فيه من تخصيص رفع عموم وإيهام الضمير ، كانت الفتحة أو ما ينوب عنها تمييزاً لدلالة الاختصاص عن الخبر الذي تتم به الفائدة .

٢- التأكيد : وقد سلك "مسعود صحراوي" في أسلوب التأكيد - بوصفه فعلاً كلامياً - مسلكاً تداولياً ، يرى أنه كثير الورود في لغة التواصل اليومية من خلال صيغ عربية كثيرة منها:<sup>(٥)</sup>

١- التأكيد بـ " إِنْ " و " أَنْ " .

٢- التأكيد بـ " القسم " .

(١) شرح كتاب سيبويه : ج ٢ . ص ٣٩٤ .

(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٢٣١ .

(٣) ينظر : مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب .

(٤) انظر : النحو الوافي ج ٤ ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٥) مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ بتصرف والترقيم من عمل الباحثة .

٣- التأكيد بـ "تقديم المسند إليه على المسند الفعلي" ومن أؤكد الحالات التي تستدعي ذلك حالتا الوعد والضمان .

٤- يندرج فيه "التوكيد اللفظي والتوكيد المعنوي" اللذان عدهما النحاة باباً نحوياً مستقلاً .

٥- الحال المؤكدة .

٦- المفعول المطلق المؤكد لفعله .

ومعلوم أن لكل تلك الصيغ معنى من معاني النحو ، تكون فيه علامات الإعراب قيمة تدل على الوظيفة النحوية لكل تركيب .

٣- القسم : وعده "سيبويه" توكيداً للكلام حيث يقول " اعلم أن القسم توكيد لكلامك" ، فإذا حلفت على فعل مستقبل غير منفي لزمته اللام ، ولزمت اللام النون الخفيفة أو الثقيلة في آخر الكلمة ، وذلك قولك : والله لأفعلن<sup>(١)</sup> . وتظهر الكسرة أو ما ينوب عنها أثراً لحروف القسم عند التركيب في هذا الأسلوب .

٤- الإغراء والتحذير : في هذين الأسلوبين يرد الاسم المنصوب مع حذف الفعل في موقف تواصل يهدف إلى الدعوة للفعل في الأول ، وإلى الدعوة إلى تركه في الثاني . ومثاله ، أن يقال للظالم : الظلم . أما في الإغراء فيقال : العدل العدل . فلو أبدلت الفتحة بالضممة (الظلم) لفهم معنى آخر وانتظر المخاطب الإخبار عن الظلم ، لا التنبيه إلى فعل الترك ؛ لما تدل عليه علامة الإعراب من معهود ذهني محدد عند ابن اللغة " وهما جميعاً - أي الإغراء والتحذير - من الأفعال الكلامية باعتبارهما يهدفان إلى التأثير في المخاطب وحمله على أداء فعل ما " <sup>(٢)</sup> .

٥- الدعاء : يختار المرسل في إطار التواصل اللغوي العلامة اللغوية المناسبة التي تعبّر عن قصده ، وتظهر عليها علامات الإعراب لتحديد مدلولها ، ومن ذلك وظيفة الحركات في فعل الدعاء . يقول سيبويه: "وذلك قولك : سلامٌ ، ولبيك وخيرٌ بين يديك ، والمراد في قوله: خيرٌ بين يديك ، وويلٌ لك ، وويحٌ لك ... فهذه الحروف كلها مبتدأة مبنيّ عليها ما بعدها ، والمعنى فيهن : ابتدأت شيئاً قد ثبت عندك ولست تعمل في حال حديثك في إثباتها وترجيبتها وفيها ذلك المعنى .. وكما أن قولك : "رحمةُ الله عليه" في معنى : رَحِمَهُ الله ، فهذا المعنى فيها ، ولم تُجعل بمنزلة الحروف التي إذا ذكرتها كنت في حال ذكرك إياها تعمل في إثباتها وترجيبتها ، كما أنهم لم يجعلوا "سقياً ورعيّاً" بمنزلة هذه الحروف ؛ فإنما

(١) شرح كتاب سيبويه : ج ٣ . ص ٣١٢ - ٣١٣ .

(٢) مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب ، ص ٢١٣ .

نجريها كما أجزتها العرب . ألا ترى أنك لو قلت : طعاماً لك أو شراباً لك أو مالاً لك تريد معنى سقياً لك أو معنى المرفوع الذي فيه معنى الدعاء لم يَجْزْ" (١) .

• فويلٌ لك : بالرفع ، والضمة علامة دالة على ثبات المعنى لدى المتكلم يفهم منها الإخبار فينتظر الخبر على تقدير : الويل ثابت أو مستقر لك .

• ويلاً لك : بالنصب ، على معنى : جعل الله لك ويلاً ، والفتحة علامة دالة على تزجية الدعاء حال التلطف به ، يفهم منها الدعاء فيقدر الفعل .

٦- الاستغاثة والندبة : المستغاث به والمندوب قسمان من أقسام المنادى عند النحاة ، فالأول هو منادى يخلص من شدة ، والثاني هو منادى متفجع عليه . ولأن فيها "معنى زائد على النداء ، وهو أنه مندوب أو مستغاث به ، وهذا المعنى الزائد الذي يميّز أسلوب الاستغاثة ويجعله بمصطلحات سيرل من البوحيات " (٢) .

ويستعمل المستغاث - غالباً - باللام كقولنا : يا للعلماء للعامّة . بتفتح اللام الأولى الجارة للمستغاث به ، وكسر اللام الثانية الجارة للمستغاث له . وهي وإن كانت حركة بناء لا إعراب فإنها قيمة تفرق بين المدعو والمدعو من أجله (في اصطلاح سيبويه) عند دخولها على المستغاث به .

٧- الوعيد : تختلف دلالة اسم الفاعل إذا ما استعمل منوناً ، عما إذا كان مضافاً . فالشاهد النحوي (أنا قاتلٌ غلامك) بالتثنية ونصب المفعول يدل على المستقبل فيفيد الوعيد . أما بالإضافة (أنا قاتلٌ غلامك) فيدل على وقوع القتل بالماضي ليفيد الإقرار . والذي وجّه المعنى من فعل كلامي لآخر هو ازدواج البنية في العربية :

١- بنية التركيب : وهي بنية تقوم على علاقة الكلمات بعضها ببعض .

٢- بنية الإعراب : وهي بنية علامية لا تقول ذاتها ، ولكن تقول الوظائف التي تقوم بها الكلمات في بنية التركيب .

ولئن كان هدف التداولية هو دراسة العلامات في مجال الاستعمال ، فقد بحثنا جوانب من ذلك (البعد التداولي) في الاستعمالات المختلفة للحركات داخل أنواع الخطاب . وقد حددنا في الفصل السابق علاقة الحركات بموضوعها ، أي في (البعد الدلالي) ، وسيتناول الفصل القادم علاقة الحركات فيما بينها (البعد التركيبي) كيف تكون نتاجاً لعلاقات التركيب وعلامة لها ؟ .

(١) شرح كتاب سيبويه ج ٢ ، ص ٢٢١ .

(٢) مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب ص ٢١٥ .

## **القسم الثاني**

- الفصل الأول : العلامة الإعرابية في وعي اللغويين العرب القدامى
- الفصل الثاني : المستوى الصوتي لعلامة الإعراب
- الفصل الثالث : أثر باقي العلامات في إنتاج الدلالة : التقديم والتأخير ، والنبر ، والتنغيم

## القسم الثاني

### الفصل الأول : العلامة الإعرابية في وعي اللغويين العرب القدامى

- مفهوم علامة الإعراب عند النحاة العرب
- المعاني الوظيفية لعلامات الإعراب عند النحاة الأوائل :
  - أ) وظيفة الرفع
  - ب) وظيفة النصب
  - ج) وظيفة الجر
  - د) وظيفة الجزم
- المعاني الوظيفية لعلامات الإعراب عند المحدثين .

## أولاً : مفهوم العلامة الإعرابية عند النحاة العرب :

تبرز اللغة بوصفها النظام التواصل الأرقى والأكثر تعقيداً من الأنظمة التواصلية الأخرى ؛ ذلك أن الثانية - غالباً - ما تكون أحادية المعنى ، بينما يصعب القول بوجود دلالة ثابتة لا تتغير للعلامة اللغوية ؛ طالما أن استعمالها هو ما يصنع المعنى . وفي العربية ، تبرز حركات الإعراب بوصفها علامة للنظام بخصوصية مميزة ؛ فكل علامة لغوية تأخذ معناها من السياق الذي تستعمل فيه ، في حين تكون حركات الإعراب علامة تعتمد على تلك العلامة / الكلمة . لا تحدد دلالتها بل وظيفتها ؛ لذلك يمكن أن نعدّها علامة مركبة . وقد اهتم القدماء بتعريف حركات الإعراب ، واشتغالها الوظيفي ، وعلاقتها بمستوى الصواب والخطأ أو ما سمّوه لاحقاً ، فكيف عالجوا موضوع حركات الإعراب ؟ وهل ثمة أوجه اتفاق بين طرحهم والطرح السيميائي الحديث ؟ وما خواص حركات الإعراب في مقابل علامات لغوية أخرى ؟ .

افترنت العلامات أو الحركات عند النحويين الأوائل بالإعراب فقالوا : علامات الإعراب وحركات الإعراب ، حيث تؤدي هذه العلامة إلى إدراك التفرقة بين المعاني بالحركات الدالة عليها . وقد تناولوا بالبيان والتوضيح مصطلح الإعراب ، والاسم المعرب ، كما تناولوا الحركة في ذاتها صوتياً ، وعلاقتها بالألفاظ التي ترافقها نحويّاً عندما تكون ناتجة لسيرورة في عمل اللغة ، وهي سيرورة التركيب . أي أنها ناتجة لعلاقة اللفظ بغيره من الألفاظ في الجملة ، وشاهد على هذه العلاقة في الوقت نفسه . وما كان هذا هكذا ؛ إلا بالصدور من منظور علاماتي - وإن لم ينصوا عليه - يرى الحركات بوصفها علامة لغوية تحمل دلالة مقصودة في إطار التركيب ، وهو ما يهمنّا إثباته في هذا البحث . من هنا سنقوم بتعريف علامة الإعراب عند القدماء أولاً ، ومن الناحية التي يعنى بها البحث ثانياً .

يشير مصطلح (الإعراب) عند "سيبويه" إلى ما يقابل البناء ، وما يحدثه العامل إزاء ما يلزم علامة واحدة ليست أثراً لعامل . فيقول في الباب الثاني من الكتاب : "هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية وهي تجري على ثمانية مجارٍ : على النصب والجر والرفع والجزم ، والفتح والضم والكسر والوقف . وإنما ذكرت لك ثمانية مجارٍ لأفرّق بين ما يدخله ضربٌ من هذه الأربعة لما يُحدثُ فيه العاملُ - وليس شيءٌ منها إلا وهو يزول عنه - وبين ما يُبْنَى عليه الحرف بناءً لا يزول عنه لغير شيء أحدثَ ذلك فيه من العوامل ، التي لكل عامل منها ضربٌ من اللفظ في الحرف ، وذلك الحرف حرف الإعراب " . (١)

قال السيرافي : "أما قوله "مجاري" فإنما أراد به الحركات ، حركات أواخر الكلم" (٢).

وقد اختلف النحاة حول قضية الإعراب بين اللفظ والمعنى على قولين : لفظي ، عندما يكون أثراً ظاهراً أو مقدراً يجلبه العامل . أو معنوي : وهو تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل لفظاً أو تقديرًا . ونسب "السيوطي" الرأي الأول للجمهور : "فالجمهور على الأول ، وإليه ذهب ابن خروف والشّولّيين وابن مالك ونسبه للمحققين ، وابن الحاجب، وسائر المتأخرين . وحدّه على هذا: أثرٌ ظاهر أو مقدّر يجلبه العامل في

(1) كتاب سيبويه . ج ١ ص ١٣ .

(2) شرح كتاب سيبويه : ج ١ ص ٢٠ .

محل الإعراب ، وهو الآخر ، والمراد بـ (الأثر) : الحركة ، والحرف ، والسكون ، والحذف ، وبـ (المقدّر) : ما كان في المقصور ونحوه .<sup>(١)</sup>

وعندما يُحدّث الإعراب بأنه أثر للعامل فهو إذن الحركات أو ما ينوب عنها من الحروف . فالإعراب عند الزجاجي هو " الحركات المبيّنة عن معاني اللغة . وليس كل حركة إعراباً ، كما أنه ليس كل كلام مُعرّباً".<sup>(٢)</sup>

ويرى "ابن مالك" أن الإعراب : "ما جيء به لبيان مقتضى العامل من حركة ، أو حرف ، أو سكون أو حذف" .<sup>(٣)</sup> واختاره "الأشموني" محتجاً له بقوله : "وأما في الاصطلاح ففيه (الإعراب) مذهبان : أحدهما أنه لفظي واختاره الناظم ونسبه إلى المحققين .. والثاني أنه معنوي والحركات دلائل عليه ، واختاره الأعلام وكثيرون ، وهو ظاهر مذهب سيبويه .. والمذهب الأول أقرب إلى الصواب لأن المذهب الثاني يقتضي أن التغيير الأول ليس إعراباً لأن العوامل لم تختلف بعد وليس كذلك".<sup>(٤)</sup> وقد ذهب "الرضي" إلى كون الإعراب لفظياً ، إذ يقول : "وفي معنى الإعراب قال ابن الحاجب : الإعراب ما اختلف آخره به . قال الرضي : ويعني بها : الحركات والحروف".<sup>(٥)</sup>

أما الرأي الثاني بأنه معنوي ، فهو المعروف عن "ابن جني" إذ يقول في تعريف الإعراب : "هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ ، ألا ترى أنك إذا سمعت : أكرم سعيد أباه ، وشكر سعيداً أبوه ، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول ، ولو كان الكلام شرجاً واحداً لاستبهم أحدهما من صاحبه".<sup>(٦)</sup>

ولقد يرى المرء أن ابن جني في قوله هذا يشير إلى أمرين إجمالاً وتفصيلاً . أما في إجماله ، فهو يدل أن التواصل يقوم على التواضع والتوافق ضمناً بين المتخاطبين . وإن هذا ليكون على أمور ثلاثة : الصوت ، والنحو ، والدلالة . ولو حدث انكسار في واحد من هذه العناصر ، فثمة احتمال أن لا تتم العملية التواصلية ، أو أن يكف الخطاب عن أن يكون تواصلياً ، وفي هذا خروج عما وضع لأجله . ويمثل التواضع والتوافق الضمنيان معرفة كل متكلم بكلامه . وقد تكون هذه المعرفة واعية كما هي الحال عند ابن جني ، كما قد تكون غير واعية كما هي الحال عند عموم الناس . ولكن وجودها ، في كل الأحوال ،

---

(1) جلال الدين أبو بكر السيوطي : همع الهوامع في شرح جمع الجوامع . تحقيق : أحمد شمس الدين . ج ١ ، ص ٥٤ . دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان . ط ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

(2) الزجاجي : الإيضاح في علل النحو . تحقيق : د. مازن المبارك . ص ٩١ . دار النفائس . ط ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

(3) ابن مالك : شرح التسهيل . تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، طارق فتحي السيد . ج ١ ، ص ٣٨ . دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان . ط ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

(4) محمد بن علي الصبان : حاشية الصبان شرح الأشموني على ألفية ابن مالك . تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد . ج ١ ، ص ٩٧/٩٨ . المكتبة التوفيقية بلا طبعة ولا تاريخ .

(5) رضي الدين الاسترأبادي : شرح الرضي على الكافية . تحقيق : يوسف حسن عمر . ج ١ ، ص ٥٦-٥٧ . جامعة قاريونس ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

(6) ابن جني : الخصائص ج ١ ، ص ٧٩ .

ضروري وحاكم في الوقت ذاته . وقول ابن جني : " لو كان الكلام شرجاً واحداً لاستبهم أحدهما (أي أحد أطراف التواصل) من صاحبه " ، ليدل بدءاً على هذه المعرفة الضمنية (التي تعادل الكفاءة عند تشومسكي) التي ترقى هنا ، إلى حد البدهيات ، والتي يلوذ بها المتخاطبان أمانةً من اللبس ، وإليهما يتحاکمان حال وقوعه . وأما في تفصيله ، فإن ابن جني يشير إلى أمر آخر وهو من خواص النظام اللغوي العربي المستبطن ضمناً ومعرفة ، والمتواضع عليه ، والذي لولاه لكان الكلام أيضاً " شرجاً واحداً " ، ولاستبهم المخاطب من صاحبه . وكان ذلك منه حين رمى إلى الرفع هنا والنصب هناك . وهذه علامات أخر يستعان بها على استحضار التوافق الضمني لفك إيهام الكلام إذا شرج ، وغموض الدلالة إذا غُميت . وما كان هذا هكذا ، إلا لأن الألفاظ التي يعينها ابن جني إنما هي الكلمات معربة بحركات الأواخر التي تبين عن تلك المعاني من فاعلية ومفعولية ... إلخ.

وقريب منه تعريف "ابن فارس" للإعراب الذي هو : "الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ، ولولاه ما مُيز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صدر من مصدر ، ولا نعت من تأكيد " (١)

وقد ذهب إليه "ابن يعيش" الذي يعرف الإعراب بأنه : "الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم، لتعاقب العوامل في أولها" (٢) .

وفي هذا ، يقول " علي الجرجاني" في (التعريفات) إن الإعراب : "هو اختلاف آخر الكلمة باختلاف العوامل لفظاً أو تقديرًا" (٣) وهو ما ذهب إليه "ابن الحاجب" في (أماله) ورداً على القول الأول ، مضعفاً إياه ، ومعتذراً لمن قرره من النحاة . (٤)

وقد اعترض "عبد القاهر الجرجاني" على اعتبار الإعراب لفظياً بمفهوم الاختلاف ذاته الذي يعني تعدد المعاني المختلفة باختلاف الحركة دونما تعد - بوصفها أثراً- هي الإعراب ، يقول : "إن الإعراب في الحقيقة ، معنى لا لفظ . ولهذا قال : الإعراب : أن تختلف أواخر الكلم لاختلاف العوامل . وقوله : أن تختلف ، بمعنى الاختلاف ، وليس الاختلاف بلفظ ، وإنما هو معنى ، كما أن الإسوداد ليس بعين وإنما هو معنى يُعرف بالقلب ، فالمختلف هو اللفظ كما أن المسود هو العين التي تتعلق برؤية البصر ، فإذا قلت : جاعني زيدٌ ورأيتُ زيداً ، ومررتُ بزيدٍ ، فإن اختلاف الحركة وكونها ضمة ، وأخرى فتحة وثالثة كسرة ليدل هذا الاختلاف على معانٍ مختلفة هي الإعراب ، وليس نفس الحركة بالإعراب ، ألا ترى أنها

(1) ابن فارس : الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها . ص ٤٢ . تحقيق : السيد أحمد صقر . مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ، بلا تاريخ .

(2) ابن يعيش : شرح المفصل للزمخشري . ج ١ ، ص ١٩٦ .

(3) علي بن محمد الشريف الجرجاني : كتاب التعريفات . ص ٣١ . مكتبة لبنان - بيروت . طبعة ١٩٨٥ م .

(4) أبو عمرو عثمان بن الحاجب : أمالي ابن الحاجب . تحقيق : د. فخر صالح سليمان قدادة . ج ٢ . ص ٥١٩ - ٥٢٠ .

دار عمّار - عمّان الأردن - دار الجيل - بيروت ، لبنان ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

إذا وُجدت ، ولم يوجد الاختلاف لم تكن الكلمة معربة ، وذلك أين وكيف . ألا ترى أنهما متحركان ، ولا يقول أحد أنهما معربان ، لأجل أن الاختلاف غير موجود في آخرهما".<sup>(١)</sup>

ويؤكد "الجرجاني" في رده على القول الأول (كون الإعراب لفظياً) بالتمييز بين الحركة والإعراب بوصفها آلة له ، وإذا كان الأمر كذلك أمكن الإضافة بينهما "فالحركة إذاً آلة الإعراب ، لأن الاختلاف يحصل بها ، ولو كانت الحركة إعراباً ، لوجب أن لا يقال : حركات الإعراب ، إذ الشيء لا يضاف إلى نفسه ، ألا ترى أنك لو قلت : حركات الحركات ، أو حركات الضمة والفتحة والكسرة كان مُحالاً ، فهذه الإضافة بمنزلة قولهم : مطيةُ حربٍ ، إذ المعنى أن هذه الحركات بها يحصل الاختلاف في آخر الكلمة كما أن المطية عليها يكون الحرب " <sup>(٢)</sup> .

ويفرّق "العكبري" في المعنى نفسه بين الإعراب والحركة وذلك - عنده - لسببين :

١. أن الحركات تضاف إلى الإعراب والشيء لا يضاف إلى نفسه .

٢. أن الحركة والحرف يكونان في المبنى وقد تزول حركة المعرب بالوقف مع حكم بإعرابه، وقد يكون السكون إعراباً . <sup>(٣)</sup>

أما (معاني الإعراب) التي يُعتمد عليها في مستوى التركيب ، فقد بلورها (عبدالقاهر الجرجاني) في تصوره للنظم الذي يجعله دليلاً على أهمية الإعراب بوصفه مجموعة العلاقات التي تقوم على النظام اللغوي " إذ كان قد عُلِمَ أن الألفاظ مُغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها" <sup>(٤)</sup> . ثم إن النظم الذي مثل لمستوياته المختلفة ما هو إلا توخي معاني النحو ، إذ يقول : "اعلم أن ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو" وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها" <sup>(٥)</sup> .

إن الكلمة المجردة اسماً معرباً أو غيره ليست من المفكر فيه عند "الجرجاني" إلا بعد دخولها في النظم وضمها مع غيرها من الكلمات بعلاقات دلالية ووظيفية ، ذلك ، "أنه لا يُتصور أن يتعلّق الفكر بمعاني الكلم أفراداً ومجردة من معاني النحو ، فلا يقوم في وهم ، ولا يصحّ في عقل أن يتفكّر متفكّر في معنى "فعل" من غير أن يريد إعماله في "اسم" ولا أن يتفكر في معنى "اسم" من غير أن يريد إعمال فعل فيه ،

---

(1) عبد القاهر الجرجاني : كتاب المقتصد في شرح الإيضاح . تحقيق : د. كاظم بحر المرجان . ج ١ ص ٩٨ .

منشورات وزارة الثقافة والإعلام - الجمهورية العراقية . دار الرشيد للنشر - ١٩٨٢ م .

(2) المرجع السابق : ص ٩٩ .

(3) أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري : الباب في علل البناء والإعراب . ج ١ - ص ٥٤ . تحقيق : غازي طليمات ،

دار الفكر المعاصر - بيروت ، دار الفكر - دمشق . ط ١ ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .

(4) الجرجاني : دلائل الإعجاز ص ٢٨ .

(5) المرجع السابق : ص ٣٧٠ - ٣٧١ .

وجعله فاعلاً أو مفعولاً ، أو يريد فيه حكماً سوى ذلك من الأحكام ، مثل أن يريد جعله مبتدأ ، أو خبراً ، أو صفةً أو حالاً ، أو ما شاكل ذلك " (١) .

وبعد التأليف والتركيب ، فإن الإعراب ليس مقصوداً لذات الحركات أو الحروف ، بل إن مفهوم معاني الإعراب يأخذ عند "الجرجاني" معنى التحليل وطرق التعليق التي يصحبها تغيُّر في الدلالة والمزية . ثم يورد العديد من الأمثلة ليوضح لنا كيف تكون معاني النحو أساساً للربط بين الكلمات ؛ لأنك "إن عمدت إلى ألفاظ فجعلتها تتبع بعضها بعضاً من غير أن تتوفر فيها معاني النحو ، لم تكن صنعت شيئاً تدعى به مؤلفاً ، ... مثلاً ذلك : أنك إن قدرت في بيت أبي تمام :

لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ وَأُرْيُ الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ

أنَّ "لعابُ الأفاعي" مبتدأ و "لعابه" خبر ، كما يُوهمه الظاهر ، أفسدت عليه كلامه ، وأبطلت الصورة التي أرادها فيه . وذلك أنَّ الغرض أن يشبه مداد قلمه بلعاب الأفاعي ، على معنى أنه إذا كتب في إقامة السياسات أتلّف به النفوس ... وهذا المعنى إنما يكون إذا "لعابه" مبتدأ و "لعاب الأفاعي" خبراً " (٢) .

وينفق هذا الرأي ونظرة "ابن هشام" للإعراب في (المغني) ، والذي يعني به تحليل عناصر التركيب ، وبيان العلاقة بين علامات الكلام ، والوظائف التي لها في نظام الجملة العربية . وهو عنده مساوٍ للنحو حيث يقول : "إنَّ أولى ما تقترحه القرائح ، وأعلى ما تجنح إلى تحصيله الجوانح ، ما يتيسر به فهم كتاب الله المنزل ، ويتضح به معنى حديث نبيه المرسل ، فإنهما الوسيلة إلى السعادة الأبدية ، والذريعة إلى تحصيل المصالح الدينية والدنيوية ، وأصل ذلك علم الإعراب ، الهادي إلى صَوْبِ الصواب" (٣) .

وقد أورد أحكاماً يكثر تداولها ، وينبغي للمعربين معرفتها (٤) . وأشار إلى ما ينبغي أن يحترزوا منه (٥) . كما أبان عن إمكانية الاعتراض على المعربين من عشر جهات هي بمثابة المعايير التي يلتقي فيها المعنى النحوي مع الشكل ؛ ليسهم في بيان الدلالة الكلية للجملة (٦) . ومنها "أن يراعي المعرب معنى صحيحاً ، ولا ينظر في صحته في الصناعة" (٧) .

من هنا ، فإن مفهوم الإعراب - عند النحاة الأوائل - عندما يُطلق فإنه يعني واحداً من المعاني الآتية :

١. الإعراب مقابل البناء .
٢. الحركات أو ما ينوب منابها من حروف .
٣. تغيير أواخر الكلمات المعربة الذي تكون فيه الحركات أو الحروف أثراً لذلك التغيير المعنوي .

(١) المرجع السابق : ص ٤١٠ .

(٢) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

(٣) ابن هشام الأنصاري : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب . ج ١ . ص ٣١ .

(٤) المرجع السابق : ص ١١٣ .

(٥) المرجع السابق : ص ٣٢٥ .

(٦) المرجع السابق : ص ١٨٥ .

(٧) المرجع السابق : ص ١٩٦ .

٤. علاقات المستوى التركيبي التي تربط العلامات بعضها ببعض ، وتدل عليها حركات الإعراب والأخير هو الأرجح على ما يبدو .

### ثانياً : المعاني الوظيفية لعلامات الإعراب عند النجاة الأوائل

إن الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالحركات ، وهو عند نحائنا فرع المعنى ، و يعني هذا ، أنهم يعدّون الحركات علامات لمعانٍ محددة يقتضيها نظام الجملة في اللغة العربية ، فأبي المعاني تلك التي تدل عليها الحركات ؟ وهل فهمت فهماً وظيفياً ؟ .

ولما كان الحديث يدور حول الوظيفة ، فسنترح هذا المفهوم في مستويين \* :

- مستوى الوظائف اللغوية :

ويمكن تعريف الوظائف اللغوية على النحو الآتي : إننا نطلق مسمى الوظائف اللغوية على العمليات التي ينجزها اللسان ، أو يسمح بإنجازها عن طريق تطبيق عملي يرتبط بعلاقة مع الآخر ومع العالم ، وإذا كان هذا هكذا ، فإن تحديد الوظائف اللغوية وتحليلها ، إنما يقع حال وقوع أحداث الكلام لا قبلها .

- مستوى الوظائف النحوية ، وتنقسم إلى قسمين :

١- القسم الأول ، ويتعلق بدور عنصر من العناصر في مجموع لساني (وظيفة المبتدأ ، وظيفة الخبر... إلخ) ، أو بدور عنصر أو سلسلة من العناصر في النسق (مثل الوظيفة التمييزية في علم وظائف الأصوات) .

٢- القسم الثاني ، ويتعلق بدور عنصر لساني إزاء عنصر لساني آخر . وهذا ما تمثله علاقة الكلمات فيما بينها ، وخصوصاً العلاقات النحوية . فحين نقول مثلاً : " الرجل الثور يقتل " ، نجد أن هذا القول لا يشكل جملة في العربية ؛ لأن العلاقات النحوية في هذا القول غير محدودة ، وذلك خلافاً لقولنا : " الرجل يقتل الثور " أو

"الثور يقتل الرجل " ، حيث نجد أن العلاقات أو وظائف " الرجل " و " الثور " تختلف باختلاف مواقعهما الخاصة إزاء الفعل ، كما تختلف بالتبعية والضرورة النسقية للعربية حركات الإعراب الدالة على اختلاف المواقع والوظائف أيضاً .

إن المعاني النحوية التي نص عليها الأوائل إنما هي المعاني الوظيفية (Functional) التي تظهر على المستوى التركيبي . ذلك أن (المعنى) ينقسم " إلى ثلاثة معانٍ فرعية :

- أحدها المعنى الوظيفي : وهو وظيفة الجزء التحليل في النظام .
- والثاني : المعنى المعجمي للكلمة ، وكلاهما متعدد ومحتمل خارج السياق وواحد فقط في السياق .
- والثالث : المعنى الاجتماعي أو معنى المقام وهو أشمل من سابقه .<sup>(١)</sup>

(\*) يتناول هذا الفصل الوظائف النحوية فقط .

(١) تمام حسّان : اللغة العربية معناها ومبناها . ص ٢٨-٢٩ .

وهو ما ذهبت إليه الدراسات اللغوية الحديثة في تعريف وتصنيف العناصر وفقاً للوظيفة التي تؤديها في اللغة . وقد أولي مفهوم الوظيفة أهمية كبيرة ليس فقط في علم اللغة بل أيضاً في مجالات مختلفة من العلوم ، والذي يهمنها منها المفهوم اللغوي، وفيه " نسمي وظيفة ، الدور الذي يؤديه العنصر (فونيم ، مونيم ، كلمة ، تركيب ، إلخ) في البنية القاعدية للعبارة ، لأن كل عنصر من عناصر الجملة يُنظر إليه بوصفه مشاركاً في المعنى العام للجملة" (١) .

ومثاله البسيط :

- زيدٌ صادقٌ .
- رأيتُ زيداً صادقاً .
- رأيتُ زيداً .

فالعلاقة بين ركني التركيب الأول هي الإخبار المطلق ، وتقتضي هذه العلاقة الضمة علامة على علاقة الخبر بالمخبر عنه في مثل هذا الإسناد . ولكي يكون للضمة هذا الدور ، فإنها تطرد سائر علامات الإعراب من دائرة الإسناد الإسمي ، إلى أن تنحصر في الضمة وما ينوب عنها . فعلاقة الرفع هنا طاردة لما عداها بعلاقة الإخبار وفقاً لما يقتضيه النظام .

وقد تتغير العلاقة الرابطة بين ركني الإسناد ؛ بإدخال المخاطب عنصراً جديداً على التركيب ، فتتغير معه حركة الإعراب الدالة على علاقة الكلمات بعضها ببعض . ومثاله : التركيب ( ٢-٣) .

ففي قولنا : رأيتُ زيداً صادقاً ، جاء التركيب الاسمي (زيد صادق) بعد فعل قلبي يفيد اليقين ، فتتغير الرابط بين الركنين من مجرد الإخبار إلى العلم واليقين ، لذا اقتضى النظام تغير الحركة لاختلاف العلاقة. ذلك أن المتكلم في التركيب الأول إنما يخبر عن زيد اتصافه بالصدق عن طريق الإخبار . لكن المتكلم في التركيب الثاني قد استقر في علمه صدق زيد وهو يريد إفادة المخاطب بالصفة المتيقنة ، والذي أتاح له ذلك هو علامة النصب بعد الفعل القلبي .

والفعل (رأيت) في العربية يُدخل ما بعده بعلاقات متعددة حسبما يقصده المتكلم ، أو نتيجة للعلاقة بين طرفي الخطاب . فالإجابة عن السؤال : هل رأيتُ زيداً ؟ بقولي مثلاً : ما رأيته . تفترض استعمال (رأى) بمعنى أبصر نحو "رأيتُ زيداً" ، أي أبصرته ، وبمعنى أصاب رئته ، وهي في هذين المعنيين تتعدى لواحد ، وليست من أفعال القلوب " (٢) .

ومثال استعمال (رأى القلبية) في الخطاب القرآني قوله تعالى (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا) [المعارج ٦-٧] . أي : إن الكافرين يستبعدون العذاب ويرونه غير واقع ، والحق تبارك وتعالى يراه قريباً لا محالة . والأثر المترتب على هذه الرؤيا : إسرافهم بالكفر والإفساد والاستهزاء بالمؤمنين . وجاءت حركة النصب في المفعولين علامة على تلك الدلالة .

(1) منذر عياشي : العلاماتية (السيمولوجيا) ، قراءة في العلامة اللغوية العربية ، ص ١٠٨ .

(2) ابن هشام الأنصاري : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك . ج ٢ . ص ٣٠ .

ومثال استعمال الفعل نفسه في الخطاب النبوي ، حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكراً فليغيِّرْهُ بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان" (١) .

فالأثر المترتب على العلم بالمنكر هو العمل بإنكاره ، وقد ظهرت الفتحة علامة على المفعول الأول (منكراً) ، وقُدِّرَ المفعول الثاني (حادثاً أو واقعاً) وهو تقدير ضروري للدلالة ، إذ أن "رأى : بمعنى علم سواء أبصر أو لا ؛ لأن الرؤية بالبصر لا تشترط في وجوب تغيير المنكر ، فهي قلبية " (٢) . ولعل استعمال رأى بمعنى علم في الخطاب النبوي السابق يشكل مقصداً شرعياً ؛ ففي قصر تغيير المنكر على رؤية البصر تهميش لدور الإنكار في حفظ الأمة ، واستدامة الخيرية التي وصفت بها على سائر الأمم بسببها .

وما يقوم به المخاطب بناءً على تأثير الخطاب هو لازم الفعل الكلامي . هنا، تتجسّد علاقة الأفعال الكلامية بعلامة الإعراب . وذلك عندما تقترن الحركات بكلمات تحقق مقاصد إنجازية وتؤثر في المخاطب .

وتفريق الحركة بين وظيفة عنصرين متممين هما : الحال ، والنعته . من مثل : صافحتُ عمراً مبتسماً . فمبتسماً حال وظيفتها تفسير الهيئة المبهمة من (عمرو) وهي حال طارئة وقع فيها فعل المصافحة وتزول بزواله . أما قولنا : صافحتُ عمراً المبتسماً ، فيجعل التبسم صفة معروفة وثابتة في الموصوف هي أدنى إلى اللزوم من الحال . وقد دلّت الفتحة علامة النصب على وظيفة الحال . كقوله تعالى مبيناً حال موسى عند خروجه من مدينة فرعون : "فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" [القصص : ٢١] . فخائفاً تختلف في مدلولها عن الخائف في قولنا : خرج موسى الخائف . إذ تدل (الخائف) على صفة لموسى أراد المتكلم بيانها ، فالتزم إلى جانب الأفراد ، والتذكير ، والتعريف ، بعلامة الإعراب لإنجاز وظيفة النعت . \*

ومن التكامل بين علامات الإعراب وظيفياً أن يدل المنطوق بها على ما ليس منطوقاً ، وذلك عندما تحتمل أكثر من معنى . ففي قوله تعالى : " فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ" [هود : ٨١] . يجوز في المستثنى وجهان : الرفع ، والنصب ؛ لأن الكلام تام غير موجب . لكن قُرئ بها في السبع منصوبة ؛ لا لأن النصب في المستثنى المتصل عربي جيد فحسب ، بل لأن البدلية تفسد المعنى . فالمتبادر للذهن أن امرأة لوط التي خانتها بالكفر سيصيبها ما أصاب قومه ، لذا

(1) صحيح مسلم بشرح النووي (ج ٢/ص ٢٨، ٢٧) حديث رقم (٤٩ ، ٧٨) كتاب الإيمان ، باب بيان كون التهي عن المنكر من الإيمان . طبع ونشرو توزيع مؤسسة قرطبة . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي . ط ٢١٤١هـ - ١٩٩٤م .

(2) حسنى عبد الجليل يوسف : إعراب الأربعين حديثاً النووية . ص ٢٢٨ . مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .

\* تشير إلى أن الحال عند أكثر الأصوليين تعد في المعنى كالصفة "الحال صفة في المعنى" . وقد أشار النحاة إلى أوجه الشبه بين الحال والصفة والخبر ، وإن كان لكل منها وظيفتها المختلفة .

نَجَّى الله لوطاً وأهله باستثناء امرأته . وغير المتبادر للذهن أن تكون ممن لم يلتفت لئلا يصيبه العذاب . وقد قرأ "ابن كثير وأبو عمرو "ولا يلتفت منكم أحد" إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم" . فـ "امرأتك" مبتدأ ، والجملة بعده خبره ، ولا يصح أن يجعل "امرأتك" بدلاً من "أحد" لأنها لم تسر معه ، فيتضمنها ضمير المخاطبين . ودل على أنها لم تسر معه قراءة النصب ، فإنها أخرجتها من أهله الذين أمر أن يُسرى بهم . وإذا لم تكن من الذين سُرِّيَ بهم لم يصح أن تبدل من فاعل "يلتفت" لأنه بعض ما دل عليه الضمير المجرور بـ "من" .

وعلى تقدير صحة هذا ، فلا يوجب ذلك دخولها في المخاطبين بقوله : "ولا يلتفت منكم أحد" . هذا ، وتظهر علامة الإعراب الطاردة بكيفية أكثر دقة داخل التراكيب المتطابقة لفظاً ، والتي تكون العلامة فيها هي فيصل التفرقة بين عناصر قابلة لشغل أكثر من وظيفة كالفاعلية والمفعولية مثلاً في الأسماء . من ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما : "أنا ممن قدم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المزدلفة في ضعفة أهله" (١).

فالنبي صلى الله عليه وسلم هو من قدم ابن عباس مع أهله ليلة المزدلفة ، لذا رُوِيَ بالرفع ولو تجرد لم يعلم القصد . ومن ثم ، كانت الضمة طاردة للفتحة ؛ للدلالة على وظيفة الفاعلية داخل التركيب . من هذا المنظور تكون الحركات الإعرابية ناتجة عن علاقات الألفاظ ، وعلامة دالة على نوعية هذه العلاقات . تنبئ عن تلك المعاني الوظيفية في اللغات مزدوجة البناء كالعربية . وهي ليست تطوراً صوتياً أو دلالياً يظهر ثم يندثر ، ولن تكون كذلك .

ولقد أجمع (معظم) النحاة الأوائل على أن علامات الإعراب دالة على تلك المعاني النحوية ، وأدركوا أن الكلام لا يكون نشاطاً دالاً بمجرد رصف الألفاظ إلا بالوضع المفيد ، حيث تؤدي الألفاظ معانيها التي وضعت لها ، وتحدد حركات الإعراب ووظيفة الألفاظ في التركيب . فالعلاقة التركيبية علاقة تكاملية بين عناصر متلازمة تتحدد عنها الوظيفة النحوية ، ولا يكون عنصراً بمفرده كافياً للدلالة وأهم تلك العناصر الوظيفية: علامة الإعراب ، وترتيب العناصر .

ثم إن الأوائل تنبهوا في تعليقاتهم النحوية إلى أسرار العلاقة القائمة بين الأبواب النحوية ، وما ينشأ عن اختلالها من لبس أو غموض . فعقد صاحب (الخصائص) باباً في الرد على من اعتقد فساد علل النحويين يقول فيه : "اعلم أن هذا الموضع هو الذي يتعسف بأكثر من ترى ، وذلك لأنه لا يعرف أغراض القوم ، فيرى لذلك أن ما أوردوه من العلة ضعيف وإياه ساقط غير متعال . وهذا كقولهم : يقول النحويون إن الفاعل رُفِعَ ، والمفعول به نُصِبَ ، وقد ترى الأمر بضد ذلك . ألا ترانا نقول : "ضُرِبَ زيدٌ" فنرفعه وإن كان مفعولاً به ، ونقول : "إنَّ زيدا قامَ" فننصبه وإن كان فاعلاً ، ونقول : "عجبتُ من قيام زيدٍ" فنجره وإن كان فاعلاً ، ونقول أيضاً : قد قال الله عز وجل : "ومن حيثُ خرجتُ" فرفع "حيثُ" وإن كان بعد حرف الخفض ... ولو عُرِفَ أن الفاعل عند أهل العربية ليس كل من كان فاعلاً في المعنى ، وأنَّ الفاعل

(1) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج ٣/ ص ٦١٥) حديث رقم (١٦٧٨) كتاب الحج ، باب من قدَّم ضعفه أهله لبيل .

عندهم إنما هو كل اسم ذكرته بعد الفعل وأسندت ونسبت ذلك الفعل إلى ذلك الاسم... وكذلك القول على المفعول أنه إنما ينصب إذا أسند الفعل إلى الفاعل ، فجاء هو فضلة ، وكذلك لو عرف أن الضمة في نحو "حيث" ليست إعراباً وإنما هي بناء<sup>(١)</sup>.

إن ما يقوله ابن جني هنا ، أقرب إلى نحو النص منه إلى نحو الجملة المعيارية كما تصورها النحاة ؛ حيث إنه يبحث في أثر الكلام على السامع ، ويصف العلاقات التركيبية والدالية ؛ لذلك لم تعد صورة الفاعل هي الحاصلة في الذهن عمّن يفعل الفعل ، بل هو الاسم المرفوع بعد الفعل أو ما في تأويله . كذلك المفعول به الذي يرد لاستقامة المعنى المقتضى للرفع . أما المبني فيحتفظ بمحله وإن امتنع ظهور الحركة المناسبة ؛ للزم آخره حركة أو سكوناً .

ويتميز الخطاب بالمعاني اللامتناهية ؛ لأنه محمّل بالدلالة بدءاً من غاية الخطاب التي أنتجها المرسل و وصولاً إلى قراءة الملتقي في سيرورة أي تشكيل خطابي . وإنما السبيل للتعبير عن غير المتناهي بالمتناهي (علامات محدودة) هو التركيب الذي يجعل الخطاب منجزاً ، وينتج في كل حين تراكيب صحيحة بالاعتماد على قوانين اللغة . إذ يؤثر النظام في تشكيل الخطاب من خلال كفاءة مستعمليه ، وذلك بتوظيفهم لكل عنصر منه لأداء رسالة الخطاب . وقد تجلّى اهتمام النحاة بدور تلك العناصر بوصفها أثراً لعلاقات التركيب ، وإدراكهم لأثرها في بنية الخطاب . وسيركز البحث على دور العلامة الإعرابية التي هي محور اشتغاله . ثم سيتولى بشيء من الإيضاح باقي العناصر في فصل مستقل .

### أ) وظيفة الرفع :

إن إحدى الفوائد المهمة التي يمنحنا إياها منهج سوسير هو مبدأ الاعتباطية . ذلك أن النحو التقليدي لا يفسّر لنا - وليس مطلوباً منه ذلك - العلاقة بين صوت علامة الإعراب ومدلولها الوظيفي ، أي العلاقة المتبادلة والحتمية بين وجهي العلامة . فلو أن واضع اللغة استعمل الفتحة علامة لوظيفة الرفع ، لربما كان للنحاة إذاً تفسيراتهم التي تعلل لمتعلم اللغة مدلول هذه الحركة (\*) . وذلك مثل أن يربط الواضع الأصلي صوتياً بين (كتب) ومفهوم الكتابة بدلاً من (كتب) ، فلا يجد مستعمل اللغة حرجاً من تداولها بل لا يسعه الخروج عنها . والسبب أن العلامة (كلمة أو حركة) بأصل و وضعها علامة اعتباطية وما اختلاف الألسن واتحاد المدلولات إلا دليلاً على الاعتباطية . تبدأ العلامة علاقتها بموضوعها بالعرف ، ثم يصير العرف بعد ذلك قانوناً أو قاعدة ؛ فتصير علاقة العلامة بموضوعها علاقة ضرورية ملزمة للمستعمل . لذا فإن حركات الإعراب التي وجدت كاملة في نظام العربية ، إنما هي علامات لمعهود ذهني عند ابن اللغة وهو وظائفها النحوية التي نصّ عليها القدماء . وبهذا ، تكون الحركات معلومة ومطرودة عند ابن اللغة

(1) ابن جني : الخصائص ج ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(\*) لسنا نعيب على النحاة التعليلات والنمذجة النحوية ذات المنحى التعليمي ، ولا مسائل الخلاف من قضايا اجتهادية تعد مظهراً للثراء الفكري . نشير فقط إلى الفرق بين استعمال اللغة معربة بالحركات الذي وصل إليهم متواتراً ، والتعليل لذلك الاستعمال الذي هو رأي النحاة .

بوصفها صوتاً يدل على فكرة لا يستطيع فصل الصوت عن الفكرة ، وإلا لما اطراد استعمالها . كما لا يستطيع تعليلها ؛ لأن العلاقة العلاماتية بلا رابط سببي .

ومما لا خلاف فيه ، أن الحركات عند القدماء ، تعد علامة لغوية ، تؤكد تفسيراتهم الصوتية والنحوية للحركات ، كونها صوتاً غير منفصم عن معاينة الوظيفية في أي تركيب . أما وصفها بالاعتباطية ومن ثم بالضرورة فهي من المفاهيم الحديثة للعلامة التي لا ينبغي أن تفرض عليهم . لذا ، فإن منهج البحث أمر في غاية الأهمية العلمية .

نماذج الرفع القرآنية :

- ١- "الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل" [الزمر : ٦٢] .
- ٢- "وإننا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون" [الحجر : ٢٣] .
- ٣- "وإذا بُشِّرَ أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم" [الزخرف : ١٧]
- ٤- "إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفورٌ رحيمٌ" [البقرة : ١٧٣] .
- ٥- "و ورث سليمان داودَ وقال يا أيُّها الناسُ علِّمنا منطق الطير..." [النمل: ١٦] .
- ٦- "ولقد جاء آل فرعون النذرُ" [القمر : ٤١] .
- ٧- "يريدُ الله أن يخففَ عنكم وخلق الإنسانَ ضعيفاً" [النساء : ٢٨] .
- ٨- "يومَ يدعوكم فستسجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً" . [الإسراء : ٥٢] .

### التحليل اللساني :

- ١- "الله خالق كل شيء" : يتكون الإسناد الاسمي من ركنين مجردين الأول اسم مرفوع (الله) ، والثاني ما تتم به الفائدة للأول . وهو اسم هنا أيضاً (خالق) . ويقضي نظام العربية الرفع وظيفة لهذين الركنين؛ بحيث تكون حركة الرفع علامة على الابتدائية في الأول ، و الخبرية في الثاني ، في هذه العلاقة الثابتة . و ذلك، إن جعلنا لفظ الجلالة (الله) أولاً ومرفوعاً انتظر المخاطب خبراً عنه ، وباجتماعهما تتم الإفادة ، وبهذا تحدد وظيفته عنصر الحركة من خلال علاقة الركنين بعضهما ببعض، وهي الدلالة على وظيفة الاسمين (الله / الخالق) بعدما حصل كل اسم على قيمته الدلالية . وتعد الضمة هنا جزءاً من نظام اللغة الداخلي ؛ لأنها تؤثر فيه ، وتفرق عن دلالة باقي حركات الإعراب . فإذا ما خاطبنا عربياً بالنصب (الله) تبادر إلى ذهنه معنى مخالفاً تدل عليه الفتحة بلا طرف آخر في الإسناد وهو التحذير أو الإغراء . هنا ، يتحدد لكل علامة اختلافها عن علامات النظام الأخرى من جهة ، وتتحقق عرفتها من جهة أخرى . ذلك أننا لو قلنا : الله خالقٌ ، عُدَّت جملة غير قاعدية ؛ لأن الاتفاق الضروري في استعمال حركات الإعراب لم يُعْهَد معه هذه المخالفة في الإسناد.
- ٢- "ونحن الوارثون" : ومن المرفوعات الخبر ، وتدل الضمة أو ما ينوب عنها على هذا المعنى النحوي. فإن قلنا مثلاً : نحن الوارثين ، فإن الخطاب يخرج عن دلالة الإسناد الخبري ، ليدل بعلامة النصب

على قصد الاختصاص ، وهو ما درج عليه الاتفاق باستعمال حركة النصب في الاسم الظاهر بعد ضمير التكلم . بالتالي ، فإن المخاطب ينتظر تحديد وإيضاح الاسم المختص ؛ مراعاة لقوانين اللغة وعلاقة الخطاب .

٣- ٤ "ظلَّ وجهه مسوداً" ، "فإن الله غفور رحيم" : تدخل العوارض الفعلية والحرفية على المركب الاسمي ؛ فتكون علامة على قصد المرسل عند إدخالها على التركيب (مما يفيد النسبة بين الجزأين أو القيد بزمان) وينعكس أثرها على ركني الإسناد في حركات الإعراب التي هي مؤشر للعلاقات . فيجسّد تغيير الشكل ، تغيير معنى التركيب بفعل هذه النواسخ ، وهو تغيير ارتضته الجماعة اللغوية ، وبهذا الاتفاق تكون اللغة وسيلة للإفهام وتؤدي وظيفتها. فوظيفة النواسخ هي الدخول على التركيب الاسمي لتوجيه الخطاب لمعانٍ معيّنة ، وبدخولها تختلف العلاقات ، فتختلف الحركات باختلافها . وعندما يتجرد التركيب الاسمي من الناسخ في الآية الكريمة يكون (وجهه مسودّ وهو كظيم) فوجه المبشّر بالأنتى وهو المسند إليه معلوم لدى المتكلم والمخاطب، غير أن المتكلم - جل شأنه - يعلم عن حاله ما لا يعلمه المخاطب ، فلما أخبر عنه بالاسوداد والامتلاء هماً وكرباً من سوء البشارة تمّت الفائدة ، ثم لإفادة الاستمرار وملازمة المسند للمسند إليه كلما وقعت البشارة ، أدخل (ظل) على التركيب ؛ لتنفيذ هذه الدلالة المحددة . وبسقوطها ، يعود التركيب للدلالة المطلقة . لذلك فإن خروج التركيب من معنى لمعنى بفعل الناسخ اقتضى تغيير حركة الإعراب لتدل على ما يترتب عليها من معنى جديد ، وتظل سائر النواسخ بدائل أسلوبية متاحة في السياق.

وبالنظر إلى الاستعمال الذي اطرّد في النظام فيما بعد ، ثمة تفريق دلالي بين التركيب الاسمي المجرد وبين إدخال الحروف الناسخة عليه المقتضية نصب الاسم ورفع الخبر . ذلك التفريق هو ما تدل عليه هذه النواسخ من معانٍ كالتوكيد ، والترجي ، والتشبيه ... إلخ. فقول الحق - تبارك وتعالى: - "إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ" إن كان المخاطب عالماً بالنسبة فهما (إنَّ / أنْ) لمجرد توكيد النسبة لا غير، وإن كان متردداً فيها ، فهما لنفي الشك عنها ، وإن كان منكراً لها فهما لنفي الإنكار لها <sup>(١)</sup> . والحركة على الاسم والخبر تفسّر وظيفة الناسخ.

٥- ٦- ٧ "و ورث سليمانُ داوودَ" ، "ولقد جاء آل فروعون النذرُ" ، "وخلق الإنسانُ ضعيفاً" : تكون الضمة وما ينوب عنها عنصراً وظيفياً يستدل به المخاطب على الفاعل ونائبه في الإسناد الفعلي . "فقالوا ضرب زيد عمراً ، فدلوا برفع زيد على أن الفعل له ، وبنصب عمرو على أن الفعل واقع به . وقالوا ضرب زيدٌ ، فدلوا بتغيير أول الفعل ، ورفع زيد ، على أن الفعل مبني لما لم يسم فاعله ، وأن المفعول قد ناب منابه ، وقالوا : هذا غلام زيد . وكذلك سائر المعاني ، جعلوا هذه الحركات دلائل

(1) خالد الأزهرى : التصريح بمضمون التوضيح في النحو . ج ١ . ص ٢٩٤ . تحقيق : محمد باسل عيون السود . دار

الكتب العلمية ، بيروت - لبنان . ط ١ . ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .

عليها ، ليتسعوا في كلامهم ، ويقدموا الفاعل إذا أرادوا ذلك ، أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه ، وتكون الحركات دالة على المعاني <sup>(١)</sup> .

وذلك نحو قوله تعالى : و ورث سليمان داودَ" فالمخاطب الذي لا يعلم علاقة الأبوة بين داود وابنه سليمان - وقد ورث أباه نبوةً وعلماً وملكاً - فإنه يدرك ذلك بوساطة العلاقة النحوية التي ميّزت سليمان بالفاعلية وداود بالمفعولية ، وجعلت الحركة في الركنين دالاً على تلك الوظائف .

ومع وجود قرينة لا يلتبس معها الفاعل بالمفعول عند تقديم المفعول جوازاً كما في قوله تعالى : "ولقد جاء آلَ فرعون النذرُ" فإننا والحال هذه لا نرفع ما نشاء وننصب ما نشاء <sup>(\*)</sup> ، لهذه الأسباب :

(أ) إنّ الحركة الإعرابية بوصفها علامة لغوية ، تدل على معهود ذهني عند ابن اللغة ، فلا يفك الارتباط بين وجهيها ؛ إذ يستدعي كلاهما الآخر مقارنة بوجهي الورقة .

(ب) لكل حركة إعرابية قيمة وظيفية ثابتة في النظام ؛ لأنها لا تحيل على حركة أخرى بشكل متبادل، ولكنها تحيل على النظام .

(ج) لا يمكن من غير استقرار دلالة العلامة أن تتشكل قيمة فارقة عن علامات الإعراب الأخرى .

(د) لأن العلاقة بين دال العلامة ومدلولها ضرورية ، فلا يستطيع المتكلم اختيار العلامات كيفما شاء ، بل يتمثل قواعد النظام .

(هـ) طالما أنّ حركة الإعراب جزء من اللغة (النظام) ، فهي ليست علامة عشوائية .

فإذا خُذِفَ الفاعل وتغيّرت صيغة الفعل ، جُعِلَت الضمة علامة لما أخذ موقع الفاعل وأسند الفعل إليه. وبهذا تكون الضمة علامة متعددة الدلالة في إحالتها الوظيفية إلى الفاعل أو نائبه في التركيب الفعلي . قال تعالى : "يريدُ الله أن يخففَ عنكم وخلقَ الإنسانَ ضعيفاً" .

فلما علّمَ الفاعلُ أُستغنيَ بعلم المخاطب به وسلّطَ الفعل على من وقع عليه الخلق ؛ لأن القصد وصفه بالضعف . ولئلا يبقى الفعل حدثاً من دون محدث عنه ناب المفعول مناب الفاعل فأخذ حركته التي دلت على وظيفته في التركيب.

٨- "يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده" :

لما كانت الحركات نظاماً من العلاقات ؛ ولم يرتبط الفعل المضارع "تستجيبون" بعلاقة مع ناصب ولا جازم ، وكان يدل على وقوع الاستجابة في زمان الاستقبال ، لذلك تكون نون الأفعال الخمسة علامة لحالة الرفع نيابة عن الضمة.

ولحسن ظاظا رأي في المعاني التي يتمثل فيها إعراب المضارع غير ما مثّل له النحاة بقولهم : "لا تأكل السمك وتشرب اللبن" . إذ يقول : "إن الفعل المضارع في اللغة العربية يُعرَب ، لكن لمعانٍ أخرى غير التي يعرب لها الاسم ، فهو يأتي مرفوعاً إن دل على مجرد وقوع الحدث في الحال أو الاستقبال ، أو إن

(1) الزجاجي : الإيضاح في علل النحو ص ٦٩ - ٧٠ .

(\*) إشارة إلى رأي النحاة في رفع المفعول به ونصب الفاعل عند فهم المعنى من مثل : خرقَ الثوبُ المسمارَ ، وكسرَ الزجاجُ الحجرَ . وهو عندهم ممّا يقتصر فيه على السماع .

دل على وقوعه على وجه الاستمرار والعادة والقانون المقرر ، نقول مثلاً : المطر ينزل الآن ، المطر ينزل غداً ، المطر ينزل في الشتاء في بلادنا ، فنرفع الفعل المضارع في كل هذه الحالات . فإذا تمخض وقوع الحدث في المستقبل على وجه الانتظار والاحتمال ، استحق الفعل المضارع الذي يعبر عنه النصب ، نقول مثلاً : أملنا أن ينزل المطر ، لن ينزل المطر ... إلخ ، أما إذا أريد بالمضارع معنى القطع بوقوع الحدث ، أو اشتراط وقوعه حتماً ، استحق الفعل المضارع الجزم بالسكون ، كما في حالات الجزم والشرط المعروفة ، نقول مثلاً : إن ينزل المطر نزرع ، لم ينزل المطر ، لما ينزل المطر .. إلخ " (١) .

ومن الاختلاف الوظيفي الذي تؤديه حركة الإعراب في الفعل المضارع ، أن يكتسب الفعل دلالتين متميزتين ناجمتين عن اختلاف الحركة كما في الفعل (أسلم) رفعاً ونصباً في حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير " (٢) .

قال الإمام النووي : " فأسلم : برفع الميم وفتحها ، وهما روايتان مشهورتان فمن رفع قال : معناه : أسلم أنا من شره وفتنته ، ومن فتح قال : إن القرين أسلم من الإسلام ، وصار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير ، واختلفوا في الأرجح منها فقال الخطابي : الصحيح المختار الرفع . ورجح القاضي عياض الفتح وهو المختار ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " فلا يأمرني إلا بخير " ، واختلفوا على رواية الفتح ، قيل : أسلم بمعنى استسلم وانقاد ، وقد جاء هكذا في غير صحيح مسلم (فاستسلم) . وقيل : معناه صار مؤمناً ، وهذا هو الظاهر ، قال القاضي : واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه " (٣) .

### (ب) وظيفة النصب :

وظيفة المنصوبات أنها متممات للتركيب الذي هي فيه ، وعلامتها الفتحة أو ما ينوب عنها . وهي أثر ناجم عن التركيب الفعلي تقع فيه بعد مرفوع هو الفاعل أو نائبه؛ لتكون حركة الإعراب علامة على المعنى الجديد الذي تضيفه تلك المنصوبات ، وفارقاً بين الفاعل والاسم الفضلة المنصوب . ثم إن " كون الشيء فضله لا يدل على أنه لا بد من أن يكون مفعولاً به ، ألا ترى أن الفضلات كثيرة كالمفعول به ، والظرف والمفعول له ، والمفعول معه ، والمصدر ، والحال ، والتمييز ، والاستثناء " (٤) .

(1) حسن ظاظا : اللسان والإنسان مدخل إلى معرفة اللغة . ص ١٠٨ . دار القلم - دمشق ، الدار الشامية - بيروت - ط ٢ - ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

(2) صحيح مسلم بشرح النووي (ج ١٧/ص ٢٣٠) حديث رقم ( ٦٩ - ٢٨١٤ ) كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً .

(3) المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(4) ابن جني : الخصائص ج ١ ، ص ٢٥٤ .

فحالة النصب - وحركتها الإعرابية الفتحة - تؤدي وظائف متعددة في نظام العربية، ولكل منصوب وظيفة تختلف عن الأخرى حسب ما يقتضيه الخطاب . وقد تكون الفتحة أحادية الدلالة في وظيفتها داخل التركيب ، بحيث لا تتبادل الموقع مع الحركات الأخرى ، كما قد تكون متعددة الدلالة داخل التركيب نفسه ، ومن المعلوم أنها كذلك (متعددة الدلالة) داخل النظام .

نماذج النصب القرآنية :

- ١- "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ" : المفعول به . [التغابن : ١٦] .
- ٢- "فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ" المفعول المطلق . [القمر : ٤٢] .
- ٣- " وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ " : المفعول فيه [الجن : ٩] .
- ٤- "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقَ": المفعول لأجله [الإسراء : ٣١] .
- ٥- "فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ" المفعول معه . [يونس : ٧١] .
- ٦- "يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً" الحال . [الفجر ٢٧-٢٨] .
- ٧- "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ" التمييز . [الزلزلة : ٧] .
- ٨- "فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ" المستثنى . [البقرة : ٢٧٩] .
- ٩- "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا" . المنادى [الرحمن : ٣٣] .
- ١٠- "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ" . المضارع المنصوب [آل عمران : ٩٢] .

إن المنصوبات في النماذج الخطابية السابقة تعتمد على الكلمات التي حولها من خلال استنادها إلى نظام نحوي قائم على فعل وفاعل ثم عنصر متمم ، وهذا العنصر المتمم يؤدي هنا وظيفة مفردة بعلاقاته مع العناصر الأخرى التي لا يتبادل معها وظيفته . فالمفعول به لفظ الجلالة لا يمكن أن يدل على المصدرية أو الحال وغيرها ، كذلك سائر المنصوبات السابقة . وقد جعل النظام الفتحة وما ينوب عنها علامة على هذه المعاني الوظيفية في ذهن مستعمل اللغة وحين يستخدمها . نتيجة لذلك ، لا يمكن استعمال الضمة ولا الكسرة ؛ لأنهما ليسا تمثيلاً لهذه المعاني .

وقد تكون الفتحة علامة متعددة الدلالة في إحالتها الوظيفية داخل النظام كما سبق ، وأيضاً قد تتعد دلالتها داخل التركيب الواحد . يقول تعالى : "هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب النقال" . [الرعد: ١٢] . فخوفاً : يحتمل المصدرية والحالية والمفعول لأجله ، أي فتخافون خوفاً وتطمعون طمعاً،.. أو خائفين وطماعين ، أو لأجل الخوف والطمع" (١) .

ومما يحيل المصدرية والظرفية والحالية ، قوله عز وجل : "وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد" . [لق : ٣١] . "أي إزلاًفاً غير بعيد ، أو زمناً غير بعيد ، أو أزلفت الجنة - أي الإزلاف - في حالة كونه غير بعيد ، إلا

(١) ابن هشام : مغني اللبيب ج ٢ ، ص ٢١٨ .

أن هذه الحال مؤكدة ، وقد يجعل حالاً من الجنة فالأصل غير بعيدة، وهي أيضاً حال مؤكدة " (١) . هذا على سبيل التمثيل ، وإن افترض المعاني المحتملة لمؤشر على :

- قيمة علامة الفتحة لا بما تضطلع به من وظيفة فحسب ، بل في فتح الخطاب لتعدد الدلالة ، ممّا ينفي العبثية التي وصمت بها هذه الحركة تحديداً من قبل بعض المحدثين .
- دقة فهم النحاة الأوائل لمقاصد الخطاب وبنيته ، وتقديرهم قيمة علامة الفتحة .

### (ج) وظيفة الجر :

العلامة الإعرابية علامة تركيبية لا في ذاتها ولكن في اشتغالها - كما تقدم - ولذا فهي تشمل على مدلولات لا في ذاتها ، ولكن بتأليفاتها . وتمثل الكسرة أو ما ينوب عنها حالة الجر التي تظهر في موقعين: الجر بالحرف ، والجر بالإضافة . من هنا ، تعد الكسرة علامة على علاقة الاسم المجرور بما تقدمه ، وشاهداً على وظيفة المجرور في التركيبين الاسمي والفعلية ، لا يتم المعنى المقصود غالباً من دونه . فنقول في الإسناد الفعلي مثلاً : خرجتُ من البيتِ إلى الجامعةِ ، وقد أفلح طالبُ العلمِ . كما نقول في الإسناد الاسمي : الأمرُ لله ، وإتقانُ العملِ واجب .

فتحتفظ الكسرة بقيمتين : إيجابية ، وهي كونها علامة على حالة الجر ، وسلبية ، بالتقابل بينها وبين الحركات الأخرى في نظام الحركات العربية .

وقد تدل الكسرة على عنصر محذوف من التركيب ، إذا ورد الاسم مجروراً وقدّر النحاة له جاراً " كقول ربيعة : ( خيرٌ و الحمد لله ) جواباً لمن قال له : كيف أصبحت ؟ " (٢) .

وتتبادل الكسرة مع الضمة الموقع ذاته ، حين نقول جواباً عن نفس السؤال : خيرٌ ، والحمد لله . كما يتم هذا التبادل الصوتي بين الكسرة والضمة في حركات البنية ، كالمقابلة بين ( القنلة والقنلة ، ومقاتل ومقاتل ) . وقد تقدمت الإشارة إلى دور الحركة التكوينية في بناء الصيغ .

أما بالنظر إلى مدلول علامة الكسرة ، فهو ما نصّ عليه النحاة (وهو ما يفهمه العربي) من الارتباط ، والإسناد ، أي أنها تربط بين الحرف ومجروره ، فتكون علامة على العلاقة بينهما ، كما تكون علامة على إسناد اسم إلى غيره في حالة الإضافة . ويدخل تحت هذا الباب الدلالات الناجمة عن حروف الجر ، وما تقيده الإضافة ، غير أن ما يهمننا فيه هو كون حركة الكسرة علامة لوظيفة الجر . ومن أمثلتها القرآنية قول الحق تبارك وتعالى :

- ١- "إلى الله مرجعكم جميعاً" . [المائدة : ٤٨ - ١٠٥] .
- ٢- "الله ما في السموات وما في الأرض" [البقرة : ٢٨٤] .
- ٣- "سلامٌ هي حتى مطلع الفجر" [القدر : ٥] .
- ٤- "إنّهم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً" [الفرقان : ٤٤] .

(1) المرجع السابق : ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(2) ابن هشام الأنصاري : أوضح المسالك . ج ٣ ، ص ٧١ .

- ٥- " يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ .... " [يوسف : ٣٩] .
- ٦- "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" . [الناس : ١] .
- ٧- "أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ" [النحل : ١] .
- ٨- "إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ" . [الدخان : ١٥] .
- ٩- "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" . [التين : ٤] .

أما إذا انفكت حروف الجر عن معانيها وأفادت تأكيد مضمون الخطاب فقط ، فتعد في هذه الحالة زائدة تؤثر في اللفظ لا في المعنى ، إذ تكون العلامة الإعرابية لها بوصفها طارئاً على التركيب ، ويكون المعنى لموقع الاسم من التركيب ، وتُزاد في مواضع أهمها :

١- في موضع الفاعل :

"ما جاءنا من بشير" [المائدة : ١٩] . "أبصر به وأسمع" [الكهف : ٢٦] .

"وكفى بربك وكيلًا" . [الاسراء : ٦٥] .

٢- في موضع المفعول به على غير قياس :

"هل ترى من فطور" . [الملك : ٣] .

٣- في موضع المبتدأ :

"وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها" [هود : ٦] .

"هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض" . [فاطر : ٣] .

٤- في الخبر المنفي :

"أليس الله بأحكم الحاكمين" [التين : ٨] . "أليس الله بعزيز ذي انتقام .." [الزمر : ٣٧] . "وما ربك

بغافل عما تعملون" [هوك : ١٢٣ ، النحل : ٩٣] .

فالنظر في التراكيب الأولى يجد تلازماً بين المعنى وبين وظيفة الجر في (الجار والمجرور ، والمتضايقين) ، بحيث لا يتم المعنى الأولي بسقوط أحدهما ، وقد جعلت الكسرة وما ينوب عنها علامة على تلك العلاقة عرفاً واستعمالاً . أما التراكيب الثنائية التي كانت فيها حروف الجر عنصراً ، فقد أُعطي اللفظ لحرف الجر ، والمعنى للموقع ، فاطرد في الاستعمال اللغوي . فالاسم مجرور ، لأنه وقع بعد حرف جر وإن ورد الحرف لغير معناه . إذاً فقد اختلفت العلاقة بين المعنى ووظيفة الجر التي جُعِلَتْ الحركة علامة عليها . ذلك أن الكسرة هنا لا تفسر الارتباط بين المعنى ووظيفة الجار والمجرور ، لمجيء الجار عنصراً غير رئيس يعزى لغرض بلاغي هو التأكيد . وبمقتضاه يزدوج المعنى إلى معنيين: معنى الخطاب الأولي المفهوم من موقع الاسم ، ومعنى التأكيد المتعارف عليه باستعمال الجار في هذا السياق . وهذا يعني أن العربي في تعامله مع هذا الخطاب يفهم المعنى المزدوج الذي لولا إعمال الجار لما ساغ . ومن ثم فإن إلغاء عمل الجار ليلغي الغرض التأثيري لاستعماله في التخاطب ، كما يخالف العرف في استخدام اللغة .

#### د) وظيفة الجزم :

تكون علامة الإعراب حركة أو حرفاً ، إلا أنها في حالة الجزم هي الحذف : حذف الحركة بالسكون ، وحذف الحرف في المضارع معتل الآخر ، والنون في الأمثلة الخمسة . وبالتالي فإن عدم العلامة يصبح علامة على وظيفة الجزم التي تتجزأ بها اللغة مقاصد عديدة . وعند مقارنة وظيفة السكون (العلامة الخالية من أي مظهر سمعي) بعلامات الإعراب الأخرى (الإيجابية نطقاً) ، نجد أن للسكون قيمة خاصة يمكن أن تُقارَن بقيمة باقي الحركات في التركيب. ولذلك يسميه "كمال بشر" بالحركة الصفر ( zero vowel ) ، ويفسر هذه النظرة بدقة مستنداً إلى أفكار "سوسير" فيقول :

" قيمة الصفر هي وظيفته . وثبتت هذه الوظيفة وتتأكد حين يكون الصفر أو أي عنصر لغوي آخر قادراً على التبادل مع عناصر أخرى في مواقع لغوية معينة ، أي على حد تعبير دي سوسير حين يكون هناك تقابل أو تخالف بينه وبين غيره . والتقابل وسيلة من وسائل التعبير في رأي بعضهم ، وبخاصة أولئك الذين يتبعون دي سوسير الذي يصرح بأن اللغة قد تكتفي أحياناً بالتقابل بين الشيء واللاشيء . ومن هنا جاءت فكرة هذا الباحث العظيم التي تذهب إلى أن الرمز المادي ليس ضرورياً للتعبير عن الفكرة ؛ إذ قد تقع الفكرة بالصفر للتعبير عنها . وبهذه الطريقة استطاع أصحاب "نظرية الصفر" أن يثبتوا أن "الصفر" جدير بأن يسمى عنصراً وأن يصبح وحدة لغوية ذات قيم خاصة ، تختلف من مستوى إلى آخر بحسب النظام اللغوي المعين الذي تنتمي إليه . وبهذه السبيل يجوز لنا نحن أن نسمي "السكون" عنصراً ، بل نطلق عليه اسم الحركة كذلك . أما أنه عنصر فواضح ، ذلك لأنه - وإن خلا من الصورة المادية - يقوم بدور معين في اللغة العربية يقارن بأدوار العناصر الأخرى ، ... أما القول : إنه حركة (أي على المستوى الوظيفي) فمبني على أن وظيفة السكون إنما تقارن بوظائف الحركات دون غيرها من الأصوات، وأنه يتبادل معها عدداً من السياقات الصوتية في اللغة العربية . ولكننا على الرغم من هذا التشابه لم ننسَ ما بينه وبينها من فروق واضحة ، ومن ثم كانت التسمية التي اخترناها له ، وهي " الحركة الصفر " zero vowel للدلالة على ذلك ."<sup>(1)</sup>

و تبرز في حالة الجزم الكثير من مقاصد الخطاب التي تستدعيها حروف الجزم : كالأمر ، والنهي ، والدعاء ، والنفي ، والتقرير ، والشرط . وتكون حركة السكون علامة على ارتباط تلك الحروف بالفعل المضارع ارتباطاً يستدل به على دلالة التركيب .

وتمثل الخفة والسهولة دلالة الجزم عند النحويين ، فقالوا : إن الجزم خفيف يجبر ثقل الفعل ، و هو يقابل الجر في الأسماء الذي يجبر خفتها . والخفة مطلب للمستعمل . ولقد ذهب النحاة إلى أن الأصل في الجزم هو السكون في المضارع صحيح الآخر ، وينوب عنه حذف حرف العلة في معتل اللام ، وحذف النون في الأفعال الخمسة . وعللوا نيابة الحذف عن السكون ، ليخالف الفعل المجزوم الفعل المضارع ، لأن

(1) كمال بشر : دراسات في علم اللغة . ص ١٨٣، ١٨٤ .

الجازم يحذف علامة الرفع . وكل ما يهمننا هو كون حركة الجزم عنصراً وظيفياً يمثل العلاقة بين مفردات التركيب : ومن أمثلته القرآنية ، قول الله تعالى :

- ١- "لم يلدْ ولم يولدْ ولم يكنْ له كفواً أحد" [الإخلاص : ٣-٤] .
- ٢- "ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها" [الأعراف : ٥٥] .
- ٣- "ألم نشرحْ لك صدرك" [الشرح : ١] .
- ٤- "كلا لما يقضِ ما أمره " [عبس : ٢٣] .
- ٥- "لينفقْ ذو سعة من سعته" [الطلاق : ٧] .
- ٦- "قل تعالوا أتْلُ ما حرم ربكم عليكم" [الأنعام : ١٥١] .
- ٧- "قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله" [آل عمران : ٢٩] .
- ٨- "من يعملْ سوءاً يُجْزَ به" [النساء : ١٢٣] .
- ٩- "وما تفعلوا من خير يعلمه الله" [البقرة : ١٩٧] .

فالبنية التركيبية في الخطابات القرآنية السابقة هي كالآتي :

حرف جزم + فعل مضارع مجزوم + فاعل + عناصر متممة  
لـ + ينفقُ + ذو سعة + من سعته

وتتظافر كل هذه العناصر - بما فيها علامة الإعراب - في إنتاج الدلالة . فعلاقة الإعراب لا تكمن أهميتها في الدلالة على وظيفة الكلمة فحسب ، بل إنها لتبْلُغ عن الطريقة التي بُنيَ الخطاب بها للدلالة على قصد معين بمقتضى قواعد النظام . يدل على ذلك ، أننا إن أبدلنا علامة الجزم فيما سبق بعلامة أخرى لما أدى الخطاب أياً من مقاصده في عرف العربي الذي يعد حركة الجزم علامة لاستعمال الجازم قبل الفعل . والاحتكام إلى عرفية العلامة حركة أو سكوناً يؤثر على المخاطب ، ومن ذلك ما رواه الجاحظ أن "الكسائي قال لغلام بالبادية : من خلَقَكَ ؟ وجزم القاف ، فلم يدرِ ما قال ، ولم يجبه ، فردَّ عليه السؤال فقال الغلام : لعلك تريد من خلَقَكَ ؟ <sup>(١)</sup> .

فما تحيل عليه علامة الجزم في النظام ينحصر في ثلاثة ممكنات هي : السكون ، وحذف حرف العلة ، وحذف النون ، ولكي يكون لها وظيفة الجزم فإنها لا تحيل على علامة أخرى ، كما أن العلامات الأخرى لا تحيل على علامة الجزم داخل دائرة اشتغالها .

(١) الجاحظ : البيان والتبيين . تحقيق : عبدالسلام محمد هارون . ج ١ ، ص ١٦٤ . دار الجيل - بيروت .

### ثالثاً : المعاني الوظيفية لعلامات الإعراب عند المحدثين :

(١) المعنى الوظيفي للحركات : يقرر "مازن المبارك" المعاني الوظيفية للحركات بقوله : "يُدلُّ بالحركة على معنى جديد غير معنى المادة اللغوية للكلمة ، وغير معنى القلب الصرفي لها ، وهو معناها أو وظيفتها النحوية كالفاعلية أو المفعولية .. " (١) .

(٢) الوظيفة اختلاف لأن اللغة اختلاف : لقد انتهى "محمد عيد" إلى أن "الوظائف النحوية تختلف فيما بينها في سياق الكلام ، وعلى أساس هذا الاختلاف في الوظيفة يختلف التعبير عنها ، فالحركات والحروف التي أُدعي أنها أثر العامل في العربية هي من تأثير القيم الخلافية بين وظائف الكلمات في الجمل ، حيث تتضح من علاقات الكلمات كل منها بالأخرى بتأثير السياق" (٢) .

كما يرى أن حركات الإعراب وما ينوب عنها تحمل المعنى الوظيفي ، لأن "الكلمات التي تقع في باب من أبواب النحو تأخذ وظيفة ذلك الباب ويُدلُّ عليها بالحركات أو الحروف " (٣) .

(٣) الحركة مورفيم : يعد المورفيم في التقاليد اللسانية التوزيعية الأمريكية علامة دنيا ، أو شكلاً لسانياً صغيراً يحمل معنى . ويعرّف "أحمد سليمان ياقوت" الإعراب بأنه : "مورفيم من المورفيمات التي تدل على المعنى الوظيفي للكلمة بالنظر إلى معاني الكلمات الأخرى التي تتكون منها الجملة" (٤) . ويعني بالمورفيم حركات الإعراب .

(٤) الحركة فونيم : الفونيم ، أصغر وحدة على مستوى المقطع ، أي أصغر مقطع صوتي ( ليس له معنى) ويسمح وحده ، أو بالاشتراك مع أصوات أخرى ، بتشكيل الدوال وبتميزها بعضها من بعض . ويقرب من هذا المفهوم الوظيفي تعريف "تروبزكوي Trabetzkoy" ومدرسة لنجراد للفونيم على أنه "النماذج الصوتية التي لها قدرة على تمييز الكلمات وأشكالها . أو : الأنماط الصوتية المستقلة التي تميز الحدث الكلامي المعين عن غيره من الأحداث الأخرى " (٥) .

---

\* أشرنا وسنشير في أكثر من موضع في هذا البحث إلى آراء المحدثين الذين عنوا بحركات الإعراب مؤيدين وظيفتها ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر : كمال بشر ، وعبد السلام المسدي ، ومازن الوعر ، و حسن ظاظا ، وغيرهم الكثير إلى جانب من نشير إليهم في هذا المبحث الموجز الذي يهدف إلى إظهار التمايز بين القدامى والمتأخرين في هذا الجانب . وسنفرد فصلاً كاملاً لآراء المحدثين ونناقشها تبعاً للاتجاهات اللسانية التي يمثلونها في القسم الثالث ؛ ولذلك نعرض بعضها باقتضاب هنا .

(1) مازن المبارك : نحو وعي لغوي . ص ٦٢ .

(2) محمد عيد : أصول النحو العربي . ص ٢٢٥ . عالم الكتب - القاهرة . ط ٥ - ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .

(3) المرجع السابق : ص ٢٢٧ .

(4) أحمد سليمان ياقوت : ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم . ص ٢٤ . دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٩٤ م .

(5) أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي . ص ١٨٠ .

٥) حركات الإعراب لا تدل على وظيفة نحوية : يحاول " داود عبده " أن يقدم قراءة شاملة لأنواع الحركات الأخيرة في الكلمات ، ويرى أنها ذات قيمة ويمكن اعتبارها علامات ما عدا حركات الإعراب ، التي لا تدل على وظيفة نحوية ، ولا تقدم أو تؤخر في المعنى .

إذ يقول : " نرى أن حركات أواخر الكلمات على أنواع : ١) نوع للوصل كالكسرة في آخر الكلمة الأولى في مثل " ذهبَ البنت " و " هل انسحب ؟ " ، ٢) ونوع هو جزء من الكلمة كالضمة في آخر " منذُ " والفتحة في آخر " سوفَ " ، ٣) ونوع هو علامة كالفتحة في آخر " كُتِبَ " والكسرة في آخر " أنتِ " . ولكن ماذا عن الضمة التي تلحق اللام في مثل " جاءَ الرجلُ " والفتحة التي تلحقها في مثل " رأيتَ الرجلَ " والكسرة التي تلحقها في مثل " مررت بالرجلِ " ؟ . هذه الحركات ليست للوصل وليست علامات بالمعنى الذي أشرنا إليه ، فهل هي حركات إعرابية ؟ أم أنها أجزاء من الكلمات ؟ . إن هذه الحركات التي تلحق كلمة " الرجل " في الجمل السابقة لا تدل ، في نظري ، على وظيفة نحوية ، أي على الفاعلية والمفعولية والإضافة ... إلخ . بدليل أننا لو قلنا " جاءَ الرجلَ " ، و " رأيتَ الرجلِ " ، و " مررت بالرجلُ " ، لما نقلنا إلى السامع معاني مختلفة .<sup>(١)</sup>

نلاحظ أن " داود عبده " لا يأخذ في الحسبان الفرق بين دلالة العلامة وقيمتها ؛ لذلك فقد خلط بين المفهومين حين نفى أن تكون الحركات دوالاً على وظائف نحوية ، ثم عاد ونفى تأثيرها على معنى كلمة " الرجل " في جمل غير قواعدية ، بينما يعد معنى الكلمة شيء ، وقيمتها شيء آخر كما سبق أن بيّنا .

وكان من نتيجة عدم الاهتمام بالفرق بين المفهومين السابقين ( الدلالة / القيمة ) ، أن انتهى إلى القياس الشائع الذي بيّنا كذلك خطأه بقياس ظاهرة الإعراب في الفصحى ، على موقعها في العامية ، والخلط بشكل أوضح بين مفهومي : الأداء ، والتمكن . حيث يقول : " وليس منا من يجهل أن عامة الناس ، وهم لا يتقنون قوانين حركات أواخر الكلمات ، يفهمون ما يقوله المتحدثون بالفصحى دون أية صعوبة . فكيف يمكن هذا لو كان للحركات الأخيرة أثر على المعنى ؟ . كذلك ليس منا من يجهل أن عامة الناس ، سواء منهم من يتقن قوانين الحركات الأخيرة ومن لا يتقنها يفهمون ما يقوله الخطباء بالفصحى ممن لا يكاد يحالفهم الحظ في تحريك كلمة واحدة بالحركة الصحيحة التي تنص عليها قوانين النحو ، فكيف يكون هذا ممكناً إلا إذا كانت الحركات الأخيرة لا تقدم ولا تؤخر في المعنى؟<sup>(٢)</sup> .

من هنا ، نستطيع القول إن حركات الإعراب يتحدد مدلولها من خلال وظيفة الكلمة التي تؤديها في التركيب ، ومن خلال العلاقة التي تتأسس على الاختلاف بين الحركات ، وبالتالي ، تختلف وظائف الكلمات التي تقوم فيها الحركات . فهل تنحصر قيمة الحركة في وظائف التركيب ؟ وكيف يكون الدور الجمالي جانباً من وظيفتها؟ وماذا يكشف لنا تناول الحركة في دالها ؟ .

(1) داود عبده : أبحاث في اللغة العربية . ص ١١٣ . مكتبة لبنان ، ساحة رياض الصلح - بيروت . ١٩٧٣م . والترقيم من فعل الباحثة .

(2) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

## القسم الثاني

### الفصل الثاني : المستوى الصوتي للحركات

- مع الحركات في ذاتها
- نص الصورة وصورة النص
- ظواهر صوتية ناجمة عن التجاور الصوتي :
  - أ) المماثلة الصوتية
  - ب) المخالفة الصوتية
- أثر الحركة التكويني والموسيقي في المقاطع الصوتية :
  - أ) منع الصرف وصرف الممنوع
  - ب) المضارع المجزوم بحذف حرف العلة
  - ج) الواو في بعض الآيات
- ظواهر صوتية ناجمة عن الوقف .

## أولاً : مع الحركات في ذاتها :

لما كانت العلامة في الوجه الأول دالاً صوتياً ، وفي الوجه الثاني مدلولاً معنوياً ، فإننا سنسلك مع (الحركات) في هذا الفصل مسلكاً نتكلم فيه عن صوت الحركة في جوهره . أما المسلك الثاني ، وهو الكلام على الحركة في معناها ، فقد سبقت معالجته من قبل ، وسنعود إليها في الفصول الآتية . وبين هذين المسلكين يتجلى شكل الحركات ، وتحدد قيمتها بوصفها علامة .

إن الحركات صوت . وكل صوت يجري في الزمان يستمد منه كما يقرر سوسير سمتين : الامتداد ، وإمكان القياس . فالكلمة (عَدَل) مثلاً ، تلفظ بشكل تعاقبي (عَ د ل) ، وهي بامتدادها الخطي في الزمان ، قابلة لأن تقاس . أما مدلولها فلا يُحدَّد بمضمونها الإيجابي فقط ، بل سلبياً بتباينها مع " الظلم " . فكيف تتحول الحركة إلى علامة ؟ وماذا قال عنها صوتياً علماء العربية؟.

لقد بحث علماء العربية الأوائل الحركات في معناها أي في قيمتها الوظيفية بناءً وإعراباً ، و لم يغفلوا النظر إلى (الحركات) في ذاتها صوتاً ، بل أولوها عناية فائقة ، حيث وقفوا على تعريفها ، وكما ، وموقعها من الحرف ، وما ينجم عن علاقات التفاعل بين الحركات والصوامت من ظواهر صوتية .

وتُعرَّف الحركات عند علماء الأصوات - القصيرة منها وهي الفتحة ، والضمة ، والكسرة ، والطويلة وهي الألف ، والواو ، والياء - بالأصوات الصائتة "Vowels" في مقابل الأصوات الصامتة "Consonant" . وتعدّ الحركات أوضح الأصوات ظهوراً ؛ لعدم وجود عائق يعترضها عند التلفظ ؛ لذلك فإن أي خلل في نطقها يكون واضحاً أيضاً ، إنْ بالغائها واستبدال السكون بها ، أو بإبدال حركة بأخرى لا تتفق والقوانين الصرفية والنحوية . وتختص الفتحة بكونها أوضح الحركات ؛ لاتساع مخرجها .

إن الفرق بين الحركات القصيرة والطويلة هو فرق في الكمية التي تقاس بالزمن عند الأداء ، فإن قصر نتجت عنه الحركات ، وإن طال زمن النطق بها نتج عنها أصوات اللين . فالألف فتحة طويلة ، والواو ضمة طويلة ، والياء كسرة طويلة ، لما كانت الحركات بعضها . وكل صوت من هذه الأصوات الستة يعد فونيماً . وبالتالي ، يؤدي طول الصوت (زمن النطق مقدراً بجزء من الثانية) ، أثراً في تمييز علامة من أخرى ، وإن كانت طريقة النطق بالحركات القصيرة والطويلة واحدة . وترجع علة الوضوح السمعي للألف إلى كمية الهواء عند النطق بهذا الصوت ؛ مما يجعله أطول أصوات اللين كذلك .

ورغم اشتراك الحركات القصيرة والطويلة في الصفات وطريقة النطق من الناحية الصوتية ، فإن لكل منها قيمته الوظيفية التي يمتاز بها ، و "من هذه الزاوية [ زاوية القيمة والوظيفة ، لا النطق ] يمكن أن نحسب السكون حركة . إن السكون نطقاً لا شيء ، ولكن له وظائفه الخاصة به التي تعدل وظائف الحركات المعهودة . إنه حركة سالبة نطقاً ، إيجابية قيمة ووظيفة . إنه يتبادل المواقع والوظائف مع الحركات المعروفة . له دور في بناء الصيغ ، وله دور مهم في الإعراب" <sup>(١)</sup> .

(١) كمال بشر : علم الأصوات . ص ٤٥٦ . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة ، ٢٠٠٠ .

ولكي تتحقق الوظيفة المائزة لعنصر ما ، فإنه يقبل الدخول في محور الاستبدال ؛ بناءً على تصور "أنها إذ تقبل ذلك (الاستبدال) فإنها تحدث تغييراً دلاليّاً في الوحدة اللغوية الصغرى (المونيم) التي تدخل عليها.<sup>(١)</sup> ولذا فهي تستطيع أن تظهر في هذا المحور كما يأتي :

|                |                   |
|----------------|-------------------|
| محور الاستبدال | ضَرَبَ - ضَارَبَ  |
|                | كَتَبَ - كَاتَبَ  |
|                | خَاف - خِيفَ      |
|                | شَارَكَ - شُورِكَ |
| محور التركيب   | وَارَى - وُورِيَ  |

وبهذا التبادل يُعلم أن الحركات في اتصافها بما هو ذاتي لها أي بوصفها صوتاً ممتداً في الزمن، لها أربع خاصيات :

- ١- أن الفرق في الكمية عند التلفظ بها يؤدي إلى نشوء وحدات لغوية ذات دلالات مختلفة وصحيحة .
  - ٢- أن التمايز بين الأصوات اللغوية في كل وحدة من هذه الوحدات الصغرى ، هو تمايز وظيفي ؛ لأنه يؤدي إلى اختلاف في دلالة هذه الوحدات نفسها .
  - ٣- أن مثل هذا النظر إلى الحركة يقود على مستوى الصوت ، إلى البحث عن السمات المائزة الوظيفية .
  - ٤- أن الصوت يكف عن أن يكون مائزاً عندما يتحول من كونه بديلاً لأصوات أخرى ، في إطار وحدة لغوية صغرى ، إلى ثلوثاته ، أي عندما يتحول من فونيم إلى ألفون\* . ويعرف الألفون بأنه : "تلوين صوتي للفونيم . وهو يأتي بديلاً عنه ، ولكنه لا يغير من وظيفته ، كما لا يغير من معنى الدال الذي ينزل فيه ، أو يظهر فيه شيئاً " <sup>(٢)</sup> . فمتى تمثل الحركة (ألفون) لا يضطلع بأي وظيفة ؟ .
- إن للعلامة اللغوية - إلى جانب دلالتها - قيمة تعارضية تميزها من غيرها . ومن ثم فالفارق بين (صار) و (سار) ليس هو تفخيم الصامت في الأول وترقيقه في الثاني ، إنما الفارق في الفونيمين (ص/س) المختلفين والذين يجعلان العلاقة تقابلية تظهر بشكل سلبي على أنها فارقة " فالفونيم لا يتميز عن الآخر بوجود الملمح فيه ، فالملمح مشترك بينه وبين غيره ، وإنما بأنه وحده هو الذي يحوي تجمعاً معيناً من هذه الملامح " <sup>(٣)</sup> . ونجد بناءً على هذا أن الفارق بين (ظَلَمَ) و (ظَلِمَ) و (ظالم) هو فونيم الحركة ، كما أن الفارق بين (معلمُ المدرسة) و (معلمو المدرسة) هو التقابل بين الحركة

(١) منذر عياشي : العلاماتية (السيمولوجيا) قراءة في العلامة اللغوية العربية . ص ١٢٣ .

\* لملاحظة بهذا التحديد توصل إليها د. منذر عياشي من خلال دراسة الكلمة / العلامة . وإنني أراها تنطبق على الحركة/ العلامة ؛ فبنيت عليها ، فيما عدا ما تختص به الحركة ، وهو ما تمت الإشارة إليه .

(٢) منذر عياشي : العلاماتية (السيمولوجيا) ص ١٢٤ .

(٣) أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي ص ١٨٨ .

الطويلة والقصيرة ؛ لأنها جعلت العلامة مغايرة . فإن لم تؤثر الحركة في الكلمة لم يكن لها وظيفة تمييزية ، وبالتالي لم يعد لها مقابل ، ويمكن أن تسمى حينئذٍ (ألفون) للتعبير عن التنوع في الأداء الصوتي دون الوظيفي . وعليه ، فإن تفخيم الحركات و ترفيقها ( كالفتحة المفخمة في صار ، والمرققة في سار ) هو لون صوتي لا تمييزي .

والأمثلة الآتية هي صور لاختلاف النطق لا الوظيفة فيما يخص الحركات ، فنقول في الفتحة : " صَبَر (فتحة مفخمة) ، سَبَر (فتحة مرققة) ، قَبَر (فتحة بين بين) . وفي الكسرة صِيَام (كسر مفخمة) ، قِيَام (كسر بين بين) ، لِيَام (كسرة مرققة) . وفي الضمة : صُم (ضمة مفخمة) ، قُم (ضمة بين بين) ، دُم (ضمة مرققة) .<sup>(١)</sup>

وتعد الظواهر الصوتية الناجمة عن التجاور ، والناجمة عن الوقف نماذج للتغيرات الصوتية لا الوظيفية . وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من تعريف هذه الظواهر الصوتية - إن بإيجاز - في سبيل الكشف عن علاقتها بالنماذج التي شكلت فيها الحركة قيمة فارقة من جهة ؛ ولتقديم تصور اللغويين العرب لها من جهة أخرى .

## ثانياً : نص الصورة وصورة النص :

كما تكون الصورة نصاً في (الأيقونة : Icon) ، تكون الكتابة رسماً في الحركات. ذلك أن الأيقونة بوصفها رسماً لا تكون دالة إلا من خلال علاقتها بمسئولياتها إنتاجاً وتأويلاً وتداولاً. الأمر الذي ذهب إليه "سوسير" بتحديد مفهوم السيميولوجيا بأنه العلم الذي يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، وتكون اللسانيات فرعاً عليه . فدلالة العلامات إذن هي عرف اجتماعي ؛ وما يعطي علامة ما دلالتها في أي مجتمع - وهو الاستعمال النوعي لها - قد يفرغها من تلك الدلالة في مجتمع آخر ، أو من عصر لآخر . غير أننا في هذا الفصل - كما قررنا - سنتجاوز النظر إلى الحركة بوصفها علامة ذات وظيفة مائزة في البنية والإعراب ، وسنركز في المقابل على الحركات بوصفها تنويعات صوتية في تعارض مع الأولى . يحدث ذلك في كثير من الظواهر الصوتية كما سنبين ، أو حين تكون الحركة علامة مخالفة لمنطق القاعدة ؛ لمسوّغ صوتي في الغالب ، عبّر عنه العرب بالمناسبة التي تبيح مخالفة الأصل . وإننا لنحسب الحركة حينئذٍ أيقونة لجملة من الخصائص المشتركة بينهما ، وهي :

١- الأيقونة رسم بالصورة ، والحركة رسم لهيئة النطق لكن بالكلمات . حيث ميّزوا "الفتحة بفتح الشفاه والكسرة بكسرها وانفراجها والضمة بضمها . ومن هنا جاءت التسمية البارعة لهذه الحركات : الفتحة والكسرة والضمة ، وفقاً لهذا المعيار الذي تصنف على أساسه أنواع الحركات أو أنماطها ، وهو وضع الشفاه"<sup>(٢)</sup> .

(١) كمال بشر : علم الأصوات ص ٤٦٣ - ص ٤٦٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٢٠ .

٢- إن الأيقونة علامة تصويرية تقوم علاقتها على المشابهة كما في الرسم ، أو المطابقة كما في التصوير الفوتوغرافي . والمصطلحات التي تم وضعها لتوصيف الظواهر الصوتية (تضعيف ، إمالة ، روم ، إشماء....) تشكل أيقونة لشبهها شيئين : الأول ، هيئة النطق بها ، ولذلك استخدمت علامات عليها . والثاني ، اللغة الواصفة (Metalanguage) التي أنتجت تلك المصطلحات ، ووضعت الشروح ، وصنفت الظواهر . وهذا يعني أن العلاقة هنا تحولت من الاعتبارية إلى المشابهة لأن فيها تعليلاً وتفسيراً .

٣- إن الأيقونة لا تدل على نفسها ، بل تدل بالصورة التي أعطاها المجتمع على غيرهما ، فهذه الصورة التي ترمز إلى مقهى إنترنت  ، يكون اشتغالها رهناً للتجربة الواقعية ، أي عندما يشكل مقهى الإنترنت جزءاً من الممارسة في المجتمع . في حين أنها تعني لا شيء في نظر مجتمع لا حضور لتلك المقاهي فيه ، وبالتالي لا دلالة لهذا التداخل بين كوب القهوة والحرف (e) الذي هو رمز الشبكة ، وكذلك الشأن بالنسبة للحركة التي ينجم عنها تغييرات صوتية عند التجاور أو الوقف ، فهي لا تدل على ذاتها ، بل تدل على الصورة التي أعطاها اللغويون على غيرها ، أي على تلك الظواهر الصوتية .

يدفعنا هذا إلى عرض تلك الظواهر من أجل التمييز بين نظام القيم ونظام الصوت ، أي كون الحركات وظيفية أو غير وظيفية . كما سنرى في الفقرة القادمة .

### ثالثاً : ظواهر صوتية ناجمة عن التجاور الصوتي :

ويمكن أن نتحدث في هذا المبحث عن أمرين بهما ينهض الكلام صوتاً وبهما يتمايز :

(أ) المماثلة الصوتية .

(ب) المخالفة الصوتية .

ونلاحظ أنهما وإن تناقضا تعيناً ، فإنهما يسلكان بالكلام في سيرورة حدوثه نحو إنشائه ومعمارهما من جهة ، ونحو أدائه وإنجازه من جهة أخرى .

#### (أ) المماثلة الصوتية :

إن المماثلة الصوتية بأشكالها المختلفة ، تقوم أساساً على ضرورة التخفيف ، والانسجام الصوتي ، والاقتصاد في الجهد . فالإعلال هو : "تغيير حرف العلة للتخفيف . ويجمعه القلب ، والحذف ، والإسكان"<sup>(١)</sup> . أما حذف الإبدال فهو : "أن تقيم حرفاً مقام حرف ، إما ضرورة ، وإما صنعة واستحساناً"<sup>(٢)</sup> . وهذا التصور لوظيفة الإبدال يميز بين الإبدال اللازم ، والإبدال لمقتضى جمالي . وإننا نرى أن الجمال ضرورة ، وقد يكون في الضرورة جمالاً . فالتقل والتنافر ليسا مقبولين ، وهما يدفعان إلى كثير من

(١) رضي الدين الاسترأبادي : شرح شافية ابن الحاجب . ج ٣ ص ٣٣ .

(٢) ابن يعيش : شرح المفصل للزمخشري . ج ٥ ص ٣٤٧ .

التغييرات طلباً للخفة والتناسب . يعني هذا أن في الصحة نواحي جمالية ، وأن الصحيح يستدعي وجود الجمال وإن بنسب متفاوتة ، بدءاً من خلو الكلام من الثقل على اللسان ، والتناظر في الأذان على مستوى الخطاب العادي (مستوى الصحة) ، وإنهاءً إلى الجمالية الأسلوبية في الخطاب الإبداعي بعامة . أما كون الجمال ضرورة فيتمثل في مستوى اللغة العليا (القرآن ، والحديث ، والشعر) التي تتجاوز الغرض التواصلي إلى التأثير في المتلقي وإقناعه ، رغم ما بين الخطابات الثلاثة من تمايز في هدف الخطاب وشكله (أي في الغاية الجمالية للصوت اللغوي) كما سنبين .

### صور المماثلة الصوتية \* :

(١) حين يتجاوز صوتان متجانسان أو متقاربان ، يتمثل أحدهما مع الآخر تماثلاً صوتياً ، للمناسبة والانسجام و " لتحقيق حد أدنى من الجهد عن طريق تجنب الحركات النطقية التي يمكن الاستغناء عنها " <sup>(١)</sup> . وتعرّف المماثلة بأنها : "عملية استبدال صوت بصوت آخر ، تحت تأثير صوت ثالث قريب منه ، في الكلمة أو في الجملة " <sup>(٢)</sup> . وتُعرف أيضاً بكونها : "تحول الفونيمات المتخالفة إلى متماثلة إما تماثلاً جزئياً أو كلياً" <sup>(٣)</sup> .

فإن كان الفونيم ساكناً ، والثاني متحركاً فإنهما يندمجان في تماثل كلي هو ما يعرف في علم التجويد بالإدغام . ومن أمثلته :

- " فليَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ " (الطارق : ٥ ، ٦) . (مَاء) .
- " أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ " [البقرة : ٥] (مَرَبِّهِمْ) .
- " وَمَنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ " . [غافر : ٧٨] . (مَلَّم) .
- " وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ... " [البقرة : ٨] . (مَيَّقُول) .
- " مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ " . [مريم : ٣٥] . (مَوَلَّد) .
- " وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ " [يس : ٤٣] . (إِنْشَأْ) .
- " ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " . [البقرة : ٢٤٦] . (مَلَكُنَّقَاتِل) .

(٢) كما تبدل النون الساكنة ميماً حين يليها الباء سواء كانا في كلمة واحدة "انْبَجَسَتْ" أم في كلمتين منفصلتين (رجلٌ بدين) . والعلة الصوتية لهذا الإبدال هو التباعد في المخرج والصفات بين النون والباء ؛ لذلك جيء بصوت يجمع بين الاثنين وهو الميم ؛ لأنه أنفي صفته مثل النون ، وشفوي مخرجه مثل الباء . يوضح ذلك "الرضي" بقوله : "إنه يتعين التصريح بالنون الساكنة قبل الباء ؛

\* نهتم فقط بالتماثل الذي يبين الحركات ، أو بينها وبين الصوامت ؛ لغرض منهجي بينما يعد التماثل الذي يحدث بين الصوامت أمراً ثانوياً بالنسبة للبحث .

(١) أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي . ص ٣٨٧ . عالم الكتب ، القاهرة . ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

(٢) رمضان عبد التواب : التطور اللغوي ، مظاهره وعلاجه وقوانينه . ص ٣٠ . مكتبة الخانجي بالقاهرة . ط ٣ .

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

(٣) أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي ص ٣٧٨ .

لأن النون الساكنة يجب إخفاؤها مع غير حروف الحلق كما في الإدغام ، والنون الخفية ليست إلا الغنة التي مُعْتَمَدُهَا الأنف فقط ، والباء معتمدها الشفة ، ويتعسر اعتمادان متواليان على مخرجي النفس المتباعدين فطلبت حرفاً تقلب النون إليها متوسطة بين النون والباء ، فوجدت هي الميم ؛ لأن فيه الغنة كالنون ، وهو شفوي كالباء <sup>(١)</sup> . وهذه المماثلة تعرف في علم التجويد بالإقلاب .

(٣) ويعد الإخفاء أيضاً مماثلة صوتية ؛ فالنون الساكنة تماثل أحد الحروف الخمسة عشر التي تجيء بعدها مع بقاء غنتها "وهو على مراتب ثلاث : أوضحه عند الطاء والتاء والذال ؛ لأنها قريبة من مخرج النون . وأبعده مع الكاف والقاف ؛ لبعده مخرجهما عن مخرج النون . وأوسطه عند بقية الحروف " <sup>(٢)</sup> فالنون في الفعل (أنفق) مثلاً تلفظ من مخرج الفاء (الشفة السفلى مع الثنايا العليا) مصحوبة بغنة . ومن أمثله القرآنية :(\*)

"ينصركم" [آل عمران : ١٦٠] ، "سراعاً ذلك" [لق : ٤٤] ، " أن تَبْتَئَكَ" [الإسراء : ٧٤] ، " ورزقٌ كريم" [الأنفال : ٤] ، "من جانب" [مريم : ٥٢] "جباراً شقيماً" [مريم : ٣٢] ، "فانقلبوا" [آل عمران : ١٧٤] ، "عابدات سائحات" [التحريم : ٥] ، "من دون" [البقرة : ٢٣] ، "شراباً طهوراً" [الإنسان : ٢١] ، " من زكاها" [الشمس : ٩] ، "الأنفال" [الأنفال : ١] ، "ومن تاب" [هود : ١١٢] ، " قسمة ضيزى" [النجم : ٢٢] ، "من ظلم" [الكهف : ٨٧] .

والسبب في تغير مخرج النون إلى مخرج يماثل الصوت الذي بعدها هو "أن النون الخفية إنما تخرج من حروف الأنف الذي يجذب إلى داخل الفم لا من المنخر فلذلك خفيت مع حروف الفم لأنهن يخالطنها وتتبين عند حروف الحلق لبعدهن عن الحرف الذي تخرج منه الغنة" <sup>(٣)</sup> . ثم إن الإبدال سواء أكان للإدغام أم لم يكن ، إنما يقع مراعاة للتناسب الصوتي وللتخفيف ، وكذلك الإعلال . وفي كل تعتمد اللغة العربية فيه على الحركات في كل صورة .

(٤) ومن أمثلة المماثلة الصوتية بتأثير الحركة على الصامت "أثر الحركات الأمامية ، كالكسرة الخالصة ، والكسرة الممالة ونحوهما ، على أصوات أقصى الحنك ، كالقاف ، والجيم ، والكاف ، ونحوها ، إذ يؤدي هذا التأثير إلى نوع من التوافق والانسجام بين هذه الصوامت الخلفية والحركات الأمامية ، بأن تقلب هذه الصوامت الخلفية إلى صوامت من مقدمة الفم .. فالقاف مثلاً ، تتأثر في نطق أهل مدينة "الرياض" القدامى ، بالكسرة التالية لها ، فتقلب صوتاً مزدوجاً من مقدمة الفم ، مكوناً من الدال والزاي (dz) ، في مثل : "دزيلة" في "قبلة" ، وكذلك : "دزليب" في "قليب" بمعنى "البئر" . ومثل ذلك حدث للكاف ، في بعض اللهجات القديمة ، في الظاهرتين المعروفتين عند

(١) رضي الدين الاسترأبادي : شرح شافية ابن الحاجب . ج ٣ ، ص ٢١٦ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٧٤ .

\* أمثلة الإخفاء مأخوذة بالترتيب من : بغية عباد الرحمن لتحقيق تجويد القرآن ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣ ، محمد شحادة الغول ، مكتبة المتنبى - الدمام / المملكة العربية السعودية ط ٢٩٤٢هـ - ٢٠٠٨ م .

(٣) السيرافي : شرح كتاب سيبويه : ج ٥ ، ص ٢٨٧ - ٣٨٨ .

القدماء بالكشكشة والكسكسة ؛ إذ تتأثر الكاف في لغات ربيعة ومضر وبكر القديمة ، بالكسرة التي تأتي بعدها ، فتتحول إلى صوت مزدوج من مقدمة الفم، ليتوافق مع الكسرة ؛ وهو صوت : (تسْ) في الكشكشة عند ربيعة ومضر ، في مثل : "تسيف حالك ؟ " ، وصوت : (تسْ) في الكسكسة عند بكر ، في مثل : "تسيف حالك ؟ " . (١)

لكن بماذا تُفسر مثل هذه التغيرات الصوتية ؟ لقد انقسم اللغويون حيال تفسيرها ففريقين : ففريق يرى أن السبب هو نزوع اللغات نحو توفير الجهد أو الاقتصاد في الكلام ، و فريق ينفي أن يكون مبدأ الجهد الأقل هو ما يفسر تلك الظواهر الصوتية ؛ لأنه يرى نسبة السهولة والعسر ، ويضيف بمقابله المبدأ السابق ما يعرف بمبدأ الجهد الأعلى .

فالإلى المبدأ الأول (السهولة وتوفير الجهد) " يذهب كثير من علماء اللغة ، من أمثال "هوييتي" Whitney الذي يرى أن كل ما نكتشفه من تطور في اللغة ، ليس إلا أمثلة لنزعة اللغات إلى توفير المجهود ، الذي يبذل في النطق ، وأن هناك استعداداً للاستغناء عن أجزاء الكلمات ، التي لا يضر الاستغناء عنها بدلالاتها " . (٢)

وقد ذهب " عبد الرحمن أيوب " إلى أنه ليس من اليسير أن نميز الأصوات التي يسهل نطقها من الأصوات التي يعسر على الإنسان أن ينطق بها . وذلك لأن السهولة أو العسر أمر نسبي ، ومن ثم لا يمكن اعتبار هذا النوع من النشاط العضلي - اللازم للكلام - أكثر عسراً أو يسراً من ذلك النوع" (٣) .

ويرى "أحمد مختار عمر " أن عامل الجهد الأقل يعد من العوامل البارزة التي تؤثر في تفسير التغيرات وإن لم يكن العامل الوحيد . كما أنه لا يفسر التغيرات انطلاقاً من اعتبارات أخرى أكثر تعقيداً من رغبة المتحدثين في بذل جهد أقل . (٤) أما "سوسير" فقانون الجهد الأقل عنده مجال واسع للبحث ويجب أن تُعد فيه وجهتي النظر الفسيولوجية (وتختص بالنطق) والسيكولوجية (وتعني قوة الملاحظة الدقيقة والانتباه) . ولقد كشف بالشواهد عكس هذا القانون أي قانون الجهد الأقصى ، فقال : "إنه من الممكن أن نورد حالات تشذ عن هذه القاعدة وعن القياس . فالإدغام يقابله مثلاً فك الأحرف ... ولا يمكن في الواقع أن نحدد على وجه القطع بالنسبة لكل لسان ما يسهل عملاً يعسر نطقه" (٥) . ومن نتائج هذه الآراء نخلص إلى أن ما يفسر التغيير - رغم ميل المتكلم إلى المجهود الأقل - هي عوامل أخرى ، وقد تكون بالغة التعقيد ؛ لذلك أشار "سوسير" إلى ضرورة اعتبار الجانبين الفسيولوجي والسيكولوجي معاً . غير أن من أهم تلك العوامل أيضاً العادة اللغوية لمجتمع

(١) رمضان عبد التواب : التطور اللغوي : ص ٥١-٥٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٦ .

(٣) عبد الرحمن أيوب : اللغة والتطور . ص ٣١ . مطبعة الكيلاني ١٩٦٩ م .

(٤) أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي . ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

(٥) فرديناند دي سوسير : محاضرات في علم اللسان العام . ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

ما ، فهي قد تؤدي إلى نسبية هذا القانون . فما " قد يتصوره البعض من سهولة في نطق صوت من الأصوات ، أو صعوبة في نطق صوت آخر ، ليس سوى أثر من آثار العادة اللغوية التي تنطق بهذا ولا تنطق بذاك . وليس وضع طرف اللسان بين الأسنان بالأمر المجهد ، ولا وضعه خلفها بالأمر المريح " (١) .

(٥) ويمثّل " أحمد مختار عمر " للمماثلة بين العلل والعلل ، أو بين العلل وأنصاف العلل بما يأتي من أمثلة :

أ- الحمدُ لله ، قرأها بعضهم الحمدُ لله (تقدمية) وبعضهم الحمدِ لله (رجعية) .

ب- فلامه التث ، قرأها بعضهم فلامه (تقدمية) .

ج- عليهمُ الله ، تقرأ : عليهمُ الله - بضمّتين (رجعية) .

د- أماكن قلب الواو ياء التي يذكرها الصرفيون في باب الإعلال يمكن اعتبار معظمها من باب قلب الواو ياء بعد الكسرة تحقيقاً للمماثلة . والأمثلة رضي - صيام - ديار (وكلها من نوع التأثير التقديمي) (٢) .

ويشير المثال الأول (أ) إلى مشكلة المناسبة الصوتية عندما تكون على حساب علامة الإعراب ذلك أن حركة الإعراب هي علامة على الباب النحوي الذي تنتمي إليه وظيفة الكلمة في التركيب ، فهل تضحّي اللغة بهذه القيمة في سبيل المناسبة ؟ وإذا كان كذلك فمتى يقع ؟ وهل هو مطرد ؟ وما درجة وجوده في النظام من حيث الجواز وعدمه أو الجودة الضعف ؟ .

لابد من التفريق بين التناسب الصوتي في بنية الكلمة كما في مواضع الإعلال والإبدال ، وعندما يكون على حساب حركة البناء كما في بناء الماضي المسند لواو الجماعة على الضم ... ، أو عندما يكون على حساب حركة الإعراب ؛ لأن الإشكال الأساس فيها هو قيمتها الوظيفية التي تقابل القيمة الجمالية في نماذج التناسب الصوتي .

يشير "تمام حسان" إلى تسعة مواقع للمناسبة أغلبها ناشئة عن البناء ماعدا اثنين ويرى - بوصفه من أصحاب نظرية السياق - أنه يجب النظر إلى المناسبة في ضوء السياق بعناصره المختلفة . فقد " لاحظ النحاة أن موقعاً ما قد يتطلب حركة معينة بحكم النظام ، أي بحسب القاعدة ، ولكن هذه الحركة المطلوبة قد تتنافر مع ما يجاورها أو على الأقل لا تتناسبه . ومن هنا يبدو السياق وقد اتخذ في مكان هذه الحركة حركة أخرى تتناسب مع ما يجاورها" (٣) . وقد أخذ "حسان" على النحاة أنهم لم يسجلوا تحت عنوان المناسبة سوى حركة واحدة هي الكسرة قبل ياء المتكلم ، رغم أن هناك عدداً من حركات هذا الباب ومنها : (٤)

(١) عبد الرحمن أيوب : اللغة والتطور . ص ٣٤ .

(٢) أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي ص ٣٨٣ .

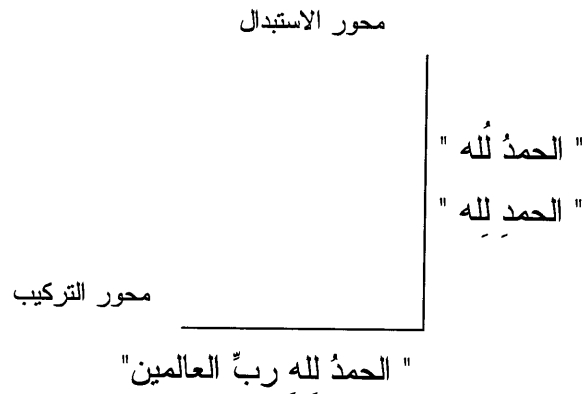
(٣) تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٢٧٨ .

(٤) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

- ١- بناء الماضي على الضم لمناسبة واو الجماعة في نحو ضربوا .
  - ٢- تحريك عين المضارع المسند إلى واو الجماعة بالضم نحو يضربون ، لن يضربوا ، ولم يضربوا .
  - ٣- تحريك لام فعل الأمر بالضم عند إسناده إلى الواو نحو اضربوه .
  - ٤- تحريك لام الفعل المضارع المسند إلى ياء المخاطبة بالكسر نحو تضربين، ولن تضربي ، ولم تضربي .
  - ٥- تحريك لام فعل الأمر عند إسناده إلى ياء المخاطبة بالكسرة نحو اضربي.
  - ٦- تحريك أواخر هذه الأفعال جميعاً بالفتحة عند إسنادها إلى ألف الاثنين نحو قولك ضربا - يضربان - ، لن يضربا - لم يضربا - اضربا .
  - ٧- إذا كان الفعل معتل الآخر بالألف فإن الفتحة التي على عين الكلمة والتي تعتبر الألف مدّاً لها تبقى بعد حذف الألف في بعض تصريفات الفعل لتكون قرينة على الألف المحذوفة ويسمى النحاة حينئذ حركة الدليل . ومن تعبيراتهم المحفوظة في ذلك قولهم : "والفتحة قبلها دليل عليها" .
  - ٨- إعراب المجاورة كما في "جر ضب خرب" حيث يتضح المعنى بقرينة معنوية هي قرينة الصلاحية للإسناد وعدمها فيصبح اعتبار المناسبة الموسيقية للحركات أهم من المحافظة على إعراب القاعدة .
  - ٩- ما يسميه النحاة : الاتباع على اللفظ . فليس لهذا النوع من الاتباع مسوِّغ من القاعدة ولهذا السبب لا يمكن تفسير الاتباع على اللفظ إلا في ضوء المناسبة الصوتية الموسيقية بين صوتين، حين تتضافر القرائن على بيان المحل فلا يحتاج إلى حركة التابع بين القرائن الدالة عليه .
- وعند إجراء الجر بالمجاورة ، والاتباع على اللفظ ، نعود لتتساءل عن قيمة علامة الإعراب ؛ ذلك أنها بوصفها قيمة تدل على وظيفة الكلمة ، وتري نفسها بشكلها الجمالي في آن واحد ، وهو ما لا نجده في العاميات لخلوها من الإعراب ، أو عند تسكين الكلام . أما عند إجراء التناسب الصوتي الذي يؤدي إلى طرحها ، فيتعلق الأمر بتجاوز خطي للقواعد بل لقاعدتين : قاعدة نحوية ، وقاعدة صوتية . ويؤدي تطبيق إحداها إلى امتناع الأخرى. فعند تطبيق القاعدة النحوية لا يتم خرق النظام، أما عند العدول عنها فتتوافر المناسبة الصوتية الجمالية مع ما يسوغ الاستغناء عن علامة الإعراب وهو أمن اللبس، أي عندما تتحدد وظيفة الكلمة في السياق بالاعتماد على علامة أخرى في حال خرق قانون الحركة. وعندئذٍ ، يعد تطبيق إحدى القاعدتين من الممكنات المتاحة لمستعمل اللغة. ويعني ذلك أيضاً أن العلامة الإعرابية تحتفظ بقيمتها عند تغليب قاعدة المناسبة ولا تفقدها ؛ لأن ما يقابل القيمة هو العبثية ، والنقيضان لا يجتمعان ، ولأن المناسبة تظهر في الإعراب ، أو تظهر علتها مثل :

(جاء غلامي ، وامعتصماه ، "أن تقول نفساً يا حسرتاً على ما فرطت في جنب الله .." [الزمر: ٥٦]، "حتى إذا جاء أحدهم الموتُ قال ربُّ ارجعوني" [المؤمنون : ٩٩] ، "عالمُ الغيبِ والشهادةِ الكبيرُ المتعالِ" [الوعد: ٩] ... .

ومن حذف النون لغير سبب ، إلا التناسب الصوتي قوله صلى الله عليه وسلم : "والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ... " (١) . كذا في عامة النسخ بحذف النون ، ولعل الوجه أن النهي قد يراد به النفي كعكسه المشهور... ولعل حذف النون للمجانسة والازدواج (٢) . فإن قلنا على النفي : لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنون حتى تحابوا ، عدنا المجانسة الصوتية وذلك الإيقاع بالمشاكلة . إذن ، فعلامة الإعراب إنما تنتقل من قيمة وظيفية إلى قيمة جمالية ، أو العكس . وحسب هذا المبدأ دائماً ما تكون لها قيمتها التي تقابل الأخرى على محور الاستبدال بوصفها علامة غياب ممكنة . ومن ذلك المثال الآتي:



ففي قراءة الضم "الحمد لله" و "هي لإبراهيم بن عبله ، ضمت اللام إتباعاً لحركة الدال في الحمد ، و الأصل في لام الجر الكسر ، وسُمع عن بعضهم الكسر (الحمد لله) أتبع الدال حركة اللام ، والاتباع في الضم أولى ؛ لأن الضمة حركة إعراب" (٣) .

كما يقع الاتباع في المقطع . وتدخل الحركة في تكوين المقاطع الصوتية التي تتكون من تتابع الصوامت والحركات ، وتبين نوعية المقاطع في العربية ؛ لأنها الأوضح في السمع من سائر الأصوات .

### (ب) المخالفة الصوتية :

تعد المخالفة الصوتية من أنواع التأثير المتبادل بين الأصوات المتجاورة . حيث تخالف بين صوتين متقاربين على العكس من المماثلة التي تقرب بين مختلفين . ويقصد بالمخالفة " تعديل الصوت الموجود

(١) عون المعبود على سنن أبي داود ومعه شرح ابن القيم (ج ١٤/ص ١٠٠) حديث رقم (٥١٧١) . كتاب الأدب ، باب في إفشاء السلام . الناشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ، تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان ط ٢ ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٣) محمود عكاشة : التطور الصوتي في الألفاظ ، أسبابه وظواهره . ص ٨٢ . دار النشر للجامعات . ١٤٣٠هـ -

في سلسلة الكلام بتأثير صوت مجاور ، ولكنه تعديل عكسي يؤدي إلى زيادة مدى الخلاف بين الصوتين<sup>(١)</sup>.

ومن أمثلة المخالفة<sup>(٢)</sup> :

(أ) إبدال الفتحة كسرة عند مجاورتها ألفاً . والهدف من ذلك تجنب النطق بمجموعة من الحركات المتحدة الطابع . وهذا يفسر لماذا نصب جمع المؤنث السالم بالكسرة (بدل الفتحة) ولماذا كسرت نون المثنى (على عكس نون الجمع المذكر السالم التي فتحت) .

(ب) إبدال الكسرة فتحة إذا جاورت ياء مد ، كما في كثير من العاميات العربية التي تبدل صِغَ فَعِيل إلى فَعِيلَ مثل : أَكِيلَ وَسَهَّيرَ .

(ج) إبدال الضمتين المتتاليتين إلى ضمة + فتحة ، كما يقال في سُرُر : سُرَر ، وفي ذُلُل : ذُلُل ؛ لاستتقال اجتماع ضمتين مع التضعيف .

ومن الناحية الصوتية الجمالية ، فلسنا نرى في المخالفة الصوتية بين الحركات المتجاورة شيئاً من الخفة واليسر ، غير أنها - في رأينا - تحقق غايتين : الأولى ، تتمثل في نوع من الانسجام الصوتي ؛ للانتقال الرتيب بين الحركات المتواليات المغايرة لبعضها . والثانية ، اطراد القاعدتين الصوتية والنحوية في الأبواب التي ترد فيها .

فأي صعوبة تذكر إذا ما ذهبنا في الاتجاه المعاكس للقاعدة ونصبنا جمع المؤنث بالفتحة ، فنقول مثلاً : خلقَ الله السماوات . بدل الكسرة : خلق الله السماوات . ولأن الألف لا تتغير فلا أثر يحدث على نهاية المقطع القصير ( ص ح ) عند نيابة حركة قصيرة عن أخرى . ولكننا نشعر بخاصية الانسجام والتناسق في حركة الكسرة عقب الألف أكثر منها في الفتحة .

ولا تفسر المخالفة كسر نون المثنى فقط ، على عكس نون جمع المذكر (المثال أ) فهي تقع في التنثية والجمع معاً . فحركة نون المثنى هي الكسرة في حالة الرفع المسبوقة بفتحة طويلة ، أو المسبوقة بكسرة طويلة في حالتي النصب والجر ، وتنشأ المخالفة من تسكين الألف والياء (قال رجلان ، مررت برجلين) . كما تلزم نون المذكر الفتحة في حالة الرفع المسبوقة بضمة طويلة ، وفي حالتي النصب والجر المسبوقة بكسرة طويلة (أفلح المؤمنون ، يبئلى الله المؤمنين) . وهذا من باب المخالفة الصوتية .

وقد أشار "رمضان عبد التواب" إلى وقوع المخالفة في نون الأفعال الخمسة ، وفي جموع التكسير<sup>(٣)</sup> ، وإلى المخالفة الكمية بين المقاطع الصوتية كما في حركة ضمير المفرد الغائب ، إذ " تحتفظ العربية الفصحى بالطول في حركته (حركة ضمير المفرد الغائب) ، بعد المقاطع القصيرة ، مثل : له = لهو ،

(1) أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي ص ٢٨٤ .

(2) المرجع السابق : ص ٣٨٥ .

(3) رمضان عبد التواب : التطور اللغوي ص ٦٥ - ٧٤ .

وبه = بهي .. وغير ذلك . كما تقصر حركته العربية ، بعد المقاطع الطويلة ، عن طريق المخالفة الكمية بين المقاطع ، فيقال مثلاً : " فيه " بدلاً من " فيهي " ، و " منه " بدلاً من " منهو " و غير ذلك " (١).

#### رابعاً : دور الحركة التكويني والموسيقي في المقاطع الصوتية :

يقع المقطع وسطاً ما بين الصوت المفرد ، والكلمة المركبة ، ذلك أن " الكلمة word مصطلح له في المقام الأول مغزى نحوي ، أما المصطلح الأساسي الصوتي الخاص لمجموعة من السواكن والعلل لها مركز الوحدة ، فهو المقطع . فالمقطع ، بهذا الاعتبار أصغر وحدة يمكن نطقها بنفسها " (٢) . ويرمز للصامت بالرمز (ص) وللحركة أو الصائت بالرمز (ح) (\*) . أما أشكال المقاطع العربية فهي :

- ١- المقطع القصير ، ويتألف من صامت وحركة قصيرة (ص ح) .
- ٢- المقطع المتوسط المفتوح ، ويتألف من صامت وحركة طويلة (ص ح ح) .
- ٣- المقطع المتوسط المغلق ، ويتألف من صامت ثم حركة قصيرة ثم صامت (ص ح ص) .
- ٤- المقطع الطويل المغلق ، ويتألف من صامت ثم حركة طويلة ثم صامت (ص ح ح ص) .
- ٥- المقطع الطويل مزدوج الإغلاق ، ويتألف من صامت ثم حركة قصيرة ثم صامتان (ص ح ص ص) .

وأشار "كمال بشر" إلى المقطع زائد الطول ، ويتألف من صامت ثم حركة طويلة ثم صامتان (ص ح ح ص ص) . ويُشترط في الأنماط الثلاثة للمقطع الطويل الوقف أو عدم الإعراب .

إن التوزيع داخل المقاطع ، إجراء شكلي يشبه إلى حد بعيد المنهج التوزيعي . وهو منهج يقوم بالاعتماد على توزيع مكونات التركيب التي يكون بعضها أكثر من بعض ، فتحلّل إلى عناصرها الأولية ثم تُصنّف . لذلك ، كان هدفه تحديد عناصر التركيب دون النظر إلى وظائفها . إنه لا يقدم إجابات عن الأسئلة : لماذا بُنيت الجملة بهذه الطريقة ؟ أو ما الوظيفة التي تؤديها الكلمة في الجملة ؟ إنما يجيب عن السؤال : كيف تتم توزيع العناصر (كلمات / مورفيم) داخل الجملة ؟ أي أنه ينتقل بالكلمة أو العنصر من الوظيفة إلى التوزيع . وهذا المنهج " لا يفيد من تصادفه كلمة ما عجز السياق عن إيضاح معناها . فلن يفيد شيئاً أن نقول له إن هذه الكلمة ترد في السياقات الآتية .. ولكنه يفيد الباحث الذي يريد أن يتتبع استعمال الكلمة ، واستخداماتها العملية في التعبيرات المختلفة " (٣) . والجملة الآتية مثال للتوزيع :

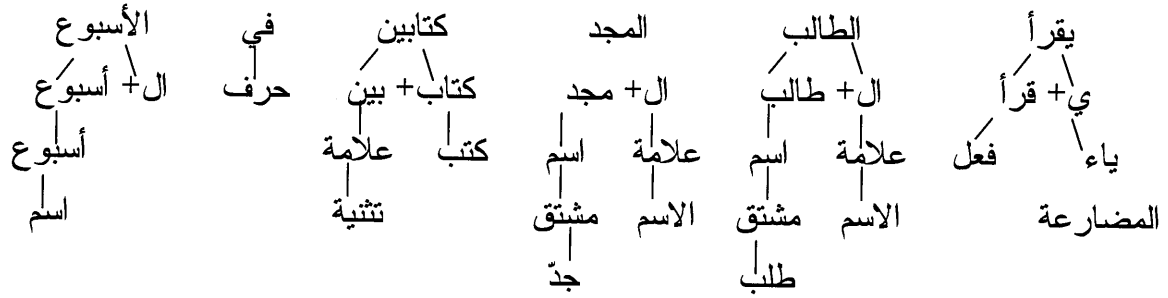
(١) المرجع السابق : ص ٦٧ .

(٢) أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي ص ٢٨٣ .

(\*) يختلف الدارسون في هذه الرموز لكن (ص ح) الأكثر شيوعاً كما يذكر "كمال بشر" ، يقابلها بالإنجليزية (CV) ويرمز لها "أحمد مختار عمر" بـ (س ع) أي حرف ساكن وصوت علة .

(٣) أحمد مختار عمر : علم الدلالة . ص ٧٤ . عالم الكتب - القاهرة . ط ٦ ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .

## يقرأ الطالب المجد كتابين في الأسبوع



وبما أننا ننظر في هذا الفصل على نحو جمالي ، فسنستعير مفهوم التوزيع ، لنبحث في الحركات ، وننتقل بها من منظور وظيفي جمالي ، إلى منظور توزيعي جمالي مؤكدين أن القيمة لا يمكن أن تتفصل عن الحركات هنا وهناك . فكيف تقوم الحركة بتوزيع المقاطع العربية توزيعاً صوتياً وجمالياً ؟ وفي أي الظواهر الصوتية يتجلى جانبها الموسيقي ؟

### أ) منع الصرف وصرف الممنوع :

إن جر الممنوع من الصرف بالفتحة نيابة عن الكسرة يعد من نيابة علامة الإعراب الفرعية عن العلامة الأصلية ، لعل معدودة في النحو . أما من الناحية الصوتية فقد يصرف الممنوع من الصرف ، أو العكس ؛ لعل صوتية جمالية ومن أمثلة ذلك :

١- "صرف (سبأ) في الآية الكريمة "وجئتكم من سبأ بنبأ يقين" [النحل : ٢٢] . فمن الواضح أن (سبأ) تمنع من الصرف على أنها علم مؤنث (اسم لقبيلة أو بقعة) ، ويجوز صرفها على أن سبأ علم مذكر (اسم حي) ، ولكنها جاءت مصروفة في معظم القراءات العشر الشائعة ، ... فإذا منعت من الصرف تتوالى ستة مقاطع قصيرة ، وهو أمر شاذ في العربية ، بل هو أشد شذوذاً من توالي عدد مماثل من المقاطع الطويلة ؛ ولتجنب الثقل الناتج عن هذا الشذوذ جاءت معظم القراءات بصرف (سبأ) " (١) .

ولمعرفة أثر الحركة في البناء الصوتي نقف على المقاطع الصوتية في الحاليين :

- عند منع كلمة (سبأ) من الصرف ، خلافاً للقراءات المشهورة :

|                 |     |     |     |     |     |     |
|-----------------|-----|-----|-----|-----|-----|-----|
| سَبَأُ بِنْبَأُ |     |     |     |     |     |     |
| سَ              | بَ  | أَ  | بَ  | نَ  | بَ  | إِ  |
| ص ح             | ص ح | ص ح | ص ح | ص ح | ص ح | ص ح |

وبذلك توالى ستة مقاطع قصيرة

(١) علي السيد يونس : جماليات الصوت اللغوي . ص ١٥ . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة . ٢٠٠٢ م .

- عند صرف كلمة (سبأ) على القراءات المشهورة :

سبأ بنبأ

سَ بَ أ ب نَ بَ إ

ص ح ص ح ص ص ح ص ح ص ح ص ح ص

أما "إبراهيم جميل إبراهيم" فيرى علة صرف (سبأ) في الآية السابقة هي اتباعها لتتوين كلمة (نبأ) " حيث جاورت كلمة (سبأ) كلمة (نبأ) المصروفة ، وكان صرف (سبأ) للتناسب الصوتي بينهما <sup>(١)</sup> . ولا يمنع ذلك التناسب المقطعي المشار إليه .

٢- ولو ذهبنا إلى عكس هذا من جانب مطابقة القاعدة ، لوجدنا أن الآيات التي جاءت مجرورة بالفتحة شكلت حركة الفتح فيها المقطع القصيرة ( ص ح ) الذي سهل النطق بعد توالي عدد من المقاطع المتوسطة وهو ما تتحاشاه العربية فتقلل من وقوعه وفقاً للقاعدة أحياناً ، وبخلاف منطقتها حيناً . ومن أمثلة البناء المقطعي بحركة الفتح قوله تعالى :

((يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ...)) [المائدة: ١٥١].

لا تَ أ لَوا عَن . أَشْأَ يا ءَ إِنْ تَبْ

ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص

فإذا صرفت كلمة (أشياء) توالى سبعة مقاطع متوسطة مغلقة .

وقد " اختلف الدارسون في تفسير هذه الحالة ، ففسرها الصرفيون بقولهم إن أشياء أصلها شيء ، وحدث في حروفها قلب فصارت "أشياء" ، فوزنها ((لَفْعَاء)) وليس "أفعال" ، فتمنع من الصرف . وقال آخرون إنها منعت من الصرف لمجيئها في القرآن الكريم كذلك ، وإنما كان المنع من الصرف - في رأينا - لسبب صوتي أي للتناسق الصوتي في النطق ، إذ إن نطقها بالمنع من الصرف (أي بالفتحة مع كونها مجرورة في الآية الكريمة ، أيسر وأسهل من نطقها بكسرة منونة ، مثلوة بالحرف "إن" . ويمكن تجربة الأمرين نطقاً للتحقق من اليسر والسهولة والتناسق بين الأصوات في النطق . وهذا التفسير الثاني هو ما نراه نحن " <sup>(٢)</sup> .

- ((إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين)) [البقرة : ٦٩] .

بَ قَ رَ ةَ صَفَ را ءَ فا

ص ح ص ح ص ح ص ص ح ص ص ح ص ص ح ص ص ح ص

فالمقطع القصير ( ءَ : ص ح ) يفصل بين توالي خمسة مقاطع من النوع نفسه عند صرف الكلمة .

(١) إبراهيم جميل محمد إبراهيم : أثر التناسب الصوتي في الإعراب . ص ٢٧ . مكتبة المكنبي ، الدمام - المملكة العربية السعودية . ط ١١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

(٢) كمال بشر : قطوف من أزهير اللغة . ص ٩٦ . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة . ط ١ ٢٠٠٦ م .

- ((اذهبا إلى فرعون إنه طغى)) [طه : ٤٣] .

إ لى فِرْ عَوْ نَ إِنْ نَ ه  
ص ص ح ص ص ح ص ص ح ص ح ص ح  
ح ص

ودور هذا المقطع (نَ : ص ح) كالسابق .

- ((واتلُ عليهم نبأً إبراهيمَ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون)) [الشعراء : ٦٩٧٠] .

إِبْ رَا هِي مَ إِنْ قَا  
ص ح ص ص ح ص ص ح ص ص ح ص  
يفصل المقطع القصير (مَ : ص ح) بين خمسة مقاطع متتالية ، وبصرف غير المنصرف تتوالى ستة مقاطع متماثلة .

#### ب) المضارع المجزوم بحذف حرف العلة :

ينوب حذف حرف العلة عن علامة السكون عند جزم المضارع المعتل الآخر . أما من الناحية الصوتية " فيعني الجزم انتقال النبر إلى الخلف مقطعاً ، وهذا يؤدي إلى حذف الوحدة النبرية التي تقع في آخر الفعل المضارع" <sup>(١)</sup> . فليس ثمة حذف ، إنما تقصير للحركة الطويلة (ألفاً كانت أو واواً أو ياء) فيتحول المقطع الأخير من مقطع متوسط مفتوح إلى قصير مفتوح ، وذلك نحو :

|               |   |               |
|---------------|---|---------------|
| يسعى          | ← | لم يسعَ       |
| يسنُ / عى     |   |               |
| ص ح ص / ص ح ح |   | ص ح ص / ص ح ح |
| يرمي          | ← | لم يرمِ       |
| يرُ / مي      |   |               |
| ص ح ص / ص ح ح |   | ص ح ص / ص ح ح |
| يدعو          | ← | لم يسعَ       |
| يدُ / عو      |   |               |
| ص ح ص / ص ح ح |   | ص ح ص / ص ح ح |

(١) صلاح حسنين : دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن . ص ١٤٢ . ط ٢ ، ٢٠٠٧ ، ٢٠٠٨ م . توزيع مكتبة الآداب .

إن تقصير الحركة يبقى على المقطع القصير ، حيث إن حذفها التام يؤدي إلى إلغاء المقطع الأخير عند بقاء الصامت فقط . ونلاحظ أثر الجزم من الناحية الصوتية المقطعية في الأمثلة الآتية :

١- "ولم يُؤتَ سعة من المال" [البقرة : ٢٤٦] . ص ح ص / ص ح .

٢- "ومن يعصِ الله ورسوله .." [النساء : ١٤] . ص ح ص / ص ح .

٣- "ولا تقفُ ما ليس لك به علم.." [الإسراء : ٣٦] . ص ح ص / ص ح .

٤- "ارجع فصلٌ ، فإنك لم تصل" <sup>(١)</sup> . صل / ل : ص ح ص / ص ح .

٥- "لِتمشِ ، ولتركب" <sup>(٢)</sup> . ص ح ص / ص ح .

ومن المقرر تقصير الحركة أيضاً في المضارع الأجوف المجزوم ؛ لأن السكون هو عدم الحركة . وعند حذف الحركة من المقطع الأخير (ص ح) يدمج الصامت المتبقي في المقطع السابق فيتحول إلى مقطع طويل مغلق (ص ح ح ص) وتُقصّر حركته عند الجزم؛ لئلا يلتقي ساكنان ، فيصبح مقطعاً متوسطاً مغلقاً (ص ح ص) من مثل :

ي / خا / فُ

يخافُ : ص ح / ص ح ح / ص ح

لا تخافُ : ص ح / ص ح ح / ص

لا تخفُ : ص ح / ص ح ص

١- "قالوا لا تخفُ وبشروه بغلام عليم" [الذاريات : ٢٨] .

٢- "فلا تقلُ لهما أفٍ ولا تنههما" [الإسراء : ٢٣] .

٣- "وإن جاهدك لشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعها.." [العنكبوت : ٨] .

٤- "ولا يبيعُ بعضكم على بيع بعض" <sup>(٣)</sup> .

ويشير "كمال بشر" إلى أثر تقصير الحركة الطويلة على شكل المقطع بقوله : "قالفعل المضارع" يقولُ " (ya/quu/lu) بثبوت حرف العلة (الضمة الطويلة) يصير في الجزم "لم يقل" (ya/qui) بحذف حرف العلة (على رأيهم) والواقع ألا حذف ، وإنما حدث تقصير للحركة في النطق ، والحذف - إن كان هناك حذف - وقع في الكتابة . وإنما قصرت الحركة هنا ، تخلصاً من المقطع (cvvc) المقيد وجوده بأن يكون الصامت الأخير مدغماً في مثله أو في الوقف ، والجزم بالسكون ليس من هذا الباب أصلاً <sup>(٤)</sup> .

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج ٢/ص ٣٢٣) حديث رقم (٧٩٣) كتاب الأذان ، باب أمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا يتم ركوعه بالإعادة .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج ٤/ص ٩٤) حديث رقم (١٨٦٦) كتاب جزاء الصيد ، باب من نذر المشي إلى الكعبة .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (ج ١٠/ص ٢٢٣) حديث رقم (٧ - ١٤١٢) كتاب البيوع ، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه .

(٤) كمال بشر : علم الأصوات ص ٥١٢ .

وإن من الترابط المتبادل بين طرفي هذه القاعدة - في البنية الصوتية لا النحوية - هو إبقاء حرف العلة في مقابل حذفه . الأمر الذي يُعدُّ - بوجود الجازم - خرقاً للقاعدة النحوية . وقد عدَّ النحاة عدم حذف حرف العلة مع الجازم (شعراً) من الضرورة الشعرية ، وبالأخص ضرورة الزيادة . أو هو لغة حتى في غير الشعر " فالجمهور على أنه مختص بالضرورة ، وقال بعضهم إنه يجوز في سعة الكلام، وإنه لغة لبعض العرب ، وخرَّج عليه قراءة " لا تخفُ دركاً ولا تخشى . و "إنه من يتقي ويصبر" .<sup>(١)</sup> ومنهم من فسرَّ الحروف الثابتة مع الجازم بأنها حروف إشباع متولدة عما قبلها من الحركات وليست لام الفعل<sup>(٢)</sup> . ولنا أن نتساءل عن علاقة الحذف وعدمه بالمناسبة الصوتية ؟ فإذا ما كان الحذف - وفقاً للقاعدة - يوافق التناصب الصوتي والتشكيل المقطعي كما سبق ، أفلا يحقق عدم الحذف الهدف ذاته ؟ .

تُعرف الزيادة بوصفها ضرورة شعرية أنها : "زيادة الحركة على ما ينبغي أن يكون استعمال اللفظ عليه" <sup>(٣)</sup> . ومن ذلك قوله :

ألم يأتيك والأنباء تنمي      بما لاقت لبون بني زياد<sup>(٤)</sup>

"والوجه فيه" ألم يأتك " تسقط للجزم الياء ؛ لأنها ساكنة في الرفع غير أن الشاعر إذا اضطر جاز له أن يقول : "يأتيك" في حال الجزم . . . وفي الناس من يتأوله على غير هذا فيقول : نحن إذا قلنا : "يأتيك" في حال الرفع تُقدَّر ضمة محذوفة، فإذا جزمناه قدرنا حذف تلك الضمة ، وإن لم يظهر شيء من ذلك في اللفظ ، كما تقول : "رأيتُ العصا" و "مررتُ بالعصا" و "هذه العصا" فتكون في النية حركات مختلفة لا تظهر في اللفظ . ويشدُّ هذا قراءة ابن كثير : "إنه من يتقي ويصبر" في بعض الروايات عنه . وهذا قليل في الكلام جداً . وهذا نحو قول عبد يغوث بن وقاص الحارثي :

وتضحك مني شخة عبشمية      كأن لم تري قبلي أسيراً يمانياً

ويروى "تري" على خطاب المؤنث ؛ فمن قال : "تري" على الخطاب ، فلا ضرورة فيه ، ومن قال : تري" فهو على التقدير الثاني في البيت الذي قبله ، وهو أنه جعل الجزم حذف الحركة المنوَّية في الألف . فإن قال قائل : فقد قرأ حمزة " لا تخفُ دركاً ولا تخشى" وليس في القرآن ضرورة . قيل له في ذلك وجهان سوى هذا ..<sup>(٥)</sup> . ويجب أن نتوقف عند قول السيرافي : "غير أن الشاعر إذا اضطر جاز له أن يقول : "يأتيك" في حال الجزم " . فهل الضرورة ترخص للشاعر مخالفة الإعراب ؟ . أم أنها آلية اشتغال لغة الشعر ؟ . وسنعالج هذه المسألة بعد أن نذهب إلى خلاف منطق قاعدة الجزم ، وهو : حذف حرف العلة أو جزم المضارع في غير مواضع الجزم . ومن أمثلته القرآنية :

(١) جلال الدين السيوطي : همع الهوامع في شرح جمع الجوامع . ج ١ ، ص ١٧٦ .

(٢) ينظر شرح الرضي للكافية . ابن الحاجب : ج ٤ ص ٢١ .

(٣) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ج ١ ص ١٩٨ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٩٩ .

(٥) المرجع السابق والصفحة نفسها .

١- " يوم يأتِ لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد " [هود : ١٠٥] .

" واختلف القراء في قراءة قوله : " يوم يأتِ " فقرأ ذلك عامة قراء أهل المدينة بإثبات الياء فيها " يوم يأتِ .. " وقرأ ذلك بعض قراء أهل البصرة وبعض الكوفيين بإثبات الياء فيها في الوصل وحذفها في الوقف . وقرأ ذلك جماعة من أهل الكوفة بحذف الياء في الوصل والوقف : " يوم يأتِ .. " . قال أبو جعفر : والصواب من القراءة في ذلك عندي : " يوم يأتِ " بحذف الياء في الوصل والوقف إتباعاً لخط المصحف ، وأنها لغة معروفة لهذيل ، تقول : " ما أدري ما تقول " ومنه قول الشاعر :

كفاك كفٌ ما تليق درهماً جوداً وأخرى تعطى بالسيف الدما <sup>(١)</sup>

٢- " قال ذلك ما كنا نبغ فارتدأ على آثارهما قصصاً " [الكهف ٦٤] .

قال السيرافي : " وأجود من هذا الاستشهاد (حذف اللام الجازمة في الشعر وعملها مضمرة) خطُ المصحف ، وقراءة مَنْ قرأ : " ذلك ما كنا نبغ فارتدأ " . <sup>(٢)</sup> ومن الشواهد الشعرية للظاهرة قول الشاعر :

محمدٌ تَفَدَّ نفسَكَ كلُّ نفسٍ إذا ما خفتَ من أمرٍ تبالا <sup>(٣)</sup>

وإنما يريد : لَتَفَدَّ نفسَكَ . وقال متمم بن نويرة :

على مثل أصحاب البعوضة فاخمشي لك الويلُ خُرَّ الوجهِ أوبيكٍ من بكى <sup>(٤)</sup>

أراد : ليبك .

قال أبو سعيد : " أما حذف اللام من لَتَفَدَّ نفسَكَ فإن أبا العباس المبرد ينكر البيت ويزعم أنه باطل ، وأجاز البيت الثاني ، وعطف (أو يبكٍ من بكى) على معنى فاخمشي ، وقدره مجروراً باللام ، فكأنه قال : فلتخمشي أو يبكٍ من بكى ، ومثله قول الحطيئة :

فقلت ادعي وأدعُ فإنَّ أُنْدَى لصوتٍ أن ينادي داعيان

كأنه قال : فقلت لتدعي وأدعُ ، وقد روي : وأدعَوَ إنَّ أُنْدَى على الجواب بالواو ، وليس منه شاهد <sup>(٥)</sup> .

وإننا نرى أن الضرورة الشعرية ليست تداخلاً بين المستويين : الصوتي والنحوي كما فُهِمَت في التراث العربي ، لكن للشعر نظامه الخاص الذي يجعله لا يتعارض مع النظام في الضرورات الشعرية وبالتالي لا تحتاج إلى تبرير . فما إن "يتكوّن انتظام مُعين ويلاحظ ، وما إن يتم تلقّيه كوسم للأدبيّة .. ، فإنه من الممكن إنتاج نوع من الانقطاع داخل هذا الانتظام ، وهو انقطاع قد يتكوّن من

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : تفسير الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن . تحقيق : محمود محمد شاكر . ج ٥ ، ص ٤٧٩ . دار المعارف بمصر .

(٢) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ج ٣ ، ص ١٩٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٧ .

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٥) المرجع السابق ص ١٩٨ .

ظهور استعمال لغويّ من "الدرجة الصفر". في تلك اللحظة ، لا يوجد "خروج على الأدبية". وإنما وسم لقيمة أدبية أخرى يتم بواسطة انقطاع النظام الموضوع<sup>(١)</sup>.

وبذلك تصبح الضرورة الشعرية إمكانات متاحة ، ومرادفة للنظام نفسه إذا تبين أنه نظام لغة الشعر الذي يُؤسّس على مفارقة سائر الكلام " اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام " <sup>(٢)</sup>. وهي مفارقة نسبية تغذيها الشعرية بوصفها " فن التأليف والأسلوب الخاص بالشعر " <sup>(٣)</sup>. أما نسبتها فليس فيها شيء " من رفع منصوب ولا نصب مخفوض ، ولا لفظ يكون المتكلم فيه لاحقاً . ومتى وُجد هذا الشعر كان ساقطاً مطرّحاً ، ولم يدخل في ضرورة الشعر . و(هي) على سبعة أوجه : الزيادة ، و النقصان ، والحذف ، والتقديم و التأخير ، والإبدال ، وتغيير وجه من الإعراب إلى وجه آخر على طريق التشبيه ، وتأنيث المذكر وتذكير المؤنث " <sup>(٤)</sup>.

بالتالي ، فإن الأدبية في لغة الشعر هي ما ينتج كل تلك الضرورات والأساليب التي يفترق بها جنس الشعر عن غيره من الأجناس الأدبية ، وتتاقض بها الأجناس الأدبية ، الخطاب غير الأدبي أسلوباً . ولا يعني هذا أن الشعرية نظام يقوِّض نظام اللغة ، وخروج عن كل قواعده . فقد اشترطوا أمن اللبس في الأساليب التي تعدل عن الأصل "واشترط أمن اللبس كان سبباً في نشأة القواعد الفرعية التي تعد استثناء من القواعد العامة " <sup>(٥)</sup>. فالشعرية تقوم على نظام اللغة لتختلف عنه ، إن بتطويع قوانينه ، أو بالتححرر منها في الضرورات . حتى يكون من الممكن تحديد شعرية لكل عصر ، بل شعرية لكل شاعر ، إن النحو "يضبط لنا قوانين الكلام ، بينما تقفو الأسلوبية ما في وسعنا أن نتصرف فيه عند استعمال اللغة . فالنحو ينفي والأسلوبية تثبت . معنى ذلك أن الأسلوبية علم لساني يعنى بدراسة مجال التصرف في حدود القواعد البنيوية لانتظام جهاز اللغة " <sup>(٦)</sup>.

فلا يوجد في الشعر سوى الأدبية ؛ لأن الجمال الفني هو غايته ، وبوصف الفن انقلاباً ، ويُستساغ فيه ما لا يقبل واقعاً أو منطقاً ؛ أحدث هذا الانعتاق قطيعة من نوع ما مع نظام اللغة . ويُعزى أسلوبه إلى الجانب الخلاق في اللغة الذي ينتج الإبداع ويتفاوت فيه الشعراء ، لذلك يصنف الشعر بالجنس الأدبي / الشعري . " فهناك ، تقليدياً ، بنية نسقية . وهي بنية استبدالية تأخذ الإشارات منها وظائفها وقيمها .

(١) جورج مولنيه : الأسلوبية . ترجمة : د. بسام بركة . ص ١٧١ . مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، مرجع سابق : ج ١ ص ١٨٨ .

(٣) يوسف و غليسي : إشكالية المصطلح . ص ٢٧٢ . الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت - لبنان ومنشورات الاختلاف الجزائر ط١ ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .

(٤) شرح كتاب سيبويه ج ١ ، ص ١٨٩ .

(٥) تمام حسان : اجتهادات لغوية . ص ٢٦١ . عالم الكتب ، القاهرة . ط١ ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م .

(٦) عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب . ص ٤٦ . دار الكتاب الجديد المتحدة . طه ، بيروت - لبنان ط ٢٠٠٦م .

وهناك بنية للخطاب ، وهي بنية تركيبية تأخذ الإشارات منها آثارها المعنوية . وتكمن أصالة جاكبسون الكبرى ، في أنه بين أن الأثر "الشعري" يقوم على التأليف بين البنيتين " (١) . وإن كنا في (التداولية) قد جعلنا الخطاب النبوي مع القرآني والشعري في مستوى اللغة العليا ، فإننا أسلوبياً نميّز بين الثلاثة ، ونرى أن القرآن الكريم بوصفه نصاً حجاجياً ، يهدف في المقام الأول إلى الإقناع والتأثير \* ، ورغم ذلك لم تتشغل لغته بتلك الغاية عن الجمالية الأسلوبية . وهي جمالية مخالفة لسجع النثر وقافية الشعر ؛ لا لرعاية الأدب مع القرآن فحسب ، بل لكونه نصاً أدبياً / تواصلياً ؛ فقد جمع الغايتين من غير تعارض ، حيث لم تكن الجمالية على حساب المعنى ، بل وفقاً للمنظومة الدلالية ، وكان المعنى في أعلى مراتب الجمال . و " تطرد في هذا النوع من النصوص علاقات معينة ، مثل العلّية والسببية والتعارض وغيرها . أما الاتساق فيرتكز فيه على التكرير والتوازي والتبيين " (٢) .

وقد شكلت الخاصيتان : الأدبية والتواصلية نسيجاً لا نظير له في النص القرآني ، وهما أساس أسلوبيته .

أما الحديث النبوي الشريف ، فمبني على كونه نصاً تواصلياً باعتبار أن الهدف الأول الذي يرمي إليه هو الإبلاغ . وإن شكلت لغته الشكل الأرقى للخطاب التواصلية العربي - بعد القرآن - إلا أنها لم تتشغل بنفسها لتصبح نصاً أدبياً فـ " العمل الفني وإن كان يزعم أنه يرسم الحياة اليومية ، فإنه كان يهدف أن يشير إلى نفسه بوصفه موضوعاً فنياً " (٣) . وهو ما لم تشر إليه لغة النص النبوي وإن خلقت أسلوبها الخاص الذي نعرفه عند السماع ، فرغم هذه الخاصية ، نجد أنه أسلوب لا ينتمي للشعرية بل إلى نظام اللغة العام .

### (ج) الواو في بعض الآيات :

يتأكد التناسب المقطعي وجمالية الصوت ، بعرض نماذج للواو المختلف عليها في بعض الآيات ، ومن ذلك قوله تعالى :

" التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " [التوبة : ١١٢] .

(١) بيير جيرو : الأسلوبية . ترجمة : د. منذر عياشي . ص ١١٧-١١٨ . مركز الإنماء الحضاري . ط ٢٢٠٠٨ م .

(\*) يكاد يجمع أغلب اللغويين أن النص يمثل المظهر الشكلي المجرد للخطاب ، بينما يعني هذا الأخير الممارسة الفعلية الاجتماعية للنص : ينظر مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه : ص ٧٣ .

(٢) محمد الأخضر الصبيحي : مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه . ص ١٠٩ . الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف . ط ١ ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .

(٣) المرجع السابق : ص ١٠٨ .

إن " الجزء الذي يحتوي على هذه الواو من الآية الكريمة (الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) يتكون من المقاطع التي تبيّن العلامات التالية(\*) :

vv—vv---v---v-v—

ولولا الواو لكانت مقاطع هذا الجزء كما يلي :

vv—vv-----v-v—

وبذلك تتوالى ستة مقاطع طويلة ، وهو أمر غير مألوف في العربية . ولهذه الغرابة نشعر بشيء من الثقل حين ننطق هذه الكلمات بغير الواو " (١) .

وفي المقابل ، بوسعنا أن نشعر بالخفة والتناسب المقطعي حين تتوالى عدة أوصاف من دون (واو) أو فاصل. كما في قوله تعالى : "هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون" [الحشر : ٢٣] . فقد توالى في الآية ثمانية أوصاف من غير واو بين الوصف السابع والثامن ، ومن غير ثقل بل هو العكس ؛ حيث أدى إيراد مجموعة متتالية من الكلمات مع أداة التعريف إلى التوازن في إيقاعها ، والخفة في أدائها أداءً سريعاً متناعماً بتوازٍ بين الصفات أكسبها انسجاماً موسيقياً .

ومما يوصف بالخفة والجمال الفني هو استعمال الواو في قوله تعالى : "سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم" [الكهف : ٢٢] .

فمن " الوجهة الصوتية الجمالية تفصل هذه الواو بين صوتي النون (تتوين سبعة) والثاء ، ولولا الواو لالتقى هذان الصوتان ، وفي التقائهما شيء من الثقل ؛ ... فتقارب المخرجين وموقع كل منهما يدفعان اللسان إلى حركة في مجال ضيق ، وهي حركة صعبة بطبيعة الحال ؛ وإلى جانب السبب العضوي ثمة سبب آخر هو قلة هذا الالتقاء في العربية نسبياً ، وهو أمر نلاحظه دون حاجة إلى إحصاءات ، .. وبناءً على الملاحظة يمكن القول إن التقاء النون بالثاء ، في لفظين ، بأن تكون النون في آخر اللفظ الأول والثاء في أول اللفظ الثاني ليس بالأمر الشائع . أما التقاء النون بالواو فلا شك أنه أكثر من ذلك كثيراً" (٢)

### خامساً : ظواهر صوتية ناجمة عن الوقف :

لا يُعالج الوقف بوصفه ظاهرة صوتية في العربية فحسب ، بل يعد مكوناً رئيساً للعلاقات التركيبية في مستوى النحو ، وبالتالي مؤثراً على الدلالة . وتزخر كتب النحو واللغة والقراءات بنماذج مختلفة على دور الوقف في تعليق الكلمات بعضها ببعض ، وتحديد وظائفها النحوية ، ومن ثم اختلاف الدلالة باختلاف العلاقات التركيبية في كل مرة يختلف فيها موضع الوقف ، فيبنى علاقة جديدة ذات دلالة مغايرة . ولما

(\*) تدل العلامة (v) في بحث الدكتور علي يونس على المقطع القصير ، والعلامة (-) تدل على المقطع الطويل .

(1) على السيد يونس : جماليات الصوت اللغوي ص ١٤-١٥ .

(2) المرجع السابق : ص ١٢-١٣ .

كان هدفنا في هذا الفصل هو (صوت الحركة) لا وظيفتها ، فسنتناول هنا أهم الظواهر التي تنشأ عن الوقف بوصفه وسيلة صوتية لا بوصفه مكوناً ذا وظيفة تركيبية و دلالية .

ولدينا في ذلك فرضية نقول : إذا كانت الحركة تؤدي أثراً وظيفياً وآخر جمالياً على صعيدين كما رأينا : تركيبياً و دلالي ، فإن الوقف ليس وجهاً نقيضاً للحركة ، بل هو جزء متمم للحركة و دال على مآلها . وبناء على هذه الفرضية ، فإننا نرى أن الحركات ترتبط أشد الارتباط بالوقف و وجوه أدائه لما بينهما من تكامل ، حيث إن الحركة استمرار للنطق وأن الوقف هو مآل له . و ينتج عن هذا المآل في كلام العرب " سبعة أوجه : <sup>(١)</sup>

- فالوجه الأول : أن نقف على المرفوع والمجرور بالسكون ، كقولك : "هذا زيد" ، و "مررت بزيد" ونقف على المنصوب بالألف ، فتجعلها عوضاً من التتوين ، فنقول : "رأيتُ زيداً ، و "لقيتُ عمراً" .  
- والوجه الثاني : أن نقف عليه كله بالسكون ، فنقول : "هذا محمّد" ، و "رأيتُ محمّداً" و "مررتُ بمحمّداً" .

- والوجه الثالث : أن نُعوّض من التتوين في المرفوع واواً ، ومن المنصوب ألفاً ، ومن المخفوض ياءً ، فنقول : "هذا زيدو" ، و "مررت بزيدي" ، و "رأيتُ زيداً" ، [وهي لغة أزد السّراة] .  
- والوجه الرابع : روم الحركة : وهو أن تلفظ بآخر الكلمة وأنت تشير إلى الحركة ، لنعلم أنه مضموم في الوصل أو مجرور .

- والوجه الخامس : الإشمام : وهو أخفى من روم الحركة ؛ وإنما هو لرأي العين . والإشمام وروم الحركة إنما يكونان في المرفوع والمجرور .

- والوجه السادس : الإنباع : وهو أن تنتقل حركة الحرف إلى ما قبله ، ليعلم السامع أنها حركة الحرف في الوصل ، وأكثر ما يجيء ذلك في الشعر ، نحو قولهم : "هذا بكرٌ" و "مررتُ ببكرٌ" و ليس ذلك في المنصوب .

قال الشاعر : أنا ابنُ ماويّةٍ إذ جدّ النّقرُ

يريد "النّقرَ بالخیل" .

- والوجه السابع : التثقيب ، كقولك : "هذا جعفرٌ ، وعامرٌ" وأشبه ذلك .  
قال الشاعر :

لقد خشيتُ أن أرى جدّاً  
في عامنا ذا بعدما أخصباً

ومن الملاحظ أن تلك الوجوه والتغيرات إنما هي وصف لطريقة نطق الحركات الموقوفة عليها لا للوظيفة التي تؤديها ، ولكن للقيمة التي تضيفها على تلك الوظيفة. فالوقف بالإسكان هو سلبٌ للحركة والتتوين ، ويجوز في كل متحرك ، غير أن المنصوب المنون يجوز فيه وجهان : الإسكان ، وقلب التتوين ألفاً .

(1) الزجاجي : كتاب الجمل في النحو : تحقيق على توفيق الحمد . ص ٣٠٩ - ص ٣١٠ . مؤسسة الرسالة ودار الأمل .

ط ٣ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م .

والوجه الثالث ، هو تعويض التنوين بحروف لين في لغة بعض العرب . أما روم الحركة فهو النطق ببعضها أي تقصير زمنها ، فتقع وسطاً بين الوقف بالسكون وإتمام الحركة عند الوصل . ويعرّف الروم بأنه : " الإتيان بالحركة خفية حرصاً على بيان الحركة التي تحرك بها آخر الكلمة في الوصل ، وذلك : إما حركات الإعراب ، وهم بشأنها أعنى ؛ لدلالاتها على المعاني في الأصل ، وإما حركات البناء كأين ، وأمس ، وقبل ، وعلامة الروم خط بين يدي الحرف هكذا : زيد - وسمي روماً لأنك تروم الحركة وتريدها حين لم تسقطها بالكلية ، ويدرك الروم الأعمى الصحيح السمع ؛ إذا استمع ؛ لأن في آخر الكلمة صُوِيَتْ خفياً " (١) . ويكون الروم في الضمة والكسرة ، ولا يقع في الفتحة ، لخفتها واتساع مخرجها . \*

والوجه الخامس : وهو الإشمام ، فليس بصوت وإنما حركة ؛ وذلك بضم الشفتين بعد إسكان المضموم من غير صوت ؛ ليراها المخاطب فيعلم أن المراد النطق بالضم . ويُعرف بأنه : " تصوير الفم عند حذف الحركة بالصورة التي تعرض عند التلفظ بتلك الحركة بلا حركة ظاهرة ولا خفية ، وعلامته نقطة بين يدي الحرف ؛ لأنه أضعف من الروم ؛ إذ لا ينطق فيه بشيء من الحركة ، بخلاف الروم ، والنقطة أقل من الخط ، وقصدك بالإشمام تصوير مخرج الحركة للناظر بالصورة التي يتصور ذلك المخرج بها عند النطق بتلك الحركة ؛ ليستدل بذلك على أن تلك الحركة هي الساقطة دون غيرها ، والشفتان بارزتان لعينه، فيدرك نظره ضمهما " (٢)

و الوجه السادس : وهو الاتباع ، ويسمى كذلك "النقل" . ويكون بنقل حركة الحرف الموقوف عليه إلى الساكن قبله . وهو في رأي "الرضي" يحقق غايتين : منع النقاء الساكنين ، والإشارة إلى حركة الإعراب، فيقول : "ونقل الحركة وجه آخر من وجوه الوقف ، وهو قليل كقلة التضعيف ، إلا في الهمزة .. ، وإنما قلّ هذا لتغير بناء الكلمة في الظاهر بتحريك العين الساكن مرة بالضم ومرة بالفتح ومرة بالكسر ، وإن كانت الحركات عارضة ، وأيضاً لاستكراه انتقال الإعراب الذي حقه أن يكون على الأخير إلى الوسط ، وإنما سهل لهم ذلك الفرار من الساكنين والضم بالحركة الإعرابية الدالة على المعنى " (٣) .

والوجه السابع : التثقيل أي التضعيف ، فهو زيادة حرف مثل الحرف الموقوف عليه ، وبالتالي إدغامها في حرف واحد مشدد . أما الغاية من التضعيف عند الوقف فهي التنبيه على حركة الإعراب أو البناء التي كانت للحرف الموقوف عليه ، وهي الغاية نفسها من الروم والإشمام . "اعلم أن المقصود بالروم والإشمام والتضعيف ثلاثتها شيء واحد ، وهو بيان أن الحرف الموقوف عليه كان متحركاً في الوصل بحركة إعرابية أو بنائية ، فالذي أشمّ نبه عليه بهيئة الحركة ، والذي رام نبه عليه بصويت ضعيف ، فهو أقوى في التنبيه على تحريك الحرف من

(1) رضي الدين الاسترأبادي : شرح شافية ابن الحاجب ج ٢ ص ٢٧٥ .

(\*) من صور أداء الحركات : الاختلاس في الإدراج (وصل الكلام) ، وهو نظير الروم في الوقف .

(2) المرجع السابق : ص ٢٧٥ - ٢٧٦

(3) المرجع السابق : ص ٣٢١ .

الإشمام ، والذي ضعّف فهو أقوى تبييناً لتحرك الحرف في الوصل ممن رام ، لأنه نبه عليه بالحرف ، وذلك ببعض الحركة ، ... وشرط التضعيف أن يكون الحرف المضعف متحركاً في الوصل وأن يكون صحيحاً ؛ إذ يستقلّ تضعيف حرف العلة ، وأن لا يكون همزة ، إذ هي وحدها مستقلة" . (١)

وهناك سؤالان في هذه الحالة ، الأول ، كيف نبه على حركة الإعراب أو البناء مع حذف الحركة أصلاً عند تشديد الحرف وإدغامه ؟ \* والثاني : لما كان التضعيف خلافاً للتخفيف - يشعر بتقل الحرف ، فلم يقع في الوقف الذي يعدّ بذلاً للجهد الأقل ؟

وتقف العرب على الحرف الأخير بوجه آخرى كثيرة غير هذه السبعة ومنها : ما يجوز حذفه في الفواصل والقوافي ، فالفواصل قول الله عز وجل : "والليل إذا يسر" ، و "ذلك ما كنا نبغ" و "يوم التناد" و "الكبير المتعال" (٢) . وأما القوافي فنحو قول زهير :

وأراك تفري ما خلقت      وبعض القوم يخلق ثم لا يقر

فيحذف الياء من يفر للقفية . (٣)

والذي نراه أن الياء في الأمثلة السابقة ، لم تحذف كاملة ، إنما حذف نصفها لوجود الكسرة ، وذلك بخلاف حذف الياء كاملة في الأمثلة الآتية : "هذا غلام وأنت تريد غلامي ، وقد أسقان وأنت تريد أسقاني ، وأسقن ، وأنت تريد أسقني ... ، وقد قرأ أبو عمرو : "فيقول ربي أكرمن ، و "ربي أهانن" (٤) . ومن وجوه الوقف ، قلب النون في (إذن) ألفاً ، وقلب نون التأكيد المخففة المفتوح ما قبلها ألفاً في نحو (اضربن) (٥) .

ومن شواهد هذا القلب قوله تعالى : "لَيْسْجَنٌ وَلَيْكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ" [يوسف : ٣٢] وإذا وقِف على المنقوص ، وجب إثبات يائه في ثلاث مسائل (٦) . كما أن من خصائص الوقف اجتلاب هاء السكت ، ولها ثلاثة مواضع أيضاً . (٧)

(1) المرجع السابق ص ٣١٤ - ٣١٥ .

\* لعل القصد هو التنبيه على مطلق الحالة أي كونه متحركاً بحركة إعراب أو بناء ، دون بيان نوع الحركة من فتح ، أو ضم ، أو كسر .

(2) المرجع السابق : ص ٥٧ .

(3) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

(4) المرجع السابق : ص ٥٨ .

(5) رضي الدين الاسترأبادي : شرح شافية ابن الحاجب . ج ٢ ص ٢٧٩ .

(6) ابن هشام الأنصاري : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك . ج ٤ ص ٣٠٩ .

(7) المرجع السابق ، ص ٣١٣ .

إن " للوقف في كلام العرب أوجهاً متعددة ، والمستعمل منها عند أئمة القراءة تسعة : السكون ، والرؤم ، والإشمام ، والإبدال ، والنقل ، والإدغام ، والحذف والإثبات ، والإلحاق " (١).

وكل ما يعيننا من باب الوقف الواسع هو ما ينجم عنه من اختلاف في تأدية الحركات اختلافاً لا يقابله مثله وظيفياً أو دلالياً في تلك التغيرات . وبالتالي تصنف بكونها غير وظيفية في المقابل الوظيفي . ذلك أن التضعيف مثلاً يعد وحده وظيفية مائزة عندما يقع في وسط الكلمة نحو (فهم) في حين أنه لا يعد كذلك في الحروف الموقوفة عليها ، نحو " هذا خالدٌ ، وهو يجعل " (٢) .

وبالعودة إلى علاقة المشابهة في (الأيقونة) نجد أن في التضعيف شدة في الأداء وفي الروم إرادة الإبقاء على جزء من الحركة ، وفي الإشمام رائحة الحركة ، وفي الوقف بالنقل تحويل للحركة ، وفي الإسكان سلب للحركة ؛ وهو ما ذهبنا إليه بتسمية القدماء لهذه الأيقونات بوصفها رسماً بالكلمات لطرق التأدية المختلفة .

ونخلص من هذا إلى أمرين :

- (١) أن العلاقة بين الحركة والوقف لا تقوم على التضاد ؛ لأن الوقف ليس انقطاع الحركة و لا هو انقطاع الصوت وإنما هو تكامل مع الحركة ومآل .
- (٢) ولما كان الوقف كذلك ، فإنه يرقى إلى مرتبة العلامة الدالة ، مما يعني أن الصوت الكلامي حركةً و وقفاً نظام علاماتي بعضه يسند بعضاً ويعاضده .

---

(١) جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ص ١٨٩ .  
(٢) ابن هشام : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ج ٤ ص ٣١٠ .

## القسم الثاني

### الفصل الثالث : أثر باقي العلامات في إنتاج الدلالة (التنغيم ، والنبر ، والتقديم والتأخير )

- مدخل
- التنغيم
- أثر التنغيم على مستوى التركيب :
- أ) أثر التنغيم في التقرير والاستفهام
- ب) التنغيم علامة على المحذوف
- ج) الدلالة الصرفية - النحوية و دلالة التنغيم
- أثر التنغيم على مستوى الدلالة
- النبر
- نسبية الوظيفة في النبر
- التقديم والتأخير .

## مدخل

يسعى هذا الفصل إلى هدفين : الأول ، تأكيد الأثر الذي تؤديه العناصر الأخرى، كالتنغيم ، والنبر ، والتقديم والتأخير ، في السياق اللغوي إلى جانب دور الحركة الإعرابية ، والثاني ، استكمال الظواهر الصوتية التي عرضنا للكثير منها في الفصل السابق ، ولكن من وجهة النظر الوظيفية هنا لا التطريزية. ولأغراض بحثنا ، نختار أهم العناصر اللغوية التي تعضد الحركة الإعرابية ، للوصول إلى قاعدة كلية ، دون أن نسعى إلى حصرها في استقراء يستغني منهج البحث عنه.

إن أهم تلك العناصر المؤثرة في السياق اللغوي هي : التنغيم والنبر، والتقديم والتأخير. وإذا تقرر أن السؤال عن الوظيفة هو سؤال العقل ، نعود ونستد إلىه في معالجة أهم ظواهر الأصوات والتراكيب لنحدد وظيفتها كما حددنا أثر الحركة التكويني داخل البنية ، وأثرها الوظيفي آخر الكلمة. وعلى عكس الاتجاه التاريخي ، فإننا لا نبحث عن أصل الظواهر لكن عن التأصيل لها ، أي أن بحثنا في الكينونة والنظام. فحركة الإعراب صورة سمعية ، والتنغيم صورة سمعية ، فكيف نفرق بين الصورتين من حيث النطق والوظيفة ، والمكان من النظام ؟ لا من حيث النشأة والتطور.

لقد ميزنا بين الحركات التي تضطلع بوظيفة مائزة وتشارك في مبدأ القيمة التقابلية ، وبين الحركات التي تشكل صوراً نطقية متعددة ولا تضطلع بوظيفة وهي الألوفونات ( التلويينات الصوتية ) . ورأينا أن تلك التلويينات الصوتية كالإدغام مثلاً لا يغير من وظيفة الكلمة التي يقع فيها ، لذلك فهي ليست تقابلات لعلامات أخرى ، أو اختيارات ممكنة ، فالإظهار لا يحل محل إدغام النون الساكنة في ( من يؤمن بالله ) وهو إن حل فلا يغير شيئاً في المعنى. وبناءً عليه ، نقول : إن علامة السكون جزء من نظام الحركات في العربية ، تختلف عن الفتحة والضمة والكسرة. أما التنوعات الصوتية للنون الساكنة أو الميم الساكنة فهي جزء من الكلام لا من النظام ، لأنها صور للأداء المنطوق والمسموع.

ولقد نرى هنا أيضاً ، أن تحديد الوظيفة المائزة هو ما يهيكل العلامات ، لاستحالة وجودها دون أن تتميز، وهو ما يوجهنا إلى أهمية علامة ما ( كالحركة ) بالنسبة لباقي العلامات ، وبذلك تتحدد قيمة العلامة الواحدة بالنظر إلى علاقاتها في النظام لا بوصفها علامة لغوية مفردة.

ولقد وقفنا على أثر الحركة في بناء المقاطع الصوتية ، ورأينا أن الحركات والصوامت عناصر قابلة للتجزئة ، وسنناقش في هذا الفصل العناصر فوق المقطعية التي لا تقبل التجزئة والنقطيع متمثلة في : التنغيم ، والنبر ، وهي عناصر ترجيعية ناشئة عن ترجيع الهواء وتموجه عند أدائها.

### أولاً : التنغيم :

إن التنغيم - كما يشير اسمه - مرتبط بالنغم ، فنغمات الكلام هي موسيقاه . و" تظهر موسيقى الكلام في صورة ارتفاعات وانخفاضات أو تنويعات صوتية ، فالكلام - مهما كان نوعه - لا يلقى على مستوى واحد بحال من الأحوال<sup>(١)</sup>. لكن هناك من يفرق بين (التنغيم) وبين النغم على النحو الآتي:

(١) كمال بشر : علم الأصوات . ص ٥٣٣ .

أ) ففي النغمة (Tone) ، تقوم درجات الصوت المختلفة بدورها المميز على مستوى الكلمة ولذا تسمى تونات الكلمة word tones

ب) وفي التنغيم intonation تقوم درجات الصوت المختلفة بدورها المميز على مستوى الجملة أو العبارة أو مجموعة الكلمات. (١)

ويعرف " ماريو باي " التنغيم بأنه : " تتابع النغمات الموسيقية أو الإيقاعات في حدث كلامي معين "٢.

وفي مستواه الأبسط والأكثر أساسية يجعلنا التنغيم نميز الإنسان من صوته مثل صورة صوتية له. باختلاف الملامح الصوتية للمتكلمين درجة وتنغيماً هو ما يجعل من المتكلم إنساناً - إلى جانب القصدية - وإلا أشبه الآلة المصوتة أو (الروبوت) ، لذا فمن الممكن قبول القول : إن كل صوت بشري تنغيم ، وكل تنغيم هو صوت. كما أن كل اللغات تنغيمية\* ، لوجود التنغيم في كل الكلام ، وإن اختلفت اللغات في استخدامه ، بل أبناء اللغة الواحدة ، حيث " يوجد تنوع كبير بين الأفراد في ذلك ( التنغيم ) ، ومن الأسلم ألا يحاول المرء وضع قانون صارم يحدد طريق النطق ، ومن ناحية أخرى ، فإن كل لغة لها - بالنسبة لكل مجموعة من الكلمات أو الجمل - نماذج للتنغيم متميزة تماماً إلى الحد الذي يمكن الشخص من أن يتعرف اللغة المتكلمة أمامه حتى إذا لم يميز فعلاً واحداً من كلماتها". ٣

وبالنسبة لنوعي الخطاب : الشفهي والمكتوب ، فإن كيفية التنغيم التي تميز وجود الفرد ، إنما تميز خطابه الشفهي دون المكتوب إذ يستعين الثاني بعلامات الترقيم عن التنغيم ، لتقريب قصد المرسل ، ففي الجملة الآتية مثلاً :

- أنت شاعر .

على المتكلم أن يستخدم إما أداة مكتوبة : كأداة الاستفهام ، التعجب ، النقطة ، أو يستخدم أداة صوتية وهي : التنغيم بكيفية خاصة للدلالة على المقصود ، وبذلك يعد التنغيم علامة دالة على نوع الجمل. وفي الجملة السابقة ( أنت شاعر ) يختلف التنغيم كما يلي :

الخطاب الشفهي                      الخطاب المكتوب.

- للتقرير : نغمة مستوية                      علامة النقطة.
- للاستفهام : نغمة صاعدة                      علامة السؤال ؟
- للاستنكار والتهكم : نغمة صاعدة هابطة                      / علامة التعجب .

(١) احمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي ، ص ٢٢٥.

(٢) ماريو باي : أسس علم اللغة ، ترجمة : أحمد مختار عمر ، ص ٩٣ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ٢٠١٠م.

\* سواء استخدمت التنغيم بطريقة تمييزية تفرق بين المعاني ، أم كان ملمحاً صوتياً.

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٤

وللتنغيم بوصفه ملمحاً أدائياً صورتان بالنظر إلى نهاية الأداء : تنغيم هابط ، للهبوط في آخر الكلمة أو الجملة ، وتنغيم صاعد ، للصعود في آخر الكلمة أو المقطع. أما بالنظر إلى وسط الكلام فالتنغيم مستو ، لثبات النغمة حينئذ.

وقد اختلف علماء الأصوات المحدثون حول صور التنغيم ، فبعضهم يرى أنه صورتان: هابط ، وصاعد وما الباقي إلا تلوينات للصورتين في أثناء النطق\*. وبعضهم يقسمه لثلاث صور : هابط وصاعد ، ومستو (أي النغمة العادية الثابتة) ، ويفصل في درجة الصعود فيزيد صورة أخرى هي ( النغمة العالية جداً )\*\* وهناك من يجعل صور التنغيم خمساً بإضافة التلوينات الداخلية عند أداء التنغيم، فينتج عن ذلك نغمتان إلى جانب ما سبق وهما : نغمة هابطة صاعدة ، ونغمة صاعدة هابطة . والذي نراه هو أن الأصل صورتان في الكلام الذي يدل على انفعال كالدهوة ، والغضب ، والفرح ، والسخرية .. الخ ، أو على تأكيد ، وهما : التنغيم ، الصاعد ، والتنغيم الهابط ، أما التنغيم المستوي فيدل على التقرير ، وغالباً ما يقع في وسط الكلام لا في نهايته . وقد يراوح المتكلمون بين صور التنغيم الثلاثة ( الصعود والهبوط والاستواء) دون أن يرافق هذا التنوع دلالات مختلفة غير ما يقتضيه تناوب النفس في عملية النطق ، أو ما يميز كل متكلم من منحنى تنغيمي.

ولعل من المصطلحات التي تدور حول التنغيم وتتقاطع معه ، مصطلحاً ، الترقيم و الدندنة ، إذ يجمع الكل الصوت الحسن المنغم. وقد جاء في الحديث الشريف : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل : ما تقول في الصلاة ؟ قال : أتشهد ثم أسأل الله الجنة ، وأعوذ به من النار ، أما والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ . فقال : حولهما ندندن<sup>(١)</sup>

ولسنا نعالج التنغيم في هذا الفصل بوصفه آلية للإيقاع والتطريب : بل بوصفه علامة تختلف باختلافها العلاقات ، فيستتبعه اختلاف وظائف الكلمات والدلالات لذلك سنذكر أهم وظائف التنغيم النحوية والدلالية على النحو الآتي:

### **أثر التنغيم على مستوى التركيب :**

يشغل التنغيم في سياق الخطاب الشفهي ، وبذلك يصير استعماله استعمالاً تداولياً ذا مرجعية تداولية هي الاستعمال التواصلية في المجتمع " ومع مرجعية الاستعمال أصبح الاستعمال هو مرجع العلامات ومعه المستعملون هم المحددون لهاته المرجعية خلافاً للتركيب syntaxe أو الدلالة Semantique اللذين يقصيان الاستعمال من مرجعيتهما"<sup>(٢)</sup>.

\* ينظر: علم الأصوات : كمال بشر ص ٥٣٣ - ٥٣٤

\*\* ينظر : دراسة الصوت اللغوي : أحمد مختار عمر ص ٢٢٧

(١) عون المعبود على سنن أبي داود ومعه شرح ابن القيم (ج٣/ص٩) حديث رقم (٧٧٨) كتاب الصلاة ، باب تخفيف الصلاة .

(٢) محمد نظيف : الحوار وخصائص التفاعل التواصلية ( دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية ) ، ص ٣٩ ، أفريقيا الشرق - الغرب ٢٠١٠ م .

لا يعني هذا أن التنغيم يخرق قواعد التركيب - ولا ينبغي له - فهو لا يقع إلا نالياً للمستوى التركيبي بوصفه عنصراً مستقلاً عنه ، لكنه يقوم بما لا يقوم به التركيب من توجيه الدلالة بما يفرضه الاستعمال أو التلطف الآني للغة ، بعدما كانت ( الدلالة ) حرة قبل التنغيم ، ويعني ذلك أن التنغيم لا تسند له وظيفة تركيبية بل صوتية ، وأن المستويات اللغوية كلها تشترك في إنتاج الدلالة . ويمكن إدراك ذلك من خطاب شائع لأحد الرؤساء وهو قوله : " من أنتم ؟! " حيث إن مستوى التنغيم في هذا الخطاب قد قال الهدف دون أن يقوله ، فالرئيس لم يصرح بالهدف قائلاً : أنا أسخر منكم ، أو أتوعدكم لكنها دلالة التنغيم التي أنجزت فعل السخرية والوعيد . ويمكن أن يقاس عليها كل ما قيل ويقال لغرض الفخر بما يحقق هذا الغرض دون التصريح بفعل الفخر .

في حين أن أفعالاً كـ " أشكر " ، و " أدعوك للحضور " و " أهنتك " \* ، تصرح بهدفها فيما يعبر عنه " أوستين " بـ ( العبارات الإنشائية صريحة الإنجاز ) وإن كان التنغيم قد ينحرف بها عن معناها الأولي . ويقابل العبارات صريحة الإنجاز العبارات غير الصريحة " فمثلاً توجيه السب والشتم لبعض الناس يشبه التعنيف لهم ، غير أن عبارة " أسب " لا تفهم صراحة ، فليس يمكن دائماً أن نرد عبارة ما إلى صيغة إنشائية صريحة الإنجاز".<sup>(١)</sup>

ويساهم التنغيم بشكل كبير في توجيه دلالة الخطاب بشقيه الصريح ، وغير الصريح ، وهو في الثاني علامة تشير لغير نفسها ، وغير نفسها هنا المحذوف أو المسكوت عنه الذي يشكل أغلب الكلام وأصله . فكيف يكون التنغيم علامة على دلالة الخطاب الصريحة وغير الصريحة؟ ثم ما علاقة التنغيم بالمحذوف؟.

### (أ) أثر التنغيم في التقرير والاستفهام :

يجوز أن نقول إن تعدد الأوجه الإعرابية لبعض التراكيب إنما يقع في الخطاب المكتوب أو في اللغة النظرية الواصفة لا في الخطاب الشفهي ، وذلك للأسباب التالية :

- إن متكلم اللغة آني ، لا تقوم بذهنه - عندما يتكلم أوجه - متعددة فيختار معنى محدداً .
- إن إرادة القصد تسبق فعل الكلام ، لذا فإن المتكلم يحدد دلالة خطابه كما يريد في ذهنه قبل إنجازها باللسان موظفاً لها كل العلامات ، وبذلك يخرج الخطاب من الدلالة اللغوية والمنطقية إلى الدلالة التداولية .

- إن التنغيم يقيد التركيب ويرفع الاحتمالات الواردة .
- ونبدأ أسلوب الاستفهام بالمثل النحوي الشائع ( ما أحسن زيد ) الذي استعمل شاهداً على اختلاف الإعراب باختلاف العلاقات النحوية ، لبيان وظيفة العلامة الإعرابية في الجملة .

\* الأمثلة مأخوذة من : نظرية أفعال الكلام العامة . جون أوستين ، ترجمة عبد القادر قينيني ، ص ١٠٥ ، أفريقيا الشرق -

المغرب ٢٠٠٨ م .

(١) المرجع السابق ، ص ٩٣ .

والعلاقة بين هذا الشاهد والتنغيم ، أن التخريجات المتاحة له نحويّاً لا تستطيع أن تعطينا الإحساس المصاحب للتنغيم في كل مرة . وأن الأساليب المختلفة لا تنحصر دلالتها في الحركة الإعرابية وحدها ، إنما فيها وفي التنغيم الذي ينقلها من أسلوب لغوي إلى آخر بفعل النغمة الملائمة للسياق . وعند التلفظ ، يوظف المرسل عنصرين على مستوى الصوت والتركيب هما: التنغيم والحركة الإعرابية ، لذا فهما يختلفان معاً في التركيب نفسه كلما أعاد المرسل إنتاجه بقصد مختلف\* .

- الأسلوب : الاستفهام : " وهو قولك : ما أحسنُ زيدٍ ؟ على الاستفهام ، كأنك قلت : أي شيء منه أحسن؟. " (١) .

- الإعراب : ما أحسنُ زيدٍ ؟

- التنغيم : صاعد هابط.

- الأسلوب : النفي " ونقول في النفي : ما أحسنَ زيدٌ ، إذا أردت أنه لم يحسن في فعله ، ولم يجمل " (٢) .

- الإعراب : ما أحسنَ زيدٌ .

- التنغيم : مستوٍ .

- الأسلوب : التعجب " نحو " ما أحسنَ زيداً " والمعنى شيء حسنٌ زيداً " (٣) .

- الإعراب : ما أحسنَ زيداً !

- التنغيم : هابط صاعد .

هكذا ، نعزو علامة الإعراب والتنغيم للاستعمال التداولي ، لأن المتكلم إنما يستعمل أسلوباً محدداً من أجل تحقيق غايته . ولا يقوم في ذهنه عند التلفظ ذلك المخزون اللغوي ، لأنه منشغل عنه بتحقيق غايته بكفاءة و " أكثر ما يستخدم التنغيم في اللغات للدلالة على المعاني الإضافية كالتأكيد والانفعال والدهشة والغضب ... إلخ .

ويمكن التمثيل لذلك من اللغة العربية المعاصرة بالأمثلة الآتية :

١- لا : إذا نطقت بنغمة هابطة تكون جملة تقريرية بمعنى : لا أوافق .

وإذا نطقت بنغمة صاعدة هابطة تدل على دهشة أو استنكار وإذا نطقت بنغمة صاعدة هابطة تكون توكيدية.

\* أفدنا في تمثيل هذه الفكرة من مناقشة الدكتور كمال بشر لقصة ابنه أبي الأسود المشهورة ، لنقيم أمثلتنا الخاصة

ومعالجتنا: ينظر / علم الأصوات ، ص ٥٤٦

(١) الزجاجي : الجمل في النحو ، ص ١٠٣ .

(٢) المرجع السابق ، والصفحة نفسها.

(٣) ابن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ج ١ ، ص ٣١١ .

٢- والجملة : نجح محمد كاستفهام تختلف في تنعيمها عن أختها التقريرية: نجح محمد<sup>(١)</sup> .

وإذا ما كان الفضاء التواصل شفهياً فإن إدراج التنعيم في أسلوب الاستفهام يغير المعاني باختلاف درجته التي تجعل الاستفهام أصلياً أو محملاً بأهداف أخرى ، مما يحيلنا على ذلك التقسيم الثنائي للاستفهام ( المعنى الأولي للاستفهام وهو طلب الجواب ) ، أو معانٍ أخرى يتضمنها السياق ، والذي نرى أنه تقسيم قليل الأهمية ، فما العبرة منه بوصف تلك الأغراض التي يخرج إليها الاستفهام من معانيه مع انتفاء دلالة الاستفهام فيها ؟

إن ما يحدد المعنى هو الاستعمال لكل علامة لغوية . فإن غضضنا الطرف عن قيمة ذلك التمييز ، نجد أن المعنى الأولي للاستفهام هو فعل كلامي نظامي (ينتمي للنظام) ، بينما تكون تلك المعاني تعدداً في الإنجاز الكلامي ، لا تتأتى من دلالة حروف الاستفهام لكن بوساطة جملة من معطيات السياق أهمها التنعيم إذا ما كان شفهياً.

إن الجمل الآتية تحتل وجهين والتنعيم ما يوجهها :-

- أنت حر ؟ : استفهام ( بنغمة مستوية ) .
- أنت حر ؟ : تعجب ( بنغمة صاعدة هابطة ) .
- متى تمطر ؟ : استفهام ( بنغمة مستوية ) .
- متى تمطر ؟ : تمنى ( بنغمة هابطة صاعدة ) .
- أفهمت ؟ : استفهام ( بنغمة مستوية ) .
- أفهمت ؟ : سخرية ( بنغمة صاعدة ) .

فمن " أهم الوظائف النحوية للتنعيم دوره في تصنيف الجمل إلى أنماطها المختلفة ، من تقريرية واستفهامية وتعجبية . فالجمل التقريرية لها نمط خاص من التنعيم في نهاياتها . يتمثل هذا النمط في النغمة الهابطة التي تدل على تمام المنطوق واكتماله . في حين أن الجملة الاستفهامية تنتهي بنغمة صاعدة ، كما هو الحال في الجمل الاستفهامية التي تستخدم فيها عادة أدوات الاستفهام العامة ، وهي : الهمزة ، وهل ، نقول : أفهمت ؟ فيكون الجواب : لا أو نعم<sup>(٢)</sup> .

فعند خروج الاستفهام عن أصل وضعه لمعان مخصوصه ، فإن التنعيم يشير إلى تلك المعاني ويؤكددها ، لأنه يؤدي بهيئة مناسبة لتلك المعاني مما يعطيه وظيفة انفعالية بهذا النوع من أسلوب الاستفهام ، وقد كانت وظيفته تشكيلية ( تشكيل المعنى ) في القسم الأول.

أما عندما يكتب المتحدث تلك الخطابات فنقرأها بدلاً من أن نسمعها ، فإننا نفقد ميزتين : الأولى ، ميزة التفاعل التواصل في الخطاب الشفهي ، والثانية ، انعدام الانفعال الذي كان قرين التنعيم أو قلة فاعلية تلك المعاني ، لما للتنعيم من أثر كبير في أدائها و ترسيخها في ذهن المتلقي ، فيبقى حينئذ النظر إلى العلامات

(١) احمد مختار عمر ، دراسة الصوت اللغوي ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٢) كمال بشر ، علم الأصوات ص ٥٤٣ .

السياقية وعلامات الترقيم . فالأمر فيما سبق لا يتعلق بالإيقاع الموسيقي للتغيم فحسب ( بوصفه ظاهرة  
تطريزية للأداء ، بل بوظائفه التي تشكل مختلف الخطابات الشفهية ، وإن كانت ملامح التغيم الثلاثة  
تشكل إيقاعاً لفظياً مناسباً للأغراض).

### ب) التغيم علامة على المحذوف:

وفي السياق نفسه ، يكون التغيم علامة على أداة الاستفهام المحذوفة حينما يجعل النطق متطابقاً مع  
الاستفهام فلا يتوهم السامع غيره . وبذلك يعوض التغيم عن المحذوف فيكون عنصراً تلميحياً ، وذلك  
كقولنا :

- فهمت ؟

- أنا بخير ، وأنت ؟

في هذه الحالة ، تعطى الأولوية للتغيم الذي يكون علامة على الغرض الرئيس من استفهام أو تعجب ، أو  
تهكم ... ولولا التغيم في المنطوق وعلامة السؤال في المكتوب ، لكان الاستفهام معدوماً ، ولأمكن  
حدوث الخبر مثلاً ، أي حدوث ممكنات استعمالية على وجه الاحتمال وتنوع الدلالة ، فيجوز أن يكون  
الاستفهام موجوداً ومعدوماً من غير علامة تنص عليه.

ولقد حاول العلماء الأوائل تفسير مثل هذا الحذف المعتمد على التغيم بالنظر إلى مقتضيات السياق - كما  
سيأتي - وذلك لملء فجوة التغيم المفقود في مقولاتهم.

فيرى " ابن جني " أن الحذف والزيادة لا يليق بالحروف التي تستعمل في أعدل أحوالها غير مزيدة ولا  
محذوفة ، لأن الغرض منها الاختصار ، ألا ترى أنك إذا قلت : هل قام زيد ؟ فقد نابت هل عن " استفهم  
" فوقع الحرف مقام الفعل وفاعله غاية الاختصار ، فلو ذهبت تريدها لنقضت الغرض الذي قصدته ،  
لأنك كنت تصير من الزيادة إلى ضد ما قصدته من الاختصار<sup>١</sup>.

ويعلل " ابن جني " استعمال الحروف مزيدة ومحذوفة في فصيح الكلام ، فيقول : " ولولا أن في الحرف  
إذا زيد ضرباً من التوكيد لما جازت زيادته البتة ، كما أنه لولا قوة العلم بمكانه لما جاز حذفه البتة ..  
فمتى رأيناهم قد زادوا الحرف فقد أرادوا غاية التوكيد ، كما أنه إذا رأيناهم قد حذفوا حرفاً فقد أرادوا  
غاية الاختصار<sup>٢</sup>."

أما " الجرجاني " فيرى للحذف قيمة جمالية إلى جانب مبرراته حتى ليغدو " ترك الذكر أفصح من الذكر ،  
والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين " .<sup>٣</sup>  
غير أن المسألة تعود إلى أن عمل الحذف قائم على كونه علامة دالة على المحذوف مهما كان مسوَّغ  
الحذف.

<sup>١</sup> ابن جني : سر صناعة الإعراب ، ج ١ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ٢٧٠ .

<sup>٣</sup> عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص ١٤٦ .

ومن الآيات التي يعمل بها التنعيم علامة على استفهام محذوف ، قوله تعالى : " قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين " (البقرة ، ١٢٤).

فلما أدرك إبراهيم عليه السلام مقام الإمامة سأل ذلك لذريته ، فأجابه عز وجل بالمانع من نيلها. " قال الله لإبراهيم : إني مبتليكَ بأمر فما هو ؟ قال : تجعلني للناس إماماً. قال : نعم . قال : ومن ذريتي ؟ قال لا ينال عهدي الظالمين " .<sup>١</sup>

ومن ذلك أيضاً الآية : " يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه " (التوبة: ٦٢) والتقدير : أيلحفون ؟ " على إنكار وقوع ذلك والتعجب منه والتوبيخ عليه " .<sup>٢</sup>

وقوله عز من قائل : " وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل " (الشعراء : ٢٢). حيث ينكر موسى عليه السلام على فرعون المنة بتعبيد بني إسرائيل وتعذيبهم ، فكأنه قال : أو تلك نعمة تمنها علي ؟ .

ويفسر النحاة الشواهد بما يدل على تمثّلهم الأساليب وانتباههم إلى تعدد أوجهها دون وجود قرينة صوتية ملفوظة أو مكتوبة ، فيورد " ابن هشام " شواهد على حذف همزة الاستفهام سواء تقدمت على " أم " ، أم لم تتقدمها ، كقول عمر بن أبي ربيعة :<sup>٣</sup>

بدا لي منها معصمٌ حين جمّرت وكفّ خضيبٌ زُيّنَت ببنان

فو الله ما أدري وإن كنتُ داريا بسبعٍ رميت الجمر أم بثمان

أراد أبسبع ، أم لم تتقدمها كقول الكميّ:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

أراد أو ذو الشيب يلعب ، واختلف في قول عمر بن أبي ربيعة:

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهرا عدد الرمل والحصى والتراب

فقل : أراد أتحبها ، وقيل : إنه خبر ، أي أنت تحبها ، ... وقال المتنبي.

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والبين جار على ضعفي وما عدلا.

والأصل أ أحيا ، فحذف همزة الاستفهام ، والواو للحال ، والمعنى التعجب من حياته ، يقول كيف أحيا وأقل شيء قاسيت قد قتل غيري ... وقال عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام : " وإن زنى وإن سرق ؟ .. فقال : " وإن زنى وإن سرق " .<sup>٤</sup>

هكذا يوجه التنعيم مسار الكلام وكأنه تعويض عن حرف الاستفهام بعد حذفه ، وعليه ، فإن الخطاب المكتوب يعتمد على التركيب وحده لتأسيس العلاقات النحوية أو تعددها ، فهو يحرر الخطاب ويفتح دلالاته ، ولأن الخطاب المنطوق لا ينجز من دون تنعيم ، فإنه لا يسمح باحتمال التعدد ، فالمتكلم في البيت

<sup>١</sup> ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ص ٤٠٩ ، تحقيق : سامي بن محمد السلاق ، دار طيبة ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

<sup>٢</sup> أحمد كشك : من وظائف الصوت اللغوي . ص ١٠٠ .

<sup>٣</sup> ابن هشام ، مغني اللبيب ج ١ ، ص ٣٦ .

<sup>٤</sup> المرجع السابق ص ٣٦ - ٣٧ .

السابق - مثلاً - كان قد بنى الجملة في ذهنه قبل أن يبنيها في التركيب ، ليدرج بالتالي التنغيم المناسب الذي ينص على قصده لدى السامع ، لذلك فإن الخطاب المكتوب يفقد علامة صوتية هامة . ويتخذ التنغيم في علاقته بعلامة الإعراب وظيفتين : بسيطة ، ومركبة ، أما الوظيفة البسيطة ، فتتمثل في المواضع التي لا يتعدد بها الإعراب بتنوع التنغيم ، فلا يتسبب التنغيم بالتأثير على مستوى التركيب ، لكن على مستوى دلالة الأسلوب ، ومن أمثله نماذج الحذف السابقة ، حيث إن التنغيم الصاعد في الاستفهام ( تحبها ؟ ) ، أو التنغيم الهابط في الخبر ( تحبها ) ، لم يفكك العلاقات النحوية ويبني أخرى ، فالبناء التركيبي واحد وبالتالي علامة الإعراب .

أما الوظيفة المركبة ، فتتشكل في المواضع التي يؤسس بها التنغيم لعلاقات تركيبية جديدة تستلزم علامة إعرابية أخرى ، وقد مثلنا لها بالشاهد ( ما أحسن زيد ) ، ومثله دور التنغيم في ( كم ) الخبرية والاستفهامية ، وفي أسلوب الإغراء ، والاختصاص ... إلخ .

وهي المواضع التي يؤثر التنغيم فيها على مستويين لغويين هما : مستوى التركيب ، ومستوى الدلالة ، علماً بأنه ينبغي النظر إلى المستويات اللغوية بشكل كلي عند التحليل . وغالباً ما يدل النعت على المنعوت المحذوف فيغني عنه ، كقوله تعالى : " إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون " (الأنفال : ٢٢) وأصله " إن شر الدواب عند الله ( الناس ) الصم البكم الذين لا يعقلون " .<sup>(١)</sup>

فلما كان كل ما يدب على الأرض دابة ، والمكلف منها هو الإنسان ، علم بالضرورة أنه المعني بسماع الحق والنطق به ، ليعقل عن أمره ونهيه ، ولذلك حذف المنعوت لدلالة النعت عليه ، ثم تكون وظيفة التنغيم بعد التركيب ، للدلالة على الوعيد والترهيب بنغمة صاعدة يعقبها هبوط .

ومن دلالة النعت على المحذوف " بيت كعب بن زهير :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

وأصله ( سيف مهند ) حيث المهند نعت للسيف ، والسيف هنا ركن ثان من أركان النواة معطوف على الركن الثاني ( نور ) بالتنغيم وأصل الكلام ( إن الرسول لنور [...] سيف مهند ) . وقد دل على العنصر المحذوف وهو ( السيف ) الفضلة المتممة : ( من سيوف الله ) فلا مهند إلا وهو سيف " .<sup>(٢)</sup>

ومعلوم أن أداء الشعر يقوم على التلوينات التنغيمية ، وبذلك يسند التنغيم و التركيب للإفصاح عن الغرض قبل أن يكون موسيقى للإيقاع . والنغمة المناسبة لغرض المديح هي بلا شك نغمة صاعدة في النعت (نور، مهند ، مسلول) يتبعها خفض بسيط فيما بعدها .

ومن الملاحظ أن شكل الخطاب الشفهي سهّل وجه الانتقال من الدال إلى المدلول ، لوجود نغمة التلفظ التي تدل على المعنى الحرفي أو تخرجه من مقتضاه (أي تدل على الغرض التواصلية المراد) . وهناك

(١) أندريه رومان: المجمل في العربية النظامية ، ص ٢١٩ .

(٢) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

أصناف أخرى من العلامات المصاحبة للخطاب الشفهي ، مثل الوقف ، والنبر ، والتقديم والتأخير ، قد تسد مسد علامات لغوية في الدلالة.

### (ج) الدلالة الصرفية / النحوية ودلالة التنغيم :

إن الصوت أول ما يصل إلى المخاطب ، لذا يشكل هذا المستوى مشتركاً قاعدياً تصير فيه علامة الإعراب أو حركة البنية صورة سمعية ، كما يصير التنغيم كذلك أيضاً ، ومن ذلك قولنا على سبيل التمثيل :

(١) اصدق ، اصدق معك.

إن أول ما يصل إلى المخاطب في هذا المثال هو التركيز على صيغة الأمر ( اصدق ) بالسكون والمصحوبة بتنغيم صاعد غرضه الاستتكار واللوم لا مجرد الأمر. أما استعمال صيغة المضارع بالرفع فمصحوب بتنغيم هابط ، لأنها جواب على الصيغة الأولى محط الاهتمام. " فسياق النغمات في كل جملة له من الطابع العرفي المشروط المحدد ما للكلمة في دلالتها على معناها ، وما للحركة أو الرتبة في دلالتها على الباب النحوي الخاص " .<sup>(١)</sup>

### (٢) أهلاً ومرحباً :

يستعمل المتكلم أسلوب التحية هذا منصوباً ، لكن التنغيم ينجز هذه التحية بدرجات متفاوتة ، تصير كل درجة منها علامة على نوع العلاقة بين المتخاطبين.

- أهلاً ومرحباً : بنغمة مستوية ، علامة على أن العلاقة رسمية أو حديثة.
- أهلاً ومرحباً : بنغمة صاعدة وممدودة ، علامة على حميمية العلاقة ، كما تدل إطالة الصوت على الفرحة باللقاء.
- أهلاً ومرحباً : بنغمة هابطة يرافقها الوقف على اللفظين ، علامة على خروج هذا الدال عن مدلول التحية إلى العتاب وغيره. فالمعنى العاطفي هو " الذي يبرزه المتكلم تارة بصورة مباشرة وتارة بصورة غير مباشرة وتتدخل لإبرازه عوامل مثل التنغيم والنغمة أو تموج الصوت " .<sup>(٢)</sup>

### (٣) سَقَطَ في يده .

ومن تضافر الصيغة الصرفية والتنغيم قولهم للنادم والمتحسر ( سَقَطَ في يده ) . وقد يستعمل للتشفي فيقال : ( هُزِمَ العدو ، وسَقَطَ في يده ) ولإظهار هذا الانفعال لابد من استعمال الفعل على صورة الماضي بالبناء على ما لم يسم فاعله ، مصحوباً بتنغيم هابط يعكس حالة الضعف والندم ، وتشارك البنية ( سقط ) تكوين الغرض ، وقد قال تعالى : ( ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ) [ الأعراف : ١٤٩ ] .

(١) تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ، ص ٢٢٦ .

(٢) أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ص ٤٠ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .

#### ٤) لا دريتَ ولا تليتَ :

مما يشارك به التنغيم الصيغة بوصفه مكوناً للدلالة ، قولهم لا دريتَ ولا تليتَ ، في الدعاء على المخاطب ، ذلك أن التاء في آخر الفعل الماضي ( دريتَ ، تليتَ ) هي ضمير الفاعل الذي يجب أن يبنى على الفتح للمخاطب ، ويرافق التنغيم الصاعد الذي يدل على الغضب والتفريع ، كما جاء في الحديث الشريف : " ... وأما الكافر أو المنافق فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريتَ ولا تليتَ ... " <sup>١</sup>.

فالتاء المفتوحة مرجعها المخاطب ، أما ضمها ( لا دريتُ ولا تليتُ ) فممتعذر عقلاً ، إذ العاقل لا يدعي على نفسه ، في حين أن السكون ليس من حركات ضمير الفاعل ، وبذلك تكون " الصيغة التنغيمية منحى نغمياً خاصاً بالجملة يعين على الكشف عن معناها النحوي كما أعانت الصيغة الصرفية على بيان المعنى الصرفي للمثال " <sup>٢</sup>.

#### ٥) سبحان الله :

يشارك التنغيم التركيب في قولنا ( سبحان الله ) للتنزيه أو التعجب . فهذا الأسلوب يستعمل منصوباً ، ويوجه التنغيم هذا التركيب إما للتقرير أو للتعجب كما يأتي :

- عند ذكر الله : يكون التنغيم مستوياً.
- عند الدهشة والتعجب : يكون التنغيم صاعداً.

#### ٦) الجمل الشرطية : إن تذكر الله ، تفلح .

" إن سألتك عن شيء بعدها ، فلا تصاحبني " [ الكهف : ٧٦ ].

" أفأين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم " [ آل عمران : ١٤٤ ]

فالنظام الأدائي لجملة الشرط هو التنغيم الصاعد الهابط " حيث تنتهي جملة الشرط بنغمة صاعدة ، دليلاً على عدم تمام الكلام ، فتتامه يحصل بجواب الشرط الذي ينتهي بنغمة هابطة ، دليلاً على الاكتمال في المبنى والمعنى معاً وتشبه الجمل الشرطية في حساب التنغيم عاملاً مهماً في ربط شطري الجملة ببعضهما ببعض ، وفي بيان أنهما معاً يكونان وحدة متكاملة في البنية والدلالة أساليب عربية ( وغير عربية ) كثيرة . ويظهر ذلك بوجه خاص في تلك الجمل التي توظف فيها ما نسميها أدوات الربط العامة مثل بينما ، كلما ، لو ، لولا ، الخ " <sup>٣</sup>

ومن الأمثلة العربية لذلك :

- كلما انعقد مجلس الأمن ، منح المجرم الأمن.
- بينما وهن الطاغية ، اشتد عزم المستضعفين.

(١) صحيح البخاري : حديث رقم ( ١٣٣٨ ) ( ج ٢ ص ٩٠ ) كتاب الجنائز ، باب الميت يسمع خفق النعال.

(٢) تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ( مرجع سابق ) ، ص ٢٢٦.

(٣) كمال بشر : علم الأصوات ص ٥٤١ - ٥٤٢

- " لو دُعِيتُ إلى ذراع أو كراع ، لأجبت " (١)  
 - " بينما أنا نائم ، أتيت بخزائن الأرض ... " (٢)

#### (٧) أسلوب التحذير والإغراء :

ليس أظهر من تكامل قواعد التنعيم والتركيب في أسلوب التحذير والإغراء منطوقاً ، حيث تشير النغمة الصاعدة إلى الانفعال الحاد بالتحذير أو الترغيب ، وتميز الفتحة هذا الأسلوب عن التركيب الاسمي ، ولا يمكن التلطف بهذين الأسلوبين مصحوبين بنغمة هابطة أو مستوية ، ولا بعلامة إعراب غير الفتحة وإلا أدت دوراً دلالياً يناسب التنعيم وعلامة الإعراب الطارئة ، مثل :

النارَ النار .

الصبرَ الصبر .

فأول ما يصل للمخاطب عند التلطف بما سبق ، هو اسم منصوب بصوت عال ( النارَ ، الصبرَ ) ولا يُتصور تحذير بخفض الصوت ، أو تحذير بالضم وإلا انتظر المخاطب خبراً يتم المخبر عنه . أما حذف الفعل في أسلوب التحذير والإغراء ، فلأن " الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف ، والاستغناء بذكره يفضي إلى تفويت المهم ، وهذه هي فائدة باب التحذير والإغراء ، وقد اجتمعا في قوله تعالى : " ناقة الله وسقياها ( الشمس : ١٣ ) - ( ناقة الله ) تحذير بتقدير : ( ذروا ) ، و ( سقياها ) إغراء بتقدير ( الزموا ) (٣)

#### (٨) في النداء والاستغاثة والندبة :

يُقدَّر في هذا الأسلوب فعل محذوف تقديره أنادي ، أو أستغيث أو أندب ، ومثاله : أيا محمد ، (يا للمسلمين للمظلومين) ، (واحسرتاه) ، كما يمكن حذف أداة النداء أو بقاء المنادى بعدها ، كما في (محمد) وتكون النغمة العالية والممتدة علامة على المحذوف . ويتميز أسلوب النداء (بوجود الأداة أو حذفها) بتلويحات تنغيمية تفصح عن غرضه ، وعن درجة قرب المنادى أو بعده " فوجود أداة النداء أمر يجعل للتنعيم دوراً كبيراً على أساس من القرب والبعد عند النداء... ولعل هذا يحدونا إلى تصور النداء حين تكون الأداة محذوفة ... فيتحمل المنادى قيمتها بالضغط والمط والتطويل ، وهذا الشيء قائم أيضاً مع الأداة وحدها حين تبقى وتصور حذفها للمنادى بعدها ، فتتحمل أداة النداء وقتها تنغيمياً يخالف وجودها والمنادى مذكور . فالأداة حين تصحب المنادى موصولة به كأنها معه كتلة نطقية واحدة لا وجود لراحة بينها لكنها إذا وردت وحدها فإن مطاً يحدث لها تعقبه سكتة تنبئ عن مكان المنادى المحذوف" (٤)

(١) صحيح البخاري : حديث رقم ( ٢٥٦٨ ) ( ج ٣ ص ١٥٣ ) كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها ، باب القليل من الهبة.

(٢) صحيح البخاري : حديث رقم ( ٤٣٧٤ ) ( ج ٥ ص ١٧٠ ) كتاب المغازي ، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال.

(٣) جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق : مصطفى شيخ مصطفى ، وشعيب الأرناؤوط ص ٥٣٤ .

مؤسسة الرسالة ناشرون ، دمشق - سوريا ط ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م .

(٤) أحمد كشك : من وظائف الصوت اللغوي ص ٩٨ - ١٠٠ .

ومن حذف المنادى ودلالة التركيب والتنغيم عليه ، قول الله تعالى : " ألاَّ يسجدوا لله ... " (النمل : ٢٥) وذلك : في قراءة الكسائي بتخفيف ( ألا ) وهي حرف تنبيه . ومثال حذفه بعد الدعاء قول ذي الرمة :

ألا يا اسلمي يا دار مي على البلى      ولا زال منهلاً بجرعائك القطر. <sup>(١)</sup>  
فقد اشترط النحاة لمثل هذا الحذف شرطين :

١. أن يكون حرف النداء هو الياء.

٢. وأن يعقبه فعل أمر أو دعاء.

ومن شأن هذه الشروط أن تشير إلى وحدات التركيب وجوداً وحذفاً وبالتالي إلى نهاية جملة النداء أو عدم نهايتها ، لأن للتنغيم علاقة بتمام الجملة ونقصانها ، ذلك أنه يكون دفعة واحدة بنغمة صاعدة هابطة يليها سكتة عند تمام الجملة: يا هؤلاء اسجدوا لله . ويكون التنغيم أشد وأطول على الياء عند حذف المنادى ، واختزال جملة النداء بالأداة ، ليتناسب مع أجزاء الجمل ( انفراد اليا بها ) ، ويقوم مقام المحذوف ، أو يشعر به : يا / اسلمي .

#### ٩) في أسلوب الاختصاص :

سبقت الإشارة إلى وظيفة العلامة الإعرابية التي تزيل الالتباس التركيبي في أسلوب الاختصاص ، لكننا في هذا الموضع نشير إلى أثر التنغيم وعلاقته بمكونات هذا التركيب ، فجملة الاختصاص التي تلي الضمير دائماً تكون اعتراضية ، كقولنا مثلاً : نحن - العرب - نفي بالعهد . والجملة الاعتراضية تقع " بين شيئين لإفادة الكلام تقوية وتسديداً أو تحسیناً " <sup>(٢)</sup>.

لذا لا بد في نطقها من تشديد يبرز تبين القصد من الضمير المبهم ، وهنا يتدخل التنغيم الذي يقسم أجزاء التركيب إلى ضمير ( مبتدأ ) ، وجملة اعتراضية ، وخبر المبتدأ ، يُنبه على دلالة الاسم المختص بما لا يقل عن علامة الإعراب ، وذلك بالنغمة الصاعدة والسكتة التي تفضل بين متصلين . ولو أننا وقفنا بالسكتة بعد الجملة الاعتراضية لانقسم التركيب إلى جزأين: نحن العرب/ نفي بالعهد .

إن الفتحة والتنغيم يؤسسان لعلاقة الاسم المختص بالمبتدأ ، وتجعلانه مع المبتدأ شيئاً واحداً ، وما بعده خبراً له . وهذا الأسلوب " تقوم السكتة فيه بدور واضح في تحديد أركانه حيث لا يمكن فهم الوظائف النحوية له إلا بالاعتماد عليها ، فحين يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : " نحن معاصر الأنبياء لا نورث " . فإن السكتة الموجودة بعد الضمير "نحن" وبعد كلمة " الأنبياء " تبين بوضوح أن كلمة

" معاصر " منصوبة على الاختصاص . ولو لم تكن موجودة لتوهمنا في هذه الكلمة الإخبار ... " <sup>(٣)</sup>.

أما قوله : " منصوبة على الاختصاص " فإنه يعبر عن منظور نحوي في تحليل الخطاب . أما المنظور العلاماتي فيرى أن (الاختصاص) نفسه إنما حصل في الكلام ؛ لأن الكلام ينتج قواعده ، ولا

<sup>١</sup> أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك ج ٤ ، ص ٩ .

<sup>٢</sup> ابن هشام : مغني اللبيب ج ٤ ، ص ٤٩ .

<sup>٣</sup> أحمد كشك : من وظائف الصوت اللغوي ص ١٠٢ .

تنتج قواعد . وما كان ذلك كذلك ، إلا لأن القواعد ، في ذاتها ومن غير مستعملها ، صماء بكماء عجماء . ولذا ، عند التحليل في مثل هذا الأمر ، نجد أن نطق المتكلم وتصويته هما اللذان ينتجان القواعد الملائمة لمبتغاه ، حتى وإن كانت هذه القواعد سابقة في وجودها على وجود ما قال . فالعبرة هنا ليست في أسبقية الوجود ، ولكن في النظم ، أي في إقامة الاستعمال ، وإنشاء الكلام ، وإنجاز الأداء بإنتاج القواعد الملائمة لمعمارها ، أو بإعادة إنتاجها جديدة كأن لم تكن . ووفق هذا المنظور العلاماتي ، فإن النحو لا ينتج الكلام ، ولكن الكلام هو ما ينتج النحو الخاص به ، وحينئذ يكون التنغيم علامة دالة على ذلك .

وهذا على سبيل التمثيل ، إذ إن الأساليب العربية التي يشترك فيها التنغيم مع المستويين التركيبي والصرفي أكثر من هذا بكثير مما يؤكد ضرورة النظر إلى التنغيم كمكون من مكونات الدلالة لما كانت " اللغة شبكة معقدة من العلاقات التي تنبئ عن قواعد اللغة وضوابطها على المستويات كافة : صوتية وصرفية ونحوية ودلالية " .<sup>(١)</sup>

ويشير " منذر عياشي " إلى أثر التنغيم في وصل الكلام وفصله ، وما يستدعي الوقف من تنغيم ، فيقول : " إننا نقرأ مثلاً من سورة النكاثر بعض نهايات الآيات بالتسكين على النحو التالي : " ألهم النكاثر - حتى زرت المقابر " ، بينما تكون الكلمات المسكنة في مواقعها الإعرابية متحركة " ألهم النكاثر - حتى زرت المقابر " ، ولقد نجد هاهنا أن التنغيم علامة على أن حدثاً لغوياً قد حدث ، وأدى من ثم إلى نشوء عملية استبدال في الحركات ما بين متحرك وساكن ، ألا وإن هذا الأمر أيضاً ليرسم صورة لكيقونة التنغيم " .<sup>٢</sup> ويعني بذلك أن التنغيم ليس حرفاً ولا مقطعاً لكنه يشكل المنحنى الموسيقي للجملة .

وعلى نحو آخر يرى " تمام حسان " أننا بالاعتماد على التنغيم نستطيع أن نفهم معنى الدعاء من قولهم ( لا وشفاك الله ) من غير الواو ، اتكلاً على ما في تنغيم الجملة من وقفة واستئناف .<sup>(٣)</sup> " ومما يتصل بقولنا في " لا وشفاك الله " وما أخطأ النحاة التوفيق في فهمه من قول جميل بن عمر :

لا . لا أبوح بحب بثنة إنها أخذت علي موثقاً وعهوداً

فلو اصطنع النحاة لأنفسهم علامات للترقيم لوجد القارئ نقطة للوقف بعد " لا " الأولى ولأدركوا أن " لا " هذه بنفسها تكون جملة مفيدة يستحسن في تنغيمها أن نقف عليها لتمام الفائدة ، ولما تورطوا في اعتبارها حرف نفي مؤكد توكيداً لفظياً بحرف على مثل صورته ، ومن الواضح أن هناك فرقاً بين أن تكون " لا " الأولى حرف نفي مؤكد ، أو جملة كاملة الإفادة يستحسن السكوت عليها ، ويتطلب التنغيم في حالة التوكيد وصل الكلام ، وفي حالة الجملة المفيدة وقفة واستئنافاً " .<sup>(٤)</sup>

(١) كمال بشر : اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم ، ص ١٥٨ ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٩ م

(٢) منذر عياشي ، العلاماتية ( السيميولوجيا ) ، قراءة في العلامة اللغوية العربية ، ص ١٤٨ .

(٣) ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٢٢٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

ويعني بوصل الكلام في حالة التوكيد أن الوقف يقع بعد الحرفين (المؤكد والتوكيد) : لا لا. ويستأنف الكلام بمعنى مصاد لغرض الشاعر ، أما باعتبار (لا) جملة جوابية ، فالوقف يقع بعدها كما بين بالنقطة ، ويستأنف الكلام حسب ما يقتضيه المعنى.

### أثر التنغيم على مستوى الدلالة :

يحقق التنغيم أفعالاً كلامية لا تتجزأ بالتصريح كالفخر ، والتهديد ، والإقناع والتبرير ، ويكون ناقلاً لتلك الأهداف بصورة قوية في بعض الخطابات أكثر من سواها كما في الخطابة بغض النظر عن نوعها : دينية ، انتخابية ، ثورية ... ، كما نلاحظ في كثير من البرامج الحوارية ذات البعد الحجاجي التي تجمع طرفين مختلفين أو متضادين حيث الحوار على وتيرة متصاعدة تعد مؤشراً على درجة الاختلاف الذي يفسد كل قضايا الود محققاً الأفعال اللغوية السابقة ( التهديد ، الفخر ، الإقناع ، التبرير .. ) عبر شحنات انفعالية عالية.\*

" ويمكن للتنغيم أن يؤمن معلومات بالنسبة إلى شخصية المتكلم ، وطبعه ، وأصله الاجتماعي أو الجغرافي ".<sup>(١)</sup>

وهناك وظيفة للتنغيم " يشير إليها علماء اللغة الاجتماعيون فيرون أن للتنغيم وأنماطه أثراً في تعرف الطبقات الاجتماعية والثقافية المختلفة في المجتمع المعين ، فقد لاحظوا أن هذه الطبقات تختلف فيما بينها في طرائق أداء الكلام ، وأن إطار موسيقى الكلام عندهم يختلف من طبقة إلى أخرى ، وفقاً لمواقع كل طبقة في المجتمع ومحصلها الثقافي. هذه إشارة ذكية تحتاج إلى دراسة أوسع وأعمق ، لتعرف مدى العلاقة بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية".<sup>(٢)</sup>

وقد توقفنا عند دور التنغيم على مستوى التركيب ، لأغراض بحثنا ، وهو ما نهتم به أكثر من سواه في هذا الفصل.

### ثانياً : النبر:

يشكل النبر والتنغيم المنحنى الإيقاعي المصاحب لتشكيل الخطاب الصوتي ، وذلك عندما يركز المتكلم على لفظ أو مقطع مهم بالضغط عليه وبصعود النغم أو هبوطه . وإذا كنا قد بينا التنغيم مفهوماً ووظيفة ، فقد بات علينا أن نبين المراد بالنبر ، ودوره ، وعلاقته بالتنغيم. يعرف النبر بأنه : " وسيلة صوتية تبرز بواسطته عنصراً من السلسلة الصوتية ، قد يكون مقطعاً أو لفظاً أو جملة ، والنبر يكون بوساطة الشدة في النطق أو ارتفاع النغمة أو المد ".<sup>(٣)</sup>

\* يعد برنامج ( الاتجاه المعاكس ، في قناة الجزيرة ) مثلاً بامتياز يستعمل فيه كل من المتحاورين العناصر اللسانية وخارج اللسانية.

(١) أندريه مارتينييه ، وظيفة الألسن وديناميتها ، ترجمة ، نادر سراج ، ص ٢٨١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٩ م .

(٢) كمال بشر ، علم الأصوات ص ٥٤٠ .

(٣) مصطفى حركات : الصوتيات والفونولوجيا ، ص ٤٠ ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .

وقد يكون المقطع المنبور ضعيفاً أو وسيطاً ، وبذلك يكون معناه " أن مقطّعاً من بين مقاطع متتابعة يُعطى مزيداً من الضغط أو العلو (Stress accent) أو يعطى زيادة أو نقصاً في نسبة التردد ( نبر يقوم على درجة الصوت Pitch accent )".<sup>(١)</sup>

فبحكم موقع ( لا ) في المثال الشعري السابق ( لا . لا أبوح ... ) فإنها تنطق بصورة أقوى مما بعدها ، لأنها تشكل جملة جواب مقدر مفهوم من السياق ، ولذلك تتحمل ( لا الأولى ) نبراً قوياً مصحوباً بنغمة صاعدة للتأكيد على أهميتها.

ولما كان للتغيم ثلاث درجات : صاعد ، ومستوٍ ، وهابط - كما تقدم - فإن للنبر أيضاً - عند غالبية الدارسين - ثلاث درجات : قوي ، ووسيط ، وضعيف . " فالقوي علامته أو الرمز الذي يشير إليه هو [ / ] ويوضح في بداية المقطع المنبور مباشرة إلى أعلى ، كما في المقطع الأول من " ضرب " da / ra / ba ، والوسيط رمزه [ / ] ويوضع في بداية المقطع المنبور إلى أسفل. كما في المقطع الأول من " قاتلوهم " Qaa/ti/laa/hum " أما النبر الضعيف فيترك عادة من دون رسم كتابي . وغالباً ما يصحب النبر القوي إشارات أو حركات جسمية ، كالإشارة باليد ، ورفع الصوت، كما يصحبه أيضاً اختلاف في درجة الصوت ، وفي النغمة كذلك".<sup>(٢)</sup>

وبذلك يكون النبر علامة لا ترسم حدود كلمة من أخرى فقط ، لكن ترسم حدود المقطع في الكلمة نفسها ، فكلمة ( شكراً ) مثلاً تحتل الصفات الصوتية الآتية لإنجاز الامتتان ، وهي : النصب بـ ، والنغمة المستوية . وهي تتكون من مقطعين متوسطين الأول مغلق ( شك : ص ح ص ) والثاني مفتوح ( راً : ص ح ) وللتعبير عن التقدير ، يقع النبر فيها على المقطع الأول

شكراً

ص ح ص / ص ح ح

أما إن أردنا السخرية من المخاطب ، فإن النبر فيها يقع على المقطع الثاني ، ويواكبه نغمة صاعدة محدودة

شكراً

ص ح ص / ص ح ح

وبذلك يدخل النبر والتغيم في الجوهر القاعدي للتركيب ، بحيث يتعذر إنجاز الخطاب الشفهي في العربية من دون وظائف ثلاثة : للنبر والتغيم ، وللحركة الإعرابية ، فنحن لا نستطيع أبداً " أن نعبر عن فكرة بحتة أو مجردة ، ذلك لأن مضمون التعبير معقد . فأنا أستطيع أن أقول مثلاً: " أشكركم " وإذا أمعنا النظر في هذا القول فسنرى أنه من ناحية صوتية فقط يتضمن ثلاثة وجوه :

(١) ماريو باي : أسس علم اللغة ص ٩٣.

(٢) كمال بشر ، علم الأصوات ص ٥١٣ - ٥١٤ .

(أ) الأصوات ذاتها ، مستقلة عن أية نبرة خاصة : إن لها في كلمة " أشكركم " قيمة إيصالية بحتة ، وتبلغ المحادث امتناني.

(ب) إن " النبر " العفوي وغير الشعوري يكشف عن الأصول الاجتماعية أو الريفية ، وعن الميول النفسية البيولوجية في الوقت ذاته.

(ت) وهناك النبر الإرادي الذي يهدف إلى إحداث انطباع محدد لدى المحادث : ويكون ذلك حين أعبر عن احترامي أو هزئي أو حين أحدث أثراً مضحكاً ( بتقليد لهجة من اللهجات ، أو حين أحاول أن أتميز بلهجة ما .<sup>(١)</sup> )

ويرتبط النبر - كالتنغيم - بالانفعالات التي تعتمل في نفس المتكلم ويُعبّر عنها بصورة أدائية يُفهم منها حالته وقصده فأسلوب الدعاء مثلاً ، لا يمكن أن يؤدي بصورة عادية أي نبر بسيط ونغمة مستوية ، بل لابد من إبراز مقطع أو أكثر بشدة الصوت أو صعود النغمة في الأداء الانفعالي . وذلك مثل الحديث الشريف :

" تَعَسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدرهم ... إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ " <sup>(٢)</sup> ومن رواية عبد الله بن دينار بلفظ " تعس عبد الدينار وعبد الدرهم ... تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش " .

فالفعل " تعس " منبور مقطعه الأول : ص ح / ص ح / ص ح . والفعل " انتكس " منبور مقطعه الأوسط : انـ / تـ / كـ / ص ح / ص ح / ص ح (السكون للوقف).

ونفترض أن يواكب هذا النبر علو في النغمة ليكتمل التأثير لأن " هبوط النغمة أو صعودها أو تحولها من المستوى السابق في وسط الكلام أو في آخره لا يكون إلا متفقاً مع موقع النبر فلا تتحول النغمة هذا التحول إلا على مقطع منبور وهذه الصلة الوثيقة بين النبر والتنغيم لا يمكن انفكاكها ولذلك يكثر أن يقف المرء عند أحد المعاني باحثاً عما إذا كان هذا المعنى وظيفة النبر بمفرده أو التنغيم بمفرده ثم لا يستطيع الجزم بأنه وظيفة أحدهما على انفراد " <sup>(٣)</sup> .

إن ذلك الربط الوثيق بين النبر والتنغيم موجود في كفاءة المتكلم عند تشكيل خطابه الصوتي ، خصوصاً إن خرج القلب الصرفي أو النحوي عن معناه الحرفي \* فلو خاطبت صديقاً بقولي :

- استغفر الله ، ينشرح صدرك .

يكون النبر ضعيفاً في الفعل ( استغفر ) ومثله التنغيم ، ليتفقاً وقصد الإرشاد . أما إن خاطبت ظالماً فقلت :

- استغفر الله يا رجل .

(١) ببير جيرو : الأسلوبية . ترجمة : منذر عياشي ، ص ٥١ - ٥٢ ، مركز الانماء الحضاري ، ط ٢٠٠٨م

(٢) مختصر البخاري : كتاب الرقاق ، باب ما تبقى من فتنة المال حديث رقم (٦٠٧١) ص ٤٨٠ .

(٣) تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ص ٢٣٠

\* لسنا نعني أن للكلمة معنيين حقيقي ومجازي ، فمعناها يكمن في الاستعمال ، إنما نشير إلى أن المعنى المعجمي هو الذي يستقر في ذهن المتكلم والمخاطب ، وقد يتفق أو لا مع سياق الاستعمال .

فإن درجة النبر والتنغيم المصاحبة للتلفظ تنبهران على التعريض المقصود. وقد يكون الاستغفار مشمولاً بمعنى الوعيد كما في قوله تعالى :

" استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم " (التوبة : ٨٠) فالذي يعكس الوعيد ليس النفي بمفرده " فلن يغفر " بل تأكيده في أن استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم مهما كثر فلن يغفر الله لهم . وهنا تتضافر الصيغة الصرفية (استغفر) ، وعلامة البناء (السكون) مع شدة النبر وعلو النغمة (استغفر). للإفصاح عن دلالة الآية . ومثلها في نفس الآية ( لن يغفر ) وقد انتقل النبر القوي من (استغفر) إلى (لا تستغفر) ثم إلى (فلن يغفر) لتأكيد هذه المفارقة .

### نسبية الوظيفة في النبر :

إن لكل لغة نظامها الذي يتميز فيه على كافة المستويات . واللغة العربية إحدى اللغات التي لا يغير النبر فيها معنى الكلمة . إنه يحدد مقاطع الكلمة والكلام عموماً ، ويحدث إيقاعاً من الشدة أو ضعف الصوت يساهم في التعبير عن المعنى المقصود ، كما يعد مظهراً من مظاهر الجمال الصوتي بوصفه خاصية صوتية تميز متكلماً بعينه أو جماعة لغوية تتداول أداءً صوتياً مشتركاً ، لكنه إذ يوحي بالمعنى لشدة الصوت في مقطع وضعفه في آخر ، فهو لا يغير المعنى إن اختلف موضع النبر أو درجته ، لذلك فهو لا يخرط في محور الاستبدال ، إذ لا تقابل دلالي بين كلمتين يختلف فيهما النبر نوعاً ودرجة ، وذلك على خلاف التنغيم الذي غالباً ما يكون هو الفاصل في توضيح المعنى في الخطاب الملفوظ:

محور الاستبدال

قَتَلَ الوزيرُ ؟

( استفهام : نغمة صاعدة هابطة )

قتل الوزير .

( تحسّر : هابطة صاعدة )

محور التركيب

قتل الوزير (تقرير : نغمة مستوية)

فعلى مستوى الدلالة ، إن نبرنا المقطع الأول من كلمة ( الوزير : ص ح ، ص ح ح ، ص ح ) دل النبر على أهمية هذا الدال ( وزير ) ، إلا أننا إن نبرنا المقطع الثاني ( ص ح ح ) أو مددنا به الصوت أكثر فلن تتغير دلالة الكلمة .

ومع نسبية الدور الدلالي للنبر فإنه " يضطلع بأدوار عديدة : جمالية ، وتواصلية ، ونحوية ، ولذا فهو يمثل وظيفة في السياق الصوتي لا يمكن الاستغناء عنها وإلا سقط الكلام في لا تعبيرية صوتية كثيفة تجعله كتيماً ، وحينئذ ، يستغلق ويكف عن أن يكون مبيناً " .<sup>(١)</sup>

(١) منذر عياشي ، العلاماتية (السيمولوجيا) قراءة في العلامة اللغوية العربية ، ص ١٣٧ .

## فعلى المستوى النحوي :

تختلف دلالة التركيب : قتل الوزير ، عن : الوزير قتل ، فالقصد من التركيب الأول هو الإخبار عن القتل أو إسناده للوزير ، أما القصد في التركيب الثاني فهو المسند إليه نفسه ، ولذلك قُدِّم ، وقد نلمس أثراً ملحوظاً في مثل هذا التركيب عندما نضغط بشدة لإبراز أهمية الكلمة ، فيصبح النبر دالاً على تأكيدها دون آلية التقديم ، ولعل ذلك أوضح في اللغة اليومية المحكية أو في العامية وقد يتأزر دور التقديم مع دور النبر والتنغيم ، فيعد الصوت فوق مقطعي جزءاً من دلالة التركيب ، وذلك كقولنا :  
- حزيناً كان.

في الإجابة على سؤال مثل : كيف كان ؟

فقد حققت ثلاث وسائل الهدف التواصلية بكفاءة عالية ، وهي : تقديم الخبر ، النغمة الصاعدة ، والنبر القوي.

ولاشك من وجود الفرق بين التركيب السابق ( حزيناً كان ) وبين استعمال الصيغة نفسها خبراً لمبتدأ محذوف في قول الشاعر :<sup>(١)</sup>

حزينٌ وبى رغبةً للبكاء  
على أنني كنتُ أُميَّ هذ الحياة  
حزينٌ على أنني لم أنم في العراء  
ولم أصعد الشجرة  
حزينٌ لأن السنين تراكم فيها الغبار  
ولم أعشق امرأة

إنه تعبير عما استقر في نفس المتكلم من حزن ، لذلك استعمله مرفوعاً ، ولفت انتباه المتلقي بحذف المبتدأ ، كي يؤكد عمق الحزن الكامن والذي تدل عليه علامة الضمة ، وتصدير البيت بالخبر المراد ، كما ترتبط الدلالة بالإيقاع الخارجي المتحقق باستخدام تفاعيل ( فعولن فعولن .. ) الخاصة ببحر المتقارب ، والإيقاع الداخلي الناتج من الحركات وأصوات المد ، ومن النبر والتنغيم.

## وعلى المستوى التواصلية :

فإن النبر والتنغيم يؤطران إنتاج الكلام في سائر مستويات اللغة ابتداءً من لغة التخاطب اليومي حتى درجات اللغة العليا . وإذا كان التنغيم يقوم بوظيفته على المستويين التركيبي والدلالي - كما تقدم - فإن للنبر أثراً في تأكيد غرض المتكلم عند تقطيع السلسلة الكلامية والضغط على بعض مقاطعها أو نطقها بصفة خاصة.

ففي سياق التخاطب اليومي ، يستطيع متكلم في مأزق أن يطلب المساعدة بقوله : النجدة.

(١) الشاعر " سامر رضوان " ، من قصيدة بعنوان : سأمضي كسيراً ، جريدة الأسبوع الأدبي ، العدد ١١٣٧ تاريخ :

٢٠٠٩/٢/٧ دمشق - سوريا .

وبغية تحقيق الغرض ( وهو صرف نظر السامع لمساعدته ) فإنه يستند إلى الوظيفة الإيقاعية للنبر والتنغيم ، بحيث يقسم النبر الكلمة إلى ثلاثة مقاطع هي :  
النَّ / نَجْ / ده .

صح / ص ح ص / ص ح ح

ويقع النبر القوي على المقطع ما قبل الأخير ، ثم تطول مدة الصوت المنغمة في المقطع الأخير بتنغيم صاعد ، وبذلك يشكل الإيقاع بنية هذا الأسلوب .  
ويمكن أن نجد له الوظيفة نفسها في اللفظة الإنجليزية المفردة (Help) عند استعمالها لطلب المساعدة أو النجدة ، لا بوصفها دالاً يشير إلى مرجع .

ولا تقتصر دراسة اللغة في استعمالها التداولي على النظر في استعمال العلامات اللغوية كما في التراكيب، بل تعنى بدراسة العلامات غير اللغوية أيضاً ، كما في توظيف النبر والتنغيم من قبل المتكلم لتحقيق ما يتوخاه.

وإذا أردنا أن نستجلي أثر النبر في أداء القرآن الكريم ، نجد أن للنبر والتنغيم علاقة بالترتيل ، وقد قال تعالى : " ورتلناه ترتيلاً " ( الفرقان : ٣٢ ) ويقول " ورتل القرآن ترتيلاً " ( المزمل : ٤ ) وفي الحديث " زينوا القرآن بأصواتكم " (١).

ويكون كمال الترتيل " بتفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه ، وألا يدغم حرف في حرف ، وقيل : هذا أقله ، وأكملة أن يقرأه على منازله ، فإن قرأ تهديداً لفظ به لفظاً التهديد ، أو تعظيماً لفظ به على التعظيم" (٢).  
ومن المعلوم أن المعاني الواسعة للخطاب القرآني من : أمر ونهي ، وترغيب وتحذير ، ووعد ووعيد ، ورحمة وعذاب ... إلخ ، لا يمكن أن تؤدي بنبرة واحدة أو بالنعمة نفسها وذلك وفقاً للغرض المقصود الذي يحدد مستوى النبر والتنغيم ليلتئم الأداء الصوتي مختلف المقاصد. ونرى ذلك في كيفيات القراءة التي يختص بمعرفتها علماء القراءة وأئمة الأداء ، فلو أردنا التمثيل هنا لتناسب النبر ومعاني القرآن ، فإننا نلمس تناوب النبر والتنغيم على كلمات (الشكر) فيما يلي:

" اعملوا آل داوود شكراً وقليل من عبادي الشكور " (سبأ : ١٣)

" شاكراً لأنعمه اجتباة وهداه إلى صراط مستقيم " (النحل: ١٢١)

" إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون " (البقرة : ٣٤٣ / غافر: ٦١)

إذ يوجد النبر في المثال الأول على المقطع الأول في ( شكراً : ص ح ص / ص ح ) وعلى المقطع الثاني في ( شكور : ص ح / ص ح ح / ص ح ) .

(١) هذا الحديث من الأحاديث التي علقها البخاري ولم يصلها في موضع آخر من كتابه ، وقد أخرجه في كتاب التوحيد باب

خلق أفعال العباد وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما : ينظر

فتح الباري / كتاب التوحيد ، ص ٥٢٨ .

(٢) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ص ٢٢٥ .

ويوجد النبر القوي في المثال الثاني على المقطع الأول في ( شاكرأ : ص ح / ص ح / ص ح ) . " لاحظ الفرق في قوة النطق وضعفه بين المقطع الأول والمقطعين الآخرين تجد أن المقطع الأول ينطق بارتكاز أكبر من زميليه في الكلمة نفسها . وهذا ما نلاحظه في المقطع (kaa) من " كاتب " (kaa/tib) وفي المقطع (ruub) من " مضروب " (mad/ruub) <sup>(١)</sup> .

وفي الحديث : كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقوم أو ليصلي حتى ترم قدماه - أو ساقاه - فيقال له ، فيقول : أفلا أكون عبداً شكوراً <sup>(٢)</sup> .

وهذا شكر بالفعل . وفي الحديث استثمار رفيع لوظيفتي النبر والتنغيم في إنجاز وظيفة الاتصال كما يلي :

- النبر : يوجد على المقطع الثاني في (شكورا : ص ح / ص ح / ص ح) .

- التنغيم : لا ينفصل التنغيم عن النبر ولا يمكن أن يخلو منطوق منهما ، فالنغمة في (شكوراً) هابطة صاعدة تماثل نوع النبر فيها .

وفي قوله : " أفلا أكون عبداً شكوراً " فإن للإيقاع ( النبر والتنغيم ) قوة وضعفاً ، علواً وخفضاً دوراً هاماً في تبيين فحوى الكلام وهي التقرير .

وفي قول الراوي : " فيقال له " يختزل التنغيم الكلام المحذوف للرسول صلى الله عليه وسلم للتخفيف عنه .

وفي المثال الأخير ، يقع النبر على المقطع الأخير ( يشكرون : ص ح / ص ح / ص ح ص ) . هذا إلى جنب الإيقاع الصوتي الجميل الناجم عن النبر والتنغيم في مثل ما سبق . ويتجه هدف الخطاب في درجة النبر التي نجدها تتفاوت في التركيب أو الكلمة نفسها في سياقين مختلفين ، مثل قوله تعالى :

" يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً " (الفرقان : ٢٢) . وقوله جل شأنه : " وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينها برزخاً وحجراً محجوراً " (الفرقان : ٥٣) .

إن ملائكة العذاب إذ تقول للمجرمين يوم القيامة " حجراً محجوراً ، أي " حراماً عليهم الغفران والجنة ونحوه من التقدير على معنى : حرم الله ذلك تحريماً ، أو جعل الله ذلك محرماً عليه . ويقول الرجل للرجل : أتفعل كذا وكذا ، فيقول : حجراً وبراءة <sup>(٣)</sup> .

فالنبر الموجود في ( حجراً : ص ح / ص ح / ص ح ح ) هو نبر قوي يشير إلى هول الموقف ومثله النبر في ( محجوراً : ص ح / ص ح / ص ح ح ) في حين نجد أن النبر على نفس الكلمتين يكون متوسطاً في الآية الثانية ، لأنها في سياق الخلق ، ومعنى حجراً محجوراً هنا ، أي وحاجزاً يمنع وصول الماء العذب إلى الماء المالح .

(١) كمال بشر : علم الأصوات ص ٥١٣ .

(٢) صحيح البخاري (ج ١ ص ١١٩) كتاب التهجد ، باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم حتى ترم قدماه . حديث رقم (١٠٧٨)

(٣) شرح كتاب سيبويه : ج ٢ ، ص ٢١٨ .

وقد يتخلل تقطيع النبر للسلسلة اللفظية ظاهرة صوتية تتطلب أخذها بعين الاعتبار عن الأداء مثل ظاهرة القلقة ، وذلك عند نبر الفعل من الآية الكريمة:

" ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً " (الفرقان: ١٩) (نذقه : ص ح / ص ح / ص ح) حيث يعظم النبر على القاف ، لأنه أحد حروف القلقة ، وهي توجد في وسط الكلمة وفي آخرها وصلاً ووقفاً (١) ، والمقصود بها :

" اضطراب الصوت أو المخرج عند النطق بالحرف ساكناً حتى يسمع له نبرة قوية".(٢)

وعلى المستوى الجمالي:

إذا كان لكل تركيب نطاقه الإيقاعي ، صحَّ منا القول إن الإيقاع من : نبر ، وتغيم ، و وقف \* ... إن لم يدخل في تشكيل قواعد التركيب ، فهو بنية مجردة فوق بنية التركيب أو هو قالب الكلام. ولا تقل القيمة الجمالية للقالب الإيقاعي عن باقي القيم التي يضطلع بها ، كما تؤثر القيمة الجمالية كذلك في القيم الوظيفية، ذلك أن الكلام كلما كانت أصواته متجانسة متناغمة ، استحسناها المستمع واستزاد منها ، وإذا قلَّ الانسجام الصوتي ، ضعف الإقبال على الكلام. من هنا كان الإيقاع في القرآن والتعدد في أساليبه الموسيقية سراً من أسرار النظم القرآني ، دان له المؤمن والجاد ، والعربي والعجمي ، بل والجن الذي قال مستمعهم : "إننا سمعنا قرآناً عجباً " (الجن: ١) . و" إن سياق الاستعمال يحرص على إظهار موسيقى اللغة بحفظ المسافات المتساوية أو المتناسبة بين مواقع النبرة. مما يعطي اللغة موسيقاها الخاصة التي تعرف بها بين اللغات. وإن مجرد الاستماع إلى شخص أجنبي يتكلم العربية فيطيل الحركة ويقصر المد ويضع النبر في غير موضعه ، ليكشف عن قيمة النبر والكمية في تكوين موسيقى اللغة".(٣)

ولما كان الشعر موسيقى ، كان لآليات الإيقاع قيمة خاصة فيه مثل : الحركات والمد ، والنبر والتغيم والتكرار ، والتقديم والتأخير... إلخ ، وكانت القيمة الجمالية هي المسألة المركزية عندما تكون اللغة شعراً، فتكون مختلفة عن لغة الأشياء كما تقدم . وقد يصعب أن نتصور آلية واحدة للإيقاع ، لأن موسيقى الشعر تتنوع وتتوزع على مكونات الإيقاع كافة ، غير أننا نميز بالنبر بين المقطع القوي والمقطع الضعيف الذي إنما يتميز باجتماع آليات الإيقاع الداخلي للنص.

فعندما يبتهل الشاعر إلى ربه ويقول :

ربّ إني عبدٌ ضعيفٌ ضعيفٌ      حشدُ الناسُ حوله ما يخيفُ (٤)

(1) محمد بن شحارة الغول : بغية عباد الرحمن لتحقيق تجويد القرآن ، ص ٢٠٨ .

(2) المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

\* يشكل الوقف جزءاً لا يتجزأ من قواعد التركيب إذا وقع في وسط التركيب مؤسساً علاقات و وظائف نحوية تنشأ عن فاصلته ، إنما نشير إلى الوقف في آخر الكلام بوجوهه المتعددة من إسكان ، و روم ، وإشمام ... ، مما يعد ظاهرة تطريزية كما عالجهما الفصل السابق .

(3) تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٣٠٧ .

(4) غازي عبد الرحمن القصيبي ، من ديوان " أنت الرياض " والقصيدة بعنوان " دعاء " .

فإن النبر يكسب بنية الكلمة (ضعيف) إيقاعاً خافتاً هو من متطلبات مقام الدعاء حيث يقع النبر الضعيف على المقطع الأول (ص ح / ص ح ح / ص ح) يصحبه تنغيم صاعد هابط في تساوق مع المقام إلى جانب إطالة الصوت في الصيغة الصرفية (فعل) ثم تكرارها بغية التأكيد الذي تظهر الضمة لتدل عليه؛ ولتعضد كذلك هذا الإيقاع المتولد من التناغم والتجانس الصوتي والصرفي والنحوي ، لأن نطق التأكيد والمؤكد بالحركة الإعرابية ذاتها ، يحقق انسجاماً صوتياً بذلك التطابق.

كما يؤدي البناء الزمني أثره من الناحية الجمالية شعراً ، فالعلاقة القائمة بين ركني الجملة النواة (إنني عبد ضعيف) هي علاقة تراتبية يختم بها الركن الثاني (عبد ضعيف) الجملة " فالركن الثاني الذي تختتم به النواة ، هو من تكون له الكلمة الأخيرة ، ويتكون الزوج التالي لهذين الركنيين في نواة الجملة من اسم عين وموقوت ، فهذا الزوج يربط العلاقة بين الركنيين بالزمان ، وهو ربط ضروري لأن الزمان حاضر دائماً في تجارب العالم التي تأتي الجملة تعبيراً عنها . ويتشكل هذا الزوج التالي في العربية من اتصال أي وحدة لغوية دالة على اسم عين بأي وحدة لغوية دالة على موقوت ، لأن سيرورة الحدث في العربية لا تنفصل عن المواقيت" .<sup>(١)</sup> غير أن الكلمة الأخيرة تختلف شعراً ، فلا تتم من خلال الركن الثاني (إنني عبد ضعيف) إنما تتحقق من خلال المفارقة في قوله : ( حشد الناس حوله ما يخيف) فالزمن الذي يبني العلاقة اللغوية بين ركني الجملة (إنني عبد ضعيف) مرجعيته منطقية لا شعرية ، فتأتي المفارقة المعطاة من بعد ، لتكسر ألفة الواقع ، وتبني علاقة زمنية مختلفة في الصورة الشعرية ، تلك العلاقة المغايرة تعد من جماليات الشعر وإن كانت خارج إطار الإيقاع الداخلي ، والخارجي وما ينتجه من نغم مرتبط بالوزن والقافية . يقول " القصيبي " في القصيدة نفسها:

ربّ إن ترضَ لا يهْمُ عظيمٌ      أو كبيرٌ أو سيّدٌ أو شريفٌ

ولمّا كان الشعر " يدخل فيه الحداء والغناء والترنيم " <sup>(٢)</sup> ؛ وتؤدي القافية دوراً كبيراً في الإيقاع الموسيقي، نجد أن الإيقاع الداخلي (الناجم من التنغم الصوتي على المستويين الصرفي والنحوي ، ومن النبر والتنغيم والوقف)، ليتأكد أكثر في الشعر الحديث كما في قصيدة التفعيلة ، وقصيدة النثر أكثر من الشعر الموزون المقفى ، لسقوط القافية في القصيدة التفعيلية وسقوط الوزن معها في قصيدة النثر ، فتؤمن تلك الآليات نغماً موسيقياً متنوعاً ليس بالترتيب.

ومن القيم النطقية للنبر التمييز بين متكلم اللغة الأصلي وغيره ، فحتى " في الحالات التي لا يلعب فيها النبر والتنغيم دوراً فونيمياً ، فإنه يؤدي دوراً ملحوظاً في التفريق بين نطق الأجانب ، ونطق أبناء اللغة".<sup>(٣)</sup>

(١) أندريه رومان : المجلد في نظام العربية ص ١٨٤ .

(٢) أبو الحسن الإربلي : كتاب القوافي ، ص ٣٣ ، تحقيق عبد المحسن فراج القحطاني ، الشركة العربية للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .

(٣) ماريو باي ، أسس علم اللغة ص ٩٦ .

### ثالثاً : التقديم والتأخير

يُعالَج التقديم والتأخير - غالباً - على مستويين : الأول ، على مستوى التركيب بوصفه ممكناً يخالف الأصل \* الذي هو تقديم ما حقه التقديم ، وتأخير ما شأنه التأخير ، والثاني على مستوى الدلالة من حيث أثره عليها أسلوبياً فيما عرف بالأغراض البلاغية ، غير أننا ولأغراض البحث - سننظر إلى التقديم والتأخير من زاويتين :

الأولى : وظيفية بوصفه علامة تدل على وظيفة تقدمت وأخرى تأخرت ، فكانت دالة عليها مع علامة الإعراب.

الثانية : صوتية جمالية بوصفه مقتضى إيقاعياً لا يقابل دوره الوظيفي بل يتداخل معه على أساس كونه متطلباً صوتياً يقتضيه ممكن التركيب. وسننطلق من هذا التداخل في التحليل.

" إن الجملة تتألف من عناصر يرتبط بعضها ببعض ويأتي كل واحد منها إثر الآخر في ترتيب معين ، وبما أننا لا نستطيع أن ننطق بعنصرين في آن واحد فذلك يبرهن لنا بأن الجملة ذات طبيعة خطية ، وبالرغم من أن الجملة ذات طبيعة خطية فهي تتألف من عناصر تنتظم في عدة مستويات (مستوى الصوت والمعجم والصرف والنحو والتركيب) ، وكل من هذه المستويات يسعى في حيك عناصر الجملة فتتداخل هذه المستويات بوساطة عناصر صوتية وشكلية تخضع لقواعد معينة ، وقد تفقد العلاقة أحياناً بين مستوى وآخر فيتلافاها أحد المستويات العليا أو الدنيا" . (١)

وإذا كنا قد رصفنا الحركة الإعرابية في موضع النظام ، لكونها أثراً من آثار التركيب ومؤشراً عليه ، فإننا نرصف التقديم والتأخير في موضع الكلام ، لأنه وجه من أوجه الانجاز اللغوي وليس مما يحتمه النظام . والسؤال هنا حول مفهوم الأصل ، هل يعد التقديم والتأخير خروجاً عن الأصل ، أو فرعاً له مسوغاً بأغراض السياق؟.

إن النظام التركيبي في العربية يقتضي أن يؤتى بالمتبداً أولاً ثم الخبر في الجملة الاسمية ، وأن يؤتى بالفعل ، فالفاعل ، ثم مكملات الجملة الفعلية ، إنها التراكيب القالبية المعيارية ، أما ما يخص ترتيب العناصر داخل كل جملة عند الاستعمال فهو إجراء تداولي طالما كان ذلك الترتيب اختيارياً على خلاف حركات الإعراب الإلزامية والدالة على وظيفة عنصر ما تقدم أم تأخر " فنتج بالتالي البنية الوظيفية ، ومنها تتوافر المعلومات الدلالية والتركيبية والتداولية ، حيث تتحقق فيها إدماج المعلقات من جهة ،

---

\* يرى " ريمون طحان " أن مفهوم الأصولية مفهوم معقد ولربما لا يصح أن نتخذه كمقياس ، إذ تتدخل العوامل التاريخية والجغرافية والأحكام النقدية والجمالية وتجزم بأصولية جملة قد يعتبرها القارئ العادي غير أصولية : ص ٤٨ - ٤٩ الألسنة العربية.

(١) ريمون طحان : الألسنة العربية ص ٤٩ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨١ م

وقواعد تحديد رتبة مكونات الجملة ، أي قواعد الموقعة من جهة أخرى ، فيكون ناتج ذلك بنية تتوافر فيها المعلومات اللازمة التي تتخذ دخلاً للقواعد الصوتية التي يتم بواسطتها التأويل الصوتي المناسب" (١).  
يعني هذا أن القواعد الصرفية وقواعد التركيب هي قواعد إلزامية لا يحيد عنها المتكلم ، أما قواعد الموقعة فهي قواعد اختيارية تلي القواعد الإلزامية ، لتدل على غرض معين عند الاستعمال من خلال ذلك الترتيب ، كما أنه ينبغي أن يلاحظ أن الترتيب قسمان :  
واجب ، وجائز ، فالواجب لا تجوز مخالفته كالترتيب بين الفعل والفاعل ، والجار والمجرور ، والمضاف والمضاف إليه والتابع والمتبوع . فلا يمكن القول :  
الله على يتوكل المؤمن

ويجوز التعدد في الترتيب على النحو التالي :

- يتوكل المؤمن على الله.
- المؤمن يتوكل على الله
- على الله يتوكل المؤمن.

إن المثال الأول (يتوكل المؤمن على الله) يشكل النظام السائد للتركيب الفعلي ، وفيه يهتم المتكلم بإبلاغ السامع حدث التوكل لذلك ابتداء به ، وفي المثال الثاني يهتم المتكلم بمن له الحدث فيقدمه ليخبر عنه ، أما في المثال الأخير فيهتم بقصر التوكل على الله فيقدم شبه الجملة . وبناءً عليه ، نرى أن الاستعمال هو ما يحدد الغرض التداولي الذي هو وجود آني ، لا أداء بعدي لترتيب مفترض و ذلك مشروط بعدم الإخلال بنظام اللغة .

ففي المثال الثالث : (على الله يتوكل المؤمن) تتوقف الدلالة على الجار والمجرور ، فإذا ما قدم دل التقديم على وظيفة تُقدّم للعناية بها ، ورافقتها حركة الإعراب (الكسرة) كاشفة عن تلك الوظيفة . ومن المعلوم أن مستوى النبر والتغيم هنا ، يختلف عنه مع الجملة التي لا توظف التقديم والتأخير وذلك بالتركيز على العناصر المتقدمة أكثر من المتأخرة بنبر قوي ونغمة صاعدة هابطة .

ولولا أن الحركة رافقت الوظيفة في قوله تعالى : "إنما يخشى الله من عباده العلماء" (فاطر : ٢٨) لما تبينت وظيفة الكلمة ، حيث يكون المقصور عليه مؤخراً وجوباً بإنما ، وهو تأخير على نية التقديم ، لأنه باق مع التأخير على الفاعلية وقد دلت عليها علامتان : حركة الإعراب ، والترتيب.

ومن جهة أخرى ، نجد أن مرد الإيقاع الذي رافق هذا التركيب هو تضافر علامتي الإعراب والترتيب مرة ثانية ، إلى جانب العناصر فوق المقطعية . وتختلف الدرجات الموسيقية لهذا التركيب عن قولنا في المقابل: يخشى العلماء الله ، فالتقديم والتأخير قوَى الدلالة ، وأدّى أثراً إيقاعياً غاية في الأهمية لا يمنع أن يكون ذلك الجانب الجمالي غاية مقصودة ضمن المراد على المستوى غير الصوتي. إن " نظرة الفصحاء

(١) يحيى بعبطيش : التداوليات روافد وآفاق ، ضمن كتاب ( التداوليات علم استعمال اللغة ) ، ص ١٢٣ ، إعداد وتقديم :

الدكتور حافظ اسماعيلي علوي ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ٢٠١١م.

لمثل هذه الجملة تختلف عن نظرتهم للجملة الأولى ، ويعدون واحدة منهما في مستوى بلاغي أرقى من الأخرى ، أو يعدون إحداها واجبة الاستعمال في مجال معين من القول ، والأخرى تستعمل في مجال آخر. ولكن رغم اختلاف موضع المسند إليه في الجملتين ، لا يزال في رأي أصحاب هذه اللغة هو المسند إليه ، ولا تتغير صفته النحوية " (١).

ولا نود أن نكون تاريخيين فنعلل الترتيب بتطور اللغة ، كما يرى إبراهيم أنيس أن "ترتيب الكلمات في كل لغة ليس إلا وليد تطور طويل المدى ، ونتيجة مرور قرون كثيرة على هذه اللغة، ومن الصعب الوقوف على كل الظروف اللغوية أو الاجتماعية التي ساهمت في مثل هذا التطور حتى صار نظام الجملة على ما نألفه ونعده في كل لغة " (٢). ذلك أن اللغات التي تقوم على استقرار ترتيب الجمل (كالإنجليزية) إنما يقع الترتيب فيها ضمن نظام الكلام ، ولذلك تتفاضل الأساليب فيه حسب التعبير عن الوظائف التداولية في كل سياق.

وبالعودة إلى مقارنة "سوسير" بين اللغة ولعبة الشطرنج ، فإن قطع الشطرنج تتحرك بحسب قواعد اللعبة بصرف النظر عن مادتها ، لذلك نرى بالقياس عليه ، أن عناصر التركيب إنما يخرج أحدها من مكانه ويوضع في غير ما تقتضيه الرتبة بحسب نظام اللغة.

وقد تطرق "الجرجاني" لأثر الترتيب على حركات الإعراب حيث يقول "واعلم أن تقديم الشيء على وجهين : تقديم على نية التأخير ، وذلك في كل شيء أقررت مع التقديم على حكمه الذي كان عليه ، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل ... وتقديم لا على نية التأخير ، ولكن على أن تنتقل الشيء من حكم إلى حكم ، وتجعل له باباً غير بابه ، وإعراباً غير إعرابه .. حيث تقول مرة "زيد المنطلق" وأخرى "المنطلق زيد" فأنت في هذا لم تقدم "المنطلق" على أن يكون متروكاً على حكمه الذي كان عليه مع التأخير ، فيكون خبر مبتدأ كما كان ، بل على أن تنقله من كونه خبراً إلى كونه مبتدأ ، وكذلك لم تؤخر "زيداً" على أن يكون مبتدأ كما كان ، بل على أن تخرجه من كونه مبتدأ إلى كونه خبراً ، وأظهر من هذا قولنا "ضربت زيداً" و"زيداً ضربته..." (٣).

أما في الشعر ، فيغني التقديم والتأخير المعنى ، ويحدث إيقاعاً داخلياً من جراء التوازي ، أو إيقاعاً خارجياً بالقافية ، فمثال الأول قول الصلتان العبدى (٤) .

أشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرَ      كَرُّ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِيِّ

(١) إبراهيم أنيس : من أسرار اللغة ، ص ٢٥٣ ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٨ ، ٢٠٠٣ م .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٢ .

(٣) الجرجاني : دلائل الإعجاز ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٤) الإربلي : كتاب القوافي ص ١٢٥ .

ومثال الثاني قول القصيبي : في رثاء " يوسف الشيراوي" (١)

أقبل الليل ذاك ركنك اجلسُ      نتسامرُ ! ليلُ الشتاء طویلُ  
كيف كان اللقاءُ بالموت؟ قل لي      أكما يحتوي الخليلُ خليلُ؟

ففي البيت الأول خلق تأخير الفاعل ( كر الغداة ) توازياً إيقاعياً حاصلًا من تكرار بنية ( فعيل) مرتين ، كما وحدث حركة الإعراب النغم بين صدر البيت وحركته الفتحة ، وبين عجز البيت وحركته الضمة مما أفضى إلى تكامل عناصر الإيقاع .

أما أثر التقديم والتأخير في بيت " القصيبي " فعائد إلى قافية اللام المضمومة ، وبذلك تنسجم قافية البيت بتأخير الفاعل وتكثيره بعد استعمال اللفظ نفسه معرّفًا ليحقق توازنًا تامًا في الوزن والقافية " ثم إن متلقي الرسالة اللغوية محمول على أنه مدرك للنظام العلائقي الذي به يفكك الرسالة فيفهم مضمونها ، والإنسان يتصرف مع الخطاب المصوغ في لغته كأني مفكك لنظام علامي ، ... والمتكلم - سواء أكان مستعملًا لغته أم مستخدمًا لغة اكتسبها \* وألمّ بنظامها اللغوي - يعي قطعاً الوظائف التي تؤديها مختلف عناصر الصوت ، وبوعيه يحلل صورة الصوت إلى سماتها الدالة على تعددها وتنوعها ، وهو في كل ذلك يحتكم إلى مصادرات معرفية في التحليل الصوتي ، بها يستخلص السمات المميزة دلاليًا والدالة تعبيرياً والمفيدة من حيث تشكلها بذاتها" . (٢)

في ضوء كل ذلك ، نخلص إلى تثبيت فكرتنا القائلة : " إن علامة الإعراب - رغم أهميتها في نظام اللغة - لا تفصح وحدها عن الدلالة بل تتضافر معها علامات لغوية على المستويات الصوتية والصرفية ، والتركيبية ، والتداولية . " وقد عملنا على استجلاء علاقة الحركة ( بنية وإعراباً ) بالصيغ الصرفية ، كما اتضح لنا كيف تكون حركة الإعراب علامة للمكون التركيبي ، وعنصرًا من عناصر التوازن الإيقاعي . ومن هذه الزاوية ، رصدنا ظواهر صوتية تعتمد على الحركة تكويناً ، مفرقين بين ما تضطلع به كل ظاهرة من وظيفة أو أثر تطريزي جمالي . ثم دفعنا البعد الإيقاعي لكثير من قواعد التركيب إلى تناول الصلة بين الحركات والمظاهر فوق المقطعية كالنبر والتغيم ، بوصف الحركة جزءاً لا يتجزأ من بنية الإيقاع في العربية ، وبذلك أسندنا وظائف جديدة لعلامة الإعراب إلى جانب الدور الوظيفي ، تتمثل في قيمتها الجمالية والتداولية .

(١) غازي عبد الرحمن القصيبي : ديوان " حديقة الغروب " من قصيدة بعنوان : يا أعز الرجال " ص ٦٩ . مكتبة العبيكان ،

الرياض - المملكة العربية السعودية . ط ١ ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م .

\* لعل المسدي أراد ( تعلمها ) فالإكتساب للغة الأم ، والتعلم للغة الثانية .

(٢) عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات ، ص ١٤٥ ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت - لبنان ، ط ٢ بدون تاريخ .

## **القسم الثالث**

- الفصل الأول : الوظائف النحوية في ضوء المناهج اللسانية الحديثة
- الفصل الثاني : معطيات التجديد و واقع الاستعمال اللغوي
- الفصل الثالث : العلاماتية في الدراسات العربية المستقبلية .

## القسم الثالث

### الفصل الأول : الوظائف النحوية في ضوء المناهج اللسانية الحديثة

- مدخل
- المنهج التاريخي والمقارن في القرن التاسع عشر
- المنهج الوصفي البنيوي في القرن العشرين
- الاتجاهات اللسانية ما بعد البنيوية :  
أ) المدرسة البنيوية الوظيفية :  
١- الوظيفة عند رومان جاكسون  
٢- الوظيفة عند مارتينييه  
ب) المدرسة البنيوية التوزيعية
- الوظيفة عند المدرسة التوليدية التحويلية

## مدخل

غرضنا في هذا الفصل إثبات الصلة بين المناهج اللسانية الحديثة ، وبين تلقّيها عند اللسانيين العرب فيما يخص مشكلة البحث ، وتحديدًا في (مفهوم الوظيفة) ؛ للوقوف على وظيفة حركات الإعراب في ضوء تلك المناهج اللسانية كما ظهرت عند روادها العرب في الفصل الثاني\* .

وسنفرّق بين مسألتين متصلتين بمفهوم الوظيفة : الأولى ، هي وظيفة اللغة الخارجية التي تنطلق بها اللغة من ذاتها إلى خارجها للتواصل ، والثانية : هي وظيفة التركيب التي تتجه بها اللغة إلى داخلها لكي تبني جملها ونصها ، وهي ما تعيننا أكثر من الأولى ؛ لاتصال الحركات بها. وسنبداً بعرض أهم الاتجاهات الفكرية التي أثّرت في مناهج البحث اللسانية الحديثة، والتي أدت إلى تغيير التصور مرة بعد أخرى . فلم تكن العلوم الإنسانية بمنأى عن الحداثة التي هي سمة التفكير العلمي ، وكانت "اللسانيات" هي العلم الذي يزاوج بين هذه (العلوم الإنسانية) ، وذلك (التفكير العلمي) . و "لقد اكتسب مفهوم الحداثة - بدءاً من هيغل- مضمونه الذي يشير إلى سياق تاريخي محدد يؤرخ له باكتشاف العالم الجديد وعصر النهضة والإصلاح ، بحيث أصبح العام ١٥٠٠م تقريباً هو الحد الفاصل ما بين العصور الوسطى والأزمة الحديثة"<sup>(١)</sup>.

إن لارتباط الفلسفة باللسانيات مدلوله الذي لا يخفى ، فقد شكلت الفلسفة - ولا تزال - قاعدة الاتجاهات اللسانية قديمها وحديثها ؛ لأن العلم الذي يبني حضارة لا بد من أن يقوم على أساس فكري . ثم إن عصر النهضة "شهد تغييراً في المفاهيم التي كانت سائدة حتى ذلك الوقت ، فقط ظهر "شيشرون" ودعا إلى الإنسانية (Humanism) باعتبارها مرادفاً للحضارة ونقيضاً للوحشية ...، وقد ساعد اكتشاف الآلة الكاتبة في نهاية القرن الخامس عشر على النشر السريع للنصوص الأدبية ، وقد ساعد هذا على الاهتمام بنشر كتب النحو لأنها كانت في رأيهم تساعد على فهم النصوص اللاتينية الجيدة"<sup>(٢)</sup>.

ولقد كانت السمة البارزة ذات الأهمية الكبرى في عصر النهضة هي أسبقية الفكر\*\* ، بوصف الإنسان مفكراً أولاً ، فواعياً بوجوده ثانياً ؛ ممّا أفضى إلى النزعة العلمية الموضوعية التي تمثل (العقلانية) القائلة بأسبقية الفكر على الوجود المادي . وذلك ، بعدما كانت العصور الوسطى ترى أن الوجود المادي يسبق الفكر. وقد دعا ذلك الطابع التحرري إلى رفض اللاتينية الكلاسيكية التي كانت لغة الكنيسة أو لغة المدرسين المسيحيين ، واهتموا بدراسة نحو اللغات الأوروبية ولم يعد الاهتمام قاصراً على اللاتينية .

\* سبق تعريف مفهوم الوظيفة في الفصل الأول من القسم الثاني بعنوان : " المعاني الوظيفية لعلامات الإعراب " .

(١) محمد عادل شريح : الأسس البنيوية لفكر الحداثة الغربية ، ص ٧ . دار الفكر - دمشق ٢٠٠٧م .

(٢) صلاح حسنين : دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن ، ص ٥١ .

\*\* وذلك بعد تحويل بؤرة المركز من الله إلى الإنسان الذي هو معيار كل شيء : ينظر (الأسس البنيوية لفكر الحداثة الغربية) ص ٢٥ .

ويعرض "سوسير" أطوار علم اللسان في مراحل ثلاث : (١)

- المرحلة الأولى ، نشأت مع الإغريق وهي مرحلة "علم النحو" والتي كانت غايتها إيجاد قواعد تميّز الصيغ الإعرابية الصحيحة من الصيغ الخاطئة . فهي دراسة معيارية بعيدة عن الملاحظة . \*
- المرحلة الثانية ، مرحلة "فقه اللغة" في مدرسة الإسكندرية .
- المرحلة الثالثة ، مرحلة "النحو المقارن" ، عندما درس "فرانز بوب Bopp " العلاقات بين اللغة السنسكريتية واللغة الجرمانية والإغريقية واللاتينية سنة (١٨١٦) ، وقد سبقه المستشرق الإنجليزي "ويليام جونز W. Jones " المتوفي سنة (١٧٩٧).

فلم يستحق "بوب" إذن كل تقدير لكونه قد اكتشف بأن اللغة السنسكريتية ذات قرابة ببعض اللغات الأوروبية والآسيوية ، بل لكونه قد فهم بأن العلاقات بين اللغات ذات الأصل الواحد يمكن أن تصبح موضوعاً لعلم مستقل ، أما كون الإنسان يوضح لساناً بوساطة لسان آخر ويفسر صيغ لسان من صيغ أخرى فذلك ما لم يقل به أحد بعد . (٢)

تبدو أهمية القرن الثامن عشر بالنسبة للسانيات في إنه حمل في أواخره بوادر المنهج المقارن ، والتي اتضحت معالمه أكثر في القرن التاسع عشر ، بفضل ظهور رواده . وقد نشأ عن المنهج المقارن ، الاتجاه التاريخي ، وانصبَّ عليهما اهتمام اللسانيين في القرن التاسع عشر .

### أولاً : المنهج التاريخي والمقارن في القرن التاسع عشر

كانت المقارنة ، وتتبع تطور اللغات هما خاصية التفكير العلمي لذلك العصر . وكانت المشكلة تتعلق بالنظر إلى اللغة بعيداً عن طبيعتها على أنها كائن عضوي مستقل عن الإنسان ، لا على أنها نظام اجتماعي عرقي . إن الاتجاه التاريخي يقتضي المقارنة التي هي على نوعين : مقارنة ضمن نطاق اللغة الواحدة من خلال تتبع الظاهرة اللغوية في عصور وأماكن مختلفة ، ومقارنة ضمن نطاق أسرة لغات تنتمي إلى اللغة الأم . وتتضمن كل معالجة تاريخية النوع الأول من المقارنة بالضرورة ، فإن اشتملت على الأخرى وصفت بالدراسة التاريخية المقارنة . و قد صرّح ميي Meillet في تشبيهه مسترّع للنظر بأن بوب في بحثه عن الوضع الأصلي للغة الهندوأوروبية ، قد اهتدى لاكتشاف أسس القواعد المقارنة مثلما اكتشف كرسنوفر كولمبس أمريكا في بحثه عن طريق جديد للهند " (٣) .

(١) فرديناند دي سوسير : محاضرات في علم اللسان العام . ص ١١ ، ص ١٢ . بتصرف .

\* لسنا مع "سوسير" بأن تلك المرحلة تمثل بالضرورة وجهة نظر ضيقة ؛ فلا بد أنها بالاحتكام إلى منظور زمنها شكلت مرحلة مهمة دعت الضرورة إليها . ثم إن كثيراً من آراء "سوسير" تجاوزها لسانيون كانوا قد اعتمدوا عليها من دون أن يقلل ذلك من مكانتها في البحث اللساني .

(٢) جرهارد هلبش : تاريخ علم اللغة الحديث . ترجمة : سعيد حسن بحيري . ص ١٢ . مكتبة زهراء الشرق . ط ١ ، القاهرة - ٢٠٠٣ م .

(٣) روبنز : موجز تاريخ علم اللغة في الغرب . ترجمة : أحمد عوض . ص ٢٥٠ . عالم المعرفة - ١٩٩٧ م .

وبذلك تكون المقارنة امتداداً للمنهج التاريخي ، وقد كان استعمالها كمفتاح للتاريخ المبكر ، كما كان تصور التغير بوصفه تحلاً للتكامل القديم .<sup>(١)</sup>

وأهم المبادئ التي قام عليها المنهج التاريخي المقارن هي :

١- البحث في تاريخ الظاهرة اللغوي ، ومعالجتها زمانياً ، من دون وصف اشتغالها الآني ، ولا تفسير ذلك الاشتغال بغير تفسير التطور .

٢- كان الميدانان المتصلان جداً بعلم اللغة التاريخي ، هما علم الصوتيات وعلم اللهجات .<sup>(٢)</sup>

٣- النظر في التاريخ المبكر للغة واللغات التي اشتقت منها لغة الدراسة ، بعدما صحَّ في ذلك الوقت أن وجود علم اللغة التاريخي والمقارن بوصفه علماً " قد قام على افتراض الاطراد في التغير الصوتي : فتاريخ لغة ما يستشف من خلال تنوعات مدونة في صيغ ومعاني كلماتها ، واللغات التي تثبت قرابتها بسبب امتلاكها لكلمات تحمل تماثلات في الشكل والمعنى فيما بينها ، لا يمكن إرجاعها لمجرد المصادفة أو الافتراض الحديث " .<sup>(٣)</sup>

٤- فهم التغير اللغوي بوصفه ممثلاً للمراحل التاريخية في تطور اللغات ؛ إذ يمثل تحلاً لحالة اللغة الأصل ؛ وذلك لأن التاريخ المبكر للغات يشكل عصر ازدهارها ، وتشكل العصور المتأخرة انحطاطها . ويخلق هذا الرأي الغريب مشكلتين : الأولى ، الذهاب بالظواهر اللغوية نحو غايتها الطبيعية (النشأة ، النضج ، التدهور) في معزل عن مستعملها ، والثانية ، وصف اللغات بما ليس فيها (ازدهار / تدهور) مما يعد من طبيعة التطور البيولوجي .<sup>(\*)</sup>

وهنا يُثار سؤال الوظيفة : فكيف تُدرس الوظيفة لعنصر ما في أي مستويات اللغة؟ إنه يجرد العنصر أو الكلمة (العلامة) من علاقاتها في النسق اللغوي ؛ ليربطها بعلاقة مقارنة زمانية مع استعمالها في جدول اللغة . ولذلك نرى أنه وصف خارجي لوظيفة اللغة ولوظائف عناصرها ضمن التركيب ، وذلك لسببين :

(١) لأنه لا يفصح عن الدور الذي يؤديه عنصر لغوي في سياقه ، إنما يلامس الوظيفة بشكل سطحي من خلال تغيرات اللغة مع الإقرار بأنها تطور من الكمال نحو النقص أو باتجاه البساطة .<sup>(\*)</sup>

(٢) لا توحى تلك المعالجة بوظيفة اللغة الاتصالية في المجتمع . وبالتالي ، يمكن القول إن المنهج التاريخي هو منهج غير وظيفي في دراسة اللغة .

ويضرب لنا "رمضان عبد التواب" مثلاً على هذا الاتجاه "باللغة العربية العامية ، التي نتحدث بها اليوم في البلاد العربية ؛ فإن وصف هذه اللغة من نواحيها المختلفة ، أمر سهل ميسور ؛ إذ يقال مثلاً : إن

(١) المرجع السابق والصفحة نفسها (يتصرف) .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٦٧ .

(٣) السابق : ص ٢٦٤ .

(\*) وقد سقطت - بالأدلة العلمية - نظرية دارون في النشوة والارتقاء .

(\*) لشلايخر رأي آخر باتجاه التغير اللغوي حاول تبريره بحجة شبيهة لما في نظريات علم الأحياء : ينظر : جيفري

سامسون / مدارس اللسانيات التساق والتطور : ص ١٢-١٣ .

الاستفهام يُعبر عنه بنبر أحد أجزاء الجملة ، وإن النفي يكون بالأداة : "مُس" مثلاً ، وإن ترتيب الجملة فيها: فاعل + فعل + مفعول ... إلخ . ولكن معرفة سر وصول هذه النواحي المختلفة ؛ من صوتية ، وصرفية ، وتركيبية ، ودلالية ، وغيرها إلى ما وصلت إليه ، كان من الممكن أن يظل لغزاً ، لولا معرفتنا بالعربية الفصحى . وكان من الممكن أن يزداد وضوح التطور وأسراره في هذه اللغة العامية ، لو أننا توصلنا إلى حلقات التطور المختلفة ، منذ الجاهلية حتى الآن<sup>(١)</sup> .

فإذا نظرنا في المثال السابق ، وجدنا أنه يتضارب مع حقائق لسانية أهمها :

١- ليست العامية لغة قائمة بذاتها حتى تُقسَّم العربية إلى لغة فصحى ولغة عامية . وإنما هي (العامية) لهجات تغيّرت بها قواعد الإعراب والاشتقاق والتركيب من غير أن يكفي ذلك الاختلاف لعدّها لغة متميزة .

٢- إن وصف اللغة في مستوياتها المختلفة ليس بالأمر السهل الميسور ؛ أما وصف العامية فهو أصعب بكثير من وصف الفصحى ؛ لأننا أمام عاميات متعددة تختلف في مفرداتها وقواعدها وأساليبها وليس لها نظام ؛ لأنها ليست لغات تامة بل لهجات "ولأن ما بين اللسان واللهجات فارقاً في الكم لا في الطبيعة"<sup>(٢)</sup> .

٣- إن العاميات المختلفة لا تخضع لقوانين النظام اللغوي ، فهي متحررة ومتغيرة؛ لذلك فإن معرفتنا بالفصحى ، لا تقدم شيئاً في معرفة أو تفسير العامية . فإن عدّ الفصحى لغة والعامية لغة موازية على سبيل المقارنة ، فإن المعرفة بلغة لا تكشف نظام لغة أخرى ولا تتوقف عليها ، إنما المقارنة تكشف عن علاقات المشابهة ودرجتها التي قد توجد في أسرة لغوية واحدة .

٤- ويزداد الأمر تعقيداً إن وصلنا (هذه اللغة العامية بحلقات التطور منذ الجاهلية) ذلك أن المقارنة بين فصحى اليوم وعربية الجاهلية قد تكون سائغة ( رغم قلة فائدتها ، لاشتراكهما في القواعد نفسها ، أما مقارنة العامية بعربية الجاهلية فلا يمكن إقامتها تاريخياً ؛ لأن العامية لا قواعد لها . " وإن من الخطأ الأول الذي تولدت عنه في الأصل سائر الأخطاء الأخرى ، كون النحو المقارن لم يتساعل في أبحاثه قط ، عما إذا كانت مقارناته ومقارباته التي يقوم بها لها ما يقابلها في الواقع ، وعلى أي شيء تدل هذه العلاقات التي يكتشفها"<sup>(٣)</sup> .

٥- إن العامية ليست ذات ترتيب خاص ، فترتيب الجملة السابقة (فاعل + فعل + مفعول .. ) الذي وُجد في العامية المصرية وفي غيرها ليس مطرداً في كل العاميات ، فلا ضابط لها في الترتيب أو في سائر القواعد لذلك هي متعددة وكثيراً ما تتغير في العامية الواحدة بشكل تلقائي حسب مستعملها ؛ مما يعني أنها خصائص كلامية مميزة لجماعة لغوية ، وليست تطوراً طبيعياً ومشروطاً بقوانين طبيعة .

(١) رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي : ص ١٩٦ . مكتبة الخانجي بالقاهرة . ط ٣

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

(٢) فرديناند دي سوسير : محاضرات في علم اللسان العام ص ٢٨٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥ .

وبحلول نهاية القرن التاسع عشر أصبحت المعلومات المتعلقة باللسانيات التاريخية مجرد تجميع للتحويلات الصوتية Sound Shift التي حدثت دون سبب واضح ، والتي لم تكن تسلك أي اتجاه معين . وكان الناس قد تخلوا تماماً عن مبدأ مساواة اللغة بالمخلوقات الحية لأسباب بدت كلها وجيهة حينذاك ، بل إن بعضها لا يزال مقنعاً حتى يومناً هذا .<sup>(١)</sup>

أما فيما يخص وظيفة اللغة في المجتمع ، فلعلنا ننطلق من بدهة فكرية مفادها أن التواصل كان ولا يزال هو الأساس بالنظر إلى وظيفة اللغة في كل الاتجاهات ، وفي كل الأزمنة . وقد اختلفت زاوية النظر إلى تلك الوظيفة التواصلية لتحديد مكانتها في الدرس اللساني ، ولتحديد باقي الوظائف الإضافية لها . فإما أن تدرس الظاهرة اللغوية مرتبطة بها بوصفها الأصل ، وإما أن تدرس الظواهر اللغوية مستقلة عن وظيفتها التواصلية ، من حيث أنها تعبر عن الواقع وتعكسه ( مرآتية الواقع ) .

إلا أن التاريخيين اختلفوا في بحث العلاقات التي يمكن أن تكون بين الظاهرة اللغوية والنظام ، فاللساني " أنطوان ميه " عدّ اللغة نظاماً وبين مكانة التغيرات من النظام في نص يرى " جاكبسون " أنه لا يزال ذا قوة فعالة إذ يقول : " تكتسب التغيرات اللسانية معناها فقط بقدر ما نأخذ باعتبارنا مجموع التطور الكلي الذي تكون فيه التغيرات بمثابة جزء ، فالتغير الواحد نفسه دلالة مختلفة تماماً تعتمد على العملية التي يرتبط بها ، فمن الخطأ محاولة توضيح جزء ما بمعزل عن تأمل النظام العام للغة الذي يظهر فيه هذا الجزء... " <sup>(٢)</sup>.

بيد أن المتحمسين بشدة لأفكار التطور لدى " دارون " كانوا يعدون اللغة كائناً حياً مستقلاً عن الإنسان وليست نشاطاً من أنشطته . من هنا ، فقد كانت وظيفة اللغة الأولى عندهم هي ( التعبير عن الفكر ) وهي وظيفة لا صلة لها بدراسة الظواهر اللغوية التي توصف باستقلال عن سياق استعمالها ، بخلاف من يرى أن الوظيفة التواصلية هي الأولى ، حيث " تعدّ النظريات غير الوظيفية للغة نسقاً مجرداً (أو مجموعة من الجمل المجردة ) يؤدي وظائف متعددة أهمها وظيفة " التعبير عن الفكر " ، في حين أنّ النظريات الوظيفية تعد اللغة وسيلة للتواصل الاجتماعي ، أي نسقاً رمزياً يؤدي مجموعة من الوظائف أهمها وظيفة التواصل . وتعتمد النظريات الوظيفية فرضية أن بنية اللغات الطبيعية لا يمكن أن ترصد خصائصها إلا إذا ربطت هذه البنية بوظيفة التواصل ، بيد أن النظريات غير الوظيفية تنطلق من مبدأ أن اللغة نسق مجرد يمكن وصف خصائصه دون اللجوء إلى وظيفته " <sup>(٣)</sup>.

(١) جيفري سامسون : مدارس اللسانيات التسابق والتطور . ص ٢٣-٢٥ باختصار .

(٢) رومان جاكبسون : الاتجاهات الأساسية في علم اللغة . ترجمة : علي حاكم صالح ، حسن ناظم . ص ٣٩ ، ٤٠ .  
المركز الثقافي العربي ط ٢٠١١ م .

(٢) أحمد المتوكل : اللسانيات الوظيفية . ص ١٥ . دار الكتاب الجديد المتحدة ط ٢٠١٠ .

## ثانياً : المنهج الوصفي البنيوي في القرن العشرين

كان التحول الحقيقي للسانيات في القرن العشرين على يد "فرديناند دي سوسير" (١٨٥٧-١٩١٣) في محاضراته التي نشرت في كتاب بعيد وفاته (١٩١٦) تحت عنوان (محاضرات في علم اللسان العام) \* . وقد أرسى في محاضراته دعائم اللسانيات الحديثة في تحديده لها بأنها دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها ، مع أفضلية في الاهتمام باللغة المنطوقة لا المكتوبة . وقد تأثر "سوسير" بأراء عالم الاجتماع "دوركاييم" وهو ما جعله يدرس اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية . كما تميّز بمنهجه الوصفي التزامني الذي يدرس الظاهرة اللغوية في زمان معين .

ويرى "سوسير" أن الكلام فعل فردي ، وينبغي أن نميز ضمن هذا الفعل بين : (١)

- ١- مزاجات فردية تتعلق بإرادة من يتكلمون .
  - ٢- أفعال تصويتية لها تعلق كذلك بالإرادة . إنها أفعال ضرورية للقيام بإنجاز هذه المزاجات والتركيبات.
- فالكلام عنده يضم جانبين : التأليفات التي تعبر عن فكرة ، والفعل التصويتي المظهر لهذه التأليفات والتركيبات .

أما الخصائص الأساسية للدرس العلمي في القرن العشرين فتتلخص في الآتي: (٢)

- ١- جعل الدرس العلمي القاعدة التالية شعاراً لعمله : لكي نستكمل معرفتنا عن العالم ينبغي أن نبحث عن "بنية" النظام أي العلاقة بين مفردات النظام ، وهكذا ظهر عصر البنيوية في البحث العلمي .
- ٢- وحدّ الدارسون جهودهم لكي يضطلعوا بتأسيس قواعد "اللغة الواصفة Meta-language " أي لغة التحليل العلمي التي هي أوفر اللغات حظاً من المنطقية .
- ٣- في اللسانيات التقليدية كان النحو التاريخي والمعاصر متداخلين تداخلاً وثيقاً حتى إن الموقف اللساني الفعلي جرى تفسيره أساساً في ضوء التغيرات الأولى التي شهدتها اللغة ، هذا على حين يؤكد النحو البنيوي وجوب الفصل الحاد بين الدرس الآني والزماني .
- ٤- لم يبلغ التراكيب وعلم الدلالة - وهما أوفر الدراسات اللسانية حظاً من التعقيد - طور النضج إلا في القرن العشرين . وكذلك تطورت الدراسات الأسلوبية ، وذلك بالإضافة إلى فروع اللسانيات مثل علم السيميولوجيا - Semiology ، والنحو التوليدي Generative Grammar .

---

(\*) اعتمدنا على هذه الترجمة للكتاب وهي للمترجم عبد القادر قنيني ، وللكتاب خمس ترجمات عربية بعناوين مختلفة ومقاربة : راجع : اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة : حافظ إسماعيلي علوي ص ٢٠٠ .

(١) فرديناند دي سوسير : محاضرات علم اللسان العام ص ٣٦ .

(٢) لم ترد هذه الخصائص محددة ومرقمة على هذا النحو في كتاب (اتجاهات البحث اللساني : لميلكا إفيتش) إنما امتدت بتفاصيل كثيرة خلال فصل كامل هو الفصل الثالث عشر من الكتاب بعنوان : (البحث اللساني في القرن العشرين : ص ٩٩-١١٠) وقد لخصنا أهمها بتحديد واختصار .

٥- المسلمة الأساسية التي قالت بها البنيوية ، هي الاعتقاد بأن اللغة نظام تواصل، ينبغي على الباحثين أن يفصحوا أبنيتها .

فإن تساعلنا الآن عن مفهوم الوظيفة النحوية في ضوء اللسانيات البنيوية ، تبين لنا أن الوظيفة هي : اختلاف الدور الذي يؤديه عنصر ما في التركيب بحيث يمكن أن يقارب مع باقي العناصر، لأن اللغة اختلاف . وإنما كانت كذلك ؛ لأنها نظام يمكن مقارنته مع أنظمة اجتماعية أخرى . وقد نشأت البنيوية انطلاقاً من فكرة "سوسير" في أن اللغة نظام من العلامات التي ترتبط كل منها بالأخرى ضمن ذلك النظام . واهتم بهذا الاتجاه "جاكسون" و "تروتسكوي" من "مدرسة براغ" ، حيث وضعوا قواعد (الفونولوجيا Phonology) بناءً على كون اللغة نظام علامات ، وعلى أن "أهم موضوع في علم اللغة هو العلاقات المترابطة بين العناصر في نظام اللغة " (١) .

إن الاتجاهات ما بعد البنيوية والتي اتخذت "سوسير" نموذجاً لها ، تشترك في تبني أهم أفكاره وهي (البنية والنظام) ومفادها : أن اللغة نظام علامات علائقي ، ترتبط فيه العلامات ارتباطاً غير مستقل عن بعضها (علاقات التركيب والاستبدال) . وهي بنية داخلية ؛ لذلك تُدرس بمبدأ داخلي، على عكس تراكم الظواهر التاريخية من غير ترابط داخلي .

كما تشترك تلك الاتجاهات مع البنيوية في المبادئ الآتية : (٢)

- ١- الاهتمام بالفونولوجيا والنحو ، إذ تشكل الفونولوجيا والنحو الموضوعين الأساسيين في علم اللغة البنيوي الحديث ، الذي يعنى بالعلامة التي أكد عليها دي سوسير بين الدال والمدلول عناية كبيرة .
- ٢- استبعاد العوامل غير اللغوية عن الوصف اللغوي ، والنظر إلى اللغة على مستوى تزامني بوصفها بنية مستقلة ونظاماً من العلامات المحضة بمناهج ينبغي أن تقرب دقتها علم اللغة من العلوم الطبيعية.
- ٣- يبحث اللغويون البنيويون علاقة كل عنصر لغوي بكل العناصر الأخرى بهدف عرض شامل للبنية اللغوية . هذه البنية ليست كومة من الحقائق المنعزلة ، بل هي كل متماسك ، يعتمد فيها كل الأجزاء، بعضها على بعض.

وعلى الرغم من الاشتراك بهذه المبادئ النظرية ، توجد في الواقع أوجه اختلاف مهمة لا تتعارض مع تلك المبادئ التي أرساها "سوسير" لكن تكملها ، وهو ما سنحاول الكشف عنه بالنظر إلى منهج دراسة اللغة وإلى وظيفتها .

(١) جرهارد هلبش : تاريخ علم اللغة الحديث ص ٩٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٢ .

### ثالثاً : الاتجاهات اللسانية ما بعد البنيوية الوصفية

سيقتصر العرض هنا على بعض المدارس الحديثة مع محاولة بيان جوانب اختلافها مع "سوسير" بعد أن بيّنا جوانب التقائها في تحديد المنهج والوظيفة .

#### أ. المدرسة البنيوية الوظيفية :

تتقسم المدرسة البنيوية الوظيفية إلى جناحين : الأول ، في براغ حيث نشأت عام (١٩٢٦م) (\*) ، والثاني في فرنسا حيث اكتملت على يد (أندريه مارتينه) . إن الجانب البنيوي فيها مستند إلى بنيوية "سوسير" أما الجانب الوظيفي فعائد إلى اهتمام رواد هذا الاتجاه بمفهوم الوظيفة انطلاقاً من نظرتهم العامة للغة بوصفها أداة تواصل . فاللغة عندهم " نظام يتكون من وسائل تعبيرية ، تؤدي وظيفتها في تشجيع الفهم المتبادل . ولذلك ينبغي على اللسانيين أن يدرسوا الوظيفة الفعلية لأحداث النطق الملموسة : ما الذي يجري توصيله ؟ وكيف ؟ وإلى من ؟ وفي أي مناسبة ؟ " (١)

#### أما التوجهات الجديدة لديهم فيمكن إجمالها بالآتي : (٢)

- تتطرق مدرسة براغ من ملاحظة المادة اللغوية المحددة ، ولا تفصل التزامنية عن التعاقبية فصلاً صارماً .
- تعد اللغة دائماً ذات ارتباط بالواقع غير اللغوي . ويقصد بذلك بوجه خاص أن نظام اللغة لا يمكن أن يوصف دون صلة بالوظائف (وبخاصة الوظائف التواصلية) ، وأن الشكل الفونولوجي والمضمون الدلالي أيضاً يتبعان الوصف اللغوي .
- تعد اللغة شكلاً داخل مادة وغير مستقلة عن المادة . وبذلك لا تفهم اللغة على أنها شكل محصن (طبقاً لصياغة سوسير) ولا على أنها شكل مستقل عن المادة على نحو ما تمثله مدرسة كونيهاجن .

إن الجملة الوظيفية في منظور هذا الاتجاه ، تقوم على التمييز بين وظيفتي المسند والمسند إليه " فلا يمكن للعناصر التابعة ذات الشكل الإسنادي (نواة الجمل التابعة) أن تتشابه مع المسند الحقيقي لأنها تفتقر إلى طابع اللاهامشية والاستقلال الذي عددها سمة مميزة للمسند . ويسمح لنا هذا بتعريف الجملة كإيضاح ترتبط كل العناصر فيه بمسند واحد أو بعدة مسندات معطوفة " (٣) .

(\*) تـؤرخ "ميلكا إفيتش" للنشأة عام (١٩٢٩) : اتجاهات البحث اللساني ص ٢٤٨ .

(١) ميلكا إفيتش : اتجاهات البحث اللساني ص ٢٤٨ .

(٢) ينظر : تاريخ علم اللغة الحديث ص ٩٥-٩٦ . بتصرف واختصار .

(٣) أندريه ماتينييه : مبادئ السنية عامة . ترجمة : ريمون رزق الله . ص ١٥٢ . دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع .

بيروت - لبنان . ط ١ . ١٩٩٥ م .

## (١) الوظيفة عند رومان جاكبسون :

استند "جاكبسون" إلى مبادئ "سوسير" في تحليل البنى اللسانية ، وفي وضع نموذج له اللساني التواصل " فحين يدرس العلم المعاصر أية مجموعة من الظواهر ، فهو لا يعالجها كتكتلٍ آليٍّ . بل ككلٍ بنيويٍّ ، والمهمة الأساسية هي الكشف عن القوانين الداخلية لهذا النظام سواء أ كانت قوانين ثابتة أم متطورة . فلم يعد المثير الخارجي مدار الاهتمام العلمي ، وإنما المقدمات الداخلية للتطور بحيث يفضي ، الآن ، التصور الآلي للعمليات إلى مساءلة وظائفها" (١).

ولقد أشرنا إلى نموذج التواصل الذي جعل فيه للتواصل ستة عناصر رئيسة ولكل عنصر وظيفة ما ، وكان ذلك فيما يخص وظيفة اللغة الخارجية . أما ما يخص منهج دراسة اللغة ووظائفها الداخلية ، فقد رأى "جاكبسون" أن ثنائية التزامني والتعاقبي تشكل صعوبة خاصة في دراسة اللغة ؛ لأنها تفضي إلى أحد أمرين : إما دراسة العلاقات المترافقة داخل النظام ، وإما دراسة التغيرات المتعاقبة دون الإشارة إلى النظام ؛ لذلك فإن مبدأ الانفصال التام بدا مرفوضاً عنده .

بناءً على هذا ، يقارب "جاكبسون" التعاقبي والتزامني لكن مبدأ التعاقبية عنده لا يعني دراسة التغيرات نتيجة لتطور اللغة إنما " مع الاهتمام المناسب ليس فقط بتحولية النظام اللساني ، بل بعناصر النظام الثابتة وغير القابلة للتحويل . والتركيز على النظام " (٢) .

أما أهم أعماله فيتمثل بتأسيس فونولوجيا مدرسة براغ ، بدراسة أصوات اللغة من منظور وظيفي وذلك من خلال اقتراح تعريف الفونيم " ويعرف جاكبسون الفونيم كحزمة من السمات الملائمة . واستطاع مارتينييه أن يقول : ليس الفونيم ولكنها السمة الملائمة هي الوحدة الأساسية للفونولوجيا " (٣) . وانطلاقاً من السمة الملائمة أو التمييزية التي تجعل فونيماً يقابل فونيماً آخر في اللغة ، أعد "جاكبسون" جدولاً خاصاً بالعناصر الصوتية ، وهو جدول شامل لوصف أنظمة اللغات الإنسانية ؛ ولذلك "حصر كل التعارضات الفونولوجية الممكنة في اثني عشر تعارضاً في الصفات الصوتية الأساسية " (٤) . وتوجد هذه السمات المميزة في الصوت إيجاباً وسلباً ، فيأخذ فونيم الكاف مثلاً (ك + صامت) / (ك - صائت) ، وكذلك بالنسبة لباقي الملامح الصوتية المتقابلة .

وتعني تلك الثنائيات الاثنتي عشرة أن العلامات اللغوية إنما تُبنى حسب مبدأ التقابل . ولم يقتصر مبدأ التقابلات الثنائية على الفونولوجيا ، بل نقلها " جاكبسون" من هناك إلى المورفولوجيا أو النحو حيث نُظِرَ إلى الأشكال النحوية أيضاً على أنها قيم تقابل محضة ، تتحدد من خلال النظام بأكمله ، ... مثل التقابل بين حالتين إعرابيتين " . (٥)

(١) رومان جاكبسون : الاتجاهات الأساسية في علم اللغة : ص ١٣ .

(٢) السابق ، ص ٣٧ .

(٣) جورج موان : معجم اللسانيات ص ٢٤٨ .

(٤) جورج موان : علم اللغة في القرن العشرين ص ٢٠ .

(٥) جرهارد هلبش : تاريخ علم اللغة الحديث ص ١٠٤ .

كما لم تقتصر إنجازات "جاكسون" على دراسة الوظائف الصوتية والنحوية أو على دراسة وظائف اللغة ، لكن كانت له أبحاثه في لغة الأطفال وحول مشاكل النطق ، وكان من أهم إنجازاته دراسة فن الأساليب اللغوية، وخاصة لغة الشعر.

إن التواصل الإنساني الذي تشغل اللغة المكانة الرئيسة فيه ، عالم واسع وحر من كل تقييد لوسائله ، وغاياته " فحينما نقول إن اللغة ، أو أي نظام من أنظمة العلامة الأخرى ، تقوم بدور وسيط التواصل فإننا يجب أن نكون ، في الوقت نفسه ، حذرين من أي تصور تقييدي لوسائل التواصل وغاياته " (١). من هذا المنظور الواسع ، يشير "جاكسون" إلى جانب من التواصل الإنساني أقل ملموسية من جانب التواصل القائم بين الأشخاص وهو تواصل الشخص مع نفسه " فإن جانب التواصل ضمن الشخص نفسه ذو أهمية بارزة على حد سواء . وهكذا ، فإن الكلام الداخلي، مثلاً الذي تصوره بورس بذكاء ، بوصفه "حواراً داخلياً" - والذي أهملته اللسانيات حتى هذه اللحظة - هو عامل أساسي في شبكة اللغة ، إذ يقوم بوصل المرء بذاته الماضية والمستقبلية . إنه حوار بين وجوه الأنا المختلفة " (٢) .

## (٢) الوظيفية عند مارتينييه :

إن ما يشترك به رواد المدرسة الوظيفية بوجه عام ، هو الاعتقاد بأن العناصر اللغوية (صوتية ، نحوية .. إلخ) ، إنما تتحدد بالوظيفة التي تؤديها عند استخدامها في سياق اتصالي معين . ولذلك ، حللوا البنى اللسانية لا بوصفها مجموعة من العناصر المجردة ، إنما بوصفها علاقات ، تفسر ارتباط العناصر بعضها ببعض في علاقة وظيفية بنيوية . ورغم التعددية الوظيفية للغة ، فإن الوظيفة التواصلية تعد وظيفة اللغة الأساسية في المجتمع . ويرى "مارتينييه" أن " وظيفة وحدة أو بنية هي التي تسمح بالوصول إلى التفسير الكامل للواقعة اللغوية : إن الوصف الشكلي أو البنيوي (وبالأحرى التوزيعي) يحكم على نفسه بأنه غير قادر على كشف هذا التفسير ، أو بأنه يقدم تفسيرات غير ملائمة للوقائع . ومن هنا تبرز الضرورة النظرية لمفهوم القيمة الوظيفية ، أي بناء تسلسل ضمن الوقائع الملاحظة يقوم على أساس وظائف الاتصال فيها ، وينتج عن ذلك تعريف الفونيم من خلال وظيفته" (٣).

يعني هذا أن دراسة عنصر ما من خلال وظيفته ، هي دراسة تفسيرية ووصفية معاً . ويفرق "مارتينييه" بين الوحدة الفارقة وهي (الفونيم) وبين الوحدة الدالة وهي "المونيم" تفرقاً يقوم على كيف الذي هو الدور الوظيفي وليس على أساس من الكم فحسب .

فالفونيمات تؤدي دوراً تكوينياً بالنسبة للمونيمات أو (المورفيم) ، أما المونيمات فتؤدي دوراً وظيفياً (نحوياً ، أو صرفياً ، أو دلالياً) .

(١) رومان جاكسون : الاتجاهات الأساسية في علم اللغة ص ٥٩ .

(٢) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

(٣) جورج مونان : علم اللغة في القرن العشرين ص ١٦٩-١٧٠ .

ويقودنا مبدأ التعارض الذي يستدعيه (الفونيم) إلى التساؤل حول إمكانية تطبيقه في الوظيفة النحوية وجدواه ؟!

إن مارتينييه "عندما شرع في بناء نحو وظيفي ، أدخل فيه مبادئ للتحليل ليس لها ما يقابلها في علم وظائف الأصوات... ومثلنا على ذلك هو أن معظم التعبيرات التي يمكنها أن تضطلع بدور ظرف الزمان لا تستطيع أن تضطلع بدور ظرف المكان . لا معنى إذن أن نتساءل فيما إذا كانت هاتان الوظيفتان تتبادلان أو لا . وكذلك الأمر بالنسبة إلى وظيفة المسند والمسند إليه ... وهكذا ، فإن الاتجاه الوظيفي لا يسمح أبداً في القواعد بالعثور على مسلمة سوسير التي تقول : في اللغة لا يوجد إلا الاختلاف" (١) .

أما أهم مبادئ التحليل النحوي بالنسبة لمارتينييه فيمكن إجمالها بالآتي :

(١) يميز "مارتينييه" بين نوعين من المونيمات النحوية وهي :

- المونيمات المستقلة ، وهي التي تشمل بحد ذاتها الدلالة على وظيفتها ، فهي " تتضمن ليس فقط إحالة إلى عنصر تجربة وإنما أيضاً علاقة محددة مع عناصر التجربة الأخرى المراد إيصالها ، ... فيتضمن المونيم الفعلي ليس فقط معناه وإنما أيضاً استعماله كمسند ، أي طبيعة علاقاته مع عناصر الإيضاح (الجملة) الأخرى" (٢) .

فالفعل (ضرب) مثلاً لا يتضمن معنى الضرب وزمنه فقط ، إنما يتضمن تعلق فعل الضارب بالمفعول ، والذي هو علاقة الفعل بعناصر الجملة .

- المونيمات الوظيفية ، و التي يقوم دورها على تحديد وظيفة مونيم مجاور "وهذا ما نصادفه في الكثير من اللغات ، حيث يوجد مونيم يشير إلى المقطع المجاور له كمقطع بيّن أو يعيّن فاعل العمل ، ومونيم يقوم بنفس الدور بالنسبة للمفعول به ... وتشير هنا كلمة "وظيفة" إلى الواقع الألسني المتوافق مع العلاقة بين عنصر من التجربة والتجربة الشاملة . سوف نسمي المونيمات التي تستعمل للدلالة على وظيفة مونيم آخر وظيفة" (٣) .

إن حروف الجر ، مونيمات وظيفية ؛ لأنها تستعمل للدلالة على وظيفة مونيم آخر هو الاسم المجرور .

(٢) كما ميّز بين نوعين من الوظائف اللسانية ، وهي :

وظائف أولية ، ووظائف غير أولية . فالوظائف الأولية " تتطابق مع العلاقات المكونة للجملة ... وهي وظائف العناصر التي ترتبط مباشرة بالجملة ككل وليس بمقطع منها " (٤) .

(١) أوزوالد ديكر - جان ماري سشايفر : القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان ص ٦٧-٨٦ .

(٢) أندريه مارتينييه : مبادئ ألسنية عامة ص ١٢٧-١٢٨ .

(٣) السابق : ص ١٢٩ .

(٤) السابق : ص ١٣٦-١٣٧ .

ويمثل للوظائف الأولية بالمونيمات المجورة ؛ لارتباطها المباشر بحرف الجر الذي يتعلّق بمكونات الجملة الرئيسية . وبذلك يُفهم أن التوابع مثلاً تشكل وظائف غير أولية ؛ لأنها " مونيمات لا ترتبط ببقية الجملة إلا من خلال المونيمات السابقة " (١) .

### ٣) ويُقسّم (المونيمات) إلى قسمين :

مونيمات قواعدية (مورفيمات ، وحدات بنوية صغرى ، ومونيمات معجمية مفردات) . " فالمونيمات المعجمية هي التي تنتمي إلى قائمات لا محدودة . والمونيمات القواعدية هي التي تتناوب في المواقع المطلوبة مع عدد محدود نسبياً من المونيمات الأخرى " (٢) .

ويمكن الاختلاف بين هذين النوعين بالاختيار ؛ فالمونيمات القواعدية هي التي يختارها المتكلم من بين عدد محدود من المونيمات الوظيفية . أما تلك التي لا يغيّر الاختيار بينها الجملة (من الناحية الوظيفية) فهي مونيمات معجمية غير وظيفية ، ويكون عددها لا محدود. فـ " من الصحيح ، أن ضرورات التواصل تؤثر دائماً ونسب متغيّرة في اختيار المونيم الوظيفي " (٣) .

٤) إن الجملة التي تقوم على وظيفتي المسند (يشير إلى معرفة جديدة لدى المخاطب) ، والمسند إليه (يشير إلى شيء معروف لديه) ، تختلف عن (التركيب المستقل) الذي هو " توافق مونيمين أو أكثر لا ترتبهن وظيفته بموضعه في الجملة . قد يكون من نوع (العام الماضي) أو (بكل سرور) ، أو (في الكنيسة) ، فالمونيم الثاني هو الذي يعبر عن وظيفة الأول " (٤) .

- فالمونيم الثاني في المثال (العام الماضي) هو المنعوت الذي يعبر عن وظيفة النعت .
  - و المونيم الثاني في المثال (بكل سرور) هو المضاف إليه الذي يعبر عن وظيفة المضاف .
  - المونيم الثاني في المثال (في الكنيسة) هو المجرور الذي يعبر عن وظيفة الجار .
- تلك أهم المبادئ الوظيفية التي وسعها "مارتينييه" بهدف تأكيد أهمية عمل اللغة كأداة في المجتمع. ويعود مصطلح (وظيفة جمالية) إلى مدرسة براغ بمعنى كل استخدام للغة من أجل أهداف جمالية . كما يعود مصطلح (وظيفة شعرية) إلى "جاكسون" والتي تجعل من النص الأدبي " موضوعاً مطلقاً ، تتوقف جماليته كلياً على صناعة شكلية . وتختلف الوظيفة الشعرية مع هذه الصناعة التي تبرز الجانب الملموس من العلاقات . وتجعل من الرسالة ليس وسيلة بسيطة للاتصال ولكنها هدف في حد ذاته " (٥) .

(١) السابق : ص ١٣٧ .

(٢) السابق : ص ١٣٧-١٣٨ .

(٣) السابق : ص ١٣٩ .

(٤) السابق : ص ١٢٩-١٣٠ .

(٥) جورج موان : معجم اللسانيات ص ٤٩٤ .

وكان من خصائص منهجهم في دراسة اللغة "الاستعداد للاعتراف بأن لغة معينة قد تحتوي على عدد من "النظم" أو "الأساليب" البديلة ، بينما كان الوصفيون الأمريكيون يصرون على معاملة اللغة على أنها نظام أحادي" (١) .

إن اللغة - بمنظور الوظيفيون - صورة من صور التفاعل الاجتماعي تؤدي مجموعة متداخلة ومختلفة من الوظائف ؛ لذا فإن بنية اللغة الداخلية يحددها عدد من الوظائف لكل عنصر لغوي ، ولا يمكن النظر إليها دون مراعاة العناصر البنيوية الأخرى .

### ب. المدرسة البنيوية التوزيعية :

يعد " إدوارد سابير Edward Sapir " رائد البنيوية التوزيعية في أمريكا ، التي اكتمل نموها على يد "بلومفيلد" وتلميذه "هاريس" . وقد اقتصت البنيوية التوزيعية بمبادئ لغوية تميزها عن البنية الأوروبية ، فهي تقوم على عدة مبادئ أهمها :

(١) طريقة التحليل البنيوي لدى "بلومفيلد Bloomfield " تتمثل في تحليل الجملة إلى مكوناتها المباشرة ، ثم تقسيم هذه المكونات ؛ للوصول إلى الوحدات الدنيا فيها .

(٢) إن إجراء الإبدال يتمثل في إبدال وحدة لغوية محل أخرى ضمن بنية لغوية أكبر كإبدال فونيم في كلمة أو إبدال كلمة في جملة ، ولذلك يميز "بلومفيلد" بين شكلين لسانين هما : الشكل المقيد ، والشكل الحر . فالكلمة في جميع اللغات - هي شكل حر أصغر يرتكز هذا التعريف على تمييز مسبق بين "أشكال حرة" و "أشكال متصلة" أي تقريباً بين وحدات مشكّلة للكلمة وبين الكلمات . فكل شكل حر لا يكون أي جزء منه شكلاً حراً هو كلمة بمقتضى تعريف بلومفيلد . ويشير الشكل المقيد إلى الشكل اللساني الذي لا يظهر أبداً بمفرده ولا يمكنه أن يشكل ملفوظاً في مقابل الشكل الحر . مثلاً كل العلامات التصريفية ، وزوائد الاشتقاق هي أشكال مقيدة بما أنها لا يمكنها الظهور إلا في تأليف مع شكل لساني آخر (٢) .

(٣) تعرّف البنية التوزيعية الجملة بأنها " كل تركيب لغوي مستقل لا يحتويه تركيب لغوي أكبر بموجب علاقة قواعدية معينة " (٣) .

(٤) اتجه التوزيعيون اتجاهاً سلوكياً في تفسيرهم للظاهرة اللغوية ، فأخضعوا اللغة لمقاييس المثير والاستجابة ، فهناك مثير داخلي يؤثر في الإنسان قبل أن ينطق بأي تعبير ، وينحصر اهتمام عالم اللغة بشكل الكلام فقط ، دون النظر إلى المثيرات السابقة والاستجابة اللاحقة ؛ ولذلك سيستبعد "بلومفيلد" المعنى من الوصف اللغوي ؛ لأننا كما يقول : " لكي نقدم تعريفاً صحيحاً علمياً عن معنى

(١) جيفري سامسون : مدارس اللسانيات ص ١٢٣ .

(٢) جورج موانان : معجم اللسانيات ص ٢٦٨ - ٢٧٠ .

(٣) جورج موانان : علم اللغة في القرن العشرين ص ٤٥ .

(دلالة) كل شكل لغوي ؛ لابد لنا من أن نملك معرفة صحيحة علمياً عما يكون عالم المتكلم . إن التطور الحالي للمعرفة الإنسانية غير كافٍ لتحقيق هذه الغاية<sup>(١)</sup> .

٥) ورغم أن اللغة تعني عند "بلومفيلد" رد فعل على مثير ؛ لأنه ينطلق من علم النفس السلوكي؛ فإنّ هذا العلم لا يفسر الظواهر اللغوية "فالعكس من ذلك تماماً صحيح : فقد أصر بلومفيلد دائماً على استبعاد علم النفس من الوصف العلمي للظواهر اللغوية . ولم يستخدم المخطط المشهور - المثير - ورد الفعل، لوصف ظواهر لغوية (فهذه يجب أن توصف وصفاً شكلياً محضاً ، بل لتصوير وظيفة اللغة في المجتمع " <sup>(٢)</sup> .

٦) يربط "بلومفيلد" الوظيفة النحوية بالموقع التركيبي في الجملة ؛ فالموقع الذي تظهر فيه كلمة ما هو وظيفتها ، لكنه لا يرى أي جدوى من الأقسام المشتركة للوظائف " لأنه ليس لكل الأسماء في حالة الرفع (قسم شكلي) ، معنى (الفاعل actor) ولذلك فمعاني قسم ما ليست أساساً صحيحاً للعمل العلمي، فلا يجوز أن تحدد أقسام الشكل في مصطلحات المعنى ، بل في مصطلحات الملامح اللغوية فقط الخاصة بالبنية ومكونات الشكل " <sup>(٣)</sup> .

فالوظيفة لا تقع إلا على مستوى شكلي ؛ ولذلك يحدد الوظيفة بأنها "مزية وقوع شكل ما في موقع محدد ، فالوظيفة تتكون من ملامح شكلية تظهر حين تستخدم جزءاً من شكل أكثر شمولاً " <sup>(٤)</sup> .

#### رابعاً : الوظيفة عند المدرسة التوليدية التحويلية :

لقد تطورت الدراسات اللسانية في النصف الأول من القرن العشرين على يد "سوسير" ، فكانت الريادة للسانيات الأوروبية ، أما في النصف الثاني ، فكانت الريادة للسانيات الأمريكية على يد "تشومسكي" الذي أحدث ثورة في اللسانيات مع فرق مهم بين الاتجاهين هو " أن وجهة اللسانيات في أوربة هي وجهة ذات طبيعة إنسانية ، أي إن النظرية اللسانية ومناهجها هنا قد صيغت أصلاً لخدمة اللغة وآدابها وأساليبها وكذلك العلوم الإنسانية الأخرى ... أما وجهة اللسانيات الأمريكية فهي وجهة ذات طبيعة تكنولوجية تقنية ، وضعت أصلاً لخدمة العلوم الطبيعية والتكنولوجية الدقيقة " <sup>(٥)</sup> .

لقد رأى "تشومسكي" أن دراسة الظواهر اللغوية دراسة شكلية لا تتجه إلى أي بعد دلالي ، ورأى أنها دراسة سطحية تقف عند حد الأداء ؛ ولذلك اعتنى بالبنية العميقة للغة ومنها إلى مستوى السطح على أساس (التحويل) ، أي التحويل من البنية التحتية العميقة إلى البنية الفوقية السطحية وفق قواعد محددة للتحويل .

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

(٢) جرهارد هلبش : تاريخ علم اللغة الحديث ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٢٤ .

(٥) مازن الوعر : قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديثة . ص ٢٠ - ٢١ . دار طلاس - دمشق . ط ١٩٨٨ م .

وتجدر الإشارة هنا ، إلى أن "تشومسكي" كان متأثراً في آرائه الأولى بمدرسة "بلومفيلد" قبل أن يعارضها بشدة فيما بعد . ثم اختلفت آراء "تشومسكي" بالكلية ، فخطى باللسانيات خطى جديدة بصياغة منهجها ومبادئها وأهدافها .

إن القواعد التي تنظم النحو - عنده - هي قواعد توليدية وتحولية . فالقواعد التحويلية هي كل قاعدة "تطبق على متتالية أو على مجموعة من المتتاليات تتوافر على بنية مركبية معطاة والتي تحول هذه المتتالية إلى متتاليات جديدة تتوافر على بنية مركبية تسمى اشتقاقية . مثل هذه القاعدة يمكن أن ينجز إضافات أو حذفاً أو تبادلات إلخ لعنصر أو أكثر داخل المتتالية أو المتتاليات التي تطبق عليها " (١) . كما أسس نظريته على أساس (التوليد) الذي يسبق التحويل ، ويعني : توليد جمل لا نهائية من قواعد وكلمات محدودة ، وفهمها .

ويرتبط مفهوم (التوليد) بمفهومي (الكفاءة) و (الأداء) عند تشومسكي ، ويفترق عنهما : أما وجه الارتباط فمرده أن المتكلم / السامع للغة ما ، تكون لديه المقدرة على إنتاج جمل جديدة ، وفهم جمل لم تسمع من قبل ، والتمييز بين الصحيح منها وغير الصحيح ، وذلك عند الاستعمال الفعلي للغة (الأداء) استناداً إلى تلك (الكفاءة)، ولكن قد يتوقف الأداء عند حدود تلك المقدرة دون القدرة على تفسير بنية الجملة الصحيحة أو الخاطئة ووصفها ، وهنا ، يفترق الأداء عند التوليد الذي لا يكون متعلقاً بمستعمل اللغة إنما بوصف بنية الجمل ، وتفسير القواعد التي تولد جملاً صحيحة نحوياً ، كما توضح نوع الانحراف في الجمل غير الصحيحة أو غير القواعدية .

إن الجملة التي تولدها القواعد التحويلية ، يمكن تحليلها من خلال ثلاثة نماذج لغوية مختلفة هي : " نموذج بسيط خاص بنظرية التواصل ، ونموذج بنية المركبات القائم على تحليل المكونات المباشرة ، ونموذج التحليل " (٢) . فما الفرق بين الوظيفة النحوية التي يحددها موقع عنصر ما عند التوزيعين وبين الوظيفة عند تشومسكي ؟ .

#### - النموذج الأول : القواعد النحوية المحدودة (التوليدية - المركبية) :

يقوم هذا النموذج على تحليل المكونات المباشرة الذي كان معروفاً عند "بلومفيلد" إنه يحلل الجملة من حيث الموقع والتوزيع ، وهو يعتمد على مبدأ يقول : "إن الجمل تولد عن طريق سلسلة من الاختيارات series of choices تبدأ من اليسار إلى اليمين (\*) ، أي عند الانتهاء من اختيار العنصر الأول فإن كل اختيار يأتي عقب ذلك يرتبط بالعناصر التي سبق اختيارها مباشرة ، وبناء على ذلك

(١) جورج مونان : معجم اللسانيات ص ١٢١ .

(٢) جرهارد هلبش : تاريخ علم اللغة الحديث ص ٤٧٩ .

(\*) يشير المترجم " حلمي خليل " إلى أن الاختيار في العربية يبدأ من اليمين إلى اليسار وهو ما يشبه إلى حد كبير تلك الجمل التي يطلب تغييرها من المفرد إلى المثنى أو الجمع أو من المذكر إلى المؤنث .

يجري التركيب النحوي syntactic structure للجملة . حيث نجد أن جملة : مثل This man has brought same bread \* يتم توليدها على النحو التالي...<sup>(١)</sup> .

ويشرح "ليونز" مبدأ الاختيار الذي قام عليه بناء الجملة ، وكيف يمكن توليدها بالاستناد إليه. فقد اختيرت كلمة (This) في صدر الجملة من ضمن قائمة من الكلمات تصلح لهذا الموقع. ثم تأتي كلمة (Man) على أساس أنها تصلح أن تقع بعد (This) ، وكذلك كلمة (Has) والفعل بعدها حتى تنتهي الجملة .

ثم إن هذا المبدأ القاعدي (الاختيار) يتألف من نوعين من القواعد وهي : "قواعد تحويلية جوازية ، وقواعد تحويلية وجوبية"<sup>(٢)</sup> . فيجوز للمتكلم أن يختار (That) بدلاً من كلمة (This) وتبقى الجملة مقبولة ، لكنه إن اختار كلمة مثل (those) أو (these) لتحل صدارة الجمل ، فإن الاختيارات التالية تختلف ، حيث يجب عليه أن يتبع الكلمة السابقة بصيغة الجمع (men) التي لا بد أن تقع بعدها (have) وليس (has) ... إلخ .

هكذا ، يتم تحديد الكلمات التي تتكون منها الجملة ، وتحديد الترتيب الذي تظهر فيه ، ومن ثم تعيين الاختيارات التي يمكن أن تولد جملًا أخرى بسيطة . وقد أقرَّ "تشومسكي" بعدم كفاية هذه القواعد المحددة لتوليد جمل غير بسيطة ؛ ولذلك طوّر نموذجاً الثاني للقواعد التحويلية .

#### - النموذج الثاني : قواعد تركيب أركان الجملة (المكونات التركيبية) :

يعد هذا النموذج امتداداً للنموذج السابق ، وتوسيعاً لمبادئه مع وضع بعض الأسس الجديدة .

يقدم "تشومسكي" من خلاله مجموع القواعد التي تتركب الجمل على أساسها وفق ترتيب عناصرها، فإن تساعلنا عن اختلاف هذه القواعد عن نظرية تحليل المكونات المباشرة عند "بلومفيلد" نجد أن "تشومسكي" قد أضاف إلى ذلك إضافة هامة تتمثل في النماذج التي قدمها للتركيب النحوي بحيث يعد أول من كشف عن الكيفية التي يمكن أن يظهر بها التركيب النحوي إلى حيز الوجود بوساطة نظام من القواعد التقليدية "<sup>(٣)</sup> .

أما القاعدة التقليدية التي تمثلها "تشومسكي" في هذا النموذج فهي فكرة الإسناد، حيث تتكون الجمل من المسند والمسند إليه ، ويستشهد له بالمثل الآتي :

The man hit the ball \*\*

\* هذا الرجل أحضر الخبز نفسه .

(١) جون ليونز : نظرية تشومسكي اللغوية ص ١٠٣ .

(٢) مازن الوعر : قضايا أساسية في علم اللسانيات ص ١٣٣ .

(٣) جون ليونز : نظرية تشومسكي اللغوية ص ١٢٠ .

\*\* الرجل ركل الكرة .

فالجملية السابقة تتكون من خمسة عناصر . يقوم فيها المركب الاسمي (noun phrase وهو the man) بوظيفة المسند إليه subject ، ويقوم المركب الفعلي (verb phrase وهو hit the ball) بوظيفة المسند إليه predicate ، كما يقوم المركب الاسمي (the ball) بوظيفة المفعول به في الجملية السابقة .

إنها فكرة تحليل المكونات المبشرة نفسها ، لكن "تشومسكي" لا يحاول مجرد التحليل ، إنما تقديم شكل من القواعد المحددة التي يمكنها إنتاج جمل جديدة " وهذه القواعد هي : <sup>(١)</sup>

- ١- الجملية : المركب الاسمي + المركب الفعلي  
1- S : NP + VP
- ٢- المركب الاسمي : أداة تعريف + اسم  
2- NP : T + N
- ٣- المركب الفعلي : الفعل + المركب الاسمي  
3- VP : Verb + NP
- ٤- أداة التعريف : ال  
4- T : the
- ٥- الاسم : (رجل ، كرة ...)  
5- N : (man , ball ...)
- ٦- الفعل (ضرب ، أخذ ...)  
6- V : (hit , took ...)

ولأنه تحليل يعتمد على المبنى فقط ، رأى "تشومسكي" بعض نقاط الضعف فيه ومنها :  
أنه لا يستطيع " تحليل بعض الجمل التي تحتمل أكثر من معنى أو ما يسمى بالجمل الغامضة " <sup>(٢)</sup> .  
ويمثل "ليونز" لقصور تلك القواعد بتحليلها الواحد للجمل المبنية للمعلوم والمبنية للمجهول ، رغم أن بينهما علاقات دلالية . فالعلاقة بين النحو والدلالة كانت أهم مشكلات هذا النموذج التي حاول "تشومسكي" أن يتجاوزها في مبادئ بنية التحويل .

#### - النموذج الثالث : قواعد التحويل :

يشكل المكون الدلالي الفارق الرئيس بين النموذجين الثاني والثالث . فالجمل التي لها معنيان ، لم يعد لها تحليل واحد ؛ لأن تسلسل التحويلات يقود إلى الجملية النواة (الأساس) التي تشتق منها الجمل بواسطة قواعد التحليل الإلزامية أو الاختيارية ، وبذلك تتبين العلاقات القائمة بين الجمل . إن توليد أي جملة يقتضي تطبيق بعض قواعد التحويل التي تفسح المجال في هذا النموذج لقدر أكبر من الاختيار ؛ بإضافة عناصر جديدة لم تكن في القواعد السابقة " وهي العناصر الدالة على المفرد والجمع ، وكذلك قواعد الفعل المساعد ، كما أضيف زمن الفعل وصفته ، ولكي نطبق هذه القواعد على اللغة العربية قد نحتاج إلى إضافة بعض التعديلات ، فالجملة (الولد أكل الطعام) تستجيب للقواعد الأولى ، أما القواعد التي نحن بصددنا الآن ففيها من العناصر ما قد يختلف مثل الفعل المساعد ، أو وجود حرف جر ، أو نفي أو استفهام ، أو نصب ، أو عطف ... إلخ <sup>(٣)</sup> ، ويمكن للمتكلم في أي لغة أن يطبق عدداً من قواعد التحويل لتوليد جمل أكثر تعقيداً من السابقة (البسيطة) . إن هذه القواعد

<sup>(١)</sup> المرجع السابق : ص ١٢١ .

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق : ص ١١٦ .

<sup>(٣)</sup> حلمي خليل : المرجع السابق ص ١٣٧-١٣٨ .

تستطيع أن تفسّر الجمل الغامضة التي تقوم على بنيتين عميقتين مختلفتين . ويمثل لها "حلمي خليل" بالجملة العربية الآتية : (ضربت زيدا ضاحكاً)<sup>(١)</sup> وهي جملة تحتل معنيين هما :

١- ضربتُ زيدا وأنا أضحك (أي الحال من الفاعل) .

٢- ضربتُ زيدا وهو يضحك (أي الحال من المفعول) .

ولما كانت حركات الإعراب علامة تتكون من جانبي الصوت والدلالة ، فإنها تظهر في نموذج "تشومسكي" هذا بوصفها المحصلة النهائية لسلسلة من عمليات التحويل لبنية الجملة العميقة والتي تنتهي بالصوت والمعنى .

إن قواعد التحويل تعمل على توليد الجمل التي تتشكل أخيراً بالصوت ، وتعمل الدلالة على التمييز بين الجمل الصحيحة وغيرها بخلاف قواعد الاختيار في النموذج السابق " ومعنى هذا أن تشومسكي كان يعطي الأولوية للتحليل النحوي قبل دراسة المعنى أو الدلالة ، ولكن بعد عشر سنوات على نشر كتابه "التركيب النحوي" اقتنع هو وتلاميذه بأن معنى الجمل يجب أن يخضع أيضاً لنفس الخطوات التحليلية التي يخضع لها التحليل النحوي ، وأن الدلالة ينبغي أن تدخل في هذا التحليل كعنصر يتكامل مع التحليل النحوي للغات الإنسانية " (٢) .

إن الوظيفة التي يمكن أن تفسّر دلاليّاً في النموذج التوليدي بمساعدة قواعد التحويل، إنما هي ناتج علاقات البنية العميقة التي تفسر الدلالة وتظهر في البنية السطحية التي تفسر الصوت ، أما الوظيفة في نموذج قواعد التركيب فناتجة عن التصنيف " وبذلك يشير مفهوم تشومسكي للوظيفة إلى علاقات ، غير أن الأمر - على النقيض من مفهوم الوظيفة لدى بلومفيلد وهاريس وفريز ، الذين حددوا وظيفة عنصر لغوي ما بموقعه في البنية السطحية - لا يتعلق بعلاقات البنية السطحية ، بل بعلاقات البنية العميقة الممكن تفسيرها دلاليّاً . وتعد حقيقة أن البنية العميقة (مع الوظائف النحوية) تختلف عن البنية السطحية ، بالنسبة لتشومسكي الحافز والمبرر الأساسيين للنظرية الجديدة للنحو التحويلي . وفي ذلك يعد تشومسكي المعلومة الوظيفية فضلة ، إذ إنها متضمنة من قبل في المعلومة المقولية للعلاقات - الأساس ، ويمكن أن ترى من الرسم الشجري القولي للبنية العميقة" (٣) .

هكذا ، تعددت الاتجاهات اللسانية في دراسة بنية اللغة وفقاً لمبادئ وظيفية مختلفة وقد بيّنا كنه هذه الوظائف (النحوية) في ضوء أهم الاتجاهات التي كانت بمنزلة النواة للدراسات اللسانية الحديثة ؛ ليس لأن العلوم تتجاوز ارتباطاتها الجغرافية و الثقافية فحسب ، بل لأن إحراز التقدم العلمي عموماً قضية متعلقة بالتقدم الحضاري .

(١) السابق : هامش الصفحة ص ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٣) جرهارد هلبش : تاريخ علم اللغة الحديث ص ٥٠٦ .

ولذلك تبدو مسألة بدهية أن تشكل الاتجاهات اللسانية (الغربية) الأساس النظري للدراسات اللغوية الحديثة عند العرب ؛ لافتقار العرب اليوم إلى صناعة الحضارة. وإذا انتقلنا من المرسل إلى المرسل إليه تساءلنا : كيف تلقى اللسانيون العرب تلك الاتجاهات ، لا سيما فيما يخص مفهوم الوظيفة الداخلية للغة ، لنرى كيف تعاملوا مع الحركات انطلاقاً من ذلك المفهوم الوظيفي ، وهو ما سنعالجه في الفصل الآتي إن شاء الله .

## القسم الثالث

### الفصل الثاني : معطيات التجديد و واقع الاستعمال

- علامات الإعراب في ضوء اللسانيات التاريخية والمقارنة :  
أ) إبراهيم مصطفى في كتابه : إحياء النحو  
ب) مهدي المخزومي في كتابه : في النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث  
ج) رمضان عبد التواب في كتابه : التطور اللغوي
- - علامات الإعراب في ضوء المنهج الوصفي :  
أ) تمام حسان في كتابه : اللغة العربية معناها ومبناها  
ب) عبد الرحمن أيوب في كتابه : دراسات نقدية في النحو العربي
- اللسانيات الوظيفية : "أحمد المتوكل" نموذجاً في كتابه :  
اللسانيات الوظيفية .

## أولاً : علامات الإعراب في ضوء اللسانيات التاريخية والمقارنة :

إن اتخاذ "علامات الإعراب" موضوعاً للبحث ، يكشف لنا العلاقة بين الظواهر اللغوية عموماً ، وبين منهج دراستها . بل يكشف لنا المفارقة خصوصاً بين اعتبار الحركات جزءاً من نظام العربية ، ونتاجاً لسيروية التركيب فيها من منظور سيميائي ، وبين مَنْ لا يعترف بها قضيةً من قضايا النظام ، لعدم وجودها في وعيه ومجال اشتغاله من منظور اللسانيات التاريخية .

وإذا تركنا الآن موقع الظاهرة ، لكي ننظر إلى الظاهرة نفسها ، فسند أن بعض الباحثين يتعامل مع علامات الإعراب من منظور الدرس التاريخي للسانيات ، سواء وعى أم لم يع هذا المنظور . وقد قادت توجهات المنهج التاريخي والمقارن إلى "ترسيخ بعض الأعراف اللغوية، وكان من أبرز ما ترتب على هذا الاتجاه : (١)

أ- الاهتمام بالدراسات اللغوية القديمة وإعادة الاعتبار لها في ضوء مستجدات البحث اللغوي ، والتي نشطت معها المقارنة بين اللغات والتراث اللغوي للأمم .

ب- حصر دائرة البحث اللساني في مبحثي اللهجات والصوتيات . يُضاف إلى بعض الأعراف اللغوية كربط اللغة العربية وقضاياها بالشعور القومي ، والدعوة إلى إحياء النحو وتيسيره . ومن الآراء التي تمثل هذا الاتجاه :

### أ) رأي " إبراهيم مصطفى " في كتابه : " إحياء النحو " :

صدر " إبراهيم مصطفى " في كتابه هذا عن هاجس تيسير النحو وتسهيله الذي كان يشغل المهتمين باللغة في ذلك العصر (١٩٣٧م) . وسنسلط الضوء على رأيه في علامات الإعراب فقط، التي يرى أنها لو كانت دالاً مهماً لما كانت موضع خلاف بين النحاة ، ولكانت أسهل في التعلم، وأبقى في الكلام : "أما علامات الإعراب ، فقل أن ترى لاختلافها أثراً في تصوير المعنى ، وقل أن يشعروا النحاة بفرق بين أن ننصب أو نرفع \* ؛ ولو أنه تبع هذا التبديل في الإعراب تبديل في المعنى ، لكان ذلك هو الحكم بين النحاة فيما اختلفوا فيه ، ولكان هو الهادي للمتكلم أن يتبع في كلامه وجهاً من الإعراب . فلو أن علامات الإعراب كانت دوالاً على شيء في الكلام ، وكان لها أثرها في تصوير المعنى يحس المتكلم ويدرك ما فيه من الإشارة ومن وجه الدلالة ، لما كان الإعراب موضع هذا الخلاف بين النحاة ، ولا كان تعلمه بهذه المكانة من الصعوبة ، وزواله بتلك المنزلة من السرعة " (٢) .

(١) حافظ إسماعيلي علوي : اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة . ص ٤٥ .

\* بل كثيراً ما يشعروا النحاة واللغويون والأصوليون بالفرق الدلالي بين أن ننصب أو نرفع ، وقد مثلنا وسنمثل لجهود النحاة واللغويين في ذلك ، وقد أشرنا إلى رأيه هذا باقتضاب في الفصل الثاني من القسم الأول وسناقشه هنا .

(٢) إحياء النحو : هـ + و .

وننطلق في الرد على هذه المقولات من كون اللغة نظاماً من الأنظمة العلامية التي تتداولها الجماعة للتواصل . الأمر الذي كان القدامى أكثر وعياً له من بعض المحدثين .

أما الاختلاف في توجيه الحركات الإعرابية ، وبالتالي تعدد أوجهها ، فإننا نعد (أكثرها) اجتهدات فكرية ليست بفعل تأثير الفلسفة ، إنما للأسباب الآتية :

(أ) إن اختلاف الحركة علامة على تعدد احتمالات الدلالة التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في تحليل التراكيب . وهنا ، يكون للحركة وظيفتان : تقدير الإعراب ، وتفسير المعنى .

(ب) إن المرجعية الفكرية لكل عالم تظهر في رؤيته النحوية وتوجيهه اللغوي للشواهد وتحليل الخطاب من جهته ، كما تظهر ذوقه ورؤيته الخاصة من جهة ثانية .

(ج) إن كثيراً من الاختلافات في الحركة - إن في البنية أو في الإعراب - كان اختلافاً لهجياً يقوم بدءاً في حيز الأداء .

أما الاختلاف في (أ) فهو ما يقع في حيز النظام وتكون الحركة علامة عليه ، والذي هو موضوع اشتغالنا، فقد مثلنا لصوره بنماذج كثيرة كان منها :

- المستثنى في الأسلوب التام المنفي الذي يجوز فيه وجهان .
  - دلالة الضمة والفتحة في أسلوب الدعاء (ويلاً لك) ، و "ويلٌ للمطففين" .
  - دلالة الفتحة في أساليب التعجب والتحذير والإغراء .
  - كون الحركة علامة على تعدد وظيفة الكلمة داخل الجملة نفسها ، ومن أمثلتها (الحمدُ لله الحميد) بالنصب ، والجر ، والرفع .
  - التمييز بين معاني التراكيب "فصيرٌ جميل" أي قد ثبت ، و "صبراً جميلاً" على معنى الفعل الزم ، " وأمرنا لسنمَ لرب العالمين " ، و "لينفق ذو سعة من سعته" \* .
- ويعد ذلك التعدد من خصائص علامات الإعراب الوظيفية في كل مرة تحتل وجهين أو أكثر ، كما ظهر جلياً من خلال الأمثلة السابقة ، وكما يعرض "إبراهيم جميل" نماذج كثيرة لقيمة علامات الإعراب إذ تتعدد، ومن ذلك :

- الاسم المعطوف على ما أضيف إليه المصدر أو اسم الفاعل يجوز فيه الجر حملاً على اللفظ ، ويجوز فيه الحمل على المعنى ، فإذا كان المضاف إليه فاعلاً في المعنى رفع ، وإذا كان مفعولاً به نصب ، ولكن الحمل على اللفظ أولى وأرجح ، لأنه يؤدي إلى المشكلة بين لفظ المعطوف والمعطوف عليه في العلامة الإعرابية ، مثال ذلك : عجبت من ضرب زيدٍ وعمروٍ ، أو : عمراً . ونحو : هذا ضارب زيدٍ وعمروٍ أو : عمراً .<sup>(١)</sup>

\* ينظر الفصل الأول من القسم الثاني في هذا البحث .

(١) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

- ترجيح الاتباع بالعطف في نحو : جاء زيدٌ وعمروٌ ، على النصب بالمعية ؛ ليحقق المشاكلة بين المعطوف والمعطوف عليه . (١) .

إن تلك المشاكلة هي جزء من القيمة الجمالية لعلامة الإعراب ، إلى جانب قيمتها الوظيفية في النماذج السابقة ، بما توفره من تناغم موسيقي في التركيب .

وبالعودة إلى حجج "إبراهيم مصطفى" لإبطال دلالة الحركة ، نجد أن (توهُم الصعوبة) فكرة تبناها المجددون ودعاة التيسير من قبل ومن بعد ؛ لتحقيق غايات كثيرة ليس هذا مكانها . \* فإن كانت غاية "إبراهيم مصطفى" التيسير والسهولة فهي غاية ينبغي أن تراعي الأصول ، وتجدد في طرق التعلم ، ولا تتحقق بخلق وظائف جديدة للحركات أو إلغاء بعضها كما سيأتي .

أما الحجة الأخيرة المتلخصة (بسرعة زوال الحركات) فمردها المنظور التاريخي الذي يرى في حركات الإعراب تطوراً صوتياً يظهر ثم يزول ، وكنا قد بيّنا أن الأداء يختلف عن التمكن وليس شرطاً أن يعكسه ، وذلك كما يظهر عند تداول الحركات في شتى أنواع الخطاب . أما سقوط الحركات في اللهجات العامية فلا يعني ذلك سقوطها من التمكن وقد دللنا عليه . \*\*

يعود "إبراهيم مصطفى" لينقض رؤيته السابقة متسائلاً كيف للعربية " لغة القصد والإيجاز أن تلتزم علامات الإعراب على غير فائدة في المعنى ، ولا أثر في تصويره" (٢) . ثم يهتدي إلى وظائف للعلامات يجملها في هذه الأصول :

فأما الضمة فإنها علم (الإسناد) ودليل أن الكلمة المرفوعة يراد أن يسند إليها ويتحدث عنها . وأما الكسرة فإنها علم الإضافة ، وإشارة إلى ارتباط الكلمة بما قبلها ، سواء كان هذا الارتباط بأداة أو بغير أداة كما في كتاب محمد ، وكتابٌ لمحمد .

أما الفتحة فليست علامة إعراب ولا دالة على شيء ، بل هي الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب ، التي يراد أن تنتهي بها الكلمة كلما أمكن ذلك ؛ فهي بمثابة السكون في لغة العامة .

فالإعراب الضمة والكسرة فقط ، وليستا بقية من مقطع ، ولا أثراً لعامل من اللفظ؛ بل هي من عمل المتكلم ليدل بهما على معنى في تأليف الجملة ونظم الكلام . (٣)

ولنا أن نتساءل : كيف يتأثر " إبراهيم مصطفى " بالرأي وعكسه كما لو كان جامعاً لمن ينكر ويؤكد معاً؟! . إنه يقرُّ بعد إجمال رأيه في الحركات أنه تأثر بأئمة النحاة ، ويخص منهم "قطرب" مستنداً إلى رأيه المعروف .

---

(١) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

\* مثل رأي قاسم أمين ، وسلامة موسى ، و منْ نحاً هذا الاتجاه .

\*\* انظر الفصلين الأول والثاني من القسم الأول في هذا البحث .

(٢) إحياء النحو : ص ٩ .

(٣) السابق : ص ٥٠ .

ذلك الرأي الذي يبطل عمل حركات الإعراب ، يخالف من حيث المبدأ رأي "الزجاجي" الذي يجعل الحركات أدلة على المعاني الوظيفية في الكلام ، ووسيلة للتقديم والتأخير ، وقد صرّح "مصطفى" بتأثره بالرأيين مع الإشارة إلى كلا النصين .

ويرى " إبراهيم مصطفى" أنه لا وجه للتفصيل والتطويل بتقسيم علامات الإعراب إلى أصلية وأخرى فرعية . وقد دفعه هذا إلى القول بالإشباع في أبواب العلامات الفرعية ؛ هرباً من التقسيم السابق. ومن ذلك : (باب الأسماء الخمسة) فهي - عنده - معربة بالحركات التي مُدَّت فنشأ عنها لينها<sup>(١)</sup> .

ولقد أشار النحاة إلى ثلاثة وجوه في إعراب الأسماء الخمسة ، جعلوا الإتمام (إعرابها بالحروف) أشهرها ، ويجوز فيها لغة القصر وهي في المنزلة الثانية بعد الإتمام ، ولغة النقص (إعرابها بالحركات الظاهرة) وهي بالمنزلة الأخيرة . كما استشهدوا للوجوه الثلاثة جاعلين من الشائع قاعدة. فما مبرر إلغاء الوجوه الأخرى والقول بإشباع الحركات وجعله قاعدة مطردة ؟ .

وفي الباب الثاني لعلامات الإعراب الفرعية ، وهو (باب جمع المذكر السالم)<sup>(٢)</sup> يجعل علامات الإعراب أيضاً ناتجاً لإشباع الحركات وليست حروفاً نائبة عن الحركات في الدلالة على وظيفتها. ولأن إشباع الفتحة تنتج عنه الألف ، ولا ألف في إعراب جمع المذكر ، فتعليل هذا " وأمره أهون ، فإن الضمة فيه علم الرفع والواو إشباع ، والكسرة علم الجر والياء إشباع ، وأغفل الفتح لأنه ليس بإعراب فلم يُقصد إلى أن يجعل له علامة خاصة ، واكتفى بصورتين في هذا الجمع"<sup>(٣)</sup> .

وفي باب (الممنوع من الصرف) نجده مرة ثانية ، يتشبهت بالوجه الضعيف من الإعراب الذي لا يُبنى - أحياناً - على شاهد أو مسوِّغ كما يذهب في هذا الفصل إلى أن الفتحة حركة بناء لا إعراب . ليس هذا فحسب ، فهو يشبه الممنوع من الصرف بالمضاف إلى ياء المتكلم إذا حذفت ياءه ، وهو الذي يعيب على النحاة عللهم وتقديراتهم ! . " وقد بينا أن الفتحة لم تنب عن الكسرة؛ وإنما الذي كان ؛ أن هذا الاسم لما حرم التتوين ، أشبه - في حال الكسر - المضاف إلى ياء المتكلم إذا حذفت ياءه ، فأغفلوا الإعراب بالكسرة ، والتجأوا إلى الفتح ما دامت هذه الشبهة ، حتى إذا أمّثوها بأي وسيلة عادوا إلى إظهار الكسرة ، وذلك إذا بُدئت الكلمة بأل ، أو أُتُبعت بالإضافة"<sup>(٣)</sup> .

وأخيراً ، تتعارض فكرة الإشباع مع الإعراب النيابي في (باب المثني) ، فالياء تكون إشباعاً لحركة الكسرة في الجر ، ولا تكون الألف إشباعاً للضمّة ، كما لا تكون الياء إشباعاً للفتحة وذلك في حالتي رفع المثني ونصبه ؛ لذلك لا يفرد "مصطفى" للمثنى باباً مستقلاً ويكتفي بوصف هذا الباب بالغرابة فيقول : "ولم يبق من العلامات إلا باب المثني ، ونقرر أنه قد شذَّ عن أصلنا؛ ولكن باب التثنية في العربية غريب

(١) السابق : ص ١٥٩ .

(٢) التزمنا ترتيب الأبواب الذي اعتمده الأستاذ "إبراهيم مصطفى" في كتابه .

(٢) إحياء النحو : ص ١١١ .

(٣) السابق : ص ١١٢ .

كباب العدد ؛ إذ يُذكر فيه المؤنث ويؤنث المذكر ، ومن توسع في درس المثني ورأى وضع العرب له مرة موضع المفرد ، وأخرى موضع الجمع ، تجلّى له حقيقة ما نقول : فليس يقدح شذوذ المثني في أمر تقرر في سائر العربية واستقام في كل أبوابها " (١) .

والسؤال هنا : هل إشباع الحركات يعد بديلاً موفقاً للإعراب بالحروف ؛ ألا تتطوي تلك المشابهات للاستدلال على كثير من التعقيد ؟ وما الذي يترتب على إلغاء حركة الفتحة ؟ إنه إلغاء لكل المفاعيل ومكملات الجمل التي تكون الفتحة علامة على وظيفتها المتعددة ، أما إعرابها فيقترحه على النحو الآتي " إنها كلمات لا يتحدث عنها فترفع ، ولا هي مضاف إليها فتجر ، فليس لها إلا أن تلتزم الأصل وهو النصب . وعليه ، فإننا نعرب المفاعيل : ما لا يتحدث عنه أو يضاف إليه " (٢) .

وعندما تشير العلامات إلى تعدد المعنى الذي يختلف بالرفع والنصب في أبواب المفاعيل ، يصف ذلك بالتمحل ، ليجدوا لكلام القوم محملاً .

ويعلق على وظيفتي النصب والرفع في باب المفعول معه (النصب نص في المعية، والرفع لمطلق الجمع) بأن الفتحة علامة النصب ؛ لأنها ليست بعلم على معنى ولكنها الفتحة المستحبة، بمنزلة السكون في لغتنا الدارجة ! .

إن محاولة التجديد في الحركات هي ما يهمننا في الكتاب ، وقد كان له مواقف أخرى خالف فيها النحاة تتمثل في باب (التوابع) وفي (المسند إليه) . ففي باب التوابع يخرج العطف منها ؛ لأنك إن قلت : "زيد وعمرو جاء" ، استحق كل من الاسمين الرفع ، ولم يكن الأول أحق بهذا النوع من الإعراب ، ولا الثاني محمولاً عليه ؛ كلا الاسمين متحدث عنه ، وكلاهما له إعراب المتحدث عنه وهو الرفع .. وباب العطف إذاً ليس له إعراب خاص ، وليس جديراً أن يُعد من التوابع ، ولا أن يفرد باب لدرسه ، هذا من ناحية الإعراب .. والذي حمل النحاة على أن يجعلوا للعطف باباً خاصاً هو فلسفتهم في العامل " (٣) .

ومن ناحية الإعراب نفسه نسأل الأستاذ "مصطفى إبراهيم" عن إعراب الاسم المعطوف ، فهل يعرب المتحدث عنه أيضاً مرفوع ؟

كما يلغي (التوكيد من باب التوابع أيضاً ، فيبقى منها : (النعته والبدل) ؛ لأنه يعد التوكيد والبدل أسلوباً واحداً وليس من الوجيه أن يُفرق بينهما ، لكنه يزيد تابعاً هو أهم من كل أقسام التوابع وهو (الخبر) والذي "منع النحاة أن يقولوا بالاتباع في باب الخبر ، أنهم رأوا المبتدأ يكون مرفوعاً والخبر منصوباً في كان . وليس التفسير على ما تصوروا ، فإن المتحدث عنه هو الذي سموه اسم كان ، والمتحدث به أو الخبر هو "كان قائماً" ، فليس قائماً بخبر ، وكذلك في باب "إن" ... " (٤) .

(١) السابق : ص ١١٣ .

(٢) السابق : ص ١٥٥ .

(٣) السابق : ص ١١٥ - ١١٦ .

(٤) السابق : ص ١٢٦ - ١٢٧ .

فإذا طبقنا هذا الرأي على المثال : (كان محمدٌ يتيماً) يكون توجيهه كالاتي :

محمدٌ : متحدث عنه مرفوع .

كان يتيماً : متحدث به ، و يتيماً : ما لا يتحدث عنه أو يضاف إليه منصوب .

فإن حذف المتحدث عنه (اسم كان) وكثيراً ما يحذف ، فلا توجيه للتركيب إذاً ، ومن ذلك قوله تعالى :  
"فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً" [نوح : ١٥] .

أما المرفوعات ، فهي كل متحدث عنه أو (مسند إليه) وموضعها (المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل). وينتهي إلى ضرورة التوحيد بين هذه الأبواب ؛ لأنها مرفوعة ومتحدث عنها ، فيقول : "هذه أبواب الرفع الثلاثة: المبتدأ ، والفاعل ، ونائب الفاعل) اطردها فيها الأصل الذي قررنا ، وأغنانا عن تكثير الأقسام ، وتعدد الأبواب ، وعنه فلسفة العامل ، وشغب الخلاف" (١) . وقد أخرج الخبر المرفوع ، لأنه متحدث به .

ولا نرى وصف خلاف النحاة (بالشغب) ؛ فقد بذلوا مجهوداً لا نظير له في سبيل تقنين اللغة وتصنيفها بالقياس إلى مصادر وآليات المعرفة والبحث آنذاك ، ولا بأس في مخالفتهم إلا أن يُنقص حقهم .

إن أهمية تجربة " إبراهيم مصطفى " ، تكمن في كونها " أول مقارنة نقدية شاملة للتراث النحوي العربي، سيستمر حضورها في الثقافة العربية عند بعض الباحثين الذين سيرددون الكثير من آرائه " (٢) . ومن هؤلاء الباحثين تلميذه مهدي المخزومي .

#### **(ب) مهدي المخزومي في كتابه : " في النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث " :**

يشير " مصطفى السقا " في التقديم للكتاب إلى منهج " مهدي المخزومي " لتطوير التأليف في النحو ، والذي اعتمد فيه على عدد من الأصول أهمها : (٣) التأثير بتجربة أستاذه إبراهيم مصطفى في كتاب إحياء النحو .

ويبني رأيه في (الحركات) على رأي " إبراهيم مصطفى " فيرى الضمة علماً للإسناد ، والكسرة علماً للإضافة ، والفتحة ليست بعلم على إعراب . وانطلاقاً من رفض الإعراب النيابي يذهب إلى أن إعراب الأسماء الخمسة إنما يكون بحركات مطولة ، وأما ما عداها فشاذ " فالكلمة إذا إنما ترفع بالضمة ، وتخفّض بالكسرة ، وتنصب بالفتحة ، إلا أن بعض الموضوعات التي شذت عن هذا الأصل ، واتخذت لها إعراباً خاصاً ، ومن الموضوعات التي شذت عن هذا الأصل : المثني ، وجمع التصحيح : المذكر والمؤنث ، والممنوع من الصرف " (٤) .

(١) السابق : ص ٦٠ .

(٢) حافظ إسماعيلي علوي : اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة : ص ٢٨ .

(٣) مهدي المخزومي : في النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث : ص ٤ . ط ٣ . ١٩٨٥م

(٤) السابق : ص ٧١ .

ولا يرى " المخزومي " فرقاً بين تقديم الفاعل وتأخيرها ، فإذا ما تقدم الاسم وبعده فعل يكون فاعلاً. فينتق في ذلك مع " إبراهيم مصطفى " الذي يستكر أن النحاة يحرمون تقديم الفاعل ، وهو حكم نحوي صناعي لا أثر له في الكلام ويجب أن نتحرر منه . وبناء عليه ، يعرب المثال (الحقُ ظهر) كما يأتي :

الحق : فاعل مقدم مرفوع .

ظهر : فعل ماضٍ (مؤخر) مبني على الفتح .

هذا وإن لم تختلف الحركة على المسند إليه (الحق) في التركيبين : (ظهر الحق) ، و(الحق ظهر) فإن معاني النحو تختلف بينهما ؛ ولذلك تتميز وظيفة المبتدأ عن الفاعل وكلاهما مرفوع .

أما (الخبر) فإنه من التوابع ، وما يرفعه هو هذه التابعة . ومع أنه يعيب عامل الابتداء وغيره ، ينتهي إلى (تابعة الخبر) التي هي والابتداء عوامل معنوية " فالخبر الذي يكون وصفاً للمبتدأ في المعنى ؛ يرتفع لأنه وصف للمبتدأ في المعنى، ولم يرتفع لأنه معمول لعامل معنوي كالابتداء، أو لعامل لفظي وهو المبتدأ، كما زعم هذا النحوي أو ذاك . والخبر الذي لا يكون وصفاً للمبتدأ بأن كان مخالفاً له في المعنى أصلاً ، أو خالفه بما طرأ على الجملة مما ينصّ على مخالفته ، كوقوعه في سياق نفي : لا يرتفع ، لأنه لم يعد وصفاً للمبتدأ في المعنى ، وذلك كقوله تعالى : " ما هذا بشراً " ، وكقولك : خالدٌ أمامك . فأمامك ، وبشراً : خبران منصوبان ، لمخالفتهما المبتدأ .. ولو قصدت إلى أن يكون (الأمام) هو خالداً ، رفعت وقلت : خالدٌ أمامك ... " (١) .

ومعلوم أن استعمال (ما) هو تغيير أدائي ؛ فالحجازيون يعملونها عمل ليس ، وبنو تميم لا يعملونها . أما تخريج الخبر في قوله : (خالد أمامك) ، و(خالد أمامك) ، فالأول خبر منصوب لمخالفته المبتدأ ، والثاني خبر مرفوع ، ففيه خلط لوظيفتي الخبر وظرف المكان ؛ لأن الحركة التي تدل على دور الكلمة الوظيفي إنما تعكس واقع استعمالها الذي يؤسس عرفيتها . ولم تستعمل العرب الخبر منصوباً من غير ناسخ ، كما لم ترفع الظرف وإن وقع في محل الخبر .

أما المنصوبات التي أخرجها " إبراهيم مصطفى " من دائرتي الإسناد والإضافة ، فيوافقه " المخزومي " في ذلك ، لكن يخالفه في تقسيم المنصوبات إلى نوعين : (٢)

- (١) نوع يؤدي وظيفة إعرابية في أثناء الجملة ، كالمفعولات ، والحال ، وغيرها من متعلقات الجملة .
- (٢) ونوع لا يؤدي شيئاً من ذلك ، ولكن مفتوح الآخر لأنه لا سبيل إلى تحريك آخره بغير الفتحة، ولأن الفتحة هي الحركة الخفيفة التي يستريح إليها العرب حين يريدون تحريك آخر كلمة لا تدخل في نطاق إسناد ولا إضافة .

هنا نلاحظ اضطراب "المخزومي" عند استعماله كلمة "وظيفة" في العبارتين : "نوع يؤدي وظيفة إعرابية" ، و "نوع لا يؤدي شيئاً" . فالعلاقة الوظيفية التي تدل عليها (الفتحة) لا يمكن أن تقوم حيناً ،

(١) السابق : ص ١٩٧ .

(٢) السابق : ص ٧٠-٧١ .

وتتفك حيناً آخر في النظام . وإلا فقدت خصائصها العلاماتية (الدالية ، والعرفية) . ذلك أن المنصوبات من مفاعيل ، وحال ، وتمييز ... تعد المتغيّر الذي تدل الفتحة على وظيفته ضمن التركيب ، وهي ما دامت كذلك ، فلا يمكن أن توافق منطق النظام فتدل ، وتخالفه في العرف والاستعمال فلا تدل . ولا يكتفي " مهدي المخزومي " بإخراج خبر كان من الإسناد والإضافة ، فيتساءل: ماذا يعرب المنصوب؟ ولا يعدم الجواب بإعرابه حالاً " فإذا قلنا : كان المطر غزيراً ، فالإسناد كان قد تمّ بين فعل الوجود والموجود نفسه . أي بين (كان) والمطر . أما المنصوب فحال تبين هيئة الوجود" (١) . وعليه ، يكون توجيه مثاله السابق (كان المطر غزيراً) على النحو الآتي :

كان : فعل ماض .

المطر : مسند إليه ، مرفوع .

غزيراً : حال منصوبة .

غير أن الوظيفة النحوية المسندة للحال في نظام العربية تعد من مكملات التركيب، بخلاف وظيفة الخبر الذي جاء منصوباً هنا ؛ بوصفه ناتجاً لعلاقة الفعل الناسخ بالتركيب الاسمي ، وممثلاً لذلك العرف في استعماله .

إن قصر الحركات على الإسناد والإضافة ، لم يخرج المنصوبات من نظام الإعراب فقط ، ولكنه أخرج الخبر من المرفوعات ؛ لأنه ليس مسنداً إليه . ثم إن قصر الجر على الإضافة ، يجعل من حروف الجر (أدوات إضافة) " والاسم بعد هذه الأدوات مخفوض ، وخفضه بالإضافة ، والمضاف هنا هو ما قبل الأداة من فعل أو غيره . فإذا قلت : مررت بزيد ، فقد أضفت المرور إلى زيد ، فالباء هنا أداة إضافة ، وواسطة لإضافة (مررت) إلى زيد ... أما الجر في المضاف إليه فعند جمهورهم (النحاة) بأداة جرّ مقدرة ، نحو : هذا ثوبُ زيدٍ ، وهذا خاتمُ فضةٍ ، و " بل مكر الليل والنهار " ... وهو تمحلّ ثقيل لسببين :

أولهما : هذا التقدير المتكلف .

وثانيهما : هذا الإبعاد في اعتبار أن هذه الأدوات عوامل مؤثرة بمنزلة العلل (٢) .

ويشير إلى أن "سيبويه" سمّى المجرور بحرف مضافاً إليه ، وهو يرتضي قول سيبويه هنا . وقد سمّاه " سيبويه " كذلك ؛ بالنظر إلى المعنى ؛ لأن المرور مضاف إلى زيد بواسطة حرف الجر " ولهذا يسميها (حروف الجر) بعض النحاة "حروف الإضافة " لأنها إذا كانت أصلية تضيف أي تحمل وتنقل إلى الأسماء المجرورة بها معاني الأفعال وشبهها ، ولو لم يوجد الحرف الأصلي ما تحققت الفائدة الفرعية التكميلية ولا صح الأسلوب بعد حذف الجار وحده وإبقاء مجروره السابق (٣) .

ثم إن "سيبويه" قد فرّق بين حرف جاء لمعنى ومنها حروف الجر ، وبين حروف لا معنى لها وهي حروف المعجم . فإن أعربنا تلك الحروف حروف إضافة وما بعدها مضاف إليه فقد أبطلنا أثرها في

(١) السابق : ص ١٣٢ .

(٢) السابق : ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٣) عباس حسن : النحو الوافي . ج ٢ ص ٤٢٧ .

المعنى ، ولا يعقل ألا تؤدي معنى داخل التركيب أو أن تقرن بين الاسم والفعل المجرد بالإضافة . وقد مثل "سيبويه" لمعاني حروف الجر ولوظيفتها النحوية في التركيب ، وكذلك بين أن (الإضافة) فيها بأن تدخل لربط الاسم بالفعل بخلاف ما هو مفهوم من استعمال "المخزومي" لها بأنها حروف إضافة وما بعدها مضاف إليه .

ويشرح " السيرافي " عبارة " سيبويه " في باب الجر فيقول : الجر إنما يكون في كل اسم مضاف إليه ، قال أبو سعيد : جعل سيبويه المجرور بحرف أو بإضافة كله مضافاً ، ثم قسم ذلك فقال : إن المضاف إليه ينجز بثلاثة أشياء : بشيء ليس باسم ولا ظرف ... ، قال أبو سعيد : اعلم أن الجر يكون بشيئين : أحدهما ، دخول حرف ليس باسم ولا ظرف والآخر ، بإضافة اسم إلى اسم . فأما الحروف الجارة...<sup>(١)</sup> . فالمقصود بالإضافة إيصال الفعل إلى الاسم ، لأن الأول لا يضاف للثاني ، غير أن قصر الكسرة على الجر أدى إلى اعتبار الحركات التي تنوب عن الكسرة شاذة، كما يؤدي قصر الجر على الإضافة إلى إلغاء وظيفة حروف الجر .

و" تظهر المتابعة الدقيقة لكتابات (مهدي المخزومي) أن معرفته لم تتعدّ حدود بعض الإشارات العابرة ، فهو لا يستطيع تمييز حدود المناهج السائدة آنذاك ، ونعني بذلك الاتجاه التاريخي المقارن ، والاتجاه الوصفي " (٢) .

### ج) رمضان عبد التواب في كتابه : "التطور اللغوي" :

يتعامل المنظور التاريخي في اللغة بوصفها جدولاً من الألفاظ ، ويرى أن لكل لفظ تطوره الخاص صوتاً ودلالة . وإن منظوراً ، كهذا ، كما هو بدهي ، لا يأخذ حركات الإعراب في حسبانته ، بل هو لا يراها شيئاً ، ولذا فهو يسقطها من اللغة ويبعدها من البحث اللغوي . ولعل السبب الرئيس في هذا ، يكمن في أن هذا المنظور لا يرى الحركات إلا بوصفها تطوراً صوتياً . ولذلك يقول رمضان عبدالتواب " وفي طريق تطور اللغة ، تفقد هذه المورفيمات الإعرابية وظيفتها ، وتعتمد اللغة في هذه الحالة على نظام ترتيب الكلمات في جملها ، وعندئذ تختار هذه اللغة صورة واحدة من الصور الإعرابية ، وتبقى عليها ، وتهمل الصور الأخرى ، وهذا هو معنى سيادة الحالة الواحدة من الحالات الإعرابية . وقبل أن تضرب الأمثلة المختلفة ، يجب أن نذكر هنا أن اختيار اللغة لواحدة من هذه الصور الإعرابية ، اختيار غير مشروط ، فلا يستطيع أكبر عباقرة اللغة أن يعرف لماذا أثرت لغة ما ، صورة معينة من الصور الإعرابية ، وأهملت ما عداها ؟ وسوف يتضح مدى صدق هذه المقولة ، التي نزع من أصحابها " (٣) .

(١) شرح كتاب سيبويه : ج ٢ ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢) حافظ إسماعيلي علوي : اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ص ٤١ .

(٣) رمضان عبد التواب : التطور اللغوي مظاهره وعمله وقوانينه ص ١٧٧ . مكتبة الخانجي بالقاهرة ط ٣ ١٤١٧ هـ -

١٩٩٧ م.

- لا شك أن هذا المنهج باعتماده على فكرة التطور اللغوي يخلق مشاكل كثيرة أبرزها :
- إن التطور اللغوي يفترض أصلاً لكل لغة فيما يسمى بالأسرة اللغوية ، فيرد الدرس اللغوي إلى اللغة الأم ، ويقارنها مع باقي اللغات التي تنتمي إلى الأسرة ذاتها رغم تباين كل لغة .
  - سبق أن قررنا أن مستعمل اللغة آني في استعماله ، ولا يقوم بذهنه تاريخ اللغة ، ولا أي تغيير صوتي أو دلالي طرأ على لفظ أو ظاهرة في زمن ما .
  - لا معنى لسيادة الحالة الواحدة من الحالات الإعرابية ؛ لأن موقع ظاهرة الإعراب هو النظام ، لا الكلام بوصفه أداء . أما سيادة الحالة الواحدة من الحالات الإعرابية في أي لهجة عامية ، فمن الخطأ قياسها على موقع تلك الحالات من النظام .
  - أما اعتبارية الظاهرة اللغوية بدءاً ، لتصبح بالمواضعة عرفاً بالضرورة ، مما (لا يستطيع أكبر عابرة اللغة أن يعرف لماذا ...) فمبدأ رائده "سوسير" ، وقد تكامل بجهود اللسانيين من بعده ، ولم يكن صاحبه رمضان عبد التواب على حد زعمه .
- أما الأمثلة التي يسوقها للاستشهاد على (سيادة الحالة الواحدة من الحالات الإعرابية) ، فلن نتطرق إليها ؛ لأنها جميعاً من العاميات العربية ، وقد بينا منهجياً خطأ هذا القياس بين العامية والفصحى في ظاهرة الحركات .
- ونرى أن من القياس الخاطئ هذه المقارنة التي سعى إليها " رمضان عبد التواب " إثر كل مثال بالإشارة إلى أن مثل هذا التطور الطارئ على الحركة في إحدى العاميات هو حادث في اللغات السامية (يمثل للغة السريانية ، والعبرية ، والحبشية) لأن هذه اللغات لا يربطها بالعربية اليوم أي رابط كان ليسوِّغ تلك المقارنات ، وما دامت هي لغات قائمة بذاتها ، فإنه لا يجوز قياس تطور لغة على تطور لغة أخرى .
- ثم ينتقل لمناقشة ما يسميه ظاهرة (طغيان حالة إعرابية على أخرى) . ومن الملاحظ أنه يستعمل مصطلحات سلطوية في تحليل ظاهرة الحركات من مثل (سيادة) و (طغيان) ، في حين أن للحركات أثراً هاماً ، وأن السلطة للغة في ذاتها لا في ظاهرة من ظواهرها .
- أما تلك الظاهرة فيمثل لها بمثاليين من العاميات كذلك ، ويقارنها بالعبرية ، إلا أن المسترعي للنظر هو غياب الحالات والحركات الإعرابية فيها ! فهي : طغيان صيغة الإسناد إلى جمع الغائبين في الماضي و المضارع على صيغة الإسناد إلى جمع الغائبات ، مثل : البنات اتخطبوا واتجوزوا . وقد حدث هذا في اللغة العربية .. ومن الأمثلة كذلك : طغيان صيغة المضارع للمخاطبات بتاء المضارعة على صيغة الغائبات في العبرية وقد حدث مثل هذا في العربية ... . ويعلل " يوهان فك " لهذا السلوك اللغوي ، بأن العامة لم تعد لهم ألفة بصيغة المضارع المؤنث للمخاطب والغائب في حالة الجمع ، التي استعوض عنها في اللغة الدارجة بصيغة المذكر " (1) .

(1) السابق : ص ١٧٩ - ١٨٠ .

لقد كان القياس الداخلي بين العامي والفصيح في الأمثلة الأولى (سيادة الحالة الواحدة من الحالات الإعرابية) ينطبق على حالات إعرابية من مثل : إعراب الأفعال الخمسة ، وإعراب المثني ، وجمع المذكر السالم ، والأسماء الخمسة . لكن أين تظهر حالة إعرابية فيما سبق لتطغى ؟! إنه تغير في الصيغة لا في الإعراب ، وهذا خلط بين مستويات التحليل اللغوي .

### ثانياً : علامات الإعراب في ضوء المنهج الوصفي :

شكل المنهج الوصفي قطيعة مع المنهج التاريخي ، عُرِفَت بالتقابل ما بين اللسانيات التعاقبية، واللسانيات التزامنية التي كان اهتمامها بالتحليل الآني لظواهر اللغة ، بعيداً عن اهتمام اللسانيات التعاقبية بتتبع طريق الظاهرة الذي سلكته وصولاً إلى ما هي عليه . لقد برهن " سوسير " أن اللغة بالفعل ليست نشوءية ارتقائية حين ضرب المثل المعروف بلعبة الشطرنج ، فاللاعب لا يستحضر التغيرات التي مرت بقوانين اللعبة حتى استقرت على ما هي عليه ، كما لا تؤثر مادة اللعبة فيها ، بل إن شكل النظام هو المؤثر الرئيس . وكذلك هي اللغة ، فلا وجود لتاريخها في ذهن المتكلم ، وهي شكل لا مادة ؛ وبالتالي فإن دراستها بحث في شكل التعبير لا في مادته (منطوقة أو مكتوبة) ولا في محتواه (الدلالة) مما يستدعي علوماً أخرى.

من هنا " بدأت الإرهاصات الأولى لظهور اللسانيات الوصفية في بداية القرن العشرين ، بعدما عرفت أفكار سوسير انتشاراً واسعاً في أوروبا . وقد تركزت عناية الوصفيين على نقد وتجاوز نقائص اللسانيات التاريخية، وتحويل مسار الدراسات اللغوية نحو دراسة اللغة على أساس شكلي " (١) .

ولقد اعتمد الوصفيون العرب المنطلقات والأسس التي اعتمدها الوصفيون الغربيون "فسيراً على نهج الوصفيين الغربيين في تقديم للنحو التقليدي ، وجد الوصفيون العرب فيما صح من نقد الأوروبيين لتراثهم النحوي ينسحب أيضاً على التراث النحوي العربي ، كما صح عند الكثيرين منهم أن هذا التراث تضمن العيوب نفسها التي تضمنها التفكير النحوي الأوربي القديم . ولم يتخذ هذا المنطلق في عمل الوصفيين العرب شكل الافتراض ، بل كان حاضراً لديهم حضور البديهة فكان منطلق كل دراساتهم " (٢) .

وسنحاول الكشف عن نقد أشهرهم للنحو العربي في جانب حركات الإعراب على نحو ما نجد عند كل من: تمام حسان ، وعبد الرحمن أيوب.

### أ) تمام حسان في كتابه : " اللغة العربية معناها ومبناها " :

يرى " تمام حسان " أن علامة الإعراب ليست إلا إحدى عوامل السياق اللفظية التي كانت أوفر القرائن خطأ من اهتمام النحاة في حين " لم تكن العلامات الإعرابية أكثر من نوع واحد من أنواع القرائن بل هي قرينة يستعصي التمييز بين الأبواب بوساطتها حين يكون الإعراب تقديرية أو محلياً أو بالحذف ؛ لأن العلامة الإعرابية في كل واحدة من هذه الحالات ليست ظاهرة فيستفاد منها معنى الباب ... ولا أكاد أمل

(١) حافظ إسماعيلي علوي : اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ص ٢٢٥ .

(٢) السابق : ص ٢٢٥ .

ترديد القول : إن العلامة الإعرابية بمفردها لا تعين على تحديد المعنى فلا قيمة لها بدون (تضافر القرائن) وهذا القول صادق على كل قرينة أخرى بمفردها سواء أكانت معنوية أم لفظية . وبهذا يتضح أن (العامل النحوي) وكل ما أثر حوله من ضجة لم يكن أكثر من مبالغة أدى إليها النظر السطحي والخضوع لتقليد السلف والأخذ بأقوالهم على علاتها" (١) .

ويقسم قرائن السياق لقسمين : قرائن معنوية ، وقرائن لفظية :

أ) فالقرائن المعنوية تتمثل في : علاقة الإسناد ، وعلاقة التخصيص ، وعلاقة النسبة ، وعلاقة التبعية .  
ب) القرائن اللفظية ، وهي على النحو الآتي : العلامة الإعرابية ، الرتبة ، الصيغة ، المطابقة ، الربط ، التضام ، الأداة ، والنغمة . (٢)

فإذا حاولنا تطبيق (مبدأ تضافر القرائن) على الجملة : جاءت هند ، مثلاً ، فسنجد أن القرائن الدالة على المعنى النحوي هي :

- علاقة الإسناد (قرينة معنوية) وهي الرابطة بين الفعل والفاعل .

- وتظهر القرائن اللفظية الآتية :

١- العلامة الإعرابية : وهي الضمة الظاهرة على الفاعل .

٢- الرتبة : احتفظ الفاعل برتبته بعد الفعل .

٣- الصيغة : بعض الصيغ معناها اللزوم ، وكذلك الفعل (قام) وهو فعل مبني للمعلوم .

٤- المطابقة : تطابق الفعل مع الفاعل من حيث (التأنيث) بإلحاق تاء التأنيث بالفعل .

٥- التضام : لا بد للفعل المبني للمعلوم من فاعل وهو (هند) .

٦- النغمة : وهي الإطار الصوتي الذي قد يفهم من التقرير أو الاستفهام أو غيره \*\*

والواقع أن النحاة لم يهملوا قرينة واحدة مما تقدم ، لكنهم عالجوها ضمن الأبواب النحوية ؟ ذلك أنهم أدركوا كون اللغة شبكة من العلاقات المتعددة والمتداخلة ، وأن حركات الإعراب ناتجة عن تلك العلاقات ومؤشرة على المعاني النحوية ، وهي من أظهر وأقوى العلامات .

ولقد كان اتحاد عدد من الوظائف النحوية في حركة واحدة ، من أسباب تعدد الأوجه الإعرابية التي هي إحدى الإمكانيات المتاحة في العربية وكان اللساني العربي مطالب بتفسير الوظائف النحوية التي تأخذ حركة إعرابية واحدة وتتسبب إلى أبواب نحوية مختلفة .

ويسوق " ابن هشام " في " المغني " أمثلة لا حصر لها تُعنى ببيان الفرق بين وظائف نحوية متعددة لحركة إعرابية واحدة ، ومنها : ما يحتمل المصدرية والمفعولية ، ما يحتمل المصدرية والظرفية والحالية ، ما

(١) تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها . ص ٢٠٦ - ٢٠٧ . عالم الكتب - القاهرة . ط ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .

(٢) السابق : ص ٢٠٥ .

\*\* يتم الربط بالضمير العائد بين الموصول وصلته ، وبين المبتدأ وخبره ، وبين الحال وصاحبه ، وبين المنعوت ونعته ، وبين القسم وجوابه ، والشرط وجوابه ، فلا ربط في مثلنا السابق . ولا (أداة) مستعملة أيضاً .

يحتمل المصدرية والحالية ، ما يحتمل المصدرية والحالية والمفعول لأجله ، ما يحتمل المفعول به والمفعول معه .<sup>(١)</sup>

ويذهب "تمام حسان" إلى أن القرائن السابقة قد يغني بعضها عن بعض وليس شرطاً أن تظهر كلها في تركيب واحد . ثم يسوق نماذج مختلفة لإغناء بعض القرائن عن علامة الإعراب بحسب رأيه ، إذ يقول : "ومما نلاحظه جميعاً حين نستمع إلى نشرة الأنباء ، مثلاً أو إلى خطيب أو متكلم أو معلق أننا على رغم ما نسمعه في النشرة أو الخطبة أو الكلام أو التعليق السياسي من أخطاء في الإعراب فإننا نفهم الكلام الذي يقال . ويستتبع ذلك بالضرورة أننا نفهم علاقات الكلمات بعضها ببعض لا فرق في ذلك بين أُمي منا ومتقف فنعلم من قول المذيع مثلاً : " أجمعت وكالات الأنباء على أن الصين الشعبية أجرت اليوم تفجيراً نووياً " ندرك المعنى العام الذي ينبني على صلات الكلمات بعضها ببعض دون الحاجة إلى التحليل ودون الحاجة إلى دلالة العلامات الإعرابية لأن قرائن أخرى قد أغنت عنها . ومن هنا نرى فداحة الخطأ الذي يكمن في اعتبار الحركات الإعرابية أهم ما في النحو العربي " <sup>(٢)</sup> .

ويكمن الرد على ما سبق من عدة جهات :

(١) أن التغيرات التي تحدث في الأداء لا علاقة لها بالنظام ، فإذا قلنا : حصد الفلاحين بستانان فإن هذه الجملة لا تعد قاعدية رغم أنها مفهومة دلاليًا ؛ لأن حركات الإعراب علامة على وظيفة الكلمة في التركيب لا على معناها .

(٢) إن أهم ما في النحو العربي هي فكرة الإسناد والعلاقات النحوية القائمة بين مكونات التركيب التي تكون الحركة علامة عليها ؛ لذلك فإن معاني النحو من : التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والإعراب وغيرها هي التي تؤلف الكلام وتلك وظيفة النحو .

(٣) إن الاستغناء عن علامة الإعراب ، إنما هو بالضرورة استغناء عن قيم ثلاث وليس واحدة ، نعني بها: قيمتها الوظيفية ، وقيمتها الجمالية ، وما بها من قيمة الإيجاز .

(٤) إن الاستغناء عن علامة الإعراب على وجه الخصوص إخفاء لأهم ملامح العربية الفصحى .

(٥) إن تلك القرائن الأخرى لا تغني عن علامة الإعراب في كثير من حالات التركيب كما في اشتراك عدة وظائف في حركة واحدة . فالقارئ تتكامل مع علامة الإعراب ولا تلغيها .

(٦) قد تفسر القرائن الأخرى جملة من مثل : (قامت الحرب ، فلم ينجُ أحد) ، لكنها لا تفسرها بعد حرف الجر الزائد : (فلم ينجُ من أحد) ؛ بسبب طبيعة العلاقة بين شكل الجملة (وقوع الفاعل بعد حرف الجر) وبين المعنى (كون "أحد" فاعلاً من جهة المعنى) ، ولأن الحركة/العلامة نتاج لنظام علاقات مزدوجة في هذا المثال ، حيث نفسر إحالاتها الوظيفية سيميائياً من خلال هذا الدور المزدوج ( الجر / والرفع ) .

(١) ابن هشام الأنصاري : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب . ج ٢ ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٢) السابق : ص ٢٣٦ .

ويرى " تمام حسان " أن النحاة وقعوا ضحايا اهتمامهم الشديد بالعلامة الإعرابية ، في حين أن النصوص العربية تهمل الاعتماد على قرينة الحركة أحياناً فتضحّي بها لأن المعنى واضح بدونها اعتماداً على غيرها من القرائن المعنوية واللفظية . ومن أمثلة ذلك ما يأتي (١)

#### أولاً : قرينة (الإسناد) المعنوية :

قالت العرب : خرق الثوبُ المسمارَ ، فاعتمدوا على القرينة المعنوية وهي الإسناد وأهملوا الحركة إذ لا يصح أن يسند الخرق إلى الثوب وإنما يسند إلى المسمار فعلم أيهما فاعل وأيهما مفعول .

وقد بينا (في الفصل الأول من القسم الثاني) كيف أننا رغم بيان المعنى لا نرفع ما نشاء و ننصب ما نشاء لجملة من الأسباب أهمها أن حركة الإعراب صارت قانوناً ثابتاً في النظام وليست علامة عشوائية ؛ ولذلك نبه النحاة إلى أن ذلك المثل إنما هو من القليل المسموع وليس من قبيل المطرد. ومن المعلوم أن القرينة اللفظية أقوى وأظهر من القرينة المعنوية، فعلمة الإعراب شكل واضح ومختصر يدل على المعنى النحوي .

#### ثانياً : قرينة (التبعية) المعنوية :

- قالت العرب : " جحر ضُبْ خرب " فأغنت عندهم قرينة التبعية ، وهي معنوية عن قرينة المطابقة في العلامة الإعرابية وهي لفظية . وكان الداعي إلى ذلك داعياً موسيقياً جمالياً هو المناسبة بين المتجاورين في الحركة الإعرابية وقد سماه النحاة "المجاورة" (٢) .

نجد " تمام حسان " في هذا المثال ، وفي الأمثلة الآتية ، مجرد علامة الإعراب من قيمتها الجمالية ، بل إنه ليرى أن تلك القيمة تتعارض وقيمتها الوظيفية . بينما نرى أن علامات الإعراب ليست معياراً لصحة التراكيب فحسب ، إنما تظهر جمال التراكيب بفعل دورها الإيقاعي في الحالين : سواء كان لها دور وظيفي (وهو الغالب) فتجمع عندئذ القيمتين : الوظيفية والجمالية معاً ، أم في حالات المشكلة التي تعد من المستحسن لا من اللازم ما لم تفسد المعنى ، والحركة هنا لم يُستغنَ عنها ؛ فهي أداة التشاكل الموسيقي ، لكن غلبوا القيمة الجمالية على القيمة الوظيفية ؛ لوضوح الثانية (الوظيفية) ومن أجل الإيقاع الموسيقي في الكلام . أما القول : إن قرينة التبعية قد أغنت عن علامة الإعراب رغم وجودها فمغالطة كبيرة؛ إذ إن الاستغناء عنها يعني إلغائها أو يفهم من أن وجودها كعدمها ، وهي ليست كذلك في كل الأمثلة التي يستدل بها تمام حسان على إغناء قرينة ما عن علامة الإعراب ، إنما هي المشكلة \* التي يقسمها " إبراهيم جميل " قسمين :

مشكلة سماعية ، ومشكلة قياسية . فالمشكلة السماعية هي : " كل ما ورد فيه مشكلة صغية لأخرى ، أو إعراب لآخر من دون وجود مقتضى للتغيير في الصيغة أو الإعراب سوى المشكلة ، وهذا في مواضع

(١) اللغة العربية معناها ومبناها : ص ٢٣٣ - ٢٣٥ .

(٢) السابق : ص ٢٣٣ .

\* المشكلة عامل من عوامل الترجيح وسبب من أسباب الاستحسان ، وليست من أسباب الوجوب أو الإلزام ؛ لذلك كانت مراعاتها راجحة وأولى من عدم مراعاتها : إبراهيم جميل ص ١١٣ .

كثيرة لا يمكن القياس عليها ، ومنها " الجر على الجوار في مثل قولهم : " هذا جحرٌ ضبٌ خربٌ " وإنما جازت المشاكلة هنا بسبب أمن اللبس. " (١)

بناءً عليه ، فإن المشاكلة تقع في علامة الإعراب وفي غيرها ؛ للمحافظة على إيقاع الكلام. وهي تغيير مهمما تعددت أشكاله لا استغناء .

### ثالثاً : قرينة التضام :

- قالت العرب : " ما رأيته منذ يومان " فأغنت قرينة التضام وما تضافر معها عن قرينة الإعراب التي تكون فيما جاء بعد حرف الجر (٢) .

وليس في ذلك القول انحراف عن الأصل ؛ حيث تستعمل " مذ ، ومنذ " في ثلاث حالات : (٣)

أحدها أن يليها اسم مجرور ، والثانية أن يليها اسم مرفوع ، والثالثة : أن يليهما الجمل الفعلية أو الاسمية. أما الاسم المرفوع بعدهما " فقال المبرد وابن السراج والفارسي :

مبتدآن ، وما بعدهما خبر ، وقال أكثر الكوفيين : ظرفان مضافان لجمله حذف فعلها ، وبقي فاعلها ، والأصل : مذ كان يومان ، واختاره السهيلي وابن مالك ، وقال بعض الكوفيين : خبر لمحذوف ، أي ما رأيته من الزمان الذي هو يومان ، بناء على أن مذ مركبة من كلمتين من و ذو الطائية " (٤) .

إن مبدأ العرفية يرفض إغناء القرائن عن علامة الإعراب ؛ ذلك أن مستعملها قد اصطلاحوا أولاً على قيمتها العلامية ، ثم صار الوضع أو الاصطلاح عرفاً اقترن باستعمال العلامة على ما أُصطلح عليه من قيمة لها ؛ ممّا يجعل وجودها مع الاستغناء عنه تناقضاً ؛ لعدم اطراد العرف بذلك ، " لقد نزل تمام حسان العلامة الإعرابية ضمن القرائن اللفظية ، و هوّن من شأنها عندما ألحّ على أنها لا تمثل إلا إحدى القرائن اللفظية الثماني التي يعتمدها النظام النحوي . ولما كان زعم أن المعنى النحوي لا يتضح إلا بتضافر القرائن اللفظية والمعنوية معاً ، فإنه يعد علامات الإعراب أقلّ من الوظائف النحوية وخاصة استدلاله بما سمّاه ترخّص العرب في قرينة الإعراب لإغناء القرائن المقالية والمقامية عنها (٥) " .

وقد أسلفنا القول بتعدد القيمة لعلامة الإعراب إذ لا انفصال بين قيمتها الوظيفية والجمالية ، وإن اختلفت درجة القيمة باختلاف الغاية من الكلام ، فالأصل أن تظل قيمتها ماثلة في ذهن العربي فيكون استعمالها عرفياً بصرف النظر عن قيمتها . وبهذا الاطراد الوظيفي تعد علامة الإعراب جزءاً من نظام العربية ، فلا يُتصور لأي جزء منه أن يدل حيناً ثم تنفك دلالته عنه حيناً آخر .

(١) إبراهيم جميل : التطبيقات اللغوية ص ١٢٩ - ١٣١ .

(٢) اللغة معناها ومبناها : ص ٢٣٥ .

(٣) انظر مغني اللبيب : ج ١ ص ٣٤٧ .

(٤) السابق : ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٥) عز الدين مجدوب : المنوال النحوي العربي . ص ٢٨٠، ٢٨١ بتصرف . كلية الآداب - سوسة ، دار محمد علي

الحامي. تونس ، ط ١ ١٩٩٨ م.

## ب) عبد الرحمن أيوب في كتابه "دراسات نقدية في النحو العربي" :

ينتسب "عبد الرحمن أيوب" إلى الاتجاه الوصفي (نظرياً) ، ويعلن انتماءه الصريح له ، داعياً إلى الانفتاح على البحث اللغوي الحديث الذي يجعل اللغة موضوعاً للوصف . وقد كان متحمساً لنقد التراث النحوي العربي ، وكشف جوانب النقص فيه . وعليه ، فإن دراساته -غالباً- ما تُصنّف ضمن الاتجاه الوصفي . لكن المتابعة الدقيقة لدراساته\* ، تكشف أنها تقوم على أسس الاتجاه التاريخي المقارن ، وهو ما ستكشف عنه قراءتنا في ظاهرة علامات الإعراب عنده تحديداً التي كان تاريخياً في دراستها ، وإن بدا وصفيّاً في تعاطيه لظواهر أخرى .

اتجه "عبد الرحمن أيوب" إلى نقد التفكير النحوي ؛ لأن تفسيرات النحاة لم تعد تقنع في العصر الحديث الذي يتسم بموضوعية البحث ، ويحتّم على اللغويين أن يكونوا وصافين للظواهر اللغوية لا مفلسفين لها<sup>(١)</sup>.

وقد كانت العلامة الإعرابية إحدى مسوغات عديدة استند إليها في نقده للنحاة ، حيث يرى عدم وجود تلازم بين العلامة الإعرابية وبين الحاجة لتمييز المعاني التركيبية المختلفة . وإذا انعدم التلازم انعدمت السببية ... ولم يبق إلا أن نقلع عن التدليل . ونكتفي بتقرير الواقع ولا غير . وهذا هو ما تفعله المدرسة التحليلية الشكلية اليوم<sup>(٢)</sup>.

فهل اتجه إلى دراسة العربية دراسة شكلية تحليلية . وما حجة فك التلازم بين علامة الإعراب والمعاني النحوية ؟ وهل كانت دراسته شكلية وموضوعية ؟ .

يبدو لنا أن "أيوب" لم يميّز بين الحقيقتين الوصفية والتاريخية - أي بالنظر إلى ظاهرة الإعراب بوصفها خاصية ثابتة في العربية ، وبالنظر إلى استعمالها المتغيّر عن مسارها التاريخي . لذلك يرى أن "اللهجات العامية وصلت إلى نهاية المرحلة بتخلصها من الإعراب واقتصارها على مكان الكلمة في التركيب فمثلاً " محمد " في " محمدٌ ضربَ " فاعل ، وفي " ضربَ محمدٌ " مفعول في العامية المصرية " <sup>(٣)</sup>.

لكن ما جدوى قياس العامية التي تخلو من الإعراب على الفصحى التي تعتمد الإعراب ؟ إن النظر إلى العاميات بوصفها نهاية مرحلة بالنسبة للعربية ؛ يشكل وجهة نظر تعاقبية لا تمت للوصف الآنّي بصلة ؛ لأنها توحى بأن الإعراب ظاهرة طارئة أمكن التخلص منها بتطور الاستعمال . والواقع أن العاميات لا تشكل نهاية المرحلة ؛ لأنها إذ تخلصت من الإعراب تخلصت من تراكب النظام اللغوي في الفصحى ، واعتمدت فقط على ترتيب العناصر اللغوية في التركيب . و" إنه لغير ذي معنى أن نمعن في الجدل حول ما إذا كانت علامات الإعراب تتكفل بالدلالة على المعاني أو هي غير ذات شأن فيها ، وإنه لعبث محض

\* انظر كتابيه : اللغة والتطور ، و دراسات نقدية في النحو العربي .

(١) عبد الرحمن أيوب : دراسات نقدية في النحو العربي . مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع . مقدمة الكتاب (د-هـ) بتصرف .

(٢) دراسات نقدية في النحو العربي ، ص ٣٣ .

(٣) دراسات نقدية في النحو العربي : ص ٣٣ .

أن نستطرد في القياسات الظالمة حتى نستخرج من العاميات دليلاً على أن اللغة العربية ليست في حاجة إلى الحركات الإعرابية كي تستقيم دلالتها " (١) .

ولا ينزلق " أيوب " إلى التشكيك بوجود الإعراب كإبراهيم أنيس ، وإن كان لا يثبت ، لكنه يرى أن العربية الفصحى لا تعتمد كلية على الإعراب ، ويستدل على ذلك بأمثلة يخلص منها إلى عدم دلالة الحركات على المعاني ، إذ يقول : "إن اللغة العربية الفصحى تمثل مرحلة متوسطة بين التزام الحالة الإعرابية وبين التخلص منها ، والجنوح إلى مكان الكلمة في التركيب، وإنني أعترف هنا أن معرفتي القاصرة بتاريخ اللغة العربية لا تسمح لي بالجزم بما كانت عليه هذه اللغة - من هذه الناحية - في عصورها المبكرة . ولكني ألاحظ أن اعتماد العربية الفصيحة على الحالة الإعرابية ليس اعتماداً كاملاً . صحيح أن حالة النصب تميز " محمد " المفعول عن " محمد " الفاعل ، ولكن معنى المفعولية متحقق في نائب الفاعل المرفوع . وبهذا نجد أنه :

١- في : ضربَ محمدٌ                      ضربَ محمدًا

اختلفت العلامة الإعرابية باختلاف الدلالة .

٢- في : ضربَ محمدًا                      انضربَ محمدٌ                      ضُربَ محمدٌ

اختلفت العلامة الإعرابية مع اتحاد الدلالة . وكذلك نجد أنه :

٣- في : محمدٌ ضرب                      ضربَ محمدٌ

اختلفت الوظيفة الإعرابية لمحمد من مبتدأ إلى فاعل مع اتحاد العلامة الإعرابية، وإذا كان من الصحيح أن المفعول قد تميز عن الفاعل بالحالة الإعرابية ، فإن المبتدأ قد تميز عن الفاعل بمكانه من التركيب " (٢) .

لقد بنى " أيوب " نقده على أساس اهتمام النحاة بالدلالة (التي هي المعاني النحوية هنا) من دون المبنى أو الشكل ، فاتفق مثلهم على اختلاف العلامة باختلاف الدلالة كما في المثال الأول ، واختلف فيما يخص الحالتين : (٢) - اختلاف العلامة الإعرابية مع اتحاد الدلالة ، و ٣ - اختلاف الوظيفة الإعرابية مع اتحاد العلامة) . فنقول :

إن النحاة قد جعلوا علامات الإعراب ناتجاً للتركيب شكلاً ومعنىً ، ولا أدل على ذلك من أمثلته ؛ فليس الفاعل من يقوم بالفعل فقط ، وإنما ما يقع بعد فعل بصيغة (فَعَلَ) ويُسنَد الفعل إليه . فالتفريق بين أمثلة النموذج الثاني ليس قائماً على الدلالة وحدها ، وإنما على صيغ الفعل وعلاقتها بما بعدها في التركيب . فقد " أقام (القدمات) نظرهم على تلاحم الصعيدين في التعبير والمضمون ، ولم يبنوا تحليلهم على أساس صعيد المضمون فحسب ، فيقعوا في التأمل الفلسفي الذي عاب به اللسانيون الأوروبيون النحو الأوربي القديم " (٣) .

(١) عبد السلام المسدي : العربية والإعراب . ص ٥٨ .

(٢) دراسات نقدية في النحو العربي : ص ٣٢ - ٣٣ .

(٣) عز الدين مجدوب : المنوال النحوي . ص ٢٨٣ .

ففي المثالين : (ضربَ زيدٌ محمداً ، وضربَ محمدٌ) يقع الفعل على (محمداً) ، لكن الصيغة الصرفية للفعل ليست واحدة ، وقد كانت الحركة ناتجاً لاشتراك التركيبين في المستوى الصرفي و النحوي . فالمفعول به (محمداً) وقع بعد فاعل مرفوع (زيدٌ) لأن الفاعل يصلح بل يجب أن يقع بعد (ضربَ) . أما عند حذف الفاعل بعد الصيغة (فُعِلَ) فإن المفعول يأخذ محله وحركته وإن خالفه في المعنى مخالفة تُفهم من الصيغة نفسها . وبناءً عليه ، فإن وظيفة الفاعل تختلف من وظيفة نائب الفاعل من حيث المعنى وصيغة الفعل ، فالأول يقوم بالفعل بعد (فُعِلَ) ، والثاني وقع عليه الفعل بعد (فُعِلَ) ، ويشتركان في علامة الإعراب . وعلى العكس ، تختلف وظيفة المفعول به عن نائب الفاعل بصيغة الفعل التي تستوجب فاعلاً مرفوعاً ومفعولاً منصوباً بعد (فَعَلَ المتعدي) ، وتطلب اسماً مرفوعاً بعد (فُعِلَ) ، ويشتركان في المعنى . من هنا ، كان التفسير أعمق من الوصف ، وكانت عرقية الاستعمال قد أقرت نيابة المفعول عن الفاعل بعد تغيير الفعل رغم اختلافهما في المعنى .

أما الدراسة الشكلية التي دعا إليها " أيوب " فلا تستطيع تمييز الأمثلة السابقة ؛ لأنها تحليل يعتمد على المبنى فقط . كما أنه انتهى إلى حتمية تلك الدراسة حين يقول : " هذا يفضي بنا في النهاية إلى رأي المدرسة الشكلية في الدراسات اللغوية ، الذي يحتم أن تدرس اللغة لا باعتبار دلالة الألفاظ بل باعتبار أشكالها ، تعدد الحروف فيها أو ترتيبها أو غير ذلك من الأمور المادية " (١) .

فإذا طبقنا التحليل الشكلي للمثالين : (ضربَ محمداً ، وضربَ محمدٌ) أدّى إلى شكل واحد هو :

|               |         |                 |
|---------------|---------|-----------------|
| المركب الفعلي | ← الفعل | ← المركب الاسمي |
| ضربَ محمداً   | ← ضرب   | ← محمداً        |
| ضربَ محمدٌ    | ← ضرب   | ← محمدٌ         |

ولأن الفاعل (وظيفة المسند إليه) في المثال الأول ضمير مستتر ، فلا يظهر في مثل هذا التحليل ، ويؤدي (محمداً) ، فيه وظيفة المفعول به .

بقي من أمثلة النموذج الثاني المثال : (انضرب محمد) . حيث يرى " أيوب " أن محمد لها نفس دلالة المفعول به ونائب الفاعل وإن اختلفت علامتها عن علامة المفعول . والواقع أن هذا القول يخالف الهدف من وظيفة الصيغ الصرفية ، مسوياً بين المعاني المختلفة التي استعملها العرب بها قبل تفسير النحاة؛ ذلك أن معنى المطاوعة في (انفعل) يختلف عن معنى المبني للمجهول في (فُعِلَ) ؛ لذا فإن قوله تعالى مثلاً : "وانشقَّ القمر" فيه من الدلالة ما ليس في (شقَّ القمر) .

فكل حرف من أحرف الزيادة معنى زائداً يُجلب معه " ومعنى قولنا مطاوعة أن المفعول به لم يمتنع مما رامه الفاعل ، ألا ترى أنك تقول فيما امتنع مما رمته دفعته لم يندفع ، وكسرتة فلم ينكسر ؛ أي أوردت أسباب الكسر فلم تؤثر " (٢) .

(١) دراسات نقدية في النحو العربي : ص ٢١ .

(٢) شرح كتاب سيبويه : ج ٤ ، ص ٤٤٥ .

لذلك نقول إن صيغتي (فعل - انفعال) اشتركتا في نقل الفاعل إلى المفعول ، لكن اختلافهما في مبنى الصيغة ومعناها أثر على محيط الجملة ؛ فاستتبعت الأولى وجود نائب الفاعل ، واستتبعت الثانية وجود فاعل ؛ فكانت الصيغة الصرفية علامة على الوظيفة النحوية ، وهو ما لا يفسره التحليل الشكلي :

المركب الفعلي ← الفعل ← المركب الاسمي

انشق القمر ← انشق ← ال + قمر .

ويمثل "أيوب" لاختلاف الوظيفة واتحاد علامة الإعراب بالمبتدأ والفاعل في : "محمد ضرب ، وضرب محمد" ، فما يميز أحدهما عن الآخر هو مكانه في التركيب .

إن الدعوة إلى التمييز بين الوظائف بمكانها من التركيب ، إنما هي دعوة لإلغاء وظيفة الحركات ؛ لأن "أيوب" الذي يرى أن الفرق بين الفاعل والمبتدأ هو فرق بالمكان ، ويدعو إلى تعيين وظائف الكلمات بمواقعها من التركيب ، نجده في موضع آخر ، وهو (تقديم الخبر) لا يعد الموقع مميزاً بين وظيفة المبتدأ والخبر ، لأن المعنى لا يختلف بتأخير أحدهما أو تقديمه ، فيقول : "إن ما يخشاه النحوي من التباس المبتدأ والخبر ، ليس أمراً ذا بال لدى المتكلم الذي لا يشعر حتى بفكرة إسناد المبتدأ للخبر أو الخبر للمبتدأ . وقد يدرك المتفلسف الفرق بين إسناد الأخوة لزيد في المثال "زيد أخوك" وبين إسناد "زيد" لأخوك في المثال "أخوك زيد" . ولكني أشك في إدراك المتكلم - أو عنايته على الأقل - بمثل هذا الفرق . هذا مثال آخر لانشغال النحوي بقاعدته ومدى حساسيته بها . وهي حساسية بالغ فيها حتى أهمل تقدير الجوانب الواقعية في الاستعمالات اللغوية" (١) .

لكن أي متكلم لا يشعر بفكرة الإسناد عند إنجاز كلامه ؟ وفي أي مستوى لغوي جعله عبد الرحمن أيوب عالقاً ؟ ذلك أن (الترتيب) يبرز بوصفه قاسماً مشتركاً بين المستويين العامي الذي جنح إليه بعدما تخلص من الإعراب ، وبين الفصحى التي تجمع بين الترتيب والإعراب . فيبدو أن وعي المتكلم - عند أيوب - تام بالترتيب في العاميات ومنقوص في الإعراب ، وهو وعي تام بالاثنتين (الترتيب والإعراب) في مستوى الفصحى ، فما الذي تبقى منه هنا ؟ وما معيار الصواب والخطأ فضلاً عن التفاوت الأسلوبي في التراكيب الصحيحة ؟

إن عملية الاختيار تسبق عملية التركيب في ذهن أي متكلم . إذ يبدأ باختيار كلمة ما من بين احتمالات كثيرة في مخزونه اللغوي اختياراً مبنياً على القصد ، فإذا ما نطق بالكلمة طردت كل الاحتمالات ، كما أنه إذ يبدأ بها يؤسس لعلاقات التركيب التي تعطي فروقاً دلالية كلما اختلفت العلاقات التي تربطها . ثم تظهر حركات الإعراب علامة على وظيفة الكلمة في التركيب ، وطاردة لغيرها من الحركات قبل عملية التوزيع .

إن خاصية التقديم والتأخير ليست ناتجة لقواعد التركيب فحسب (بوصفها إحدى ممكناته) بل هي ناتج للقواعد التداولية ؛ لأنها تقصص عن الغرض من تركيب الكلام على نحو ما . وإذا كان كذلك ، فإن الترتيب " لا يكون في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصفة إن لم يُقدم فيه ما قُدم ولم يُؤخر فيه ما أُخر ، لم تحصل لك تلك الصورة وتلك الصفة " (٢) .

(١) دراسات نقدية في النحو العربي : ص ١٥٧ .

(٢) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص ٣٦٤ .

ولما كان غرض الكلام يختلف بالتقديم والتأخير ، كان ينبغي أن تتباين الوظائف التي جعل التقديم والتأخير علامة على تقدم إحداها وتأخر الأخرى . لذلك يرى " الجرجاني " وجوب القطع بهذا الفرق بين وظيفة المبتدأ ، ووظيفة الخبر ؛ لأن المبتدأ لم يكن كذلك لأنه منطوق به أولاً ، ولا كان الخبر لأنه من بعده ، بل كان الأول مبتدأ لأنه مسند إليه ومثبت له المعنى ، والخبر خبراً لأنه مسند ومثبت به المعنى .

ويتوصل " أيوب " إلى فك الترابط بين ظاهرة الإعراب وبين التعليل لها . فهو إذ يرفض علل النحاة لا ينفي الظاهرة لكنه يكتفي بتسجيلها فقط دون التعليل لها . يقول " سبق أن رفضنا العلل المنطقية التي يبرر لها النحاة إعراب الكلمات أو بناؤها واكتفينا بتسجيل ظاهرة الإعراب أو البناء دون تعليل لها ... وقد تفقد اللغة ظاهرة الإعراب بمرور الزمن ، وهذا هو ما حدث في اللهجات العربية الحديثة التي نزعنا أواخر كلماتها إلى لزوم حالة واحدة في مختلف التراكيب " (١) .

وقد بينا من قبل فساد هذا القياس (العاميات على الفصحى) الذي يعتمد "أيوب" كثيراً في هذا الكتاب ، حين يقول في موضع آخر : (إعراب العلمين المفردين) في مثل : رأيتُ محمداً . سعدٌ ، وجاء محمدٌ . سعداً : " كل هذه التأويلات على فرض أن الاستعمال الحديث ينصب الاسم الثاني أو يرفعه ، كما ذكر النحاة عن الاستعمال القديم . ولكن الواقع اللغوي اليوم لا يشهد بهذا ، بل ينجح إلى تسكين أواخر الأعلام . وهو من تأثير العامية في اللغة الفصحى التي نتكلمها أو نكتبها اليوم . وإذا صح هذا فليس هناك من مبرر لكل التأويلات التي ذكرناها " (٢) . فالتأويل من هذه الزاوية إذاً ، هو تأثير العامية في نظام اللغة الفصيحة . فكيف للنظام الواحد أن يتأسس على عاميات متعددة ؟ .

ومن الملاحظ أيضاً ، أن " أيوب " حاول أن يوصلنا إلى منهجه الشكلي عن طريق التناول لا النقد الموضوعي للنحاة ، وذلك في كثير من مواضع الكتاب حيث يصف منهجهم بالتفريق التافه (٣) ، والتمحُّل والهذر (٤) ، والتأويلات المتعسفة (٥) وغيرها من الأحكام التي لا معنى لها في البحث اللساني . لقد " انبهر الوصفون بالمنهج الحديث ، وسعوا إلى تطبيقه على معطيات اللغة العربية لكنهم لم يستطيعوا التخلص من تحليلات النحاة . ويبدو أن النهج الذي سلكه الوصفون هو النهج نفسه الذي سلكه قبلهم مهدي المخزومي تلميذ إبراهيم مصطفى ، في نقده للنحو العربي ، وهذا ما يمكن أن نستنتج منه أن الاتجاه الوصفي لم يكن في حقيقته إلا امتداداً واستمراراً لاتجاهات سابقة ، تغير شكلها ولم يتغير مضمونها " (٦) .

(١) دراسات نقدية في النحو العربي : ص ٩٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

(٦) حافظ إسماعيلي علوي : اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة . ص ٢٥٧ .

## ثالثاً : اللسانيات الوظيفية " أحمد المتوكل " نموذجاً في كتابه " اللسانيات الوظيفية " :

نشأ الاتجاه الوظيفي للجملة من نظرة الوظيفيين إلى اللغة على أنها أداة لتحقيق التواصل. ولما كانت اللغة ظاهرة تداولية ، فقد احتل الجانب التداولي موقعاً مركزياً في هذا الاتجاه . وقد " نشط الاهتمام بوظيفية براغ ترجمة وتعريفاً بشكل خاص في تونس ، غير أن تلك المحاولات لم تستطع أن تثمر اتجاهاً يحمل كل مقومات اتجاه وظيفي عربي . على هذا الأساس فإن الوظيفية التي سنتحدث عنها هنا هي وظيفية اللساني " سيمون ديك Simon Dick " ، التي شكلت اتجاهاً قائم الذات في البحث اللساني العالمي كان للثقافة العربية حظها الأوفى منه بفضل جهود أحمد المتوكل " (١) .

لقد سعى " المتوكل " في محاولة جادة إلى تأسيس نحو وظيفي للغة العربية باستلهاً النظرية الوظيفية لسيمون ديك ، وبالكشف عن الأصول الوظيفية في التراث ، وليس من هدفنا تتبع مشروعه الضخم ، إنما نحاول البحث عن الحركات من خلال وظيفتها كما تظهر في النحو الوظيفي . فكيف عرض المتوكل الوظائف النحوية ؟

يحدد " المتوكل " السُّلْمِيَّة الآتية للإعراب :

الوظائف التركيبية ← الوظائف الدلالية ← الوظائف التداولية (٢) .

فالمكون الحامل لوظيفة تركيبية يأخذ الحالة الإعرابية (الرفع أو النصب) بمقتضى وظيفته التركيبية أياً كانت وظيفته الدلالية أو التداولية ، كما يتبيّن من المثالين الآتيين :

(أ) فازت هندٌ (منفذ ، فاعل ، محور\* ) .

(ب) اشترى خالد سيارة (متقبل ، مفعول ، بؤرة جديدة\*\* ) (٣) .

أما المكون الحامل لوظيفة دلالية ووظيفة تداولية ، فإنه يأخذ - أياً كانت وظيفته التداولية - الحالة الإعرابية التي تخوله إياها وظيفته الدلالية :

(أ) عاد بكر مساءً (زمان ، بؤرة جديدة) .

(ب) مساءً عاد بكر (زمان ، بؤرة مقابلة) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٢) أحمد المتوكل : اللسانيات الوظيفية مدخل نظري . ص ٦٤ . دار الكتاب الجديد المتحدة . بيروت - لبنان ، ط ٢٠١٠ م .

\* يشكل محوراً العنصر محط الحديث في الجملة : ص ١١٤ .

\*\* يشكل بؤرة في جملة ما العنصر الحامل للمعلومة الأسبق : ص ١١٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٤ .

ويستنتج "المتوكل" من سُلمية تفاعل الوظائف في تحديد الإعراب في اللغة العربية " أن الوظائف التداولية لا تلعب دوراً في تحديد الحالات الإعرابية إلا بالنسبة للمكونات غير الحاملة لوظيفة تركيبية أو وظيفية دلالية كالمكون "المبتدأ" على سبيل المثال الذي يأخذ الرفع " .

وكون المبتدأ غير حامل لوظيفة تركيبية أو وظيفية فعائد إلى أنه وظيفة تداولية خارجية . حيث يقسم الوظائف التداولية في اللغة العربية إلى قسمين :  
وظائف خارجية ، ووظائف داخلية . فالوظائف الخارجية ثلاث هي : "المبتدأ ، والذيل ، والمنادى .  
والوظائف الداخلية اثنتان هما : "المحور ، والبؤرة" .

#### ١- وظيفة المبتدأ :

يُعرّف (المبتدأ) على أساس أنه " المكون الذي يدل على مجال الخطاب الذي يُعدُّ الحمل الموالي وارداً بالنسبة إليه " <sup>(١)</sup> . كما يوضح ذلك التمثيل :

هند ، عشقت عينيها

عشقت عينيها

هند

خطاب

مجال الخطاب

حمل

مبتدأ

لكن ما معنى خارجية المبتدأ ؛ إذا قلنا : محمدٌ صادقٌ . نجد أن المبتدأ دل على ذات شكلت محط الحديث. ولما كان "المتوكل" يعطي وظيفة المحور (للفاعل) و (للمفعول) في التركيب الفعلي ، فقد فرّق بين المبتدأ والمحور - كما سيجيء - بعدما وقف على هذا الإشكال وحاول تعليله طويلاً ، حيث يقول : "خارجية المكون المبتدأ بالنسبة للحمل لا تعني أنه مستقل عنه الاستغلال تامّه . فهو مرتبط به بوساطة رابطتين : رابط تداولي ، ورابط بنيوي ... ودليل ذلك أن خرق هذا المبدأ يؤدي إلى جمل لاحنة ، قارن :

(أ) الوردة ، تفتحت أكمامها .

(ب) السيارة ، تفتحت أكمامها .

ويحتّم في بعض اللغات كاللغة العربية ، أن يربط المبتدأ إحيالاً ضميراً داخل الحمل ... ويأخذ الضمير المرتبط إحيالاً ، لا وظيفة التداولية المحور كما يتبين من البنية الوظيفية للجملة :  
محمد ، وكزه خالد " <sup>(٢)</sup> .

إنه لتناقض ، إعطاء الضمير العائد على المبتدأ وظيفة المحور (الداخلية) التي تدل على ذات متحدث عنها، في الوقت نفسه الذي يعطي المبتدأ وظيفة خارجية .

ولأن المبتدأ محكوم عليه ، وجب أن يكون معرفة يدل على واحد بعينه ، وليس اسماً شائعاً (إلا إن أفاد بمواضع مخصوصة) ، ولا يعني هذا خارجيته التي يشير إليها " المتوكل " بقوله : "يشترط في المكون

(١) المرجع السابق ، ص ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٦ - ص ٢٤٧ .

المبتدأ أن يكون "عبارة مُحيلة" أي عبارة تحمل من المعلومات ما يجعل المخاطب قادراً على تعرف على ما تحيل عليه \* . خرق هذا الشرط تنتج عنه تراكيب مبتدئية لاحنة كما هو شأن الجملة :

أ. جارتنا ، خطبها خالد .

ب. فتاة ، خطبها خالد .

ج. رجل ، قابلته " (١) .

لقد قرر النحاة ذلك ، وأجمعوا على أنه " لا تُبَيَّن المعرفة بالنكرة باتفاق " (٢) . وحددوا روابط غير الضمير مثل رابط العموم أو إعادة المبتدأ بمعناه في مثل "نعم الرجل زيد" (٣) ، والرابط الإشارة في مثل "حبذا زيد" (٤) .. إلخ.

ويذهب "سيبويه" إلى بعد تداولي أرحب حين يقرر صحة وقوع المبتدأ نكرة والإخبار عنه بالنكرة إن حصلت الفائدة التي هي (ما يجوز أن يجهله المخاطب) .

قال سيبويه : "هذا باب ما يخبر فيه عن النكرة بالنكرة ، وذلك قولك : "ما كان أحد مثلك " و "ما كان أحد خيراً منك " و "ما كان أحد مجترئاً عليك " و إنما حسن الإخبار ها هنا عن النكرة ، حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه ؛ لأن المخاطب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثل هذا الشيء . قال أبو سعيد : قد قدمنا أن جواز الإخبار عن الشيء معقود بوقوع الفائدة للمخاطب، وتعريفهما : ما يجوز أن يجهله " (٥) .

أما حالة المبتدأ الإعرابية فيأخذها بوصفه خارج الحمل التي هي وظيفته التداولية .

ثم يعود " المتوكل " إلى مزيد من الإيضاح في التمييز بين (المبتدأ) و (المحور) عند تعريف وظيفة المحور ، وتحديد السمات التي تميزه عن المبتدأ ، وتثبت داخلية المحور (٦) . غير أن واقع الاستعمال يرفض هذا التمييز ؛ لأن العلاقة البنائية بين ركني الجملة الاسمية والفعلية إنما يحصل بالإسناد ، الذي يرفض مبدأ خارجية المبتدأ .

وثمة إشكال آخر يواجه خارجية المبتدأ ، هو باب (الاشتغال) الذي يفسره المتوكل بالتحجر ، فيقول : "يحصل غالباً أن يطرأ على التركيب المبتدئي "تحجر" بتسرُّب المكون المبتدأ داخل الحمل الذي يليه . ولعل التراكيب العربية المصطلح على تسميتها التراكيب "الاشتغالية" ناتجة عن ظاهرة التحجر هذه . إذا صح هذا الافتراض ، أمكن الربط بين التراكيب المبتدئية التي من قبيل :

\* يعادل هذه العبارة الطويلة مصطلح : (المعرفة) .

(١) المرجع السابق ص ٢٤٧ .

(٢) ابن هشام الأنصاري : معني اللبيب عن كتب الأعاريب . ج ٢ ص ٢١٤ .

(٣) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

(٤) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

(٥) شرح كتاب سيبويه : ص ٣١٧ .

(٦) أحمد المتوكل : اللسانيات الوظيفية ص ٢٤٤ .

أ. زيداً ، ضربته .

ب. زيداً ، ضربته .

على أساس هذا الربط بين النمطين من التراكيب ، يكون المكوّن "زيداً" مبتدأ متسرباً داخل الحمل آخذاً بذلك الوظيفة الدلالية المتقبل والوظيفة التركيبية المفعول والوظيفة التداولية المحور وآخذاً للحالة الإعرابية النصب بمقتضى وظيفته التركيبية " (١) \* .

فالمنصوب على الاشتغال ، انتصب بمقتضى وظيفته التركيبية ؛ لأنه مكوّن داخلي تُسند إليه وظيفة المحور على النحو الآتي :

زيداً ضربته (متقبل ، مفعول ، محور) .

وإنما جاز الرفع لاشتغال الفعل عن المفعول بضميره ، أما "المتوكل" فيرى أن المبتدأ قد تسرب داخل الجملة بالضمير فأصبح (المبتدأ) مكوّناً داخلياً بعدما كان مكوّناً خارجياً . قال سيبويه : "ومثل ذلك قوله تعالى " وأما ثمودُ فهديناهم " ، وإنما حسن أن يبنى الفعل على الاسم حيث كان معملاً في الضمير وإن شئت قلت : "زيداً ضربته" وإنما نصبت على إضمار فعل هذا تفسيره .. فالنصب عربي كثير والرفع أجود . أراد : أن النصب عربي كثير في "زيداً ضربته" والرفع أجود ؛ لأنك إذا رفعت لم تحتج إلى إضمار شيء ، وإذا نصبت أضمرت فعلاً " (٢) .

والأمر لا يقتصر على وظيفة الحركة في الاسم المشغول عنه ، بل من أجل المجانسة وهو دور الحركة الجمالي كذلك . ويترتب عليه هنا ، ترجيح نصب الاسم المشغول عنه إذا عطف على جملة فعلية ، مع جواز رفعه ، ولكن الرفع مرجوح ، لأن التناسب ينتفي به .

وممّا ورد من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى : (٣)

١- " خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ \* وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا " [النحل: ٤-٥] .

٢- " يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا " [الإنسان: ٣١] .

أجمع القراء السبعة على قراءتها بالياء (والظالمين) والمؤثر في ذلك هو المحافظة على التناسب بين الجمل المتعاطفة ؛ حيث إن إيثار النصب يؤدي إلى عطف جملة فعلية على مثيلتها .

٣- قوله تعالى : " فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ " [الأعراف: ٣٠] .

---

\* يُعرف الاشتغال بأن يتقدم اسم ، ويتأخر عنه فعل ، عامل في ضميره (أو في ملابسه) ، ويكون ذلك بحيث لو فرّغ من ذلك المعمول وسلّط على الاسم الأول لنصبه : شرح قطر الندى وبل الصدى . لابن هشام الأنصاري ، تحقيق : محي الدين عبد الحميد ص ٢١٠ .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٨ .

(٢) شرح كتاب سيبويه : ج ١ ، ص ٣٧٨ - ٣٧٥ .

(٣) إبراهيم جميل : التطبيقات اللغوية . ج ٢ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

أجمع القراء السبعة أيضاً على نصب (فريقاً) الثانية ، وذلك لتقدم الجملة الفعلية (فريقاً هدى) فكلمة (فريقاً) الثانية مفعول لفعل محذوف مناسب يفسر بما بعده ، فيكون التقدير : وأضل فريقاً . \*

فليس هناك تسرب للمبتدأ في النماذج السابقة ، وقد كان تفسير النحاة أكثر ملائمة لواقع الاستعمال اللغوي من الوظائف التداولية .

## ٢- وظيفة الذيل :

ويُعرف الذيل بأنه " المكون الذي يوضح أو يعدل أو يصحح معلومة واردة في الحمل " ينسحب هذا التعريف على المكونات " هند " و "تأدبه" و "سعاد" في الجمل الثلاث الآتية : (١)

أ. عشقت عينيها ، هند .

ب. سَرَنِي خالد ، تأدبه .

ج. زاررتي هند ، بل سعاد .

هكذا ، يفرق " المتوكل " بين وظيفتي المبتدأ و الذيل في المثال (أ) . حيث يأخذ المكون (هند) وظيفة الذيل ، أما في المثال السابق : (هند ، عشقت عينيها) فيأخذ وظيفة المبتدأ. والسبب أن (الذيل) قد وضح جملة الحمل المتقدمة عليه ، فالغرض منه التعليق على معلومة واردة في الخطاب السابق ؟ ولذلك يجب أن يلي جملة الحمل في عملية التخاطب . وذلك على عكس المبتدأ الذي يحتل الموقع المتقدم على الحمل نظراً لدوره في عملية التخاطب المغاير لدور الذيل " ويحتم هذا التمييز رفض أي مسوغ لاعتبار المبتدأ والذيل مكوناً واحداً حاملاً لوظيفة واحدة متموقعاً في موقعين مختلفين " (٢) .

ويكون إعراب الذيل (بالإرث) لأنه يرث الخصائص الدلالية والتركيبية للمتقدم عليه وكأنه بديل له.

إن تفسير الذيل في الجمل السابقة على التوالي ، يلغي القوانين التركيبية الآتية من نظام العربية :

أ. تأخير المبتدأ

ب. البذل

ج. العطف

أ) إن المبتدأ إذ يتأخر لفظاً ، فإنه يبقى مقدماً في المعنى ، لأنه مسند إليه . والخبر وإن قدم لفظاً ؛ للعناية به ؛ يبقى حكماً مسنداً للمبتدأ . وليس الحكم منوطاً بالموقع كما يرى " المتوكل " في حتمية تقدم المبتدأ لفظاً ، وتأخر الذيل ، بل إن في ذلك إلغاء لخاصية التقديم والتأخير " المحددة لبنية اللغة والمحركة لوظيفتها في آنٍ معاً " (٣) .

\* انظر جملة من الشواهد على ترجيح النصب : ص ١٥٦ ، ص ١٥٧ من المرجع السابق .

(١) اللسانيات الوظيفية : ص ١٥٢ . وانظر مزيداً من الأمثلة ص ٢٤٨ .

(٢) السابق : ص ٢٤٩ .

(٣) عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات . ص ١١١ .

ب) أما الذيل في المثال : (سرّني خالد ، تأدبه) ، والذي يجعل وظيفته توضيح ما قبله ، وكذلك يرث إعرابه ، فهو ليس إلا (البذل) الذي يعرفه النحاة بأنه التابع المقصود بالحكم بلا واسطة بينه وبين متبوعه ، بغرض التوكيد والتوضيح .

لقد نص النحاة على الفائدة من البذل وعلى تبعيته في الإعراب ، فما الجديد الذي يضيفه (الذيل) على وظيفة (البذل) .

ج) وتأتي وظيفة الذيل في المثال (زارتني هند ، بل سعاد) لتصحيح ما قبلها، وتعرب عن طريق الإرث أيضاً . ونجد أن التصحيح في أسلوب الإضراب الذي تدل عليه (بل) ، هو ما حدده النحاة في حروف العطف التي تقتضي التشريك في الإعراب دون المعنى وهي (بل ، ولا ، ولكن) . ليبقى السؤال يراوح مكانه في الاستفادة إجراؤه من إعراب سعاد : ذيل مرفوع لتصحيح ما قبله ؟ !

### ٣- وظيفة المنادى :

لا جديد في هذه الوظيفة غير أن "المتوكل" يرفض نصب المنادى بفعل مقدر (أدعو) ؛ إذ لا وجود للفعل في سطح الجملة ؛ ولذلك يرد النصب إلى وظيفة المنادى التداولية . و"لقد بيّنا أن هذا النمط من التحليل (التقدير) يواجه مشاكل عدة منها الاضطرار إلى تقدير عناصر لا تظهر في سطح الجملة . و اقترحنا بدلاً من ذلك ، أن يُرد إعراب المكون المنادى إلى وظيفته التداولية ذاتها. فالمكون المنادى منصوب لأنه منادى. " (١)

هذا فيما يتعلق بالوظائف الخارجية الثلاث : "المبتدأ" و "الذيل" و "المنادى". وهي مكونات اختيارية ، إذ يمكن أن يرد الحمل من دون أحدها أو من دونها جميعاً .

أما الوظيفتان التداوليتان الداخليتان : "المحور" و "البؤرة" ، فالمتوكل يسند لوظيفة (المحور) كل ذات تشكل محط الحديث داخل جملة الحمل .

ينطبق تعريف (المحور) على المكونين "خالد" و "الطفل" في الجملتين : (٢)

أ. شرب خالد شاياً .

ب. أتت بالطفل هند .

ويهتم "المتوكل" بوظيفتي (الفاعل والمفعول) في اللغة العربية ، مسنداً إليها وظائف دلالية متعددة . (٣)  
فالفاعل والمفعول يحملان وظيفة تركيبية ، وتحمل البؤرة وظيفة دلالية ، أما المكونات الخارجية كالمبتدأ والذيل فلا تحمل وظيفة دلالية ولا تركيبية إنما تداولية فقط " فالمكوّن المبتدأ ، مثلاً ، باعتباره خارجاً عن الحمل ، غير حامل بالتالي لوظيفة دلالية ولا لوظيفية تركيبية ، يأخذ الحالة الإعرابية الرفع بمقتضى التداولية (المبتدأ) .

(١) اللسانيات الوظيفية : ص ٢٥٢ .

(٢) اللسانيات الوظيفية : ص ١٥٣ .

(٣) انظر المرجع السابق : ص ٢١٠ ، ٢١١ .

ليس هذا فحسب ، فالمتوكل يرفض وظيفة (المفعول المتعدد) لأنه يخرق قيد أحادية الإسناد في النحو الوظيفي ، حيث لا تسند وظيفة إلى أكثر من موضوع داخل نفس الحمل . وعلى هذا ؛ يستقطب المفعول الأول (المستقبل) وظيفة المفعول ، أما المفعول الثاني فلا تسند له وظيفة تركيبية بل وظيفة دلالية فقط هي (المتقبل) ؛ ولذلك يستنتج " أن الفرضية الأورد بالنسبة للغة العربية على الأقل ، هي " فرضية المفعول الواحد " الفرضية القائمة على فكرة أن المفعول وظيفة واحدة تُسند إلى موضوع واحد في الحمل الواحد" (١)

هكذا ، اهتم "المتوكل" بوظيفة الفاعل والمفعول (الواحد) مع حرمان الوظائف الأخرى ما تستحقه من عناية وتوجيه .

إن حصر وظائف النصب والجر في (البؤرة ، والذيل) يلغي معاني نحوية تدل عليها المنصوبات والمجرورات بحسب النظام اللغوي في العربية . وهو ما لا يحاكي واقع الاستعمال " فلم تبرح التجربة اللسانية الوظيفية عند المتوكل (رغم غناها) حدود النحو الوظيفي ؛ إذ ظل المتوكل في أغلب تحليلاته وفيما تحليلات " دك " . والسؤال الذي يُطرح هنا : ما موقع قضايا اللغة العربية التي لم تتل حظها من تحليلات المتوكل في النحو الوظيفي ؟ إن كل مقارنة للغة العربية يجب أن تراعي خصوصيات هذه اللغة وتميزها وأن تقوم على اختيار ملائمة النموذج المُتبني لمعطيات اللغة لا العكس ، فمن غير المقبول اعتماد آليات ومبادئ مستحدثة في نموذج من النماذج واختبار مدى ملائمة معطيات اللغة لها ، بل ما يجب أن يكون هو العكس، أي أن تكون معطيات اللغة هي الأساس لاختبار نجاح أو فشل هذا النموذج أو ذاك " (٢) .

ويتلخص لدينا من عرض هذه الاتجاهات اللسانية : التاريخية ، والوصفية ، والوظيفية أن كثيراً من مبادئها مخالف لوظيفة الحركات في النظام اللغوي كما ظهرت عند ممثليها من اللسانيين العرب ما بين جنوح الاستغناء عن الحركة وشكلية الوصف من جهة ، وبين قسر مبادئ لا تكشف العلاقة الكائنة بين دال علامة الإعراب ومدلولها الوظيفي في كل الأحوال .

ويحملنا هذا التتبع لقضية الحركات إلى عرض وظيفتها في اللسانيات التوليدية التحويلية ، كاشفين تميز هذا الاتجاه اللساني عن الاتجاهات السابقة في الفصل الآتي .

(١) المرجع السابق : ص ٢٢٠-٢٢١ .

(٢) حافظ إسماعيلي علوي : اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ص ٣٨٦ .

## **القسم الثالث**

### **الفصل الثالث : العلاماتية في الدراسات العربية الحديثة**

- مدخل
- ميشال زكريا في كتابه : الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)
- مازن الوعر في كتابيه : قضايا أساسية في علم اللسانيات ، و نحو نظرية لسانية عربية
- خليل عمايرة في كتابيه : في التحليل اللغوي ، و في نحو اللغة وتراكيبها
- العلاماتية في الدراسات العربية المستقبلية .

## مدخل :

نروم من خلال هذا الفصل تحقيق هدفين :

(الأول ) عرض التصورات حول (الحركات) كما تظهر في تطبيق الاتجاه التوليدي التحويلي على اللغة العربية .

(الثاني ) الإشارة إلى أهمية المنهج السيميائي في الدراسات اللغوية العربية ، المستقبلية منها بشكل خاص . ولتحقيق هذا المسعى ؛ فصلنا مستجدات درس اللساني - ومنها الاتجاه التوليدي التحويلي - عن الاتجاهات السابقة (التاريخية ، والبنوية ، وما بعد البنوية) لسببين جوهريين هما :

(١) إن اللسانيات التوليدية إنما استجذبت في درس اللساني من منظور نقدي وجّه لكل المدارس البنوية في مراحلها الأولى ولا سيما البلومفيلية . فقد جاءت من رحم النقد ، تحمل هموم الدراسات اللسانية المستقبلية .

(٢) إن الدراسات الوصفية البنوية اشتركت مع الدراسات التاريخية في مفهوم (المدونة) وجمع الجمل ، وقد اختلفت اللسانيات التوليدية في هذا ؛ فأسقطت المدونة (مفهوم الجمع) من منظورها مما أدى إلى إسقاط منهج الاستقراء بالكلية والاستعاضة عنه بالاستنباط .

لقد غيّر الاتجاه الوصفي وجهة درس الحديث ؛ بتحديد موضوع اللسانيات وغايتها (دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها) . واعتماداً على ذلك ، حصروا الممارسة اللسانية بدراسة الأنساق أو البنى التي تتشكل بها الجمل، فاستعاضوا بهذا عن التركيز على جمع الألفاظ ودراسة تطورها ، غير أن الاتجاهين يشتركان في جمع المعطيات اللغوية وتصنيفها أو وصفها وصفاً تجريبياً ، وهذا يعني أنهما يقومان على أساس الاستقراء. ذلك ؛ أن النظرية البنوية تعد " الوصف اللغوي وحده هدف التحليل اللساني ، من هنا حاولت جمع أكبر عدد من المواد اللغوية لوصفها وتحليلها ... واعتمدت في وصف اللغات على استقراء للمادة اللغوية وفحصها بشكل تجريبي مضبوط " (١)

أما منهج "تشومسكي" فقد قدم رؤية جديدة استطاعت أن تنقل اللسانيات من المرحلة البنوية إلى مرحلة جديدة تؤسس الأسلوب الاستنباطي الاستنتاجي وتركز عليه أكثر من التركيز على الأسلوب الاستقرائي التجريبي . وقد كان منهجه ذهنياً ، وهدفه هو " التعليل والشرح بالإضافة إلى الوصف اللغوي ... فلكي يحلل عالم اللسانيات اللغة على حد رأي تشومسكي ، فإن عليه أن يقترب أكثر من المتكلمين الناطقين بلغتهم وذلك لسبر الكفاءة أو القدرة اللغوية الفاعلة والمنفعلة في ذهن البشري. " (٢) .

وتجدر بنا الإشارة هنا ، إلى أننا لا ننتبّع تلقى اللسانيين العرب للاتجاه التوليدي ، ولا نرصد مدى مساهمتهم للمنهج المقصود ، إنما نحاول الوصول إلى موقع ظاهرة (الحركات) من ذلك التلقي ؛ للكشف عن الجديد المضاف فيه ؛ نظراً لاختلاف الإطار المنهجي .

(١) مازن الوعر : قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث . ص ١١٦ . دار طلاس - دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٨ م .

(٢) المرجع السابق : ص ١١٦ - ١١٧ .

## أولاً : ميشال زكريا في كتابه "الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة) " :

يطرح "زكريا" إشكالية علامات الإعراب في هذا الكتاب مرتين : الأولى) يتناولها تحت عنوان (الفئة و الموقع والمحل من الإعراب) ، والثانية ، يتناولها من خلال علاقتها بترتيب عناصر الكلام . فما الموقف الذي يتخذه تجاه علامات الإعراب انطلاقاً من القواعد التوليدية والتحويلية للغة العربية ؟ .

### ١) الفئة والموقع والمحل من الإعراب

- الفئة : ويعني بها ، أن الكلمة عندما ترد في قواعد إعادة الكتابة ، فإننا نشير إلى انتمائها إلى فئة من الفئات ، مثلما تنتمي كلمة " كتب " إلى فئة الأفعال ، وكلمة " رجل " إلى فئة الأسماء . ولكي يميز "زكريا" بين القواعد التقليدية والقواعد التوليدية التحويلية فيما يخص مصطلح (الفئة) يفرض على كل فئة ما يسميه بالسّمات التي تأخذ إما علامة السلب وإما علامة الإيجاب بين ثلاث أنواع من السّمات هي :

السّمات الفونولوجية أو الصوتية ، والسّمات التركيبية ، والسّمات الدلالية ، مثلاً : الفعل (علم) يأخذ السّمات (+ فعل ، + متعد ، + شخصي ، + فاعل إنسان ، + مفعول به جملة) ، إضافة إلى هذا ، فهناك سمات خاصة بفئة الأسماء ، وأخرى تخص فئة الحروف (حروف الجر) . لكن ما الفرق بين أن يقال فعل متعدّ أو لازم وبين أن يُشار إليهما بسمة (+متعد) (-متعد) ؟ وكيف بالإمكان أن تسهم هذه السّمات في صياغة القواعد التوليدية التحويلية للغة العربية ؟ يرى "زكريا" أن تلك السّمات تحقق كفاية تفسيرية في بنية الجملة السطحية إذ تشير إلى القواعد المستنبطة في ذهن المتكلم ، فيقول : " إن سمة (+متعد) في بنية الجملة السطحية ، يفترض وجوده في البنية العميقة للجملة . لمزيد من الإيضاح ، نعتمد الجمل التالية : (١)

أ) يأكل الرجلُ . ← أ) يأكل الرجلُ شيئاً .

ب) يدرسُ الطالبُ . ← ب) يدرسُ الطالبُ شيئاً .

ج) يدخلُ الرجلُ . ← ج) يدخلُ الرجلُ شيئاً .

إن أفعال هذه الجمل تحمل السمة (+متعد) ولذلك يمكن اعتبارها مشتقة بالتتابع من الجمل المقابلة. ورغم أن كلمة " شيء " فارغة من أي مدلول إلا أنها تحتل موقع المفعول به لهذه الأفعال في البنية العميقة وإن لم تحمل بالضرورة أي دلالة .

كما تظهر أهمية هذه السّمات أيضاً ، بالحكم على مقبولية الجمل كما في الأمثلة الآتية :

أ. زعم الحيوان أن الحياة جميلة .

ب. وجد القلم أن الحياة جميلة .

ج. ظنَّ الحائط أن الحياة جميلة .

(١) ميشال زكريا : الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة) . ص ٦٧ - ٦٨ . مجد - المؤسسة

الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . بيروت - لبنان - ط ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

" فهذه الجمل غير مقبولة ؛ لأن الفعل فيها يأخذ اسماً فاعلاً يحتوي على سمة (+ إنسان) <sup>(١)</sup> . ولعلنا نرد على " زكريا " بالاحتكام إلى حدس مستعمل اللغة في مقابل معيار النظام . فإنه يدرك عدم قبول الجمل السابقة ، وبداهة التقدير في الأولى دون جهد ولا تكلف . فالعلاقة القائمة بين جملة العلامات المكونة لمجموعة الجمل الأخيرة غير مقبولة ؛ لأن كل علامة تتوقف دلالتها ووظيفتها على بقية العلامات . كما أن مستعمل اللغة قد استقر عرفه على تعدي الأفعال (يأكل ، يدرس ، يدخن) مما ينشئ علاقة بينها وبين المفعول أيًا كانت تجلياتها في الاستعمال .

#### - الموقع والوظيفة :

يحتل موقع الكلمات أهمية بالغة في القواعد التوليدية ؛ لأن الكلمة تأخذ قيمتها النحوية من موقعها في البنية العميقة " نحدد ، في الواقع ، وظيفة الكلمة انطلاقاً من موقعها . فنعرف الفاعل ، مثلاً ، من حيث إنه الاسم الذي يرد في البنية العميقة بعد الفعل . وبمقدورنا على سبيل المثال ، وضع التعاريف الآتية :

فاعل = (اسم ، ركن إسنادي) .

مفعول به = (اسم ، ركن إسنادي) .

مسند إليه = (فعل + ركن إسنادي) .

إن تعريف الوظيفة من حيث موقع الكلمة في البنية العميقة يلغي أي دور لعلامة الإعراب عند "زكريا" وذلك " لأنه لدينا أسباب تدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذه العلامات تنص على قواعد يتم إجراؤها في مرحلة متأخرة بالنسبة لبقية قواعد المكون التركيبي وفي مستوى قريب من المستوى السطحي . ولأننا نحدد وظيفة المؤلف الكلامي في الجملة وفقاً لموقعه في البنية العميقة وليس وفقاً للعلامة التي تلحق به.... ولنأخذ على سبيل المثال الجمل الآتية :

(١) الرجل مجتهد .

(٢) كان الرجل مجتهداً .

(٣) إن الرجل مجتهد .

إن وظيفة المورفيم "رجل" والمورفيم "مجتهد" لا تحددها الحركة الإعرابية <sup>(٢)</sup> .

ويمكن الرد على ذلك على النحو الآتي :

١- ثمة حلقة مفقودة على مستوى المنهج التوليدي في رأي "زكريا" السابق، وهي : التفسير .

فمعلوم أن اللسانيات التوليدية مع "تشومسكي" قد تجاوزت الوصف الصرف إلى التفسير ،

وإذا كان "زكريا" يتبنى الاتجاه التوليدي إطاراً نظرياً ، فيجب عليه تبعاً لمنظوره المنهجي

(١) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩ .

أن يفسر ارتباط الحركات بلغة الخطاب المختلفة ارتباطاً وجود ، أو يفسر كيف تتبع الحركات من القدرة اللغوية للعربي ؟ .

إن ثنائية : العلامة والقيمة ، كانت من أهم المفاهيم التأسيسية التي أرساها "سوسير" وقد بينا أن للكلمة بوصفها علامة معنى يختلف عن الوظيفة التي تؤديها داخل التركيب ، وتدل عليها الحركات . إن " النظرية التوليدية كسرت ثنائية الدال والمدلول ، وأعادت البحث إلى المعين الذي تتبع منه القدرة اللغوية ... فتجرات على البحث في الإنسان من خلال اللغة بعد أن كانت مقيدة ببحث اللغة من خلال الإنسان".<sup>(١)</sup> ، نقول : لئن كسرت التوليدية تلك الثنائية ، فلم تكن غاية لها ، فإنها مطالبة (بالنسبة لمتلقيها العربي) بإعادة تأسيس قواعد منهجية تفسر لنا تلازم القدرة مع الأداء بهذه الصيغة المعربة ؟ .

٢- استناداً إلى مفهومي : المقدرة والأداء ، كنا قد قررنا أن بعض أنواع الغياب للحركات (كالوقف ، والاقتصاد في النطق ، أو حتى الحذف) ، إنما يقع في (الأداء) مع قيامه في (التمكن) . لكن الملاحظ أن "زكريا" لا يشير إلى نوع من أنواع الغياب ، بل إلى ظهور الحركة مستثمراً في الوقت ذاته المفهومين السابقين ، لإلغاء وظيفة الحركات والاكتفاء بموقع الألفاظ ؛ لأن الكلمة تأخذ قيمتها - في نظره - من موقعها في البنية العميقة ؛ ولأن إجراء الحركات يتم في مرحلة قريبة من المستوى السطحي .

لقد جعلنا الحركات قائمة في البنية التحتية للكلام ، فاتجهنا من ذلك الوجود لتفسير أوجه أدائها (ظهوراً / أو غياباً) فيما نتلفظ به . والسؤال هنا : كيف يتم تفسير الأداء ما لم يعكس التمكن ؟ لقد جعل "زكريا" وجود الحركات محصوراً في البنية الفوقية ؛ ولذلك رأى أن الحركة لا تحدد وظيفة الكلمة ، ولا ينبغي لها وإن ظهرت ؛ لعدم وجودها في بنية الكلام التحتية . والواقع أن " الكلام البشري تحكمه بنية عميقة قد يتجلى على سطح الكلام ما يطابقها بالتمام ، وقد يتجلى عليه ما يرسم الطريق إلى استنباطها " <sup>(٢)</sup>.

٣- يحدد "زكريا" وظيفة الكلمة من حيث موقعها . فيجعل موقع الكلمة ملغياً لوظيفة الحركة ! ولقد نرى أن البحث في الوظيفة النحوية هو بحث في علاقة الألفاظ بعضها ببعض ، وما ينتج عن هذه العلاقة . أي أنه ليس بحثاً في ترتيب عناصر التركيب فحسب ، إنما في آليات الارتباط، لذلك فهو في لغة كالعربية (لغة إعرابية) يبحث علاقة الألفاظ عند توزيعها أولاً ، ثم ما يدل على تلك العلاقة وهو الحركة ثانياً " فالرجل القديم عندما فكر في التوزيع الوظيفي للألفاظ داخل الجملة ، رأى أن يميز عمل كل لفظة بنهاية صوتية معينة ، وكانت له بذلك حرية واسعة جداً في ترتيب هذه الألفاظ داخل الجملة كما يشاء . فاللفظ ، ما دام

(١) عبد السلام المسدي : العربية والإعراب . ص ١٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١ .

يحمل العلامة المميزة لمهمته ، يجوز فيه التقديم والتأخير ، بل يمكن أن يحذف من الجملة إذا بقي فيها ما يدل عليه ويجعله مفهوماً من السياق . هذا الإعراب على ما يبدو للمتعلمين من تعقيد، يعد طريقة بسيطة لتمييز وظائف الألفاظ في الكلام المركب ، وهو أقل تعقيداً من طريقة الكلام في اللغات الخالية من الإعراب" (١).

٤- إن اللسانيات التوليدية لم تنقص المعرفة النحوية التقليدية ، وهو أمر يؤكد "زكريا" فيقول : "بقدر ما تقدمنا في دراستنا التي تتناول اللغة العربية ، وفق المنهجية الألسنية ، بقدر ما ازدادت قناعاتنا بضرورة اللجوء ، بصورة متواصلة ، إلى مؤلفات القدامى اللغوية ، في مجال دراسة اللغة وإلى ضرورة إعادة قراءتها قراءة حديثة . وذلك لأن دراسة اللغة العربية لا يمكن إتقانها بمعزل عن القضايا اللغوية التي أجاد القدامى في وصفها وفي تحليلها ، وفي إدلاء الآراء المفيدة حولها . فهذه المؤلفات ، بالذات ، تكون التراكم اللغوي الوحيد الذي بمقدوره مد الدراسات الألسنية بالمعلومات اللازمة ، نظراً إلى واقع اللغة العربية الحالي" (٢). وإن مما لا شك فيه ، أن ارتباط الحركات بالمعنى الوظيفي في الجملة، يعد من مسلمات النحو التقليدي ، وقد أجاد النحاة وأطنبوا في وصفها وتحليلها . ومع ذلك، يجري "زكريا" في قضية الحركات على خلاف ذلك التراكم اللغوي الثمين ، فيحدد وظيفة الكلمة وفقاً لموقعها في البنية العميقة ، وليس وفقاً للعلامة التي تلحق بها " ومع التخلص من الإعراب يحدث دائماً تقييد وتحديد من حرية المتكلم في التقديم والتأخير والحذف ، فاللفظة وقد أصبحت لا تحمل في نهايتها العلامة الصوتية المميزة لوظيفتها في الجملة ، تحتاج بدل هذه العلامة إلى أن يكون لها مكان ثابت في نظام الألفاظ داخل الجمل ، بحيث تعرف وظيفتها من هذا المكان الذي تشغله، ولذلك فإن علم التركيب (Syntaxe) يزداد دقة وتعقيداً ، ويفقد كثيراً من مرونته القديمة في اللغات الموقوفة ، أي التي ليس فيها إعراب " (٣).

والموضع الثاني الذي يذكر فيه "زكريا" علامات الإعراب هو في (ترتيب العناصر اللغوية في البنية العميقة) ، فيرى أن هناك ضوابط لترتيب عناصر الجملة تمنع من توليد الجمل غير القاعدية ، وهذا يعني أن الترتيب ليس حراً كما يزعم البعض ، وأن العلامة الإعرابية هي التي تحدد الوظائف النحوية فيه ، يقول : " يزعم بعض الباحثين أن ترتيب عناصر الجملة العربية من فعل وفاعل ومفعول به، ترتيب حر . ويردون ذلك إلى أن الحركات الإعرابية التي تظهر في آخر الكلمات تميز بين الكلمات من حيث موقعها الإعرابي. فإذا افترضنا صحة هذا الزعم ، نفترض في الوقت نفسه ، توافر البنى الآتية :

(١) حسن ظاظا : اللسان والإنسان مدخل إلى معرفة اللغة . ص ١٠٨- ١٠٩ .

(٢) ميشال زكريا : الألسنية التوليدية والتحليلية ، ص ٢٠ .

(٣) حسن ظاظا : اللسان والإنسان ، ص ١١١ .

(١) أ. فعل + فاعل + مفعول به أكل الرجل التفاحة

ب. فعل + مفعول به + فاعل أكل التفاحة الرجل

(٢) أ. فاعل + فعل + مفعول به الرجل أكل التفاحة

ب. فاعل + مفعول به + فعل الرجل التفاحة أكل

(٣) أ. مفعول به + فعل + فاعل التفاحة أكل الرجل

ب. مفعول به + فاعل + فعل التفاحة الرجل أكل<sup>(١)</sup>.

ثم يشير إلى أن هذه البنى جميعها غير متوافرة في واقع اللغة ، فالجملتان الآتيتان غير أصولية :

فاعل + مفعول به + فعل الرجل التفاحة أكل

ومفعول به + فاعل + فعل التفاحة الرجل أكل

أما الجمل التي يقع فيها المفعول به قبل الفاعل فمشكوك في ورودها في اللغة العربية :

فعل + مفعول به + فاعل أكل التفاحة الرجل

ومفعول به + فعل + فاعل التفاحة أكل الرجل

يبقى الترتيب المقبول هو أحد الترتيبين الآتين :

فعل + فاعل + مفعول به أكل الرجل التفاحة

وفاعل + فعل + مفعول به الرجل أكل التفاحة

وهو يلائم التمييز بين الجملة الفعلية وبين الجملة الاسمية التي يشير إليها اللغويون<sup>(٢)</sup>.

ويرى أن الترتيب الأساسي لعناصر الجملة في البنية العميقة هو :

(فعل + فاعل + مفعول به / أكل الرجل التفاحة) . ويستدل على ذلك بأننا في حال تقديم

المفعول به ، فإننا نحتاج إلى قواعد التحويل الآتية :

تحويل نقل الاسم إلى موقع الابتداء + الضمير<sup>(٣)</sup>

التفاحة أكلها الرجل .

ولن ندخل هنا ، في تفاصيل ترتيب العناصر السابق ، لكن ينبغي الإشارة إلى المغالطة

التي يقع فيها "زكريا" عندما ينفي مرونة الترتيب . بفعل علامات الإعراب، و يقيد بنماذج

محددة هي النماذج الأولية التي قد تتسع بفعل قواعد التحويل ، أما ما عداها فجمل غير

(١) ميشال زكريا : الألسنية التوليدية والتحويلية ، ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٧ .

أصولية أو مشكوك فيها وننبه إلى أن هذه الأحكام لم تحظ بالدقة بموجب قاعدة ترتيب العناصر داخل اللغة العربية كما تبين هذه الجملة : (أكل التفاحة الرجل) التي تقابل مثلاً : ضرب عمرأ زيد . وهي جملة كثيرة الورد بخلاف رأي "زكريا" أي التشكيك فيها . لكن مَنْ زعم حرية الترتيب ؛ لأن علامات الإعراب تحدد الوظائف فيه ، لم يتمثل الجمل غير الأصولية ، فالصحة اللغوية أو الأصولية سمة مشتركة جامعة بين الترتيب الصحيح والعلامات الإعرابية التي هي ناتج ذلك التركيب كيفما كان مقبولاً؛ لذلك فإن ظهور علامات الإعراب في سطح الكلام يكون دالاً على بنية خفية تنظم عناصر الكلام . وبالتالي ، لا تبدو المقابلة صحيحة بين الجمل الأصولية وغير الأصولية فيما سبق. ولا تهدف إلا إلى إلغاء ذلك الدور لعلامات الإعراب ؛ إذ لم يقل أحد أن علامات الإعراب تدل على الوظيفة النحوية في جملة ترتيب عناصرها مختل . كما أن تمييز "تشومسكي" بين مقبولية الجمل ، وقواعديتها ، إنما كان على أساس المكون الدلالي الذي أدخله في مرحلة تالية . ولم يكن على أساس من الترتيب ، الأمر المفهوم من المثال الشهير الذي يفرق بين المفهومين ، وهو قوله :

الأفكار الخضراء عديمة اللون تنام بغضب

ولئن كانت اللسانيات التوليدية قد انتقلت باللغة من الوصف إلى التفسير ، فإن علامات الإعراب ، لم تجد لها تفسيراً في دراسة "زكريا" التي لم تراوح مستوى الجملة كذلك .

## **ثانياً : مازن الوعر في كتابيه "قضايا أساسية في علم اللسانيات" و "نحو نظرية لسانية عربية" :**

حاول "مازن الوعر" ربط المفاهيم التوليدية بمفاهيم النحو العربي ، واستجلاء العلاقة بين النظريتين اللسانيتين : العامة والعربية ؛ ولذلك أسهم في تفسير ظاهرة الحركات الإعرابية وقضية العامل باستعمال إطار منهجي واضح المعالم ، يعالج خصائص النظام اللغوي العربي في ضوء المفاهيم التوليدية الحديثة . يبين "الوعر" كيف انتقلت دراسة اللغة مع "تشومسكي" من التقطيع والاستبدال للجمل ، إلى تفسير المبادئ الكلية الاستنباطية التي تنتج الجمل . ويتأسس هذا على تعريف "تشومسكي" للغة بأنها "عملية توليدية فعالة في ذهن البشري قادرة على الخلق والإبداع المنظم من خلال قانون نحوي عام في اللغات البشرية كافة . وقد رأى تشومسكي أن العملية اللغوية تتألف من ثلاثة مكونات : المكون التوليدي المركبي ، والمكون التحويلي ، والمكون الصوتي - الصرفي " (١) .

(١) مازن الوعر : قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ، ص ٩٣ .

وبعد مناقشة المكونات اللغوية السابقة ، يشير "الوعر" إلى مفهوم النحو ، الذي يفهمه "تشومسكي" على أنه "عملية توليدية وتحولية منظمة ومركبة قادرة على إنتاج جمل نحوية صحيحة من خلال مستويات لغوية عدة " (١).

ولأننا نَعْنَى في هذا السياق بموقف "الوعر" من ظاهرة الحركات ، نشير إلى أنه يحدد ذلك الموقف من خلال دراسة في مؤلفه (نحو نظرية لسانية عربية حديثة) اعتمد فيها النظرية العربية التي وضعها القدماء، وعلى نظرية القواعد التوليدية التحولية . وينطلق "الوعر" في تقسيم التراكيب العربية من التصنيف اللساني للنحويين العرب القدامى الذين قسموها إلى أربعة أنواع : (٢)

- |                    |                    |
|--------------------|--------------------|
| (١) التركيب الاسمي | (٢) التركيب الفعلي |
| (٣) التركيب الشرطي | (٤) التركيب الظرفي |

وقد افترض النحاة أن التركيبين الأساسيين هما : التركيب الاسمي ، والتركيب الفعلي ، فجعلوا التركيب الظرفي تركيباً اسمياً ، وجعلوا التركيب الشرطي تركيباً فعلياً . ويرى "الوعر" خلافاً لبعض الباحثين أن : هذا التفريق بين التركيب الاسمي والتركيب الفعلي له وجوه براغماتية - وظيفية دقيقة لتحديد المعنى (٣).  
وبعدما يشرح هذه التراكيب ، يذكر وجهة نظر أخرى في تحليل التراكيب ، وهي تقسيم "ابن هشام" لها إلى نوعين : الجملة الكبرى ، والجملة الصغرى . وهو بذلك تحليل من وجوه مختلفة حسب : (١) طبيعة أركان التركيب الأولية ، (٢) وطبيعة كبره وصغره ، (٣) ثم طبيعة الدور الوظيفي الذي يقوم به " (٤).  
ومن هذه الجهة (الوظيفية) يرى أن الأدوار الوظيفية نوقشت في النظرية اللسانية العربية من خلال مستويين لسانيين هما : مستوى الجملة ، ومستوى الكلمة . ولقد بحث دور (الحركات الإعرابية) من خلال الدور الوظيفي للكلمة في التركيب ، وهو ما يهملنا في هذا المقام .

الدور الوظيفي لحركات الإعراب :

يبين "الوعر" دور الحركات في توليد التراكيب من خلال الأمثلة الآتية : (٥)

- ما أحسن زيد (تركيب غير معرب)

أ. ما أحسن زيداً (تعجب)

ب. ما أحسن زيدٌ (نفي)

ج. ما أحسن زيدٍ (استفهام)

(١) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٢) ينظر : مازن الوعر : نحو نظرية لسانية عربية حديثة ، ص ٢٧ . دار طلاس - دمشق . ط ١ - ١٩٨٧م .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

وكما هو مبين في الأمثلة السابقة ، فإن الحركات الإعرابية الموضحة على أواخر الكلمات تولد ثلاثة تراكيب دلالية مختلفة .

ولقد نبه على أن دراسته تهتم بالحركات الإعرابية للأسماء فقط ، ولن تعالج الحركات التي تظهر على أواخر الأفعال .

وقد نادى بأن يستند وصف البنية العميقة للتركيب العربي إلى الحركات الإعرابية الثلاث ؛ كي نفهم البنية العميقة والسطحية لهذه التراكيب . ذلك أن التراكيب المشتقة من التركيب الأساسي من خلال القاعدة التحويلية - مسموح بها فقط في حالة ظهور الحركات الإعرابية .

لنتأمل الأمثلة الآتية : <sup>(١)</sup>

أ. ضَرَبَ زيدٌ أخاه .

ب. ضَرَبَ أخاه زيدٌ .

ج. أخاه ضَرَبَ زيدٌ .

إن تسويغ مثل هذه الحركة التحويلية هو أن الأركان اللغوية قد احتفظت بأدوارها ووظائفها الدلالية ، وحركاتها الإعرابية . وهكذا فعندما تنتقل هذه الأركان اللغوية فإنها ستحمل معها الصفات الدلالية (الأدوار الدلالية) والصفات النحوية (الحركات الإعرابية) <sup>(٢)</sup>.

لكن الحركة التحويلية نفسها ، ستولد تراكيب عربية غير نحوية ، إن لم تظهر الحركات ، وبالتالي فلا يمكن تحريك أركانها ؛ لأن لها رتبة ثابتة .

لنتأمل الأمثلة الآتية : <sup>(٣)</sup>

أ. ضَرَبَ موسى عيسى .

ب. ضَرَبَ هذا هذا .

ج. ضَرَبَتِ الحبلى السكرى .

فالأمثلة السابقة لا تخبرنا من هو فاعل الحدث ومن هو المفعول به ، وذلك لأنه غير واضح ، ما إذا كان الركن اللغوي الأول الذي يلي الفعل مباشرة هو مَنْ يملك دور (الفاعل) وحالته الإعرابية الرفع ، أو يملك دور (المفعول) وحالته الإعرابية النصب. فلما " كانت الحركات الإعرابية غير مبيّنة على الكلمات ، فإن الحركة التحويلية لهذه الكلمات ليست مسموحة ، لأن هناك غموضاً (التباساً) يكتنفها " <sup>(٤)</sup>.

إذن ، فالحركة التحويلية مقيدة بضوابط تزيل الالتباس ، يجعل أهمها الحركة الإعرابية . ومن ذلك ، نفهم أن "مازن الوعر" يعد الحركة عنصراً توليدياً حيناً ، وعنصراً تحويلياً حيناً آخر . فهي عنصر توليدي عندما تشكل مبدأً من المبادئ المتحركة في إنشاء الجملة ، كما في المثال (ما أحسن زيداً) ؛

<sup>(١)</sup> ينظر المرجع السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

<sup>(٣)</sup> المرجع السابق ، ص ١١١ .

<sup>(٤)</sup> المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

ذلك أن هذا المثال من غير إعراب لا وجود له أصلاً ، فالمعنى الذي في ذهن المتكلم (تعجب ، استفهام ، نفي) تولده الحركة الدالة عليه ؛ فتشكل التركيب ، وتقيد حركة العناصر اللغوية فيه ، والتي لا تحتاج إلى حركة تحويل .

ومن وجهة أخرى ، تكون الحركات عنصراً تحويلياً عندما تُنتج بعد البنية العميقة؛ لتدل على رتبة العناصر في البنية السطحية وحالاتها الإعرابية ، أي أن قواعد إسناد الوظائف النحوية وعلاماتها الإعرابية يشكل مستوى مستقلاً عن البنيتين العميقة والسطحية ؛ وبالتالي ، تسهم الحركات في وصف التركيب العميق لبنية الجملة ، فتقوم بدور تأويلي بالنسبة للتركيب المولدة ، وتربط بين البنيتين ؛ ولذلك درس الحركات في هذا النموذج من خلال تراكيب تمثل خروجاً عن أصل القاعدة ، أي من خلال التراكيب التي لها بنى سطحية مختلفة ، والتي تمثلها بنية عميقة واحدة مثل (تقديم المفعول من خلال القاعدة التحويلية شرط أن يحمل علامة النصب ، وتأخير المبتدأ تحويلياً شرط أن يحمل علامة الرفع وصفة المسند إليه، وأسلوب الاشتغال) حيث تشكل البنية السطحية هنا ، أحد الافتراضات المسبقة في ذهن المتكلم . أما في بعض التراكيب العربية فتضطلع حركات الإعراب بدور توليدي في البنية العميقة ، أي بتوليد وظائف محددة .

### ثالثاً : خليل عميرة في كتابيه : "في التحليل اللغوي" و "في نحو اللغة وتراكيبها" :

أولى "خليل عميرة" أهمية خاصة لحركات الإعراب في أبحاثه ، ركز فيها على وظيفة الحركات بوصفها عنصراً تحويلياً رئيساً ينقل الجملة التوليدية من معنى الإخبار إلى معنى آخر جديد . يظهر ذلك في تناوله المفصل لقضية الإعراب ، وأثر الحركات في التركيب ، إلى جانب اهتمامه بنظرية العامل وتتبعها لدى القدامى والمحدثين ، لينتهي إلى رأيه الخاص الذي نورد منه ما يتعلق بموضوع البحث على النحو الآتي : يعتقد " عميرة " أن تحليل الجملة تحليلاً تاماً يوصل إلى المعنى الدلالي ، لا بد أن تتحد فيه ثلاثة مستويات من التحليل اللغوي هي : <sup>(١)</sup>

المستوى الأول ، هو مستوى التحليل الصوتي الفونولوجي ، وتتحدد فيه الفونيمات المكونة للمورفيمات في الجملة ، والمستوى الثاني ، هو المستوى المورفولوجي ، ويتحدد فيه الباب الصرفي الذي ينتمي له المورفيم ، والمستوى الثالث ، وهو المستوى التركيبي ، ويتم فيه إجراءان :

الأول) تحديد حاجة الكلمة الأولى في الجملة إلى الكلمة التي تليها ثم التي تليها إلى آخر الجملة.

والثاني) يتم فيه تحديد الحركة الإعرابية التي تأخذها كل كلمة في الجملة .

ولتحديد الحركة الإعرابية ، يرى أن الكلام الذي تنطق به قلّ أو أكثر ، هو تجسيد لأبواب نحوية ذهنية مجردة " فالجملة ، فيما نرى مجموعة من الأبواب النحوية ، تبقى ماثلة في الذهن غير مجسدة إلى أن تجسد بمبنى صرفي كان قد التصق بمعناه التصاقاً اعتباطياً في بداية أمره ، ثم أخذ طابعاً اجتماعياً عرفياً

(١) خليل عميرة : في التحليل اللغوي - منهج وصفي تحليلي - ص ٤٦ باختصار وتصرف . مكتبة المنار - الأردن - الزرقاء . ط ١٤٠٧ هـ -

يقتضي من المتكلم أن يستعمله ، ومن السامع أن يدرك ماذا أريد به، فإن أخطأ المتكلم في اختيار الممثل الصرفي المناسب للباب النحوي الذهني الذي يريد التعبير عنه ، عوقب بانصراف السامع أو بسخريته منه" (١).

ويمكن ملاحظة إشارات علامائية هامة في القول السابق نجملها في الآتي :

(١) اعتبارية العلامة اللغوية (الكلمة / والحركة) في بداية الوضع ؛ فقد كان من الممكن أن تُصوّر دلالة الكلمة بأية سلسلة صوتية فتكون دالة ، كما يمكن أن يقترن النصب بالدلالة على الإسناد ، أو أن يقترن الرفع بالدلالة على الإضافة مثلاً .

(٢) تحول اعتبارية العلامة إلى العرفية فيما بعد شأنها شأن أي عادة في المجتمع .

(٣) أن تلك العرفية ضرورية وملزمة لمستعملي اللغة ، كما تتحقق في كل نظام سيميولوجي .

(٤) أن الحركة تفصح عن وظيفة الكلمة لا عن دلالتها ، لذا فإن ما يمنعنا عن الخطأ في الحركات هو عدم مقبولية الاستعمال الخاطئ نحوياً ؛ لأن العلاقة لازمة وضرورية بين الدال والمدلول فيها ، مما عبر عنه بانصراف السامع أو سخريته عند الإخلال بها .

ويقسم " خليل عمايرة " الحركات إلى قسمين :

(الأول) لا تحمل فيه الحركات أي قيمة دلالية ، وذلك عندما تكون اقتضاء للقياس اللغوي الذي يعده من أهم الأسس التي تحقق سلامة المبنى .

(والثاني) تكون الحركات فيه ذات قيمة دلالية كبيرة عندما تكون عنصر تحويل .

(أ) الحركة الإعرابية التي تعد تمثيلاً للقياس وبلا قيمة دلالية :

يعرف " خليل عمايرة " الجملة التوليدية النواة بأنها " الحد الأدنى من الكلمات التي تحمل معنى يحسن السكوت عليه " (٢). وهي قسمان : إما توليدية اسمية ، أو توليدية فعلية (٣). فإذا ما طرأ عليها عنصر من عناصر التحويل ، تصبح جملة تحويلية ولكنها تبقى كما كانت اسمية أو فعلية، بالنظر إلى أصلها .

أما الغرض من الجملتين ، فالأولى (التوليدية) تكون لغرض الإخبار ، والتحويلية تكون لمعنى جديد تحول عن المعنى الذي كان للجملة التوليدية ، إذ إن التحويل لا يكون إلا لغرض يتعلق بالمعنى . (٣)

ويحصر عناصر التحويل في خمسة عناصر هي : الترتيب ، الزيادة ، الحذف ، الحركة الإعرابية ، والتنغيم (٤).

(١) المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٣) انظر الأشكال التوليدية للجملتين الاسمية والفعلية في ص ٨٧ ، ص ٨٨ من المرجع السابق ، وفي ص ١٧٨ وما بعدها من كتابه : "في نحو اللغة وتراكيبها" .

(٣) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

(٤) المرجع السابق : ص ٨٨-٩٤ . وانظر في " نحو اللغة وتراكيبها " ص ٨٦ - ص ٨٨ .

يهدف التقديم السابق ، إلى تحديد نوع الحركات التي هي اقتضاء لقوانين اللغة من دون قيمة دلالية . حيث نجد ذلك النوع من الحركات في الجمل التي تحتوي على تحويل يتم إجراؤه بعنصر (الزيادة) ويقصد بها " إضافة مورفيمات جديدة إلى الجملة التوليدية لتصبح جملة تحويلية . والزيادة إما أن تكون في صدر الجملة وغالباً ما تؤدي إلى تغيير في الحركة الإعرابية في الكلمات بعدها ، ولكن هذا التغيير ليس بعمل من المورفيم الذي زيد في الجملة وإنما هو اقتضاء سليقي في أوله قياسي فيما بعد <sup>(١)</sup> . \*\* ويجعل من عناصر الزيادة في العربية : الحروف الناسخة ، والأفعال الماضية الناقصة ، وأفعال الشروع والمقاربة والرجاء ، وأفعال المدح والذم . حيث تنقل الجملة التوليدية إلى جملة تحويلية لتحقيق غرضاً بعينه هو التوكيد أو التمني أو الزمن الماضي أو الشروع أو ... إلخ ، والحركات التي تظهر على الكلمات ليست بتأثير ذلك المورفيم الذي زيد في الجملة وإنما هو القياس اللغوي الذي يوجب أن تأخذ الكلمة حركة الباب النحوي الذي تمثله مشيرة إلى علاقة نحوية تركيبية ، وهي المعنى الذي يراد نقل الجملة التالية إليه . وهذه الحركة ذات قيمة كبيرة في تحقيق سلامة المبنى قياساً على ما جاء عن العرب ، ولكنها لا تحمل قيمة دلالية <sup>(٢)</sup> .

يثير هذا الرأي تساؤلات عديدة أهمها :

- هل الحركة ذات قيمة دلالية أم قيمة وظيفية ؟
  - كيف تقود عرفية الحركات إلى تعليقات متقابلة ومتعارضة للظاهرة نفسها ؟
  - وما الذي يترتب على مخالفة القاعدة في هذا النوع من الحركات ؟
- لا شك أن هناك علاقة وثيقة بين شكل العلامة وقيمتها . وفي هذا السياق ، أخذ "سوسير" على عاتقه مهمة التمييز بين معنى العلامة وبين قيمتها كما تقدم . وهو تمييز استندنا إليه في منح الحركات قيمتها المعتمدة في نظام العربية ، وبرهنا على أن الحركات بوصفها فونيمياً أصغر من الكلمة ، قادرة على إنتاج المعنى الذي هو قيمتها الوظيفية الثابتة في النظام ، في حين أن القيمة التي تعطى للكلمات ترتكز على خاصية شكلها بوصفها (مورفيمات) ؛ ولذلك تكون محملة بمعنى يصل إليها من خلال الاستعمال في سياق معين ، كما تكون محملة بقيمة وظيفية من خلال علاقتها بباقي الكلمات في التركيب .
- إننا نلجأ إلى ذلك التمييز ، إذ نرى أنه يقدم الدليل على علامائية الحركات ، حتى وإن كانت شكلياً تختلف عن الكلمات ، فهما يحتفظان بالقيمة الخاصة بهما .

ثم إن التوليديين لم يعودوا منشغلين بوصف الظاهرة اللغوية ، بل بتفسيرها أيضاً ، ممّا يتوجب معه الاهتمام بالعلاقة بين عناصر الجملة التي تعد الحركة ناتجاً لعلاقاتها ، فإن اختلف شكل الجملة ، اختلفت

<sup>(١)</sup> في التحليل اللغوي : ص ٨٩ .

<sup>\*\*</sup> ويعرف (الزيادة) في موضع آخر بأنها : ما يضاف إلى الجملة النواة من كلمات يعبر عنها النحاة بالفضلات أو التتمات أو غير ذلك ، ويعبر عنها البلاغيون بالقيد ، يضاف إلى الجملة الأصل لتحقيق زيادة في المعنى : انظر " في نحو اللغة وتراكيبها " ص ٩٦ .

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق : ص ٩١ - ٩٢ .

العلاقة التركيبية ، فاختلفت الحركات . غير أن عناصر التحويل السابقة (الحروف الناسخة ، الأفعال الناقصة...) لا تقوم بأي دور في تغيير الحركات بعدها - عند الباحث - إنما تتمخض الحركات عن عرقية الاستعمال . لكن الحركات إذ تتغير في النوع الآخر ، بوصفها عنصر تحويل ، يصبح لازماً أن تُمنح قيمة دلالية لتضطلع بالإنتاجية .

وإننا لنتساءل عندئذ : هل تبقى العرقية في هذا النوع أيضاً ؟ وهل الفرق بين النوعين في أن تتغير الحركات بعد عناصر الزيادة اقتضاءً للعرف ، وبين أن تتغير لقيمتها الدلالية إذ تكون عنصراً تحويلياً ؟ بالعودة إلى مبدأ اعتبارية الدلالة اللسانية ، ومن ثم ضرورة التزامها ، فإن هذا المبدأ ، يعد من خاصية العلامة الثابتة التي يكون دالها غير معلل بالنسبة لمدلوله ، فلا تربطه معه أية علاقة طبيعية ، إنما هو الاتفاق والمواضعة . ويقتضي أيضاً حتمية اطراده عندما تستقر العلامة في مجموعة لسانية . لكن " خليل عمایرة " يشير إلى أهمية هذا المبدأ عندما تتغير الحركات بعد عناصر الزيادة ، ولا يذكر ذلك في النوع الآخر من الحركات عندما يجعلها عنصر تحويل - كما سيأتي - رغم أن المبدأ واحد والعلامة نفسها . وهو يرى " أن الحركة التي لا تظهر (الإعراب التقديري) لا قيمة له وما كان الدافع له إلا القول بنظرية العامل . فإن قلت مثلاً :

إن يدرس عليّ فهو ناجح .

فلا وجود للحركة الإعرابية على (فهو ناجح) ، لذا لا حاجة إلى القول بها ، إذ إن القياس اللغوي لا يقتضيها ، ولا دور لها في المعنى ، فالقول بها ضرب من العبث<sup>(١)</sup>.

إن هذا الرأي عن الحركات في التركيب السابق ، يتعارض مع قواعد التحويل التي لا يشملها الباحث بالتطبيق هنا ، رغبة منه في إلغاء الإعراب المحلي (الذي يسميه تقديرياً)\* .

فلماذا لا يرجع بنية التركيب السطحية (إن يدرس عليّ فهو ناجح) إلى بنيتها العميقة :

إن يدرس عليّ ينجح ؟ .

وهذا ما نفترضه . فالحركات الإعرابية عندما لا تظهر على السطح فإنها توجد في البنية العميقة . حيث نجد الشرط الثاني من أسلوب الشرط قد خضع لعنصر التحويل (الزيادة) بإضافة الضمير الذي يمثل باب الابتداء ، ولكل باب نحوي حالته الإعرابية التي تدل عليها الحركة ، وقد أضيفت الفاء بتحويل إجباري لا بد من وقوعه في هذا النمط من جمل الشرط .

أما إن صحَّ الافتراض \*\* بأن يعد المثال السابق " إن يدرس عليّ فهو ناجح " جملة توليدية ، فإن الحركة تظهر فيها إذ تصبح جملة تحويلية " إن يدرس عليّ ينجح " بفعل عنصر (الحذف) الذي يحدث في ركن رئيس هو المبتدأ هنا ، فيعود الجواب فعلاً مجزوماً كأصله . فلو لا مفهوم البنية التحتية للتركيب ؛ لما

(١) في التحليل اللغوي : ص ٩٣ .

\* ما يمنع ظهور الحركات في الإعراب المحلي هو الجملة ، وما يمنع ظهورها في الإعراب التقديري هو الحرف الأخير من الكلمة .

\*\* هذا الافتراض بعيد ، لأن البنية العميقة عند التحويليين غالباً ما تكون هي الأصل المقدر عند النحاة .

وجد التقدير في التحليل النحوي . وفي الحاليين ، تحتفظ الحركة بموقعها إن في البنية العميقة وإن في البنية السطحية تبعاً للاتجاه التوليدي التحويلي ، فلا تقدر الحركة أو تحذف ما لم يكن لها وجود في الأصل.

وكل ما يترتب على الإخلال بالحركات التي بعد عناصر الزيادة - برأي عمارة - ليس إلا مخالفة للقياس؛ إذ لا قيمة دلالية لها عندئذٍ ، يقول : " فإن لم تأخذ الكلمة الحركة الإعرابية المخصصة للباب النحوي ، فإنها لم تحقق البند الأول من بنود كونها جملة صحيحة في اللغة العربية ، وهو سلامة البنية الشكلية ، إذ إن سلامة البنية الشكلية في الجملة العربية تقتضي أن تُحقق الحركة الإعرابية قياساً على ما جاء عن العرب وبَيَّنه النحاة بوضع حركة إعرابية لكل باب يجب أن تأخذه الكلمة التي تأتي ممثلة للباب في الجملة ، إلا أن تكون مبنية فتكتفي بحركتها (حركة البناء) دون أن تكون في محل نصب أو رفع أو جر أو جزم ... نقول : جاء مَنْ يتقي الله ، فإن (مَنْ) هي الفاعل ممثلة لبابه النحوي وإن لم تأخذ حركته (الضمة) لأنها مبنية ، ولا حاجة بنا إلى القول هو مبني على ... في محل .. لأن الحركة هنا ليست مما يجب أن يظهر ولا دور لها في أداء المعنى ، ولا في صحة المبنى ، ومن ثم فذكرها مقدرة هو أمر مخالف لما عليه اللغة ولما كانت عليه سليقة العربي وفطرته اللغوية <sup>(١)</sup> .

فكيف لا يكون للحركات دور في بيان وظيفة الكلمات هنا ؟ ثم يعطيها تلك القيمة في مواضع أخرى ؟! . إن تصور الباحث للمفاهيم الأساسية ، كمفهوم (القيمة) و(الإعراب) يفترض به (بالباحث) أن يتبناه ويشغل في إطاره ، ويربطه بمواضيع درسه كلها (إن بدرجات متفاوتة) . فحين يعالج الباحث ظاهرة الحركات مثلاً على أساس استخدام مفهوم القيمة ، فإما أن يثبت للحركات بكل أحوالها (بما فيها الحذف) تلك القيمة ، وإما ألا يرى في حركات الإعراب علامات تشكل قيمة في النظام من منظوره .

من أجل ذلك ، نخالف الدكتور "عمارة" في عدم الحاجة لتقدير الحركات غير الظاهرة . والذي نراه أن الحركات غير الظاهرة في الإعرابين : التقديري والمحلي ، تشكل بنية عميقة ترجع إليها التراكيب في بنيتها السطحية . ولابد من النظر إليها من جانب وظيفي . فبالنظر إلى الحركات بوصفها ناتج علاقة تركيبية تقوم بين مكونات الجملة ، نجد أن المتكلم لا يحدد حركات الكلمات إلا بعد أن يؤسس وظيفتها في ذهنه كوظيفة الفاعل أو المفعول أو المجرور .. ، فإن ظهرت الحركات دلت تحديداً على وظيفة الكلمة ، وإن لم تظهر كما في الإعرابين السابقين أو حتى الحذف ، يمكن إرجاع هذا النوع من الكلمات والتراكيب إلى بنيته العميقة بوساطة المقدرة اللغوية لمستعمل اللغة ، حيث تتجلى علاقة الوظيفة ببنية الكلمة ، ويتسنى تفسير بعض الظواهر اللغوية دون المجازفة باطراح الحركات التي لا تظهر في البنية الفوقية . ذلك لأن فكرة (البنية العميقة) تستطيع تفسير ذلك . وحتى يتسنى لنا تبيان ذلك ، سنناقش في عجلة مثلاً

(١) خليل عمارة : في نحو اللغة وتراكيبها ، منهج وتطبيق . ص ٩٧ . عالم المعرفة للنشر والتوزيع - جدة - المملكة العربية السعودية . ط ١ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

واحداً للدكتور "عمايرة" مستثمرين فيه فكرة العمق المعتمدة في المنهج التوليدي ، وعلاقتها بوظيفة الحركات في الإعرابين : المحلي والتقديرى .

(١) الإعراب المحلي في المثال : إن يدرس عليّ فهو ناجح

لقد عالج النحاة وظيفة الجملة الصغرى حين تندمج في جملة أكبر منها . كما عالجوا وظيفة الكلمة في الجملة " والمسترعى للنظر هنا أن ابن هشام يرى أن هذه الجمل سواء التي لا محل لها من الإعراب أو التي لها محل من الإعراب ، ما هي إلا جمل مندمجة في الجملة الأصلية أي أن هذه الجمل تشكل عمقاً زائداً للجملة الأصلية . وهنا نجد أن المعنى والإعراب معاً يتداخلان في تحديد هذا العمق عند نحاة العربية ، أما عند علماء النحو التحويلي فإن تطبيق القوانين أو القواعد التحويلية هي التي تحدد هذا العمق<sup>(١)</sup>.

يعني هذا أن الجملة (فهو ناجح) تشكل عمقاً زائداً للجملة الأصلية (ينجح) . ولما وقعت موقع المجزوم الذي يقوم بدور جواب الشرط ، أخذت محله الإعرابي ، لأنها أدت الوظيفة التي كان يؤديها . وهو أمر جلي في كل الجمل التي لها محل من الإعراب ، حيث تؤدي الوظيفة نفسها للمفرد الذي تقع موقعه في البنية العميقة لتلك التراكيب .

(٢) الإعراب التقديرى في المثال : جاء مَنْ يتقي الله

في كلا الإعرابين ، ثمة غياب للحركة وطريقة لاستحضارها والاستدلال على وجودها، غير أن الأول غياب على مستوى الجملة ، والثاني ، غياب على مستوى المفردة ، والذي ينقسم إلى : تقدير في المبنيات كالاسم الموصول (من) في المثال السابق ، وتقدير على المعربات كالاسم المنقوص (رامي) مثلاً . ونحسب أن الحاجة لتقدير محل الاسم المبني (مَنْ) أو تقدير حركة الاسم المنقوص، وغيرهما مما لا تظهر فيه الحركات ، مردّها إلى أمرين هما :

(١) لما كانت اللغة نظاماً من العلامات ، والحركات جزء منها ، فلا بد أن يُراعى ربط الحركات بمدلولها الوظيفي أياً كان شكلها في بنية السطح .

(٢) يقدم التقدير صورة للتوازن المنهجي في التحليل ؛ فلا يمكن للغة أن تتضمن علامات لا جدوى لها في النظام . وعليه ، فإن من فائدة هذه الحركات (التي لا تدل على وظائف الكلمات مباشرة) : أنها تصون أبنية الكلمات ، وتحقق الاطراد في استعمالها ، كما تدل على العلاقات التركيبية التي تحصل بين الكلمات وهذا الأهم .

(ب) الحركة التي تعد عنصراً تحويلياً :

يرى " خليل عمايرة " أن الحركة تكون عنصر تحويل يتم بها تحويل الجملة التوليدية من أصل افتراضي كانت عليه للإخبار - وحركته حركة الرفع - إلى جملة تحويلية ذات معنى آخر . لكنها " هنا

(١) جون ليونز : نظرية تشومسكي اللغوية . ترجمة : حلمي خليل . هامش ص ٢١٩ . دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية . ط ١ ١٩٨٥ م .

تكون ذات قيمة دلالية كبيرة ... وهذا يكون في جملة التحذير ، والإغراء ، والاختصاص ، والفعل أو الاسم المنصوبين على المعية وحركة النصب في الاسم بعد كم الاستفهامية محوّلًا عن حركة الجر بعد كم الخبرية ، فلا أثر لعامل ولا حاجة لتقدير عامل ، وما القول بالعامل في هذه التعابير إلا اعتماد للبحث في المبنى والحركة الإعرابية وتبريرها ، وإهمال المعنى الذي جاءت الجملة أصلاً له " (١).

ولقد نرى أن ما تؤديه حركات الإعراب ينقسم إلى قسمين :

- الأول : بيان دور الكلمة في التركيب الذي تنتظم فيه . وما كان ذلك إلا لأن العلامة وجود دال يحكمه نظامه ، لا وجود مؤثر يتجاوز نظامه ومكان وجوده.

- الثاني : بيان اختلاف دور الكلمة عن دور الكلمات الأخرى في التركيب الذي تنتظم فيه . وما كان ذلك إلا أن اللغة اختلاف ، والعلامات اللسانية فيها علامات على الاختلاف وليس على التأثير والائتلاف .

يقول خليل عمايرة : "إن الحركة الإعرابية ، شأنها شأن أي فونيم في الكلمة له قيمة وأثر في الإفصاح والإبانة عما في النفس من معنى ، فيكون تغييرها محققاً لما في نفس المتكلم من معنى يريد الإفصاح والإبانة عنه (هذا فيما نسميه بالحركة الإعرابية التي لا تأتي اقتضاء لعنصر تحويل جديد ، عنصر زيادة كما ذكرنا سابقاً ، فإذا قال المتكلم مثلاً : الأسد (بالضمة) ، فإن السامع يدرك أنه قد أراد نقل خبر ليس غير ، ولكنه إن قال : الأسد (بالفتحة) ، فإن المعنى يتغير إلى معنى التحذير الذي هو في ذهن المتكلم ويريد أن يفصح عنه ، ولا يستطيع تغيير أي فونيم في الكلمة غير هذا الفونيم ، فإنه إن غير فونيمياً آخر في الكلمة تغيرت الصورة الذهنية التي ترتبط بها الكلمة بسبب ، فلا سبيل إذاً إلى التغيير إلا في فونيم الحركة الذي يؤدي إلى صورة ذهنية جديدة ولكنها تتصل بالأولى بسبب ، فما كان التغيير في الحركة إلا نتيجة للتغيير في المعنى " (٢).

ومن الملاحظ أن "عمايرة" يصف ظاهرة الحركات ، ولا يفسرها ، والتفسير يعد من مبادئ هذا الاتجاه. فهو يجعل الحركة الإعرابية (بوصفها عنصراً تحويلياً هنا) علامة يتحد مدلولها (الصورة الذهنية) بصورتها السمعية . ثم لا يراها علامة إذا ما وقعت بعد عنصر من عناصر الزيادة . وقد وقع في الخلط بين معاني النحو ومعاني الدلالة ، فقيمة الحركة نحوية ، وليست دلالية . وعلى هذا الأساس " تغدو دراسة موقف الباحثين من الإعراب ، ومسلكتهم في معالجتها .. ، قضية لا تقل أهمية من الناحية المعرفية عن دراسة ظاهرة الإعراب في حد ذاتها " (٣).

(١) في التحليل اللغوي : ص ٩٤ .

(٢) في نحو اللغة وتراكيبها : ص ١٥٧ .

(٣) عبد السلام المسدي : العربية والإعراب ، ص ٨٧ .

## رابعاً : العلاماتية في الدراسات العربية المستقبلية :

يرمي هذا العرض المتواضع ، إلى طرح مشكل تطبيق السيميائيات بوصفها منهجاً علمياً على الدراسات العربية ، وبيان ما نتطلع إليه في تطبيقاتها مستقبلاً . ولأنه قد سبق تعريف العلامة - بصفة عامة - اللغوية منها وغير اللغوية ، مع التركيز على بنية العلامة اللغوية ، فلا بد من التعريف بمفهوم الدراسات المستقبلية قبل استشراف ما ستكون عليه .

### (١) تعريف الدراسات المستقبلية (Future Studies) :

عُرِّفت هذه الدراسات تعريفات عديدة ، تدور حول استشراف المستقبل بطرح رؤية له في جانب معرفي معين . فقد عرفت بأنها :

- مجموعة من الدراسات والبحوث التي تهدف إلى تحديد اتجاهات الأحداث وتحليل مختلف المتغيرات التي يمكن أن تؤثر في إيجاد هذه الاتجاهات أو حركة مسارها (١).

- وعرفت بأنها : اجتهاد علمي منظم يرمي إلى صوغ مجموعة من التنبؤات المشروطة والتي تشمل المعالم الرئيسة لأوضاع مجتمع أو مجموعة من المجتمعات ، وعبر فترة مقبولة تمتد قليلاً لأبعد من عشرين عاماً ، وتتطلب من بعض الافتراضات حول الماضي والحاضر ، لاستكشاف أثر دخول عناصر مستقبلية على المجتمع ، ونوعية وحجم التغيرات الأساسية الواجب حدوثها في مجتمع ما ، حتى يتشكل مستقبله على نحو معين منشود (٢).

- وقد عرفها معجم أكسفورد بأنها : التكهّن الممنهج للمستقبل وخاصة من منطلق الاتجاهات الحالية في المجتمع (٣).

فما مستقبل الدراسات العربية المرغوب فيها في ظل السيميائيات ؟ ولماذا السيميائيات وقد تعددت مناهج البحث وتباينت ؟

وقبل أن نقترح الأجوبة ، سوف نحاول إلقاء الضوء على واقع السيميائيات اليوم ، ومجالات اشتغالها في الدراسات المعاصرة ، ثم ما نتطلع إليه على ضوء الدراسات القادمة .

---

\* يشير الدكتور "هاني الجبير" إلى مفهوم الدراسات المستقبلية وأنواعها وأساليبها في كتاب (البيان) الموسوم بـ : "من معالم المنهجية الإسلامية للدراسات المستقبلية" .

(١) هاني عبد الله الجبير : من معالم المنهجية الإسلامية للدراسات المستقبلية (كتاب البيان ١٠٨) ، ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

## خامساً : السيميائيات في المشهد الفكري المعاصر :

لقد فرضت السيميائيات وجودها في المشهد الفكري المعاصر في صورة دراسات فلسفية ، وأدبية ، ولغوية ، ومعرفية ، مع تطبيقها على أنظمة أخرى ليست لغوية فقط . فأثبت السيميائيون فعالية (العلامة) بوصف النسق اللغوي وبقدرتها على لا على قراءة الكون الكلامي فحسب ، بل على قراءة الكون المطلق . ذلك أن العلامة هي " إشارة واضحة تمكنا من التوصل إلى استنتاجات بشأن أمر خفي . بهذا المعنى نتحدث عن العلامة ونحن بصدد الحديث عن الأعراض الطبيعية ، أو معالم الجريمة ، أو المؤشرات الجوية ... ، كما لو كانت العلامة جزءاً أو مظهراً أو تجلياً لشيء لا يظهر بأكمله . وفي جميع هذه الحالات ، لا يهم إن كانت العلامة قد تركت عن قصد وكانت نتيجة رسالة بلغها بشر . فيمكن لأي حدث طبيعي أن يكون علامة . حتى أن موريس في محاولة لتأسيس نظرية العلامات يؤكد أن الشيء ليس علامة إلا إذا أوله أحدهم على أنه علامة على شيء ما ، وأن السيميائية لا تهتم إذا بنوع معين من الأشياء بل بأشياء عادية عندما تساهم في عملية توليد الدلالة <sup>(١)</sup> .

فالعلامة في نظر "إيكو" هي استكشاف للعلاقات الدلالية الخفية من خلال تجلياتها الظاهرة . وموضوعها الأساسي هو إنتاج الدلالة وتلقيها على أنها علامة ، في سيرورة خاضعة لتسنيين اجتماعي . فالمؤشرات الجوية ، أو الأعراض الطبية لا تدل صراحة على شيء إلا إذا تعلمنا كيف نقرأ دلالتها ، لكي تتحول من بعد إلى علامة.

ويحدد "إيكو" تزايد الاهتمام بالسيميائيات في النصف الثاني من القرن العشرين ، كما لو أنها كانت من قبل " هامشية إلى حدود هذا القرن على الأقل . ثم انفجر الاهتمام بها بالإصرار نفسه الذي ميّز الصمت الذي سبق وجودها . فلئن كان القرن التاسع عشر التطوري قد نظر إلى جميع المسائل من زاوية بيولوجية في حين كانت زاوية نظر القرن التاسع عشر المثالي تاريخية ، وكانت في القرن العشرين زاوية نفسية أو فيزيائية . فإن النصف الثاني من القرن العشرين كوّن "رؤية سيميائية شاملة تستوعب من زاويتها حتى مسائل الفيزياء وعلم النفس والبيولوجيا والتاريخ <sup>(٢)</sup> .

ولذلك رأينا كيف اختلفت قراءة ظاهرة (الحركات) مثلاً باختلاف المناهج المنطلقة منها . فالحركات في المنهج التاريخي المقارن ، ليست هي الحركات المستوحاة من المنهج الوصفي ، ولا تلك المستوحاة من المنهج التوليدي .

أما القراءة السيميائية للحركات - فقد استطعنا أن نشير في ضوئها إلى نتائج ما كنا لنشير إليها لو أن المنهج اختلف - تدور حول تعريف الحركة / العلامة (مكوناتها وسماتها) ، وقيمة الحركات الوظيفية ،

(١) إمبرتو إيكو : السيميائية وفلسفة اللغة . ترجمة : د. أحمد الصمعي . ص ٤٦ ، ٤٧ بتصرف . المنظمة العربية

للترجمة - بيروت - لبنان . ط ١ ٢٠٠٥ م .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٥ .

وموقعها من النظام ، وأساسها العرفي المفروض عند الاستعمال ... وغيرها من الخصائص التي ستبين في خاتمة هذا البحث .

لقد أسس "سوسير" و "بورس" لطرح جديد مغاير في التعاطي مع الظواهر الدالة التي تغطي الوجود الإنساني . ويشير " سعيد بنكراد " إلى أن تلك النماذج المؤسسة أشاعت حالة وعي معرفي جديد لا حد لامتداداته " فقد تبنت نتائج السيميائيات النظرية والتطبيقية علوم كثيرة كالأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا والتحليل النفسي والتاريخ ، والخطاب الحقوقي ، وكل ما له صلة بالآداب والفنون البصرية وغيرها . بل لقد شكلت السيميائيات ، منذ الخمسينيات من القرن الماضي، في المجال الأدبي تياراً فكرياً أثري الممارسة النقدية المعاصرة وأمدّها بأشكال جديدة لتصنيف الوقائع الأدبية وفهمها وتأويلها ... لقد ساهمت السيميائيات بقدر كبير في تجديد الوعي النقدي من خلال إعادة النظر في طريقة التعاطي مع قضايا المعنى . فعملت على نقل القراءة النقدية من وضع الانطباع والانفعال العرضي الزائد والكلام الإنشائي الذي يقف عند الوصف المباشر للوقائع النصية ، إلى التحليل المؤسس معرفياً وجمالياً<sup>(١)</sup>.

إن السيميائية نظام وجود ؛ لأن الكون كله مسكون بالعلامات ؛ ولأن مظاهر الحياة الإنسانية علامات دالة. ومنذ انصرفت إلى دراسة العلامات في قلب الحياة الاجتماعية - كما حددها سوسير - نجد أن اتجاهاتها قد تعددت ، وتشعبت مجالاتها فتناولت كل أنواع العلامات اللسانية وغير اللسانية .

### ٣) أهم الاتجاهات السيميائية وتطبيقاتها :

أ) سيميائيات التواصل : أكد كل من "بريتو" و "مونان" و "أندرية مارتيني" و "بونسيس" على أن وظيفة اللسان الأساسي هي التواصل ، ولا تختص هذه الوظيفة بالإنسانية ، وإنما توجد أيضاً في البنيات السيميائية التي تشكلها الأنواع الأخرى غير اللسانية ... إن مهمة السيميولوجيا عند أصحاب هذا الاتجاه تتمثل في البحث عن طرق التواصل . هذا ، ونجد الاهتمام بعنصر قصدية التواصل عندهم يصل إلى مطالبة بعضهم بالعودة إلى الفكرة السوسيرية القائلة بالطبيعة الاجتماعية للعلامات ، فحصر السيميائيات بمعناها الدقيق في دراسة أنساق العلامات ذات الوظيفة التواصلية فقط<sup>(٢)</sup>.

إن العلامات اللغوية تشكل ميدان الاشتغال الأول بالنسبة لأصحاب هذا الاتجاه ؛ لكونها شديدة الاتصال بوظيفة التواصل التي لا تفك عن إرادة المتكلم .

أما الأنساق التواصلية غير اللغوية ، فيقترح "جورج مونان " تصنيفاً لها انطلاقاً من أقربها إلى النسق اللساني ، وصولاً إلى الإبداعات الفنية التي تتضمن قدراً ضئيلاً من المقاصد التواصلية<sup>(٣)</sup>:

(١) سعيد بنكراد : السيميائيات ، مفاهيمها وتطبيقاتها [www.saidbengrad.com](http://www.saidbengrad.com)

(٢) فيصل الأحمر : معجم السيميائيات . ص ٨٥ - ٨٧ . الدار العربية للعلوم ناشرون ، ومنشورات الاختلاف ، ط ١ ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .

(٣) عبد الواحد المرابط : السيمياء العامة وسيمياء الأدب ، من أجل تصور شامل . ص ٦٤ . الدار العربية للعلوم ناشرون ، ومنشورات الاختلاف . ط ١ ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .

- الأنساق التي تتوب عن اللغة ، مثل الكتابة وأبجدية الصم - البكم والكتابة الصوتية وكتابة براي والإشارات البحرية أو التلغرافية .

- الأنساق القائمة بذاتها ، مثل الأرقام والرموز الرياضية والتشوير الطرقي .

- الأنساق الخرائطية ، ومنها الخرائط الجيولوجية وخرائط الأرصاد الجوية وغير ذلك .

- الأنساق الفنية ، أي الصور والإبداعات الفنية بالنظر إلى وظيفتها التواصلية مهما كانت مضمرة .

(ب) سيميائيات الدلالة : رائد هذا الاتجاه هو "رولان بارت" الذي يرى أن اللسان هو مؤول كل الأنساق الدالة ؛ لأنها لا يمكن أن تتفصل عن اللغة . ولذلك قلب المعادلة السوسيرية التي ترى أن اللسان فرعاً من السيميولوجيا ، وجعلها تقول إن السيميولوجيا فرع من اللسانيات . أما موضوع اشتغالها : فجميع الأنساق الدالة التي يعيش بها الإنسان .

و "يتمثل هذا الاتجاه الدلالي في أعمال غريماس المتعلقة بالسرد ، وأعمال ستروس في مجال دراسة الأساطير وغير ذلك . بيد أن التصورات التي اقترحها بارت لبناء هذا الاتجاه تعدّ نموذجاً تمثيلاً في هذا الصدد ... انطلق بارت من دراسة مجموعة متنوعة من الوقائع اليومية في الحضارة الغربية المعاصرة : (المصارعة الحرة ، المسرح ، السينما ، الصورة ، المقال الصحفي ، الإشهار ، الهندسة المعمارية ، الفنون التشكيلية ...) و رأى أن هذه الأنساق الدلالية جميعها يمكن أن تُدرس ضمن ميثلوجيا سيميائية توسّع المفاهيم اللسانية لتحليل مظهرات الثقافة " (١).

(ج) سيميائيات الثقافة : يُعنى هذا الاتجاه بدراسة السلوك الإنساني بوصفه ظاهرة ثقافية تشكل نسقاً دالاً وموضوعاً تواصلياً " أما أهم رواد هذا الاتجاه فنجد من الاتحاد السوفيتي "يوري لوتمان" و "ليفانوف" و "أوسبنسكي" و "تودوروف" وفي إيطاليا " روسي " و "لاندو" و "إمبرتو إيكو" (٢).

وتتراوح هذه الأنساق بين الأنساق الأكثر تعقيداً والأنساق الأقل تعقيداً ، ويتعلق الأمر باللغات الطبيعية واللغات الاصطناعية والفنون والأساطير والطقوس ... ، ويعتقد "يوري لوتمان" أن اللغة الطبيعية ليست نسقاً من الأنساق المبكرة فحسب ، بل هي كذلك النسق الأقوى للتواصل داخل الجماعة الإنسانية . فهي تمارس ، بفضل بنيتها ذاتها ، تسلطاً قوياً على نفسية الأفراد وعلى جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية . أما أنساق النمذجة الثانوية فهي تُبنى على منوال نمط اللغة (٣).

بالتالي ، يدرس هذا الاتجاه كل مظاهر الحياة الإنسانية ؛ لأنها أنشطة دالة لا تخلو من الأنساق التواصلية القصدية.

---

\* كما طبق مبادئ نظريته السيميائية في كل من : اللباس ، والطعام ، والأثاث ، والمعمار ، ففي كتابه (نظام الموضة) يقدم بارت موضوع بحثه على أنه (التحليل البنيوي للأزياء النسائية) ، أما منهجه فمستوحى من علم العلامات العام : انظر "يوسف وغليسي : إشكالية المصطلح ص ٢٢٦ .

(١) المرجع السابق : ص ٧٢ .

(٢) فيصل الأحمر : معجم السيميائيات ، ص ٩٧ .

(٣) ينظر : حنون مبارك : دروس في السيميائيات ، ص ٨٩ . بتصرف .

ويشير " فيصل الأحمر " إلى مجالات سيميائية أخرى ، نحسب أن المجالات السابقة تتضمنها بالضرورة وهي : <sup>(١)</sup>

- سيميائيات المسرح .
- سيميائيات السينما .
- سيميائيات الإشهار \* .
- سيميائيات الصورة : الرسم بوصفه الفن القديم والرائج حتى أيامنا هذه ، والصورة الفوتوغرافية بديلاً أو متمماً لفن الرسم في عصرنا الحالي .

ومعنى ذلك ، أن كل أوجه النشاط الإنساني علامة ، ولذلك فإن مجالات السيميائيات وتطبيقاتها هي من الكثرة والتشعب بقدر ما يستحدث السيميائيون خطاهم لفهم العالم عن طريق اكتشاف علاماته ودلالاتها . وهذا ما يأخذه الباحثون في الفكر الغربي المعاصر بعين الاعتبار ، حين تأخذ العلامات غير اللغوية محل العلامات اللغوية في فك رموز العالم بوصفها وحدات سيميائية ذات وجهين : دال ومدلول ، منبثقة من سنن ثقافي . فما هي مجالات السيميائيات وتطبيقاتها عند الباحثين العرب ؟ .

#### ٤) السيميائيات في الدراسات العربية المعاصرة والمستقبلية :

لم تلق السيميائيات حين هاجرت إلى العرب اهتماماً كبيراً بالمقارنة مع مكانتها في البحوث الغربية . فقد تبين لنا أنها تبوأَت مقاماً أثيراً في مجالات كثيرة ومتمايزة هناك ، بينما كان المجال الأدبي هو مجالها الأخصب في البحوث العربية " فقد انتقلت السيميائيات إلى الوطن العربي في وقت متأخر نسبياً ، فهرعت الدراسات إليها تترى وعقدت لها ملتقيات وأسست لها جمعيات (على غرار رابطة السيميائيين الجزائريين) ومجلات (على غرار مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية ، المغربية ١٩٨٧) ، وخصصت لها (كما فعل التهامي الراحي الهاشمي ، ورشيد بن مالك ، وسعيد بنكراد) ، وصارت مادة من مواد الدراسات في أقسام اللغة العربية وآدابها ، ومنهجاً ينتهجها كثير من النقاد العرب المعاصرين " <sup>(٢)</sup>.

ولا يمكننا في هذه العجالة أن نحيط بتطبيقات السيميائية في المجال الأدبي ، نظراً لأنها الأكثر من حيث الكم ، وسنكتفي بالإحالة إلى دراسة الدكتور " يوسف وغليسي " في كتابه السابق الذكر حيث أشار إلى أبرز النقاد العرب الذين نقلوا السيميائيات إلى حقل الممارسة النقدية ، عارضاً تجاربهم التي ينتظمها الحقل السيميائي الأدبي. <sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> فيصل الأحمر : معجم السيميائيات ص ١٣١.

\* الإشهار : ظاهرة اقتصادية قبل أن تكون أدبية أو اجتماعية ؛ لذلك بقى بعيداً عن متناول الدراسات الأدبية والنقدية ، ومع ظهور السيميائيات بوصفه حقلاً معرفياً معاصر حاولت فهم خطاباته المتعددة خصوصاً وأنه وسيلة إقناع وتأثير يستطیع التاجر من خلالها التسويق لبضاعته ، وقد صار الإشهار علماً بداية من القرن العشرين : " فيصل الأحمر : معجم السيميائيات ، ص ١١٤ " .

<sup>(٢)</sup> يوسف وغليسي : إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد . ص ٢٢٧ . الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت - لبنان ، ومنشورات الاختلاف الجزائر . ط ١ ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .

<sup>(٣)</sup> المرجع السابق ، ص ٢٢٧ - ص ٣٣١ .

كما نشير إلى تجربة " عبد اللطيف محفوظ " التي أفاد بها من سيميائيات "بورس" وطبقها على تحليل النصوص الروائية خاصة ضمن مشروعه السيميائي الذي يقع في هذه الكتب : "آليات إنتاج النص الروائي ، نحو تصور سيميائي " ، وكتابه " المعنى وفرضيات الإنتاج " ، ثم كتاب " سيميائيات التظهير " ، وكتاب " البناء والدلالة في الرواية ، مقارنة من منظور سيميائية السرد .

ولعل ما يشكل استثناءً عربياً في الدراسات السيميائية ، هي تجربة المفكرين : "سعيد بنكراد" و "عبد الله الغذامي" . حيث نقلا السيميائيات من الحقل الأدبي إلى التجربة الإنسانية غير اللسانية ، وتحديداً من خلال الاشتغال على سيميائيات الصورة الإشهارية عند "سعيد بنكراد" و سيميائيات الثقافة العربية عند " عبد الله الغذامي " . نذكر ها هنا بمكانة المشروعين في الدراسات العربية المعاصرة ، وبالأهمية القصوى التي يوليها الباحثون والمهتمون بالسيميائيات للمشروعين السابقين ، وإن لم نقف عند أي منهما ؛ لبعدهما عن موضوع البحث .

أما اللسانيات فكانت حيز السيميائية الأضعف ؛ فلم نقف حتى الآن على دراسة عربية سيميائية تم تطبيقها في حقل اللسانيات ما عدا دراسة " منذر عياشي" الموسومة بـ "العلاماتية (السيمولوجيا) قراءة في العلامة اللغوية العربية " وقد كانت (الكلمة) حقل الممارسة عنده ، بهدف إرساء رؤية معرفية سيميائية تنقل الكلمة إلى طور (العلامة) عبر التعريف بماهية العلامة، وتحديد سمات العلامة اللسانية عند "سوسير"، وتحليل الكلمة / العلامة بوصفها نسقاً صوتياً ووظيفياً ، ثم دراسة توظيفها في نسق الحذف ، عندما تحذف العلامة وتبقى وظيفتها الدلالية والجمالية ؛ ليؤكد قيمة العلامة ويمنحها تلك القيمة في كل مظاهرها.

ولما كانت الكلمة أصغر مبنى يمكن إفراده عن السياق ، فقد اشتغلنا فيما دون الكلمة وما لا يمكن إفراده عنها ، فكانت (الحركات) أساس اشتغالنا في هذه الدراسة ، وفي الإطار النظري نفسه (المقولات العامة حول العلامة اللسانية) لأننا صدرنا عن خلفية واحدة وهي سيمولوجيا "سوسير" ، بينما لا يمكن أن نتصور تماثل التحليلين ، أو نتائجهما ؛ لاختلاف (الكلمة) عن (الحركة) دالاً ومدلولاً ، وانسحاب هذا الاختلاف على الإجراءات العلاماتي الخاص بالدراسة .

أما ما نتطلع إليه اليوم بعدما أصبحت السيميائيات ضرورة ناتجة عن صيرورة المعرفة ، فهو أن تصبح المفتاح الذي يلج به الباحث العربي مجالات العلوم والمعرفة والثقافة ؛ لقراءة العالم الجديد، الذي تغير تصورنا له بفعل التقنية الحديثة وبفعل المستجدات الجارية والمتسارعة في عالمنا . وذلك بأن تفتح الدراسات العربية على السيميائيات أكثر من مجالات اشتغالها الحالي ، وأن يتوجه اهتمام الباحثين العرب نحو أهمية العلامة من حيث هي وحدة منتجة للمعنى ، من أجل فهم إنتاج الدلالة ، وتلقيها ، وفهم الآليات التي تتحكم في اشتغالها .

كما نطمح في إطار اللسانيات خاصة إلى الذهاب بالدراسات السيميائية إلى ما بعد الجملة ؛ فلا ينظر إلى علاقة الكلمة بالكلمة أو وظيفة الكلمة بالجملة ، إنما ينظر إلى علاقة الجملة في النص ووظيفتها فيه . وفي ضوء هذا المستوى الذي يتجاوز الجملة ، تظهر علاقات تركيبية ودلالية جديدة انطلاقاً من نظرة سيميائية يكون المنظور إليه هو النص بوصفه نسقاً من العلاقات التي تقوم بين الكلمات داخل الجملة ، ثم بين الجمل داخل النص .

وهذا النمط من الإجراءات أكثر تعقيداً من التحليل اللغوي التقليدي ؛ إذ يثير مسألة رئيسة هي :

ارتباط القيم المسندة إلى العلامات ، وارتباط المعنى بالاستعمال بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، مما يوفر أساساً كافياً لتفسير أنماط الاستعمال كافة ، ويتيح لنا - ليس الحكم على المقبولية والقواعدية أو الخطأ والصواب فحسب - بل يفسر لنا الجميل والأجمل ، والوارد والأكثر وروداً ، ثم ينظر إلى أشكال الانحرافات (التي تبدو كذلك من منظور تقليدي) على أنها علامات يحكم إنتاج دلالتها قانون آخر ، فحيثما يوجد اختلاف ، توجد قوانين لم تكن معروفة من قبل.

فالحركة الإعرابية مثلاً التي تخرج عن وظيفتها التركيبية في مواضع المشكلة ينظر إلى وظيفتها الجمالية على أساسين :

(١) الارتباط القيمي بين العلامة ووظيفتها (الأمر الذي لم ينظر إليه كثير من المعاصرين كما بينّا) .

(٢) مبدأ (إمكان البطلان) لكارل بوبر الذي يقابل (إمكان التحقيق) .

إن "بوبر" يقسم الأقوال إلى قسمين : (١)

١- أقوال تتفق مع النظرية فتؤيدها .

٢- أقوال تتعارض مع النظرية فتكذبها ، ويؤكد بوبر هذا القسم من الأقوال في مجال التثبت من النظريات.

والمعروف أن النحو العربي قام على طريقة استقرائية خالصة لا تؤيد تلك الاحتمالية أو النسبية . حيث جمعوا المادة اللغوية ثم وضعوا النظرية ، ولما صادفهم خروج عن المعايير حكموا عليه بالشذوذ مما يحفظ ولا يقاس عليه ، أو بالضرورة مما يقع (غالباً) في الشعر ، وفصلوا في أنواع الضرورات .

يعني هذا ، أنهم اعتمدوا التعميم الاستقرائي ، أي تعميم النظرية التي تنتج الظواهر اللغوية في تقديرهم . لكننا - وفقاً لبوبر - إن انطلقنا من الظاهرة قبل النظرية ، كانت الظاهرة هي المنتجة للقانون بوصفه بطلاناً للقاعدة الأساسية وليس تأييداً . ولهذا " يرى بوبر ضرورة إقامة وتأسيس تعريف التكذيب (البطلان) على مجموعة جزئية من الأقوال الفردية وهو الغرض الذي من أجله يحتاج بوبر الأقوال الأساسية " (٢) .

ولعل استثمار نظرية "بوبر" السابقة أن يستأثر بمشروع بحث كامل ، يبقى إجراؤه على نحو مستقل ، مفتوحاً لدراسة مستقبلية ، إلا أن هذه الإشارة منا ، ما هي إلا تأييد لمبدأ النسبية الذي يناقض تحقق النظرية على نحو مطلق ، ويراهن على نسبة التحقق لاشتقاق أحكام فردية لها قوانينها الخاصة .

وهذا ما نتطلع إليه في زمن السيميائيات ، حين تصبح العلامة مجالاً للاشتغال ، وفضاءً للوعي والصيرورة .

(١) مشهد سعدي العلاف : بنية النظرية العلمية . ص ٨٥ . دار عمار ، عمان - الأردن ، ودار الجيل ، بيروت - لبنان .

ط ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

(٢) المرجع السابق : ص ٨٤ .

## الغائمة

## الخاتمة

لقد بدأ البحث بفرضية ، انطلقنا منها إلى المعلومات محاولين أن نبرهن صلاحية الفرضية أو خطأها .  
فعرضنا جملة من المفاهيم المرتبطة بالعلامة اللغوية البنائية والإعرابية ، وحاولنا أن ندل على علاماتيّة  
الحركات ببرهان بيّن ، فطرحنا فيه فرضيات تناقض هذا الطرح ، كما أننا في طرحنا لتلك الفرضيات ،  
استندنا في إنشاء تصورهما إلى نظريات لسانية حديثة ، بدءاً باللسانيات التاريخية المقارنة ، ثم لسانيات  
سوسير والمرحلة البنيوية الأولى ، مروراً بالوظيفة كما هي عند مارتينييه وآخرين ، وانتهاء باللسانيات  
التوليديّة التحويلية كما هي عند تشومسكي . وبالتالي، عملت فصول البحث على اختبار تلك الفرضيات  
فأفضى بنا هذا الطرح إلى النتائج الآتية :

- ١- تعد الحركات علامة في نظام العربية ، سواء أكانت حركات بنية أم حركات إعراب .
- ٢- تؤدي حركات البنية قيمة بنائية يتم بها تكوين الكلمات ، وتقوم بتحديد مدلول الصيغة في  
المستوى الصرفي ، فتؤثر في علاقة الصيغ الصرفية بكلمات الجملة .
- ٣- تتسم حركات البنية بأصالة دورها الذي تشكل به وجوداً ثابتاً في الكلمات والصيغ الصرفية التي  
تكوّنها .
- ٤- تكمن قيمة حركات الإعراب في الدلالة على قيمة الحركة النحوية في التراكيب ، وقيمة العلامة  
تختلف عن معناها .
- ٥- إذا كانت حركات الإعراب دالة على قيمة الكلمات ، فإنها تؤدي وظيفتين في الوقت نفسه :  
وظيفة تركيبية ، ووظيفة جمالية .
- ٦- تتسم حركات الإعراب بعدم الأصالة في الكلمات ؛ لأنها تتغير باختلاف الوظيفة التي تؤديها  
الكلمات في محيط الجملة ؛ وبالتالي تتسم بالتبعية للقواعد التي تُبنى بها الجمل .
- ٧- لما كانت حركات البنية تتسم بالأصالة في بناء الصور السمعية للكلمات والصيغ الصرفية ، لم  
يتجرأ عليها المنكرون ، ولما كانت حركات الإعراب لا تدل على معاني الكلمات إنما على  
وظائفها داخل التركيب ، توهم المنكرون عدم الحاجة إليها .
- ٨- يشكل النظام ثابتاً ، متغيره هو الكلام ، الذي يعد إنجازاً انتقاليّاً بالنظام إلى الأداء ولولا ذلك  
لتعذر التواصل .
- ٩- إن التحول بالحركات إعراباً وبناءً من اللغة إلى الكلام يكون بنية الكلام على مستوى التركيب  
بما تدل عليه حركات الإعراب من وظائف الكلمات، وعلى مستوى المفردات بما تؤديه حركات  
البنية من دور تكويني .
- ١٠- تقوم العربية الفصحى على بنية مزدوجة هي : بنية التركيب ، وبنية الإعراب ؛ لذا فإن قياس  
موقع حركة الإعراب في العاميات التي هي أحادية البناء بموقعها في الفصحى مغالطة كبرى  
وقياس باطل .

- ١١- إن الخطأ في الحركات سواءً في حركات البنية الداخلية للكلمة ، أم في حركات الإعراب ، يخالف الصحة القاعدية ، لكنه في الأولى يؤثر في معنى الكلمة أو الصيغة الصرفية ، وفي الثانية ، يؤثر في وظيفتها النحوية أي في مستوى التركيب .
- ١٢- يعد إبدال حركة الإعراب بأخرى لا تتفق وقواعد التركيب مظهراً من مظاهر الخطأ ، بينما يعد إسقاطها بالكلية من الكلام أهم ما ينقل المستوى الفصيح إلى المستوى العامي .
- ١٣- لما كانت الحركات بنية وإعراباً علامات ؛ فلا بد من ارتباط دالها بمدلولها كيفما كان شكل ظهورها في الأداء ولا سيما علامة الإعراب ؛ لأن أشكال غيابها في الكلام ، موجودة في التمكن أو في البنية التحتية للمفوظ .
- ١٤- عندما تكون العلامة الإعرابية متعددة الدلالة داخل التركيب ، فإنها تتيح إمكانات متعددة لمستعمل اللغة .
- ١٥- لا تقصح حركة الإعراب وحدها عن الدلالة بل تعضدها عناصر أخرى ناقشنا منها : التنغيم ، والنبر ، والتقديم ، والتأخير .
- ١٦- تعد الحركات بقسميها عنصراً وظيفياً في أدبيات التراث ، فقد جعلوا الحركات البنية دوراً رئيساً في بناء الكلمات وتشكيل الصيغ ومن ثم التمييز بين معانيها وجعلوا حركات الإعراب فرعاً للمعنى الوظيفي ، وفسروها بكونها أثراً للعامل .
- ١٧- حركات الإعراب ناتج لسيرورة التركيب ؛ لأنها ناتج لعلاقة ألفاظه بعضها ببعض ، وعلامة على تلك العلاقة .
- ١٨- ينشأ عن التجاور الصوتي بين الحركات وما يجاورها من صوامت أو حركات أخرى ظواهر صوتية متعددة ، نوقشت تحت بابي : المماثلة الصوتية ، والمخالفة الصوتية . ومن الناحية الصوتية الجمالية ، فلم نرَ في المخالفة الصوتية بين الحركات المتجاورة شيئاً من الخفة واليسر ، غير أنها - في رأينا - حققت غايتين : الأولى ، تتمثل في نوع من الانسجام الصوتي ؛ للانتقال الرتيب بين الحركات المتواليات المغايرة لبعضها . والثانية ، اطراد القاعدتين الصوتية والنحوية في الأبواب التي ترد فيها .
- ١٩- تؤدي الحركات دوراً إيقاعياً لا يتجزأ من وظيفتها ، بل إن العرب أحياناً لتضحي بالدور الوظيفي ، ما لم ينشأ عند ذلك لبس تركيب .
- ٢٠- إن الإقتصار على دور الحركة الوظيفي بخس لقيمتها الجمالية ، ورعاية لجانب على حساب آخر . أما القول بأن الدور الجمالي مناقض لقيمة حركات الإعراب فجعل بطبيعة العلامة وآلية اشتغالها ؛ ذلك أن الحركة ما يكون لها أن تؤدي قيمة جمالية إلا بإيعاز من صحة التركيب في تآلف بين الوظيفتين اللتين غالباً ما يجمعهما التركيب ، أو قد يتخلى عن إحدهما ليغلب قيمة على أخرى وفق ما يسمح به نظام اللغة ويعد من إمكاناته .
- ٢١- بالوقوف على موقع الظاهرة من دراسات اللسانيين العرب ، اتضح لنا :
- أن الذين يشتغلون على اللغة من منظور اللسانيات التاريخية ، لا يرون في اللغة إلا مجموعة من الألفاظ وعدداً من القواعد بمعزل عن كل إجراء تنفيذي واستعمال واقعي ، لا يستطيعون أن يروا

في حركات الإعراب علامات تشكل جزءاً من النظام، وذلك لأن كل قضية النظام آنية واستعمالاً في الآنية لا تقع في صلب اشتغالهم المباشر .

- ناقشنا رأي " تمام حسان " بوصفه ممثلاً للاتجاه الوصفي ، ورأينا أنه يحاول التقليل من قيمة الحركة الإعرابية بكل سبيل ، من خلال تأكيده أن قرائن السياق تغني عنها ، ومرة أخرى بإيراز دور حركة الإعراب الإيقاعي على أنه يتعارض وقيمتها . وقد برهنا على أن ظهور الحركات في الكلام إنما هو ظهور سيميائي إيقاعي معاً ، سواء في حال اضطلعت بوظيفتها التركيبية والجمالية ، أم اكتفت بالدور الإيقاعي.

- وقد ناقشنا " أحمد المتوكل " بوصفه ممثلاً للسانيات الوظيفية ، فظهر لنا اهتمامه بوظيفتي (الفاعل والمفعول) فقط دون باقي الوظائف النحوية لحركات الإعراب ، ودون وصلها بقيمتها الجمالية .

- أما المواقع التي شغلتها حركات الإعراب في اهتمام التوليديين العرب فمثلاً لها ، بنفي القيمة في رأي ميشال زكريا ، والاحتفاء بها عند مازن الوعر ، ثم التذبذب عند خليل عميرة ، على النحو الذي عرضنا به تلك الآراء وناقشناها .

٢٢- وانتهى بنا المطاف بعد أن عالجنا الظاهرة سيميائياً ، وحددنا موقعها من الدرس اللساني ، إلى واقع السيميائيات اليوم ، وعلام تم تطبيقها في الدراسات العربية ، وما نأمل أن تتفتح عليه في الدراسات العربية المستقبلية .

### التوصيات :

الذهاب بالدراسات السيميائية إلى ما بعد الجملة ، فلا ينظر إلى علاقة الكلمة بالكلمة أو وظيفة الكلمة بالجملة ، إنما ينظر إلى علاقة الجملة في النص ووظيفتها فيها ، انطلاقاً من نظرة سيميائية يكون المنظور إليه هو النص بوصفه نسقاً من العلاقات التي تقوم بين الكلمات داخل الجملة ، ثم بين الجمل داخل النص .

استثمار البحوث العلمية لمبدأ (إمكان البطالان) عند " كارل بوبر " الذي ينطلق من الظاهرة محل الدراسة إلى القانون المنتج لها بدل الاعتماد على النظرية ، بحيث لا تعد الأحكام الفردية شذوذاً تحكم بقاعدة التثبيت التجريبية (الصواب والخطأ) بل يكون لها قانونها الخاص الذي يعطي تفسيراً للأحكام الفردية بعيداً عن التعميم الاستقرائي .

وبعد ، إذا كان وقفنا على مشكلة البحث حتى الآن ، قد كشف لنا هذه الخلاصات، فإن من شأن البحث السيميائي منذ الآن ، أن يكتننا من فك شفرة الظواهر ، وتوليد قيمها ، وكشف طرق اشتغالها ، والعلاقات بين العلامات في الأنظمة الدالة . بل إن من شأن قراءة أخرى لظاهرة الحركات نفسها الوصول إلى فهم أعمق ، وملاء فراغاتها من خلال التفاعل بين العلامة وقارئها. آملين أن نكون قد وفقنا في فتح باب جديد للدراسات السيميائية .

الباحثة

والله ولي التوفيق

## Abstract

Interest in the linguistic sign has been rising these days. This is evident in a variety of areas, all of which have one objective: understanding how signs create meaning. Clearly, the linguistic system is viewed as the highest level of all semiotic systems.

This study sets out to investigate the linguistic sign in the structure and parsing of Arabic language. de Saussure's semiotics has triggered the study of the sign as part of the linguistic system. Based on his conception, the study defines the linguistic sign and breaks it down into its components. It also determines the importance and status of the sign in the linguistic system. With this in mind, we have considered the sign the result of the signifier (oral image) and the signified (the functional meaning of the sign). We have adopted Saussure's conception which differentiates between the sign and its significance since the sign is a small unit of analysis. This conception has given the sign its functional value in morphology and word formation. This value has also given value to the functions of words in sentences and has unravelled the aesthetic aspect of the sign. We have also addressed the signification of the sign, thus extending its vocal dimension. The study points out the effect of signs on many vocal phenomena.

The study has revealed the status of the sign in the literary heritage and the modern linguistic theories in light of functional grammar. Some assumptions which support this view and others which contradict it have also been posited. This is especially so in terms of parsing signs around which a lot of controversy and misunderstanding has raised as its status in the system has not been determined. This study attempts to make up for this shortage from a semiotic perspective.

## **الفهارس**

**فهرس المصادر والمراجع**

**فهرس الموضوعات**

## فهرس المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر والمراجع العربية :

- ١- أبحاث في اللغة العربية . داود عبده . مكتبة لبنان ، ساحة رياض الصلح - بيروت . ١٩٧٣م.
- ٢- الإتقان في علوم القرآن . جلال الدين السيوطي . تحقيق ، مصطفى شيخ مصطفى ، وشعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ناشرون . دمشق - سوريا ، ط١ ، ١٤٣٤هـ - ٢٠١١م .
- ٣- أثر التناسب الصوتي في الإعراب . إبراهيم جميل محمد إبراهيم . مكتبة المكتبي ، الدمام - المملكة العربية السعودية . ط١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .
- ٤- إحياء النحو . إبراهيم مصطفى . دار الآفاق العربية القاهرة ، ط ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م
- ٥- الأسس البنيوية لفكر الحداثة الغربية . محمد عادل شريح . دار الفكر - دمشق ٢٠٠٧م
- ٦- الأسلوبية والأسلوب . عبد السلام المسدي . دار الكتاب الجديد المتحدة . ط٥ ، ٢٠٠٦م .
- ٧- أصول النحو العربي . محمد عيد . عالم الكتب - القاهرة . ط٥ - ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
- ٨- الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة) . ميشال زكريا . مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . ط١ . ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- ٩- الألسنية العربية . ريمون طحان دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨١م .
- ١٠- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك . ابن هشام الأنصاري . تحقيق : محيي الدين عبد الحميد . المكتبة العصرية ، بيروت - لبنان . ٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ .
- ١١- الإيضاح في علل النحو . للزجاجي . تحقيق : مازن المبارك . دار النفائس - بيروت . ط٣ . ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- ١٢- البراكسيماتيكية . بندر الهذال ، ويعقوب الشوردي . كتاب العربية ، الرياض - المملكة العربية السعودية ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .
- ١٣- بغية عباد الرحمن لتحقيق تجويد القرآن (في رواية حفص بن سليمان من طريق الشاطبية) . محمد بن شحادة الغول . مكتبة المتنبى ، الدمام ، - المملكة العربية السعودية . ط٢ ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .
- ١٤- بنية النظرية العلمية . مشهد سعدي العلاف . دار عمار ، عمان - الأردن ، ودار الجيل ، بيروت - لبنان . ط١ ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
- ١٥- البيان والتبيين . الجاحظ ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون . دار الجيل - بيروت .

- ١٦- التداوليات علم استعمال اللغة . مجموعة مؤلفين . إعداد وتقديم : الدكتور حافظ اسماعيلي علوي ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط١ ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م .
- ١٧- التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي . مسعود صحراوي . دار الطليعة للطباعة والنشر . بيروت - لبنان ، ط١ ٢٠٠٥م .
- ١٨- التصريح بمضمون التوضيح في النحو . خالد الأزهرى .، تحقيق : محمد باسل عيون السود . دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان . ط١ . ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .
- ١٩- التطبيقات اللغوية . إبراهيم جميل . مكتبة المتنبي . الدمام - المملكة العربية السعودية ، ط١ ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .
- ٢٠- التطور الصوتي في الألفاظ ، أسبابه وظواهره . محمود عكاشة . دار النشر للجامعات . القاهرة ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .
- ٢١- التطور اللغوي ، مظاهره وعلمه وقوانينه . رمضان عبد التواب . مكتبة الخانجي بالقاهرة . ط٣ . ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .
- ٢٢- تفسير الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن . أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : محمود محمد شاكر . دار المعارف بمصر .
- ٢٣- تفسير القرآن العظيم . لابن كثير ، تحقيق : سامي بن محمد السلاق ، دار طيبة ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
- ٢٤- التفكير اللساني في الحضارة العربية . عبد السلام المسدي . دار الكتاب الجديد المتحدة . بيروت - لبنان ، ط٣ . ٢٠٠٩م
- ٢٥- الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النهضة إلى عصر العولمة . نهاد موسى . دار الشروق للنشر والتوزيع عمان الأردن . ط١ ٢٠٠٣م .
- ٢٦- جماليات الصوت اللغوي . علي السيد يونس . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة . ٢٠٠٢م
- ٢٧- حاشية الصبّان شرح الأشموني على ألفية ابن مالك . محمد بن علي الصبان ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد . المكتبة التوفيقية بلا طبعة ولا تاريخ .
- ٢٨- الحوار وخصائص التفاعل التواصلية ( دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية ) . محمد نظيف . أفريقيا الشرق - الغرب ٢٠١٠م .
- ٢٩- الخصائص . ابن جني ، تحقيق الشربيني شريدة . دار الحديث القاهرة . ٢٠٠٧م

- ٣٠- دراسات في علم اللغة . كمال بشر . دار غريب - القاهرة .
- ٣١- دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن . صلاح حسنين . توزيع مكتبة الآداب ط ٢ ، ٢٠٠٧ ، ٢٠٠٨ م .
- ٣٢- دراسات نقدية في النحو العربي . عبد الرحمن أيوب . القاهرة ، مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع . ١٩٥٧ م .
- ٣٣- دراسة الصوت اللغوي . أحمد مختار عمر . عالم الكتب - القاهرة . ١٩٩١ م
- ٣٤- دروس في السيميائيات . حنون مبارك . دار توبقال للنشر . الدار البيضاء - المغرب ، ط ١ ، ١٩٨٧ م .
- ٣٥- دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود شاكر . مطبعة المدني - القاهرة ، دار المدني - جدة ، ط ٣ - ١٩٩٢ م .
- ٣٦- دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً . ميجان الرويلي و سعد البازعي . المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء - المغرب ، ٢٠٠٧ م .
- ٣٧- سر صناعة الإعراب . ابن جني ، تحقيق : د . حسن هنداوي . دار القلم - دمشق ، ١٩٨٥ م .
- ٣٨- السيمياء العامة و سيمياء الأدب . عبد الواحد المرابط . الدار العربية للعلوم ناشرون ، ومنشورات الاختلاف . ط ١ . ٢٠١٠ .
- ٣٩- السيميائيات الواصفة . أحمد يوسف . منشورات الاختلاف ، المركز الثقافي العربي ، الدار العربية للعلوم .
- ٤٠- شرح التسهيل . لابن مالك ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، طارق فتحي السيد . دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان . ط ١ ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م
- ٤١- شرح الرضي على الكافية . رضي الدين الاسترأبادي ، تحقيق : يوسف حسن عمر . مطبعة جامعة قاريونس ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- ٤٢- شرح المفصل للزمخشري . لابن يعيش ، تحقيق : د . إميل بديع يعقوب . دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان . ط ١ ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
- ٤٣- شرح شافية ابن الحاجب . رضي الدين الاسترأبادي ، تحقيق : محمد نور ، محمد الزفران ، محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- ٤٤- شرح كتاب سيبويه . أبو سعيد السيرافي ، تحقيق : أحمد حسن مهدي وعلي سيد علي . دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان . ط ١ . ٢٠٠٨ م .

- ٤٥- شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح . لابن مالك ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي . عالم الكتب - بيروت . ط ٣ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- ٤٦- الصاحبى في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها . لابن فارس ، تحقيق : السيد أحمد صقر . مطبعة عيسى البابى الحلبي بالقاهرة ، بلا تاريخ .
- ٤٧- الصوتيات والفونولوجيا . مصطفى حركات . الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، ط ١ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
- ٤٨- ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم . أحمد سليمان ياقوت . دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٩٤م .
- ٤٩- العربية والإعراب . عبد السلام المسدي . دار الكتاب الجديد المتحدة . ط ١ . ٢٠١٠م . بيروت - لبنان .
- ٥٠- العلاماتية (السيمولوجيا) قراءة في العلامة اللغوية العربية . منذر عياشي . مؤسسة اليمامة الصحفية بالرياض . ص ٢٠٠٩ .
- ٥١- علم الأصوات . كمال بشر . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة ، ٢٠٠٠ .
- ٥٢- علم الدلالة . أحمد مختار عمر . عالم الكتب - القاهرة . ط ٦ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
- ٥٣- علم اللغة النظامي مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي . محمود أحمد نخلة محمود أحمد نخلة . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٩ .
- ٥٤- الفروق اللغوية . أبو هلال العسكري ، تحقيق : محمد باسل عيون السود . دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان . ط ٢ ٢٠١٠ .
- ٥٥- فقه اللغة . علي عبد الواحد وافي . لجنة البيان العربي . القاهرة ، ط ٥ ٢٠٠٤م .
- ٥٦- فلسفة اللغة العربية وتطورها . جبر ضومط . طبع بمطبعة المقتطف بمصر ١٩٧٩م .
- ٥٧- في التحليل اللغوي - منهج وصفي تحليلي . خليل عمايرة . مكتبة المنار - الأردن - الزرقاء . ط ١ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- ٥٨- في سبيل تيسير العربية وتحديثها أمان لو تتحقق . فؤاد طرزي . مؤسسة نوفل ، بيروت - لبنان ١٩٧٣م .
- ٥٩- في اللغة وبعض مشكلاتها . أنيس فريحة . دار النهار للنشر ، بيروت - لبنان ط ١ ١٩٦٦م .
- ٦٠- في النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث : مهدي المخزومي . ط ٣ . ١٩٨٥م .
- ٦١- قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث . مازن الوعر . دار طلاس ، دمشق . ط ١ ١٩٨٨م .

- ٦٢- قضايا لسانية وحضارية . منذر عياشي . دار طلاس ، دمشق . ط ١ . ١٩٩١ م .
- ٦٣- قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث . نهاد موسى . عمان : دار الفكر ، ط ١ . ١٩٨٧ م .
- ٦٤- قُطوف من أزهير اللغة . كمال بشر . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة . ط ١ . ٢٠٠٦ م .
- ٦٥- الكامل في اللغة والأدب . المبرد ، تحقيق : الدكتور يحيى مراد . مؤسسة المختار للنشر والتوزيع . القاهرة ، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م .
- ٦٦- كتاب التعريفات . علي بن محمد الشريف الجرجاني . مكتبة لبنان - بيروت . طبعة ١٩٨٥ م .
- ٦٧- كتاب الحيوان . الجاحظ ، تحقيق : د. إيمان الشيخ محمد ، غريد الشيخ محمد . دار الكتاب العربي . بيروت-لبنان . ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م .
- ٦٨- كتاب القوافي . أبو الحسن الإربلي ، تحقيق عبد المحسن فراج القحطاني ، الشركة العربية للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م .
- ٦٩- كتاب المقتصد في شرح الإيضاح . عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : د. كاظم بحر المرجان . منشورات وزارة الثقافة والإعلام - الجمهورية العراقية . دار الرشيد للنشر - ١٩٨٢ م .
- ٧٠- اللباب في علل البناء والإعراب . أبو البقاء عبدالله بن الحسين العُكبري ، تحقيق : غازي طليمات . دار الفكر المعاصر - بيروت ، دار الفكر - دمشق ، ط ١ ١٤١٦هـ - ١٩٩٥هـ .
- ٧١- اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم . كمال بشر . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٩ م .
- ٧٢- اللغة العربية في العصر الحديث قيم الثبوت وقيم التحول . نهاد موسى . دار الشروق للنشر والتوزيع . عمان - الأردن . ط ١ ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م .
- ٧٣- اللغة العربية معناها ومبناها . تمام حسان . عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٥ ، ٢٠٠٥ م .
- ٧٤- اللغة العليا دراسة نقدية في لغة الشعر . أحمد محمد المعتوق . المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء - المغرب . ط ١ ٢٠٠٦ م .
- ٧٥- اللغة والتطور . عبد الرحمن أيوب . معهد البحوث والدراسات العربية ، مطبعة الكيلاني ، القاهرة ١٩٦٩ م .
- ٧٦- اللسان والإنسان مدخل إلى معرفة اللغة . حسن ظاظا . دار القلم - دمشق ، الدار الشامية - بيروت - ط ٢ - ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م .

- ٧٧- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي . طه عبد الرحمن . المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء - المغرب ، و بيروت - لبنان . ط ٢٠٠٨ م .
- ٧٨- اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة . حافظ إسماعيلي علوي . دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت - لبنان . ط ١٠٩٠٢٠٠٩ م .
- ٧٩- اللسانيات الوظيفية مدخل نظري . أحمد المتوكل . دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت - لبنان . ط ٢٠١٠ م .
- ٨٠- اللسانيات والدلالة . منذر عياشي . . ط ٢٠٠٧ م . حلب - سوريا .
- ٨١- مجموعة الفتاوى . لابن تيمية ، تحقيق : عامر الجزّار ، أنور الباز .. مكتبة العبيكان ، الرياض . ط ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
- ٨٢- مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه . محمد الأخضر الصبيحي . الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت - لبنان ، منشورات الاختلاف الجزائر العاصمة - الجزائر . ط ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .
- ٨٣- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث العلمي . رمضان عبد التواب . مكتبة الخانجي بالقاهرة . ط ٣ ١٤١٦-١٩٩٦م .
- ٨٤- المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك . عبد العزيز حمودة . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٩٩٨م .
- ٨٥- مستويات العربية المعاصرة في مصر . السعيد محمد بدوي . القاهرة : دار المعارف ١٩٧٣م .
- ٨٦- معجم المصطلحات اللغوية . رمزي منير البعلبكي . دار العلم للملايين - بيروت . ١٩٩٥م
- ٨٧- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب . ابن هشام الأنصاري . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الطلائع - القاهرة ٢٠٠٥م .
- ٨٨- المقدمة . لابن خلدون ، تحقيق : محمد أحمد تامر . مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة ، ط ١ . ٢٠٠٥م .
- ٨٩- من أسرار العربية . إبراهيم أنيس . الأنجلو المصرية ، ط ٨ ، ٢٠٠٣م .
- ٩٠- من زاوية فلسفية . زكي نجيب محمود . دار الشروق القاهرة ١٩٩٣م .
- ٩١- من معالم المنهجية الإسلامية للدراسات المستقبلية . هاني عبد الله الجبير (كتاب البيان ١٠٨) الكويت ١٤٢٩هـ .
- ٩٢- من وظائف الصوت اللغوي . أحمد كشك . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة - ٢٠٠٦م .

٩٣- موسوعة الفلسفة . عبد الرحمن بدوي . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . ط١ - بيروت ١٩٨٤م .

٩٤- النحو العربي والدرس الحديث . عبده الراجحي . دار النهضة العربية . بيروت-١٩٧٩م .

٩٥- النحو الوافي . عباس حسن . دار المعارف بمصر - القاهرة . ط٣ بلا تاريخ .

٩٦- نحو عربية ميسرة . . أنيس فريحة . طبعة دار الثقافة - بيروت بلا تاريخ .

٩٧- نحو وعي لغوي . مازن المبارك . ط٢ . مؤسسة الرسالة - بيروت ، ١٩٩٥م .

٩٨- نظرات في التراث اللغوي العربي . عبد القادر المهيري . ط١ . دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان . ١٩٩٣م .

٩٩- نظرية اللسانيات النسبية . محمد الأوراعي . الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت - لبنان، دار الأمان الرباط ، منشورات الاختلاف الجزائر العاصمة - العاصمة . ط١ - ٢٠١٠م .

١٠٠- نظرية اللغة الثالثة دراسة في قضية اللغة العربية الوسطى. أحمد محمد المعتوق. المركز الثقافي العربي . ط١ . ٢٠٠٥م . الدار البيضاء - المغرب .

١٠١- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع . جلال الدين أبو بكر السيوطي ، تحقيق : أحمد شمس الدين . دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان . ط١ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

## ثانياً : المصادر والمراجع المترجمة :

١- الاتجاهات الأساسية في علم اللغة . رومان جاكبسون . ترجمة : علي حاكم صالح ، حسن ناظم . المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء - المغرب ط٢ ٢٠١١م .

٢- اتجاهات البحث اللساني . ميلكا إفيتش ، ترجمة : د. سعد مصلوح و د. وفاء فايد . المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٠م .

٣- أسس السيميائية . دانيال تشاندلر ، ترجمة : د. طلال وهبة و د. ميشال زكرياً . المنظمة العربية للترجمة ، ط١ بيروت ، ٢٠٠٨ .

٤- أسس علم اللغة . ماريو باي ، ترجمة : أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ٢٠١٠م .

٥- الأسلوبية . جورج مولنيه ، ترجمة : بسام بركة . مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . ط٢ بيروت ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .

٦- أعلام الفكر اللغوي التقليد الغربي من سقراط إلى سوسير . روي هاريس وتولبت جي تيلر ، ترجمة : د. أحمد شاكر الكلابي . دار الكتاب الجديد المتحدة . ط١ ٢٠٠٤ .

٧- تاريخ علم اللغة الحديث . جرهارد هلبش ترجمة : سعيد حسن بحيري . مكتبة زهراء الشرق . ط١ ، القاهرة - ٢٠٠٣م .

- ٨- الحداثة الفلسفية نصوص مختارة . مجموعة مؤلفين ، ترجمة : محمد سبيلا ، عبد السلام بنعبد العالي . الشبكة العربية للأبحاث والنشر ط١ بيروت- ٢٠٠٩م .
- ٩- درس السيميولوجيا . رولان بارت ، ترجمة : عبد السلام بنعبد العالي . ص ١٢ . دار توبقال للنشر . ط٢ . ١٩٨٦ .
- ١٠- دور الكلمة في اللغة . ستيفن أولمان ، ترجمة : كمال بشر . ط١٢ . دار غريب - القاهرة .
- ١١- سيميائية اللغة . جوزف كورتيس . ترجمة : د. جمال حضري . ص ١٩-٢٠ . مجد للدراسات والنشر والتوزيع ط ١ - ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .
- ١٢- السيمياء والتأويل . روبرت شولز ، ترجمة : سعيد الغاني . ط ١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
- ١٣- السيميائية وفلسفة اللغة . إمبرتو إيكو ، ترجمة : د. أحمد الصمعي . ص ٤٦ ، ٤٧ بتصرف . المنظمة العربية للترجمة - بيروت - لبنان . ط١ ٢٠٠٥م .
- ١٤- صراع التأويلات . بول ريكور ، ترجمة : د. منذر عياش . دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط١ ، ٢٠٠٥ .
- ١٥- العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب . يوهان فك ، ترجمة د: عبد الحليم النجار . الدار المصرية السعودية . ٢٠٠٦م .
- ١٦- العلامة تحليل المفهوم وتاريخه . إمبرتو إيكو ، ترجمة : سعيد بنكراد . ص ٥٠ . كلمة ، والمركز الثقافي العربي ، ط ١ ، ٢٠٠٧ .
- ١٧- علم الإشارة السيميولوجيا . بيير جيرو ، ترجمة : د. منذر عياشي . طلاس ، دمشق ١٩٩٢
- ١٨- علم الدلالة . كلود جرمان ، عون لوبلون ، ترجمة : د. نور الهدى لوشن . منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي . ط١ ، ١٩٩٧ .
- ١٩- علم اللغة في القرن العشرين . جورج موان ، ترجمة د. نجيب غزاوي . ص ٥١ . مطابع مؤسسة الوحدة ، الجمهورية العربية السورية . وزارة التعليم العالي .
- ٢٠- فرديناند دي سوسير أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات . جوناثان كلر ، ترجمة : د. عز الدين إسماعيل . المكتبة الأكاديمية - القاهرة . ط١ ، ٢٠٠٠م .
- ٢١- القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان . أوزوالد ديكر وجامد ماري سشايفر ، ترجمة : منذر عياشي . مطبعة جامعة البحرين ٢٠٠٣ .
- ٢٢- ما هي السيميولوجيا . برنلر توسان ، ترجمة : محمد نظيف . ص ١٥ . ط٢ ، أفريقيا الشر- ٢٠٠٠م .
- ٢٣- مبادئ ألسنية عامة . أندريه مارتينييه ، ترجمة : ريمون رزق الله . ص ١٥٢ . دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت - لبنان . ط١ . ١٩٩٥م .
- ٢٤- المجلد في العربية النظامية . أندريه رومان ، ترجمة : حسن حمزة . المركز القومي للترجمة ، ص ١ ، ٢٠٠٧م .

- ٢٥- محاضرات في علم اللسان العام . فرديناند دي سوسير ، ترجمة : عبد القادر قنيني . أفريقيا الشرق ، ٢٠٠٨ .
- ٢٦- مدارس اللسانيات التسابق والتطور . جفري سامسون ، ترجمة : د. محمد زياد كبة . النشر والمطابع - جامعة الملك سعود ، الرياض - المملكة العربية السعودية ١٩٩٦ م .
- ٢٧- معجم اللسانيات . جورج موانان ، ترجمة : جمال الحضري . مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . ط ١ - بيروت ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢ م .
- ٢٨- المقاربة التداولية . فرانسواز أرمينكو ، ترجمة : د. سعيد علوش . مركز الإنماء القويم .
- ٢٩- من النص إلى الفعل أبحاث التأويل . بول ريكور ، ترجمة : محمد برادة - حسان بورقية . دار الأمان . الرباط. ط ١ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م .
- ٣٠- موجز تاريخ علم اللغة في الغرب . ر . هـ . روبنز ، ترجمة : أحمد عوض . عالم المعرفة - ١٩٩٧ م .
- ٣١- نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الأشياء بالكلام . جون أوستين . ترجمة عبد القادر قنيني . أفريقيا الشرق . ٢٠٠٨ م .
- ٣٢- نظرية تشومسكي اللغوية . جون ليونز ، ترجمة د. حلمي خليل . ط ١ ١٩٨٥ . دار المعرفة الجامعية الإسكندرية
- ٣٣- النظرية النحوية . جيفري بول ، ترجمة : مرتضى جواد باقر . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت ، ط ١ . ٢٠٠٩ م .
- ٣٤- هسهة اللغة . رولان بارت ، ترجمة د. منذر عياشي . مركز الإنماء الحضاري . دمشق ١٩٩٩ م .
- ٣٥- وظيفة الألسن و ديناميتها . أندريه مارتينه ، ترجمة : نادر سراج . المنظمة العربية للترجمة ، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية ط ١ بيروت-لبنان ٢٠٠٩ م .

## فهرس الموضوعات

## الفهرس

|    |                                                                   |
|----|-------------------------------------------------------------------|
| ١  | الملخص                                                            |
| ٣  | المقدمة                                                           |
| ١٠ | القسم الأول                                                       |
| ١١ | الفصل الأول : اللغة نظام من العلامات                              |
| ١٢ | مدخل :                                                            |
| ١٣ | أولاً : بين الرمز والعلامة :                                      |
| ١٤ | ثانياً : مفهوم الرمز :                                            |
| ١٦ | ثالثاً : مفهوم العلامة :                                          |
| ١٨ | رابعاً : العلامة بين الدلالة والقيمة : ( منظور شكلاني )           |
| ٢١ | خامساً : المنهج السيميائي :                                       |
| ٢٣ | سادساً : تسلسل التفكير العلاماتي :                                |
| ٢٥ | سابعاً : فلسفة العلامة عند بورس :                                 |
| ٢٧ | ثامناً : العلامة اللغوية عند دي سوسير :                           |
| ٣٢ | تاسعاً : التواصل ووظائف اللغة :                                   |
| ٣٤ | الفصل الثاني : أثر الحركة في تكوين العلامة العربية                |
| ٣٥ | أولاً - من الكلمة العلامة إلى الحركة العلامة                      |
| ٣٦ | ثانياً - العلامة بين كينونتين : إعرابية وبنائية                   |
| ٤٠ | ثالثاً - أصالة العلامة بين وظيفتين :                              |
| ٤١ | رابعاً - وظيفة العلامة في النسق الصرفي :                          |
| ٤٣ | خامساً : كمية الحركة :                                            |
| ٤٥ | سادساً : دور العلامة في النسق النحوي :                            |
| ٥١ | سابعاً : النظام والحركات في البنية والإعراب :                     |
| ٥٢ | ثامناً : علامات الإعراب من التمكن إلى الأداء :                    |
| ٥٩ | الفصل الثالث : الحركات في الواقع التداولي                         |
| ٦٠ | أولاً : مفهوم التداولية في اللغة :                                |
| ٦٢ | ثانياً : التلقي وأنواع الخطاب :                                   |
| ٦٣ | ثالثاً : الحركة في القرآن والحديث بين اللغة العليا ولغة التداول : |
| ٧٤ | رابعاً : مستوى اللغة الوسطى :                                     |
| ٧٧ | خامساً : مستوى العامية :                                          |
| ٧٩ | سادساً : الأفعال الكلامية :                                       |

|     |                                                                    |
|-----|--------------------------------------------------------------------|
| ٨٥  | القسم الثاني.....                                                  |
| ٨٦  | الفصل الأول : العلامة الإعرابية في وعي اللغويين العرب القدامى..... |
| ٨٧  | أولاً : مفهوم العلامة الإعرابية عند النحاة العرب : .....           |
| ٩٢  | ثانياً : المعاني الوظيفية لعلامات الإعراب عند النحاة الأوائل.....  |
| ٩٦  | أ) وظيفة الرفع : .....                                             |
| ١٠٠ | ب) وظيفة النصب : .....                                             |
| ١٠٢ | ج) وظيفة الجر : .....                                              |
| ١٠٤ | د) وظيفة الجزم : .....                                             |
| ١٠٦ | ثالثاً : المعاني الوظيفية لعلامات الإعراب عند المحدثين : .....     |
| ١٠٨ | الفصل الثاني : المستوى الصوتي للحركات.....                         |
| ١٠٩ | أولاً : مع الحركات في ذاتها : .....                                |
| ١١١ | ثانياً : نص الصورة وصورة النص : .....                              |
| ١١٢ | ثالثاً : ظواهر صوتية ناجمة عن التجاور الصوتي : .....               |
| ١١٢ | أ) المماثلة الصوتية : .....                                        |
| ١١٨ | ب) المخالفة الصوتية : .....                                        |
| ١٢٠ | رابعاً : دور الحركة التكويني والموسيقي في المقاطع الصوتية : .....  |
| ١٢٩ | خامساً : ظواهر صوتية ناجمة عن الوقف : .....                        |
| ١٣٤ | الفصل الثالث : أثر باقي العلامات في إنتاج الدلالة .....            |
| ١٣٥ | مدخل .....                                                         |
| ١٣٥ | أولاً : التنغيم : .....                                            |
| ١٣٧ | أثر التنغيم على مستوى التركيب : .....                              |
| ١٣٨ | أ) أثر التنغيم في التقرير والاستفهام : .....                       |
| ١٤١ | ب) التنغيم علامة على المحذوف:.....                                 |
| ١٤٤ | ج) الدلالة الصرفية / النحوية ودلالة التنغيم : .....                |
| ١٤٩ | أثر التنغيم على مستوى الدلالة : .....                              |
| ١٤٩ | ثانياً : النبر:.....                                               |
| ١٥٢ | نسبية الوظيفة في النبر : .....                                     |
| ١٥٨ | ثالثاً : التقديم والتأخير .....                                    |
| ١٦٢ | القسم الثالث.....                                                  |
| ١٦٣ | الفصل الأول : الوظائف النحوية في ضوء المناهج اللسانية الحديثة..... |
| ١٦٤ | مدخل .....                                                         |

|                                                                                                              |     |
|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----|
| أولاً : المنهج التاريخي والمقارن في القرن التاسع عشر .....                                                   | ١٦٥ |
| ثانياً : المنهج الوصفي البنيوي في القرن العشرين .....                                                        | ١٦٩ |
| ثالثاً : الاتجاهات اللسانية ما بعد البنية الوصفية .....                                                      | ١٧١ |
| أ. المدرسة البنيوية الوظيفية : .....                                                                         | ١٧١ |
| ١) الوظيفة عند رومان جاكسون : .....                                                                          | ١٧٢ |
| ٢) الوظيفة عند مارتينييه : .....                                                                             | ١٧٣ |
| ب. المدرسة البنيوية التوزيعية : .....                                                                        | ١٧٦ |
| رابعاً : الوظيفة عند المدرسة التوليدية التحويلية : .....                                                     | ١٧٧ |
| <b>الفصل الثاني : معطيات التجديد و واقع الاستعمال</b> .....                                                  | ١٨٣ |
| أولاً : علامات الإعراب في ضوء اللسانيات التاريخية والمقارنة : .....                                          | ١٨٤ |
| أ) رأي " إبراهيم مصطفى " في كتابه : " إحياء النحو " : .....                                                  | ١٨٤ |
| ب) مهدي المخزومي في كتابه : " في النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث " : .....                | ١٨٩ |
| ج) رمضان عبد التواب في كتابه : " التطور اللغوي " : .....                                                     | ١٩٢ |
| ثانياً : علامات الإعراب في ضوء المنهج الوصفي : .....                                                         | ١٩٤ |
| أ) تمام حسان في كتابه : " اللغة العربية معناها ومبناها " : .....                                             | ١٩٤ |
| ب) عبد الرحمن أيوب في كتابه " دراسات نقدية في النحو العربي " : .....                                         | ١٩٩ |
| ثالثاً : اللسانيات الوظيفية " أحمد المتوكل " نموذجاً في كتابه " اللسانيات الوظيفية " : .....                 | ٢٠٤ |
| <b>الفصل الثالث : العلاماتية في الدراسات العربية الحديثة</b> .....                                           | ٢١١ |
| مدخل : .....                                                                                                 | ٢١٢ |
| أولاً : ميشال زكريا في كتابه " الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة) " : ..... | ٢١٣ |
| ثانياً : مازن الوعر في كتابيه "قضايا أساسية في علم اللسانيات " و " نحو نظرية لسانية عربية " : .....          | ٢١٨ |
| ثالثاً : خليل عمايرة في كتابيه : "في التحليل اللغوي" و "في نحو اللغة وتراكيبها" : .....                      | ٢٢١ |
| رابعاً : العلاماتية في الدراسات العربية المستقبلية : .....                                                   | ٢٢٨ |
| خامساً : السيميائيات في المشهد الفكري المعاصر : .....                                                        | ٢٢٩ |
| <b>الخاتمة</b> .....                                                                                         | ٢٣٥ |
| <b>الفهارس</b> .....                                                                                         | ٢٤٠ |
| <b>فهرس المصادر والمراجع</b> .....                                                                           | ٢٤١ |
| <b>فهرس الموضوعات</b> .....                                                                                  | ٢٥٠ |

UNIVERSITY OF BAHRAIN

College of Arts



Department of Psychology

# **LIGUISTIC SIGN IN THE STRUCURE AND PARSING**

## **Semiotic Study**

**A Thesis Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the  
Master's Degree in Arabic Linguistic**

**Submitted by  
Norah Mubarak Saeed Al Khaldi**

**Supervised by  
Dr. Mohammed Monzer Ayachi  
University of Bahrain**

**KINGDOM OF BAHRAIN**

**May/ 2013**